مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

النظرية الثالثة

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ

الحق المطلق

نظرية قرآنية
في الـروح القرآني

تعرض لأول مرة في العالم

اقرأ

المهندس عدنـــان الرفـــاعي

المهندس عدنان الرفاعي

النظرية الثالثة (الحق المطلق)



.. عفوا أيها السادة ..

.. هذه النظريّة

.. للباحثين عن الحقيقة ..

.. أولي الألباب في كلّ جيل ..

المهندس عدنان الرفاعي

كاتب ومفكّر إسلامي

مواليد : سورية - درعا - تلشهاب .. عام : ١٩٦١ م ..

من المؤلّفات:

- "النظريّة الأولى (المعجزة)
- "النظريّة الثانية (القَدَر)
- "النظريّة الثالثة (الحق المطلق)
- "النظريّة الرابعة (الحكمة المطلقة)
- "النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر)
- "النظريّة السادسة (سلّم الخلاص)
- "الحق الذي لا يريدون
- "قصّة الوجود
- "المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء)
- "محطات في سبيل الحكمة
- "نقد نقد النظريّة الإعجازيّة في القرآن الكريم

المقدّمة

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٧]

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر : ٩]

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة : ١١]

.. العلمُ إدراكٌ لسبل النور ، واتّجاهٌ نحو نور الحقيقة المطلقة ، وابتعادٌ عن ظلمات الجهل وحماقةِ الهوى .. العلمُ حجّةُ الباحثين عن الحقيقة ، المدركين لحقيقةِ وجودِهم وامتحانهم في هذه الدنيا ، الصادقين مع الله تعالى ومع أنفسِهم ، المؤمنين بإحاطة حكمةِ الله تعالى المطلقة لكلِّ ما في الكون ..

ولا يتوقّفُ العلمُ على معرفةِ الجانب المادّي الظاهري للتجارب الحسيّة على ظواهر مادّةِ عالم الخلق ، إنّه استخلاصُ الحقائق المجرّدة التي تكمنُ وراء الحسِّ والتجربة في عالمِ الخلق المادّي ، ومحاولةُ إدراكِ ما نستطيعُ إدراكه من عمق روح البراهين والأحكام والمعاني والدلالات الكامنة في منهجِ الله تعالى الذي ينتمي لعالَم الأمر .. فالعلمُ الحقيقيُّ هو الوقوف على حقيقةِ الأمر ، مِمَّا يُؤدِّي بصاحبِه إلى خشيةِ الله تعالى ..

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ ﴾ [فاطر : ٢٨]

ولّما كانَ عالمُ الخلق المادّي (الذي يحوي المتناقضات) — كما نراه — ينتظمُ وفق نواميسَ تُحيطُ بها قدرة الله تعالى ، فإنَّ كُلَّ ما ينتمي إلى عالم الأمر أكبرُ دقّة وأكثرُ

منهجيّة .. من هنا فإنَّ البحثَ في القرآن الكريم الذي ينتمي إلى عالم الأمر والمتعلّق بصفاتِ الله تعالى ، يتطلّبُ منهجيّةً أكبر وأدقّ من منهجيّةِ البحث في مسائل عالم الخلق المادّي ... فكلُّ ما نُدركُه في القرآن الكريم من ملاحظة أو إشارة ، وما لم ندركه ، هو حكمةٌ إلهيّةٌ مقصودةٌ ، وليس مصادفة ، سواءٌ في رسمِ كلمات القرآن الكريم ، أم في صياغةِ عباراتِه ..

وأهمُّ ما يُميّزُ القرآن الكريم كونَه روحاً من أمرِ الله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ** ﴾ [الشورى : ٥٢] ، هو الكليّة التي لا تتجزّأ ، فجميعُ آياتِه وكلماته وحروفه متكاملةٌ متعاضدةٌ في وصفِ الأحكام والبراهين والمعاني التي تحملُها آياتُه الكريمة .. وأيُّ تصوّرٍ بوجودِ اختلافٍ وتصادمٍ بين الأحكام التي تحملُها آياتُ القرآن الكريم ، هو نتيجةُ جعْلِ تصوّرات البشر المُكتسَبة من عالم المتناقضات (عالم الخلق) ، حُجّةً ومعياراً ومنظاراً وإطاراً يُحيطُ بما ينتمي لعالم الأمر الذي هو فوق التناقض والاختلاف ..

إنَّ فلسفةَ أيِّ بحثٍ في مسائلِ عالم الأمر يُفْصَلُ فيها العلمُ عن القرآنِ الكريم ، هي فلسفةٌ عقيمة .. فالعلمُ هو المنهجُ الذي يدفعُ – بالاتّجاه السليم – المقدّمات السليمة في أيِّ بحثٍ صادقٍ هادف ، والقرآنُ الكريمُ هو الضابط للنتيجة التي يُقرُّها الوجدان والفطرة السليمة .. فالحقيقةُ هي هدفُ البحث العلمي المنهجي ونتيجتُه ، والقرآنُ الكريمُ هو معيارُ هذه الحقيقة .. وهكذا .. فالبرهانُ العلميُّ نورُ الحقيقة ، والقرآنُ الكريمُ نورُ البرهان ..

فالفلسفةُ الحقُّ الهادفةُ للخير في أيِّ بحثٍ هي التي تنطلق من العلم ، وبمركب العلم ، وبهدف الحقيقة العلميّة ، لتصل إلى نتيجةٍ مُبرهنةٍ علميّاً .. وبالتالي هي التي تسمو بالحقيقة العلميّة ، وتعطي البراهين الثابتة ، فَتُطَوِّر العلوم وتتطوَّر بها .. إنَّ أيَّ نتيجة فلسفيّة لأيِّ بحثٍ تُعارض الفطرةَ السليمة وجوهر العقل المُجرّد ، هي نتيجةٌ اختلّت فيها المقدِّمات ، أو الرابط الذي يصلُ المقدِّمات بالنتائج ..

والذين يزعمون أنَّ تفعيلَ العقل المُجرَّد في فهم مُراد النصِّ القرآني فهماً سليماً محمولاً بثوابت العلم والمنطق سيؤدّي إلى التفرقة والابتعاد عن مُراد النص .. زعمُهُم باطل .. فمرادُ النصِّ عندهم هو فهم بعضِ السابقين وقولهم ، حيث جعلوا هذا الفهم نصّاً بديلاً عن النصّ القرآني .. إنَّ العقلَ السليم لا يكونُ إلاَّ مُجرّداً عن كلِّ الأهواءِ ، وهو القاسم المُشتَرك بين جميع البشر ، وهو القيمة التي يتميّزُ بها الإنسان عن الحيوان ، وهو القيمة الروحيّة التي بها كُلِّفَ الإنسان .. فتعقّلُ معاني كلامِ الله تعالى ودلالاتِه ليس أقلَّ أهميّة من وعيها وسماعها ..

﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠]

فمن يُحاربُ العقلَ بحجّةِ الخوف من مخالفةِ مُراد النصِّ القرآني ، إنّما يُخالفُ — بذلك — مُرادَ النصِّ القرآني الذي يأمرُ بتعقّلِ آياتِ كتابِ الله تعالى .. فتبيين الله تعالى آياته وتفصيلها للناس هو من أجل تعقّلها ..

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٢]

﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠]

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٨]

وهذا لا يعني أنّنا نُبالغ في تقديس العقل إلى الدرجةِ التي نعدّه بها مصدر الاعتقاد والتشريع في مسائل الدين ، أو أنّنا نُطْلِقُ العقل دون قيدٍ أو شرط ، ليخرجَ — في النهاية — عمّا يحملُه النص ، كما يزعم عابدو أصنام التاريخ أعداءُ العقل .. أبداً .. إنَّ ما نعنيه أنَّ العقل هو الوسيلة السليمة لفهم مُراد النصِّ القرآني ، عبر منهج البحث العلمي الذي يُحدِّده النصّ القرآني ، وأن يُدْرِك من يتعصّب لمسألة يُقرّها ويدافعُ عنها بُرهانَ حقيقة ما يتعصّب له ، وأن يُقارن بعقله المُجرّد بين هذا البرهان من جهة وبين البراهين التي تُناقضُ ما يتعصّب له ، وأن يكون منهج العقل المُجرّد والبحث العلمي السليم هو المركب الذي

يُبحر به على طريق الحقيقة .. فمن لا يسلك هذا السبيل جاهلٌ أحمق يسيءُ إلى الحقيقة وإلى ما يعتقد أنّه يُدافع عنه ..

ومن يخرجُ يميناً أو شمالاً عن هذا الصراط المحمول بثنائية العقل والقرآن ، يبتعدُ بنفسه نحو دياجير الظلام .. فمن يجحد الحدَّ الأوَّل من هذه الثنائيّة ، يسيرُ في طريق أعداءِ العلم والعقل والمنطق الذين يتخيّلون النصَّ القرآنيَّ محدوداً بتصوّراتِهم وتصوّرات بعض السابقين الذين تمَّ تحويلُهم إلى أصنام تَحُول بينهم وبين رؤية حقيقة دلالات كتاب الله تعالى .. ومن يجحد الحدَّ الثاني من هذه الثنائيّة ، إمّا عبر الجحود بالنصِّ القرآني ، أو عبر الإيمان بنصوص التاريخ – المنسوبة للرسول ﷺ وغيرها – كنصوصٍ موازيةٍ له ، إنّما يسيرُ في طريقِ السفسطة والجدل للوصول إلى نتائجَ نُسجت على منوال أهوائه وأهواء أصنامه التاريخيّة .. وقد حذّر الله تعالى من رفعِ أيِّ نصٍّ غير نصوص القرآن الكريم إلى درجة الإيمان التي نؤمن بها بنصوص كتابِ الله تعالى (القرآن الكريم) ، واصفاً من يفل ذلك بالأفّاك الأثيم ..

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية : ٦ – ١٠]

فمن يجنح عن سبيل المنهج العلمي العقلي المُحاط بإطار النصِّ القرآني كضابط ودليل ، إنّما يجعلُ من فكرِه ومذهبه ميزاناً للحقيقة ، وبالتالي يكفر بالحقيقة التي يحملُها النصُّ القرآني ، لأنَّه يتوهّم – سواءٌ علم بذلك أم لم يعلم – أنَّ هناك تصادماً بين كتابِ الله تعالى المقروء (القرآن الكريم) وبين كتابه المنشور (الكون) ، ويتوهّمُ أنَّ هناك اختلافاً

حتى بين دلالاتِ كتابِ الله تعالى ، كما حصل في زعمِ مسألة الناسخ والمنسوخ ، كما سنرى إن شاء الله تعالى في هذه النظريّة ..

إنَّ أيَّ تصادمٍ يمكننا توهّمه بين القرآن الكريم وقوانين الكون ، أو بين أحكام القرآن الكريم ، هو نتيجةُ عدمِ فهم الحقيقة العلميّة لقوانين الكون ، أو نتيجة عدم إدراك مُراد النصّ القرآني .. فالتصادم – المُتوهَّم – هو خطأٌ في المعرفة الإنسانيّة ، إمّا في فهم النصِّ القرآني ، وإمّا في تفسير الظواهر الكونيّة في عالم الخلق .. فالقرآنُ الكريمُ روحٌ من أمر الله تعالى ، والكونُ مخلوقٌ لله تعالى ، وكلاهما يعودان لله تعالى ..

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]

وفي هذه النظريّة سنبحر – إن شاء الله تعالى – في عمق النور الذي تحملُهُ كلماتُ الله تعالى ، لنرى كيف أنَّ المنهجيّة والانتظام والدقّة في كتاب الله تعالى هي حقائق مطلقة ، ولنرى كيف أنَّ علمَ أحكامِ كتابِ الله تعالى لا يكونُ إلاّ بالبحث العلمي المبني على ثوابت الصياغة اللغويّة للنصِّ القرآني ، والمجرَّد عن كلّ تقليدٍ وتعصّب ..

وكنت أتمنّى لو أنَّ الحقائق التي خرجتُ بها من بحثي في هذه النظريّة ، كانت رؤيةَ أُمّة وقرارَ أُمّة ، لا رؤيةَ فرد وقرار فرد .. فإنكار مسألةِ الناسخ والمنسوخ التي أجمع عليها الكثيرون ، والجزم بأنَّ فهمَ مدلول أيِّ كلمة قرآنيّة إنّما يكون داخل إطار المعنى الذي يحملُه جذرُها اللغوي ، والجزم بأنَّ لغةَ القرآن الكريم فطريّة موحاة من الله تعالى علّمها لآدم عليه السلام في السماء قبل أن يهبط بها إلى الأرض ، والجزم بأنَّ اقتران الكلمات القرآنيّة مع بعضها هو انعكاسٌ لاقتران المسائل التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمات ، وَ .... وكلّ ما تحملُه هذه النظريّة .. كنت أتمنى لو كان الجزم بذلك قرار أمّة – ومنذ قرون – لا قرار أفراد ..

ولكن .. أليس قرار الأمّة يكون حكيماً حينما يكون نتيجةً للحجّة التي يُقرّها القرآن الكريم ؟ .. ومتى كانت قرارات الأمم وإجماعها على مسألةٍ ما دون أبحاثٍ تسبقها يقومُ

بها أفراد ، ودون أدلّة وبراهين تُستنبطُ بجهدٍ فرديٍّ ، وبعد ذلك تضع الأمّةُ هذه الأبحاث في ميزان العقل والمنطق ؟ ..

أليس من المنطق أن يكون الإجماع إجماعاً على الحجج والبراهين المحمولة بالعقل المجرّد في تفعيله لدلالات كتاب الله تعالى ؟ ، وألاّ يكون إجماعاً على التقليد الأعمى المحمول بحوامل تاريخيّة مبنيّة على الظن والقال والقيل ؟ .. وهل الأكثريّة التي أجمعت في الماضي على مسألةٍ ما ، هل من الممكن أن تبقى مجمعةً على ما أجمعت عليه فيما لو نهضت من قبورها ورأت الحجج والبراهين التي لم ترها في الماضي ؟ !!! .. وهل ينقاد العلماء الحقيقيّون إلاّ من عقولِهم ؟ .. وهل لهذه العقول – حينما تكون سليمة – إلاّ أن تسمو عن المتناقضات التي لا تنتمي أصلاً إلى العالَم الذي ينتمي إليه العقل (عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان) ؟ ..

من هنا أستطيع أن أقول : إنَّ هذه النظريّة بكلِّ ما تحمله من حقائق وبراهين وأدلّة هي – في ميزان العقل والمنطق والقرآن – رؤيةُ أمّةِ أصحاب العقول السليمة وقرارُها .. فكلُّ من يملك عقلاً مجرَّداً عن التعلّق بأصنام التاريخ سيرى هذه النظريّة رؤيتَه ومنظارَه إلى كتاب الله تعالى .. فالإيمان والعلم والعقل ، هي أوجهٌ لحقيقة واحدة يحملُها القرآن الكريم .. إنَّ أمرَ الله تعالى هو عدمُ اتّباع ما لم يقفْ على حقيقته السمعُ والبصرُ والفؤاد ..

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦]

.. فالنتائج البعيدة عن العقل والوجدان والفطرة السليمة ، هي نتائج ليست سليمة ، وستؤدّي في النهاية إلى سقوط الفكر المرتكز عليها ..

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧]

إنَّ التكلّف والتنطّع في عرضِ أيِّ مسألة من مسائل الفكر الإسلامي ، يكون بوضـــعِ مقدِّمات لها من خارج الدلالات الحق التي يحملها القرآن الكريم ، للوصول إلى نتـــائجَ لا يُقرُّها كتابُ الله تعالى .. فالتقوقعُ الفكريّ ضمن إطارٍ مُصطنعٍ بعيدٍ عن منهج البحـــث العلمي السليم المحمول بثنائية القرآن والعقل ، هو وادٍ يحجز سجينَه عن شمس الحقيقة التي يملأ نورُها أرجاءَ الكون ، ويحجزه عن سماع الحقائق ، فلا يسمع – في سجنه هذا – إلاّ صدى صوتِه وصوتِ أصنامه التاريخيّة ، التي تصطدم بجدران ذلك الوادي الـــذي ســـجن نفسَه فيه ..

والطامّةُ الكبرى تكون حينما يعتقد – هذا الذي ســـجن نفسَـــه في وادي التعصّـــب والتمذهب الفكري المتقوقع – أنَّه يملك الحقيقة الكاملة ، وأنَّ غيره بعيدٌ عـــن الحقيقـــة مسافةَ بعده الفكري عن مذهبه ، لدرجةٍ لا يستجيب فيها حتى للبرهان القرآني مهما قُدِّم فيه من الحجج والبراهين ، فيلوي معاني النصوص القرآنيّة ودلالاتها ليترلها إلى وادي سجنه الذي سجن نفسه فيه .. وهو بذلك لا يختلف عن اليهود والنصارى حينما زعـــم كـــلٌّ منهما أنَّ الآخر ليس على شيء ، وبالتالي هو بذلك من الجاهلين الذين يصفهم الله تعالى بأنّهم لا يعلمون ..

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة : ١١٣]

هذه هي أكبر المشاكل الفكريّة التي تُثقل كاهل الحقيقة في هذا العالم ، وهذه هـــي ينابيعُ التطرّف والاقتتال والتكفير التي يستمدُّ منها الظلاميّون مـــا يـــروون بـــه عطـــشَ جحودَهم وعصبيّاتهم النتنة .. حينما يُسجَن العقل والمنطق والفطـــرة الســـليمة في وادٍ لا يُوجَد فيه إلاّ صدى التكلّف والتنطّع ، وحينما تُؤطّر المعاني والدلالات التي يحملُها كتابُ

الله تعالى بجدران ذلك الوادي ، عندها ستكونُ التفرقةُ والتعصّبُ والحماقةُ والتقوقعُ داخل إطار الجهل مآلَ السائرين بذلك الطريق ، وعندها لا نرى إلاَّ تكلُّفاً واختلافاً وعصبيّاتٍ مقيتة .. كلٌّ في واديه ، لا يسمع الآخر ، ولا يلتقي معه ، ولا يحملُ له إلاَّ السوء ، وبالتالي وضعُ تلك العصبيّات شريكاً لمنهج الله تعالى ..

﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣١ – ٣٢]

أنا لا أزعم أنّني الوحيد الذي يملك الحجّة والبرهان فيما أُقدّم من حقائق ، ولا أزعم أنّني أوجدتُ حقيقةً من العدم ، فالذي أقولُه إنَّ هذه النظريّة أزاحت الستار عن حقائق موجود أصلاً في كتاب الله تعالى ، وألقت الضوء عليها مبدِّدةً ما تراكم عليها – خلال التاريخ – من سحب الدخان الداكن وغبار العصبيات .. فهذه النظريّة هي لبنةٌ في بناء الحقيقة التي يحملها القرآن الكريم .. وهذا الكتاب هو برهانٌ لهذه النظريّة ..

نصّ النظريّة :

۞ القرآن الكريم ينتمي لعالَم الأمر ، ويتعلّق بصفات الله تعالى ، وهو كلام الله تعالى وقوله ، قاله بحرفيّته هذه التي نسمعها ، وذلك في عالم الأمر فوق عالم المادّة والمكان والزمان ، ولفظنا له بحروفٍ مخلوقة ، هو انعكاسٌ في هذا العالم المادّي المخلوق لما قاله الله تعالى ..

۞ المفردات القرآنيّة (حصراً دون باقي مفردات اللغة العربيّة) فطريّة موحاة من الله تعالى ، علَّمها لآدم عليه السلام قبل هبوطه إلى الأرض ، وليست وضعيّة اصطلاحيّة من صنع البشر كباقي اللغات الأخرى ..

۞ الكلمة القرآنيّة تحمل من المعاني والدلالات ما يدور في إطار المعاني والـدلالات التي يحملُها جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه .. ولا تُوجد كلمة قرآنيّة رديفة لأخرى بالمعنى الذي يتصوّره بعض البشر ..

۞ اقتران الكلمات القرآنيّة مع بعضها في النصّ القرآني ، هـو انعكـاسٌ مطلـق لارتباط المسائل التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمات ..

۞ في القرآن الكريم لا يُوجد حرفٌ يزيد أو ينقص – رسماً أو لفظاً – عن المعـنى المطلق الذي يرده الله تعالى ..

۞ الأحكام القرآنيّة متكاملة متعاضدة في وصف المسائل وتصويرها ، ولا اختلاف ولا تصادم بينها ، والقرآنُ الكريم كلٌّ لا يتجزأ ..

۞ لا تخصيص لأيِّ نصٍّ قرآني مطلق ، ولا إطلاق لأيِّ نصٍّ قرآني مُخصَّص ..

۞ كُلُّ تفسيرٍ (لأيِّ نصٍّ قرآنيٍّ) يتعارض مع ظاهر الصياغة اللغويّة للنصّ القرآني ، أو تُفرض فيها الروايات (مهما كانت) على دلالات النصّ القرآنيّ ، وتُقدَّم فيـه نصوصاً موازيةً للنصِّ القرآني ، هو تحريفٌ للكلم عن مواضعه ..

۞ لا ناسخ ولا منسوخ في القرآن الكريم ، فكتابُ الله تعـالى فـوق الحـدوث والاختلاف والتصادم بين أحكامه ..

.. عندما يتّجه الإنسان باتّجاه الحقيقة ، ويجاهد في سبيل الله تعالى لإظهار هذه الحقيقة ، يهديـه الله تعـالى إليهـا .. ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، حين ذلك لا يهمّه جهل الجهلاء ، ولا حماقة الحمقى ، ولا غوغاء المهرّجين ، وما يعنيه هو رضا الله تعالى ، وقبوله ، ووصـول الحقيقـة إلى الباحثين عنها ، أصحاب العقول السليمة ، أولي الألباب في كلِّ جيل ..

وفي النهاية أقول لمن يخالفني الرأي ويتعصّب لرأيه ، هل تخالفني الرأي نتيجة امتلاكك البرهان القرآني على نقيض ما أقول ؟ .. أم أنَّك تخالفني الرأي لأنّني أقول ما لم يقله بعض السابقين الذين تحسبهم حجّة حتى على كتاب الله تعالى ؟ .. فالفارق بين الموقفين كبير .. وهو ذاته الفارق بين الحق والبرهان من جهة ، وبين الباطل والتقليد الأعمى مـــن جهـــةٍ أخرى ..

وتفضّلوا الآن إلى برهان هذه النظريّة ..

المهندس عدنان الرفاعي

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الكلام والقول

.. في البداية لا بدّ من الوقوف عند مفهومي الكلام والقول ، ولا بد من تعريفهما تعريفاً سليماً ، مُطابقاً لما يحملُه القرآنُ الكريم من معانٍ ودلالات بالنسبة لهاتين المسألتين ... إذاً لنعد إلى القرآن الكريم ونقرأ النصوص القرآنيّة المحيطة بمشتقّات الجذرين : [(ك ، ل ، م) ، (ق ، و ، ل)] قراءةً عميقة ، محاولين – قدر استطاعتنا – رسم الإطار الخاصّ لكلٍّ من هاتين المسألتين ..

.. الكلمةُ تدورُ دلالاتُها في إطارٍ واسعٍ من المعنى ، يشملُ المعنى الكائنَ في الذاتِ المتكلِّمة .. يقولُ تعالى :

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ [الكهف : ١٠٩]

.. فالعبارة القرآنيّة **﴿ كَلِمَٰتُ رَبِّي ﴾** ، تعني المعاني والدلالات الكائنة في عِلْمِ الله تعالى ..

والكلمة المرتبطة بمسألةٍ ما ، تعني – أيضاً – رغبة الذات في إيجاد هذه المسألة ..

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ ﴾ [النساء : ١٧١]

.. فالكلمة هي ماهيّة المسألة وصورها التي تريد الذاتُ إيجادَها ..

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ [آل عمران : ٤٥]

.. إذاً .. الكلمة ترتبط بمعنىً تُريده الذات المتكلّمة ..

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٩]

.. ولمّا كانت الكلمةُ متعلّقةً بمعنىً تُريدُهُ الذات ، فإنَّ التعبيرَ بالرمْزِ – عند البشر – سبيلٌ للتعبير عن الكلام ، أي عن المعنى الكائن في الذاتِ المتكلِّمة ..

﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران : ٤١]

.. وتُعبِّرُ الذات عن الكلمة (المعنى الكائن في الذات) من خلالِ صياغتها بقالب لغويٍّ يفهمه السامع ..

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف : ٥]

إذاً .. القول هو صياغةُ الكلمةِ (المعنى الكائن في الذات) ، داخل الذات ، عَبْرَ لغةٍ محدّدة ، وبقالبٍ لغويٍّ ..

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣١]

.. فالعبارةُ القرآنيّةُ ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ تعني : لو نشاءُ لصغنا قولاً مثـــل هذا القول ..

.. والقولُ قد يبقى داخلَ الذات ..

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة : ٨]

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طـه : ١٢٠]

.. وقد يخرجُ القولُ خارجَ الذات ..

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٠]

.. إذاً .. القولُ مسألةٌ مجرّدةٌ عن خروجِهِ من النفس وعن بقائِهِ داخلَ النفس ..

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠]

﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك : ١٣]

.. وقد يصوغُ الإنسانُ قولاً ويُخرِجُهُ من فمه ، في الوقت الذي يضمرُ في قلبه نقيضَ ما صاغَه ..... فالقول – بالنسبة للبشر – قد يُخالف مُعتقَد القائل ، وقد يوافقه .. وفي الآيات التالية لأكبر دليلٍ على ذلك ..

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٨]

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٧]

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١]

.. وفي النصِّ التالي يتجلّى مفهوما الكلام والقول ..

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ – ١٠٠]

نرى أنَّ العبارةَ القرآنيّة ﴿ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ تعني : كلاّ إنّها دلالةٌ ومعانٍ يُريدُها القائلُ ﴿ كَلِمَةٌ ﴾ ، هو صائغُها وناطقٌ بها ﴿ قَآئِلُهَا ﴾ ..

.. واللفظ هو إخراج القول من داخل النفس إلى الخارج ..

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨]

هذه الصورة القرآنيّة تُبيّنُ أنَّ اللفظ هو الوسيلة لإخراج القول الكائن في الذات إلى الخارج ... وأكبر دليلٍ على انفصال مفهوم القول عن مفهوم اللفظ هو ما نقوله ونسمعه في منامنا ، حيث نسمع ونقول قولاً في عالم بعيدٍ عن وسط المادّة والذبذبات الصوتيّة ، وعن قوانين المكان والزمان ، ومردُّ ذلك أنَّ القول يرتبط بالنفس التي تنتمي لعالم ما فوق المكان والزمان .. ولذلك عندما نستيقظ وتعود أنفسنا إلى هذا الجسد المادّي ونريد أن نحكي ما قلناه وسمعناه في منامنا ، فإنّنا نُخرج هذا القول (نلفظه) عبر ألسنتنا وعبر ذبذبات صوتيّة ماديّة في وسط مادي .. فكلٌّ هذه الظواهر الحادثة لقولنا في اليقظة ، لا تعود إلى ماهيّة القول ، إنّما تعود إلى ماهية العالم المادّي الذي نلفظ فيه قولنا ..

إذاً .. الكلامُ : هو الدلالةُ والمعنى الكائنُ في الذاتِ المتكلّمة .. والقَوْلُ : هو صياغةُ هذا الكلامِ بقالبٍ لُغويٍّ عبر لغةٍ محدَّدة .. واللفظ هو إخراج القول من داخل النفس إلى خارجها ..... فكلٌّ كلمةٍ مقولةٍ ، تكون قد مرّت بمرحلتي الكلام والقول ، وَوَصْفُها في كتابِ اللهِ تعالى ككلمة ، هو وصفها كمعنى ، ووصفها كقول ، هو وصفها كصياغةٍ بقالبٍ لغوي ..

.. وهكذا نرى أنَّ للكلمة المقولة والملفوظة ثلاثة أعماق :

١ – عمق المعنى الكائن في الذات (الكلمة)

٢ – عمق الصياغة اللغويّة للمعنى الكائن في الذات (القول)

٣ – عمق إخراج القول من داخل النفس إلى خارجها (اللفظ)

.. إنَّ العمق الأوّل (المعنى الكائن في الذات) وهو عمق الكلمة ، يتعلّق بماهيّة هذه الذات ووعيها وإدراكِها بالنسبة للمسائل المتعلّقة بهذا المعنى .. ولذلك فجميع الـذوات الحادثة المخلوقة يكون المعنى الكائن فيها بالنسبة لأيِّ مسألة معنىً حادثاً ، ويتبدّل تبعـاً لإدراك الذات وتغيّر درجات علمها مع الزمن ..

والعمق الثاني (القول) يتعلّق بصفات الذات وقدرتِها على صياغة المعنى الكائن فيها في قالبٍ لغوي .. فكلَّما ارتقت صفات الذات في قدرة تعبيرها ، يكون قولها أقربَ إلى المعنى الكائن في ذاتها ..

والعمق الثالث (اللفظ) يتعلّق بكيفيّة إخراج الذات للقول الكائن فيها إلى الخارج ، وبالوسط الذي ينتشر فيه هذا القول ..

وهكذا نرى أنَّ كلَّ قولٍ هو كلامٌ مصوغٌ بقالبٍ لغوي ، وأنَّه ليس كلُّ كلامٍ يصاغ بقالبٍ لغوي ، فمن الممكن التعبير عن الكلام بالإشارة والرمز دون الصـياغة اللغويـة والنطقِ بها ..

وفي عالمنا – نحن البشر – نرى أنَّ المعنى الواحد (عمق الكلمة) يمكـن صـياغته والتعبير عنه عبر عدّة قوالب لغويّة ، كاللغات (العربيّة ، الفرنسيّة ، الفارسيّة ، .... إلخ) ، فعمق الكلمة يأخذ أشكالاً متنوعة في عمق القول ..

لقد مُنع الأخرس من اللفظ لعدم قدرته على النطق ، على الرغم من وجـود معـانٍ كائنةٍ في ذاتِه يُعبِّرُ عنها بحركاتٍ بديلةٍ عن النطق ، ولو كان لا يحمل معاني (كلمات) في ذاتِه لَمَا قامَ بحركاتٍ تُعبِّرُ عن هذه المعاني .. إنَّه ينضحُ العبارةَ الكلاميّة المرتبطة بمعنىً كائنٍ في ذاتِه عبر حركات بديلة عن اللغة والنطق ..

والأخرس الذي لا يسمع ، والذي يملك العمق الأوَّل للكلام (عمق المعنى) ، إنّمـا مُنع عن الكلام وعن فهم ما يُقال لعدمِ قدرته على التفاعل مع العمقين الثاني والثالث (

القول واللفظ) .. فعدمُ سماعه يحول بينه وبين إدراكه لعمق الصياغة اللغويّة المعروف في مجتمعه ، وعدم قدرته على النّطق يحول بينه وبين إخراج ما بداخله ..

وقد يقول الإنسان كلماتٍ تغاير المعنى (عمق الكلمة) الذي يعتقده في قلبه ، بهدف النفاق وخداع المستمع ، فهو بذلك يصوغُ المعاني التي يريدُ بها خداع المستمع ..

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح : ١١ – ١٢]

.. ولكلِّ مخلوقٍ في كلِّ عالمٍ – من عوالم المخلوقات – قالبه التعبيري الخاصّ به ، فالحيوانات تُصدرُ أصواتاً تُعبِّرُ من خلالها عن أشياء لا ندركها نحن البشر ، كما أنَّها هي لا تُدرك تعابيرنا اللغويّة .. وحتى البشر أنفسهم لا يُدركون لغات بعضهم بعضاً (القوالب اللغويّة للمعاني الكائنة بذاتهم) إلاّ بعد تعلّمها ..

ولذلك عندما علَّمَ الله تعالى سليمان عليه السلام منطق الطير ، إنّما أطلعه على القوالب اللغويّة التي تصوغُ من خلالها هذه المخلوقات المعاني الكائنة في ذواتها ..

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ

ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : ١٦ – ٢٢]

.. والسماوات والأرض ككائنات جامدة ، لها أعماقها الخاصّة بها ، بالنسبة لمسألة القول ..

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١]

وخلاصة الأمر أنَّه يجب التمييز بين أعماق الكلمة المقالة الملفوظة (عمق الكلمة والمعنى – عمق القول والصياغة اللغويّة – عمق اللفظ والنطق) ، وأنْ نعلم أنَّ القول مسألةٌ مستقلّةٌ عن مسألة اللفظ ، وذلك خلافاً لما ذهب إليه بعضهم حين ربطوا القول باللفظ بأنَّ القول هو اللفظ .. ممّا قادهم إلى نتائج غير سليمة ، لأنّهم – بناءً على عدم تمييزهم بين القول واللفظ – أسقطوا مسألة اللفظ التي ساحةُ تفاعلها وتأثيرها خارج الذات ، على مسألة القول المرتبطة بصفات الذات ..

.. وعلى الرُّغمِ من أنَّ المعنى المُجرَّدَ للقوْلِ واحدٌ ، سواءٌ تعلَّقَ ذلك باللهِ سبحانَه وتعالى أم بالمخلوقات .. على الرُّغمِ من ذلك .. علينا أنْ نُدركَ الفارقَ بينَ قَوْلِ الله تعالى من جهة ، وبينَ قَوْلِ المخلوقات من جهةٍ أُخرى ، ذلك الفارق الذي يعود إلى الفارق بين الله تعالى وبين المخلوقات ، ولا يعودُ إلى القوْلِ كمعنىً مُجرّدٍ ..

.. فالله سبحانه وتعالى يعلمُ علماً مُطلقاً حقيقةَ المعاني الكائنة في ذوات المخلوقات .. وعِلْمُهُ جلَّ وعلا أكبرُ من عِلْمِ تلك المخلوقات بالمعاني الكائنة في ذواتِها ، وقدرتُهُ سبحانه وتعالى على صياغةِ هذه المعاني الكائنةِ في ذوات المخلوقات بقالبٍ لغوي ، هي قدرةٌ مُطلقةٌ ، أكبرُ من قدرة المخلوقات على صياغةِ المعاني الكائنةِ في ذواتِها ..

.. من هُنا .. فقولُ الله تعالى قَوْلٌ مُطلقٌ يُصوِّرُ تصويراً مُطلقاً حقيقةَ المعاني والدلالات المحمولةِ في قَوْلِه جلَّ وعلا ، سواءٌ كانَ قَوْلُ الله تعالى صياغةً لمعانٍ يُريدُ جلّ وعلا نقلَها مباشرةً إلى المخلوقات ، أم كان قوْلُ الله تعالى تصويراً لأحداثٍ وقَصَصٍ وقعت مع المخلوقات ..

.. ولتقريب هذه الحقيقة إلى أذهاننا .. لنتصوّر أنَّ شاعراً قال قصيدة .. هذه القصيدةُ هي صياغةٌ لُغويّةٌ بلغةٍ ما ، للمعاني الكائنةِ في ذاتِ الشاعر .. ولو نطقَ إنسانٌ آخر بهذه القصيدة بحرفيّتِها اللغويّةِ التي صيغَتْ بها ، لكان قد نقلَ نقلاً حرفيّاً الصياغةَ اللغويّةَ التي صاغَها الشاعرُ للمعاني الكائنةِ في ذاتِه ، أيْ لكان قد قالَ قَوْلَ الشاعر بحرفيّته ، بغضِّ النظر عن حدودِ إدراكِه للمعاني الكائنة في ذاتِ الشاعر ..

.. ولو لم ينطقْ هذا الإنسانُ هذه القصيدةَ بالحرفيّةِ ذاتِها التي نطقها الشاعرُ ، إنّما نطقَها بالمعنى الذي أدركَه من هذه القصيدة ، لكان قد صاغ صياغةً لُغويّةً ما أدركه هو من معاني تلك القصيدة ، فقولُهُ في هذه الحالةِ لا يُطابقُ قولَ الشاعر ، وبالتالي فقولُهُ — في هذه الحالة — ليس قوْلَ قَوْلِ الشاعر ذاتِه ، إنّما هو قَوْلُ المعاني التي أدركَها من قَوْلِ الشاعر .. وقوْلُهُ — في هذه الحالة — كتعبيرٍ عن تلك القصيدة ، أدنى من قَوْلِ الشاعر ، لأنَّ الشاعرَ أعلمُ من غيرِه من المخلوقات بما في داخله من معانٍ صاغَها بتلك القصيدة ..

.. وربّما تكونُ هذه القصيدةُ مُصاغة في لُغةٍ أُخرى ، ونريدُ نقلَها إلى لغتِنا ، حين ذلك نكون قد صغنا قولاً في لغتنا للمعاني التي أدركناها من تلك القصيدة ، وبالتالي لا

نكونُ قد قلنا قَوْلَ الشاعر ذاتِه ، فمهما كنّا بارعين في القول لا نستطيعُ أنْ نقولَ القَوْلَ ذاتَه في لغةٍ أُخرى ..

.. لنتخيّل .. أنَّ الله تعالى يُريدُ صياغةَ المعاني الكائنةِ في ذات الشاعر في قالبٍ لُغويٍّ ، حين ذلك سيكونُ قولُ الله تعالى صياغةً مُطلقةً تتناسبُ مع قـدرة الله تعـالى علـى الصياغة ، وذلك للمعاني الكائنة في ذات الشاعر والتي يعلمُها الله تعالى علمـاً مُطلقـاً أعظمَ بكثيرٍ من عِلْمِ الشاعر ذاتِه لتلك المعاني الكائنة في ذاتِه .. وبالتالي سيكونُ قولُ الله تعالى تصويراً مُطلقاً لا يزيد ولا ينقصُ عن حقيقةِ المعاني الكائنـة في ذات الشـاعر .. فالصياغةُ اللغويّةُ المفترضةُ مِنْ قِبَلِ الله تعالى لتلكَ القصيدةِ أعلى من صياغةِ الشاعرِ ذاتِه لهذه القصيدة ، بنسبةٍ هي ذاتُها الفارقُ بين عِلْمِ الله تعالى وعلمِ الشاعر للمعنى الكائن في ذات الشاعر ، وهي ذاتُها النسبةُ بين قدرةِ الله تعالى على الصياغة وبين قـدرة ذلـك الشاعر ..

.. لذلك .. فالنصوصُ القرآنيّةُ التي تُصوِّرُ لنا قَوْلَ المخلوقات وتفاعلَها مع الأحداث في القَصَصِ القرآنيّة .. تلك المخلوقات التي لها لغاتُها المختلفة .. إنّما تُصوِّرُها تصـويراً مُطلقاً ، مُصاغاً صياغةً لغويّةً مُطلقةً للمعاني الكائنةِ في ذواتِ تلك المخلوقات ، وبالتالي ليس مهمّاً أن نعرفَ ماهيّةَ اللغةِ التي نطقتْ بها تلك المخلوقات ، فما ينقلُهُ الله تعالى لنا هو الصياغةُ المطلقةُ لحقيقةِ المعاني الكائنةِ في ذواتِ تلك المخلوقات ، والتي يعلمهـا الله تعالى علماً مُطلقاً أكبرَ بكثير من علمِ تلك المخلوقات بها ..

.. فعلى سبيلِ المثال .. في قصّةِ يوسفَ عليه السلام .. وفي قَوْلِ أخٍ من أخوة يوسف لأخوتِه بأن ينقلوا لأبيهم قولَه : ﴿ **ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ** ﴾ [يوسف : ٨١] .. قوْلُهُ هذا .. حينما ينقلونَه لأبيهم كما هو تماماً دون أيِّ تغييرٍ أو تبديل ، يكونون قد

قالوه بالحيثيّةِ التي نطقَ بها أخوهم ، أي يكونون قد قالوا قَوْلَ أخيهم .. ﴿ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَـٰفِظِينَ ﴾ ..

.. ولكن .. إنْ صاغوا لأبيهم قَولاً من عندهم ينقلون به ما أدركوه من قولِ أخيهم ، حينئذٍ يكونون قد قالوا ما أدركوه من قولِ أخيهم ، ولا يكونون قد قالوا قَوله ، لأنهم – في هذه الحالة – قالوا معانيَ نُقلت إلى ذواتِهم من قولِ أخيهم ..

.. إذاً .. اللغةُ والصياغةُ اللغويّةُ التي نراها في القرآنِ الكريم باللغةِ العربيّة الفطريّة ، والتي تُصوِّرُ أحداثاً قصصيّةً من التاريخ ، لا يُشتَرَطُ أن تكونَ هي بِذاتِها وبحرفيّتها نطقَ بها أشخاصُ تلكَ القَصَص ، فاللهُ تعالى ينقلُ لنا عبرَ صياغةٍ لُغويّةٍ مُطلقةٍ حقيقةَ المعاني الكائنة في ذواتِ القائلين ، تلك المعاني التي يعلمُها الله تعالى علماً مُطلقاً ..

.. فصياغةُ الله تعالى للآيةِ الكريمة : ﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَـٰفِظِينَ ﴾ [يوسف : ٨١] ، هي صياغةُ الله تعالى المُطلقةُ المتعلّقةُ بعلمِه المُطلقِ وذلكَ للمعاني الكائنة في ذاتِ القائل ، تلك الصياغة التي لا يقدرُ عليها القائل ذاتُه ، فعلمُ القائل بالمعاني الكائنةِ في ذاتِه ، ليسَ كَعِلْمِ الله تعالى بهذه المعاني ، وقدرةُ القائل على صياغة هذه المعاني ليست كقدرة الله تعالى ..

.. إذاً .. في كلِّ القَصَصِ القرآنيّة يُصوِّرُ اللهُ تعالى لنا تصويراً مُطلقاً باللغةِ الفطريّةِ الكاملةِ التامّةِ الخاليةِ من أيِّ عيبٍ أو نقص والموحاةِ من السماء ، يُصوِّرُ لنا – بها – حقيقةَ الأحداثِ والمعاني الكائنةِ في ذواتِ أشخاصِ تلكَ القَصَصِ ، تلك الأحداث والمعاني الكائنة في الذوات المخلوقة والتي يعلمها جلَّ وعلا علماً مُطلقاً .. ولذلك فالتصويرُ القرآنيُّ تصويرٌ مُطلقٌ لتلك الأحداث والقَصَص ..

.. لو أخذنا العبارةَ القرآنيّة : ﴿ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ ﴾ ، وذلك منَ الآيةِ الكريمة : ﴿ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلۡ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ [يونس

: ٥٣] ، لرأيناها قَوْلَ الله تعالى ، كوْنُها جزءاً من آيةٍ كريمةٍ في كتابِ اللهِ تعالى .. ولكنَّ هذه العبارة القرآنيّة كقوْلٍ لله تعالى ، نراها مسبوقةً بكلمة ﴿ **قُل** ﴾ .. فعندما يُخاطبُ الرسولُ ﷺ المشككين بصدقِ نزول القرآن الكريم من عند الله تعالى قائلاً لهم : ﴿ **إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ** ﴾ ، يكون بذلك قد نقلَ لهم قوْلَ الله تعالى الخاصَّ بهذا الأمر ، أي يكونُ قد قال لهم هذا القول كما هو تماماً دون تغييرٍ أو تبديل .. أي يكونُ قد قالَ لهم قَوْلَ اللهِ تعالى كما هو تماماً دون أيِّ تبديلٍ أو تغيير ..

.. وإنْ قال لهم قَولاً يصوغه هو للمعاني التي يُدركُها من هذه العبــارة القرآنيّــة ، فحينئذٍ لا يكون قد قالَ لهم قَوْلَ الله تعالى ، إنّما يكون — في هذه الحالةِ المفترضة — قد قالَ لهم قَوْلَه الذي صاغه مِمّا أدركه من المعاني الكائنةِ في قَوْلِ الله تعالى ..

.. وكذلك الأمْرُ بالنسبةِ لقوْلِ الرسول ﷺ في ردّه على الكافرين : ﴿ **إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ** ﴾ [هود : ٣٥] ، فقولُهُ هذا ، هو نقلٌ حرفيٌّ لِقوْلِ الله تعالى الذي يأمرُ رسولَهُ بنقلِه إلى البشر .. ولذلك نرى هذه العبارة القرآنيّة مسبوقةً بكلمة : ﴿ **قُل** ﴾ .. يقولُ تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ** ﴾ [هود : ٣٥]

.. وكذلك الأمرُ في إجابةِ الرسول ﷺ على مسألةِ الخمر والميسر : ﴿ **فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ ، فهذا القوْل الذي يُؤمَرُ الرسولُ ﷺ بقولِه للبشر ، هو نقلٌ حرفيٌّ دون أيِّ تبديلٍ أو تغييرٍ لقوْلِ الله تعالى ، حيث يأمرُ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ بنقلِ هذا القولِ عبرَ كلمة ﴿ **قُل** ﴾ .. يقولُ تعالى :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٩]

.. إذاً .. النطقُ بالقوْلِ كما هو تماماً دون أيِّ تغييرٍ أو تبديلٍ في صياغتِه اللغويّة ، هو نَقْلُ هذا القَوْلِ من ساحةٍ إلى ساحة ، أي هو قَوْلُ هذا القول في الساحةِ المنقولِ إليها .. والقرآنُ الكريمُ الذي صاغَهُ الله تعالى صياغةً مُطلقةً تحدّى بها الإنسَ والجنَّ على أن يصوغوا نصّاً من مثلِه :

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨]

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩]

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل : ٥]

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق : ١٣ — ١٤]

هذا القولُ الذي تمّت صياغتُه من قِبَلِ الذات الإلهيّةِ في ساحةٍ أعلى من عالميِّ الأمرِ والخلق ، قالَهُ كما هو تماماً دون أيِّ تبديلٍ أو تغيير ، الروحُ الأمين الذي ينتمي إلى عالم الأمر ، أي نقلَه كما هو تماماً ، من الذات الإلهيّة ، إلى عالمِهِ ، إلى الرسولِ محمّدٍ ﷺ كبشرٍ ينتمي إلى ساحةٍ أدنى هي عالمُ الخلق .. يقولُ تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ — ٢١]

.. وهذا القوْلُ الذي تلقّاه محمّدٌ ﷺ من ساحةٍ أعلى ، وهي الساحةُ التي ينتمي إليها الروحُ الأمين عليه السلام ، قالَهُ ﷺ للبشر في ساحةِ أدنى ، هي ساحةُ عالمِ الخلْقِ التي ينتمي إليها البشر ، أيْ قالَه ﷺ كما هو تماماً دون زيادة أو نقصانٍ أو تغييرٍ في ماهيّةِ

صياغته .. فقوْلُهُ ﷺ للقرآن الكريم هو نقلٌ كاملٌ دون تغييرٍ أو تبديلٍ أو تحويل للقــولِ المنزّل إليه من ربِّ العالمين .. يقولُ تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٠ – ٤٣]

في كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) لا يوجد نصٌّ يبيّن لنا أنَّ الكتــبَ الســماويّة الأُخرى هي قولُ الله تعالى ، في الوقت الذي رأينا فيه أنَّ النصَّ القرآني هــو قــولُ الله تعالى .. من هنا نرى سرَّ تحدّي الله تعالى للإنس والجن على أن يأتوا بــنصٍّ كــالنصّ القرآني ، في الوقت الذي لم يتحدّ به أحداً بأن يأتي بنصٍّ كنصوص الكتب الســماويّة السابقة ..

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨]

.. إذاً .. الكتب السماوية – جميعها بما فيها القرآن الكريم – هي كلامُ الله تعالى ، بمعنى أنّها دلالات ومعاني وأحكام من الله تعالى ، بينما ينفردُ القرآن الكريم عنها بأنّه قولُ الله تعالى ، بمعنى أنَّه صياغة لغوية من قِبَل الله تعالى .. ولذلك فالقرآن الكريم هو منهجٌ ومعجزةٌ في الوقت ذاته ، وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي تلتحمُ فيه المعجزة بالمنهج ..

❁ ❁ ❁

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net
adnan@thekr.net

الذات الإلهيّة وصفاتها

الذات المخلوقة هي الحدود دون الأشياء الخارجيّة .. فالذات الإنسانيّة – على سبيل المثال – هي داخل العالم الداخلي لقوى الذات وصفاتها كالعقل والوجدان والإدراك والحس .... إلخ ، وكلّ ما يتعلق بالإنسان نفساً وجسداً .. وهذا الإطار يفصلها عن العالم الخارجي (خارج الذات) من أمورٍ وظواهر وأشياء يمكن للذات أن تتفاعل معها .. والذات الإنسانيّة وكلّ ذاتٍ مخلوقة تستمدُّ حيثيّات وجودها من الخالق سبحانه وتعالى .. أمّا الذات الإلهيّة فتتميّز بأنَّ العالم المخلوق يستمدّ وجودَه وحركته عبر أثر صفاتها ..

لقد رأينا في النظريّة الثانية (القدر) أنَّ المادّة مجرّد طاقة متحرّكة ومحبوسة في إطار من المكان والزمان ، وأنّ هذه الحركة هي التي تجعل المكوّنات الأولى للمادّة تحتلُّ حيّز المكان الذي يعطي هذه المادّة هويّتها الماديّة .. ورأينا أنَّ هذه الطاقة المودعة في المادّة ليست من ذات المادة ، وأنّها تتحرّك بقوّة فاعل وليس بقوّةٍ من ذاتها ، وإلاّ لما وُجدت أصلاً ، فلمّا كان وجودها نتيجةَ حركة الطاقة المودعة فيها ، فلا بدّ ممّن أعطاها الحركة الأولى لتبدأ رحلة وجودها ، وبالتالي فهي تستمدّ حيثيّات وجودها وحركتها ضمن حيّز المادّة – في كلِّ لحظة – من الخالق سبحانه وتعالى .. فلولا إعطاء الخالق سبحانه وتعالى لها حيثيّات وجودها بكلِّ لحظة لزالت المادّة من الوجود .. إذاً .. المادّة بحاجة إلى الخالق سبحانه وتعالى في كلّ لحظة لتبقى موجودة في عالمها (عالم الخلق) ..

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر : ٤١]

فالموجودات في هذا الكون ، لا تقوم إلاّ بوجود الذات الإلهيّة التي تعطيها — في كلِّ لحظة — حيثيّات وجودها ..

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ﴾ [الروم : ٢٥]

والوجود الذي نحسّه ليس مستقلاً وأصيلاً في هذا الكون ، كما يتخيّل الماديّون .. وإن كان الوجود لا يكون إلاّ في الإطار الذي نشهده ونحسّه ، فلماذا لا نرى العلّة التي تُظهر الموجودات في كلّ لحظة إلى عالم الوجود ؟ .. إنَّ المادّة كائن معلول لعلّةٍ خفيّة غير منظورة وغير محسوسة .. فهذا الوجود المحسوس لا بُدَّ أن يكون عن علّة ، ويتّجه باتّجاه غاية ، وبالتالي فهو يصدر عن ذات واحدة ليست متغيّرة ، هي فوق كلِّ حسٍّ وكلِّ موجود من المخلوقات ..

إنّ وجود الذوات المخلوقة يكون بين عدمَيْن ، وظاهرها الحسّي المتشيّء يرجع في صيرورته إلى طاقةٍ خفيّة تتعلّقُ بصفات الذات الإلهيّة ذات الوجود المطلق القائم بذاته ..

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣]

وبما أنَّ الموجودات جميعها تبدو كوحدة مترابطة الحلقات ، تتّجه باتّجاه غاية محدّدة ، فإنَّ ذلك يحتّم أن يكون موجدها واحداً ، صفاته متوحّدة بذاته .. فلو تعدَّد المُوجِد لتباينت الصفات ولتعدّدت الغايات ، وبالتالي لانتهى الكون إلى الفساد ..

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ [الأنبياء : ٢٢]

إنَّ هذا العالم المخلوق الكبير الذي تسيرُ ذرّاته بنظامٍ واحد ، في وحدة شاملة تنسّق في شمولها بين هذه الموجودات من الذرّة إلى المجرّات ضمن قانونٍ شامل ، لأكبر دليل على وحدة المُوجِد وتوحّد صفاته — جلّ وعلا — في إطار الذات الإلهيّة الواحدة .. إنَّ كلَّ ما في الكون متوحِّدٌ في الغاية التي يشاؤها الخالق سبحانه وتعالى ، فهذا الكون الذي بدأ دفعةً واحدةً من العدم ، سيعود جميعه إلى العدم ..

﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤]

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ [القصص : ٨٨]

إنَّ القانون الكليَّ الذي وضعه الله تعالى ليحتوي الحركة الشموليّة لكلِّ أجزاء الكون ، اسمه – في كتاب الله تعالى – الصور .. ففي كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) صورة الشيء هي هيئتُه وشكلُه وناموسُه ..

﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٨]

.. وتصويرُ الشيء هو إعطاؤه شكلَه وماهيّتَه وناموسَه الذي يُميّزه ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ [آل عمران : ٦]

وكلمة ﴿ ٱلصُّورِۚ ﴾ ، لم ترد في كتاب الله تعالى إلاّ معرّفةً بأل التعريف ، لتصوّر لنا الماهيّة والناموس الذي يحكم شكل الكون وماهيّته وقوانينه .. وبالتالي فإنّ النفخَ في الصور ، هو النفخُ في هذا الناموس ، وبالتالي سيؤدّي هذا النفخ إلى نهاية ناموس الدنيا وقوانينها ، وإلى تبدّل الأرض والسماوات ..

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨]

ومفهوم ﴿ ٱلصُّورِۚ ﴾ في القرآن الكريم [الذي هو من الجذر من (ص ، و ، ر)] ، ومفهوم النفخ فيه ، يحملان دلالةَ تغيير النواميس من حالٍ إلى حال .. والتفسير التاريخي للصور بأنّه بوق وأداةٌ للنفخ ، ليس سليماً ..

وحتى لو أغمضنا أعيننا عن كون كلمة ﴿ ٱلصُّورِۚ ﴾ من مشتقّات الجذر اللغوي (ص ، و ، ر) ، وبالتالي تعلّقها بدلالات هذا الجذر اللغوي ، فإنّ العبارة القرآنيّة ﴿

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ التي ترد في جميع مرّات ورودها بهذه الصيغة [[حيث تــرد هــذه الصيغة **﴿ فِي ٱلصُّورِ ﴾** عشر مرّات ، دون الصيغة ((بِالصُّورِ))]] ، تُؤكّد أنَّ الصورَ ليس أداةً للنفخ في شيءٍ آخر ، إنّما النفخُ – المعنيّ في هذه العبارة القرآنيّــة – هــو في الصورِ ذاتِه .. فساحةُ النفخ هي في ذاتِ الصور **﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾** .. فلــو كــان الصورُ بوقاً يُنفَخُ فيه ، لكانت العبارة القرآنيّة على الشكل : (وَنُفِخَ بالصُّورِ) ..

إذاً .. هذا الكون المخلوق سيُعادُ بناموسٍ آخر غير الناموس الذي هو عليه الآن ..

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨]

وبالتالي فوجود هذا العالم المخلوق ليس وجوداً ذاتيّاً نابعاً من ذاتِه .. ففي كلِّ لحظة تحتاج مادّةُ الكون لقدرة الله تعالى لكي تبقى موجودةً في عالمها الحسيّ ..

أمّا وجود المُوجِد سبحانه وتعالى فهو وجود ذاتي ، وصفاته ذاتيّة ومطلقة وغير مكتسبة وغير متحوّلة ولا تخضع لأيِّ مقياس .. فالمقاييس التي نقيس فيها موجودات عالم الخلق الحسي هي مقاييس مخلوقة ونسبيّة ، لا تصلح إلاّ لقياس الأشياء المخلوقة ، ولا يمكنها أبداً قياس صفات الخالق سبحانه وتعالى .. إنَّ الحقيقةَ المُطلقةَ واحدةٌ تحوي جميعَ الحقائق النسبيّة ، فالمطلق هو الذي يعيّن الأشياء ، وليست الأشياء هي التي تُعيّنه ..

لذلك فالتحيّز المكاني والزماني والحلول والاتحاد في أيِّ شيء ، هو سلبٌ لصفة الإطلاق التي تتّصف بها الذات الإلهيّة ، فهذه مقاييس نسبيّة تُقاس على المخلوقات ، ولا تُقاس على الخالق سبحانه وتعالى .. إنَّ الذات الإلهيّة مُطلقة ليس كمثلها شيء ، وجميع القوانين والمقاييس هي من خلقها ..

وفي حديثنا عن الذات الإلهيّة وصفاتها يجب رفع الكيفيّة والظرفيّة المكانيّة والزمانيّة .. فقولنا : كيف ومتى وعند ومع .... إلخ ، إذا ارتبطت بالذات الإلهيّة ، هو قولٌ

يرتبط بصفات الذات وما نعنيه بهذا القول هو تقريب الصورة إلى أذهاننا ، ولا نعني به فرض مقاييسنا النسبيّة المكانيّة الزمانيّة على الذات الإلهيّة ، من تحيّز وجسميّة وانسياب في نواميس الزمان ..

إنَّ هذا القول الذي نستخدمه – قياساً على تصوّراتنا المخلوقة – بالنسبة للذات الإلهيّة ، هو لمساعدة تصوّرنا الذهني ، وليس لقياس الذات الإلهيّة بالمقاييس المخلوقة والخاضعة لقوانين المكان والزمان .. فالذات الإلهيّة فوق كلِّ المقاييس ..

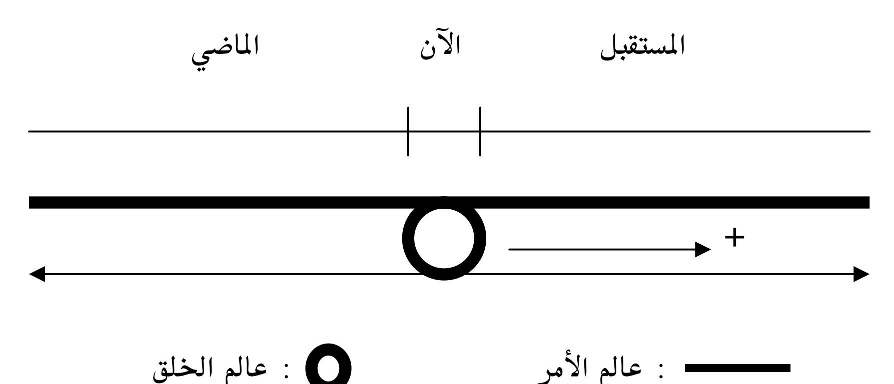
وفي مسألة الوجود يجب أن نُميّز بين :

١ – وجود مطلق : فوق الموجودات جميعاً ، هو الله تعالى ، وله صفاته المتعلّقة بذاته ، وهو خالق المكان والزمان ومسيّرهما ..

٢ – عالم الأمر : وهو وجودٌ يتعلّق بصفات الله تعالى من جهة ، وله آثارٌ في عالم المادّة المتغيّر من جهةٍ أُخرى ، وهو غير محكوم لقوانين المكان والزمان ، وهذا لا يعني أنَّه مُوجِد المكان والزمان وحاكمهما ..

٣ – عالم الخلق : وهو وجود يتعلّق بعالم المادّة المُتغيّر وخاضع لقوانين المكان والزمان ، ويستمدّ وجودَه في كلِّ لحظة من الخالق سبحانه وتعالى ..

وسواءٌ عالم الخلق أم عالم الأمر ، يعودان في وجودهما إلى الوجود المطلق (الله تعالى) .. ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]



إنَّ الصفات الإلهيّة هي خصائص ونعوت تتّصف بها الذات الإلهيّة ، وهي قائمة بوجودِها في وجود الذات وترتبط بالذات ، وهي ليست بشيء وجوده زائد على وجود الذات ، فهي ليست أعياناً منفصلة عن الذات ، وليست خاضعةً للقوانين ، وليست هي القوانين التي نُدركها بعلومنا .. إنّها فاعليّةٌ قائمةٌ بالذات الإلهيّة ، كلُّ ما ندركه – نحن المخلوقات – هو آثارها التي تقع تحت حواسّنا .. فبتكامل الصفات الإلهيّة وتضامنها ، ومن آثارِها ، تتكوّن الكائنات الموجودة في عالمي الخلق والأمر ..

.. ولو كانت صفات الله تعالى هي عين الذات ، أو منفصلة عن الذات ، لَما أتت – في كتاب الله تعالى – وصفاً مستقلاً معرَّفاً بأل التعريف لهذه الذات ..

صحيحٌ أنَّه لا يُوجَد ترادف مُطلق بين أسماء الصفات للذات الإلهيّة في القرآن الكريم ، فلكلٍّ اسم صفة خصوصيّته الخاصّة به ، ولكنّها من حيث التزامها مع بعضها بعضاً ، هي متكاملة متعاضدة متوحّدة ، ولا يُوجَد لها أيُّ استقلالٍ عن الذات .. فلو كانت مستقلَّةً عن الذات التي تصفها (الله سبحانه وتعالى) لكانت مرتبطةً بذوات أُخرى ، أو لكانت ذواتٍ مستقلّةً بذاتها ..

فصفات الله تعالى لا يُوجَد بينها فاصلٌ من المكان والزمان ، وما يتخيّله البشر من تفريقٍ بينها هو نتيجة انصياعهم لقوانين المكان والزمان ، وقياس ذلك على الذات الإلهيّة وصفاتها ..

إنَّ جميعَ أسماء الصفات لله تعالى ترجع إلى اسمه تعالى ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ، وتكون صفةً له ، واسم الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ لم يرد صفةً إلى أيِّ اسم صفةٍ منها ، فجميع أسماء الصفات هي نعوت له .. إنَّ جميع الأسماء الحسنى هي اسم الله تعالى ، والله تعالى ليس اسماً لأيٍّ منها ..

ولذلك نرى أنَّ كلمة ﴿ ٱسۡمُ ﴾ في القرآن الكريم تأتي مضافةً لكلمة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ولكلمة ﴿ رَبِّ ﴾ ، و لم تأت مُضافةً لأيِّ اسم صفة .. لقد وردت كلمة ﴿ ٱسۡمُ ﴾ (١٩) مرّة ، منها (١٨) مرّة مُضافة لكلمة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ولكلمة ﴿ رَبِّ ﴾ .. في المرات ال (٩) الأولى في كتاب الله تعالى أتت مضافة لكلمة الله ﴿ ٱسۡمُ ٱللَّهِ ﴾ ، وفي المرات ال (٩) الأخيرة في كتاب الله تعالى أتت مضافة لكلمة ﴿ رَبِّ ﴾ : [[﴿ ٱسۡمَ رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ ﴾]] ..

.. وأسماء الصفات للذات الإلهيّة في القرآن الكريم نراها – بشكلٍ عامٍّ – غير معطوفة على بعضها ، وهذا يدلُّ على تلازمها وتكاملها في وصف الذات الإلهيّة الواحدة .. وقد أتت معطوفة في الآية الكريمة ..

﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣]

والحكمة من العطف هنا – والله تعالى أعلم – هو الوقوف عند هذه الصفات التي تصفُ مسائل – هي بالنسبة لنا ومن المنظار الذي نرى به الأشياء – تُعَدُّ مسائل متقابلة كصفة ﴿ ٱلۡأَوَّل ﴾ التي تُقابل صفة ﴿ وَٱلۡأٓخِر ﴾ ، وكصفة ﴿ وَٱلظَّٰهِر ﴾ التي تُقابل صفة ﴿ وَٱلۡبَاطِنُۖ ﴾ ..

.. ولّما كانت الصفات متعلّقةً بالذات ، وكانت الأفعالُ آثاراً للصفات ، والله تعالى ليس كمثله شيء في ذاتِه ، لذلك فالله تعالى ليس كمثله شيء في صفاته ، وليس كمثله شيء في أفعاله ..

والصفات المشتركة بين الله تعالى والإنسان ، هي صفاتٌ يتبعُ كلٌّ منها الذات التي ترتبط بها .. فصفات الله تعالى أزليّة أبديّة مُطلقة ، لأنَّ الذات الإلهيّة أزليّة أبدية مُطلقة ،

وصفات الإنسان حادثة ناقصة لأنَّ الذات الإنسانيّة حادثة ناقصة .. فتماثل الكلمات المُعبِّرة عن أسماء الصفات بين الخالق جلّ وعلا والمخلوق ، لا يعني تماثل صفات الخالق والمخلوق ..

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ٢]

﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ [الروم : ١٩]

فصفة الحي في كلّ عبارة قرآنيّة تتبع ماهيّة الذات التي تصفها ..

وقد تعلّقت بعض أسماء الصفات الإلهيّة بالإنسان ، ولكن بصيغة مختلفة عن تعلّقها بالذات الإلهيّة ، حيث تعلّقها بالذات الإلهيّة هو صفاتٌ مُعرَّفة تعني إطلاقَ الصفة لله تعالى ..

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨]

﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١]

﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]

﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨]

﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٍ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢]

إنَّ إثبات الصفات لله تعالى لا يعني أنَّ الله تعالى يُشبه مخلوقاته ، فتعدّد الصفات لا يقتضي تعدّد الذوات المرتبطة بهذه الصفات .. وإنَّ نفي الصفات عن الذات الإلهيّة يجعلها فكرة مجرّدة لا صفة لها ولا فعل ، وبالتالي يجعلها عدماً .. فلا ذات دون صفات تصفها ، ولا صفات دون ذات ترتبط بها هذه الصفات ..

وكيف لنا أن ننفي ما يُقرّه الله تعالى في كتابه الكريم ..

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١]

فهذه العبارة القرآنيّة – كما نرى – تُثبت صفتي السمع والبصر لله تعالى ، والعبارة القرآنيّة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ تُبيّنُ أنَّ الذات الإلهيّة وصفاتها ليست كذوات الأشياء وصفاتها ..

.. وفي الآية الكريمة : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] ، نرى أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ تُبيّن لنا أنّه لا شبيه ولا موصوف يشبه ويتّصف بصفات الله تعالى ..

.. ولذلك فإنَّ الإلحادَ في أسماء الله تعالى (صفاته) والميلَ بها عن الحقّ (الذي ينصُّ عليه منهج الله تعالى) هو خروجٌ على هذا المنهج ..

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠]

إنَّ علاقة الذات الإلهيّة بصفاتها هي علاقة موصوف بصفات تصفها ، وعلاقة الصفات الإلهيّة بالكائنات هي علاقة المؤثِّر بالأثر .. فالصفات الإلهيّة لازمة عن وجود الذات الإلهيّة ، والكائنات هي آثارٌ ناتجةٌ عن فاعليّة الصفات الإلهيّة في هذا العالم الحادث .. إذاً هناك :

١ – الذات الإلهيّة وتصدر عنها الصفات الإلهيّة ..

٢ – الصفات الإلهيّة وتصدر عن الذات ، ومتوحّدة فيها ، ويصدر عنها الفعل (عالم الخلق) ، ويتعلّقُ بها (عالم الأمر) ..

٣ – عالم الأمر ويتعلّق بالصفات الإلهيّة ..

٤ – عالم الخلق (الفعل) وهو ناتج عن تأثير الصفات الإلهيّة في هذا العالم الحادث المتشيّء ..

فكلّ طاقة وفعل وحركة موجودة في الكائنات ، هي أثرٌ للصفات الإلهيّة .. ويجب ألاّ يُفهم من علاقة الصفات الإلهيّة بالأثر أنَّ هذه الصفات تندرج في الكائنات .. إنَّ للكائنات خصوصيّتها من التحيّز ، وهي محكومة لقوانين المكان والزمان ، أمّا الصفات الإلهيّة فمجرّدة عن ذلك ..

فالفاصل بين الصفات الإلهيّة والأثر (الفعل) هو ذاته الفاصل بين صفة الخالق المطلقة لله تعالى وبين المخلوق ، ولذلك فالإنسان ككائن مخلوق نتيجة أثر الصفات الإلهيّة في هذا العالم يستطيعُ إلى درجةٍ ما تصوّر – حسب إدراكه – جانب من صفات الذات الإلهيّة التي تُنشئ الأثر الذي يتفاعل معه ، ولكنّه لا يستطيع – أبداً – تصوّر أيّ جانب من الذات الإلهيّة ، فلا سبيل له إلى ذلك .. فالله تعالى فوق المخلوقات ، ولا يمكن للخيال الإحاطة به ، ولا يمكن للعقول أن تعقل إلاّ ما وصف الله تعالى به نفسه وأخبرنا إيّاه ..

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠]

إنَّ كلَّ ما يمكن إدراكه هو آثار صفات الله تعالى .. فكنه الذات الإلهيّة لا يُدركها العقل ، لأنّها أبدعته ولا يُدرك المُبدَع حقيقةَ المُبدِع ، ولأنّها فوق الحسّ والمادّة فلا يُحيطُ بها الحس ، ولا تُدركُها البصيرة لأنَّ البصيرةَ فيضٌ من نورها ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .. فالذات الإلهيّة وصفاتها مُطلقة وما عداها نسبيٌّ ..

.. إنَّ إدراكنا لحقائق الأشياء يتوقّف على قدراتنا الإدراكيّة ، وعلى حدود الأشياء المُدرَكة ، ولذلك لا نستطيع إدراك الذات الإلهيّة ، فلا قدراتنا تتحمّلُ ذلك ، ولا الذات الإلهيّة لها حدود .. إنّنا نستدلُّ على الذات الإلهيّة عبر تفاعلنا مع آثار صفاتها ، هذه الصفات التي ليست كينونةً للذات بنفسها ، وليست مستقلّةً عنها ، إنّها نعوتٌ للذات ..

وما تتيه في بعض العقول هو الفصل بين الصفات الإلهيّة وأثر هذه الصفات ، أي بين الصفات الإلهيّة والمخلوقات المتشيّئة في هذا العالم المخلوق .. فلا يمكن لهذه العقول إلاّ إدراك المسائل المتشيّئة (الأشياء المتعلّقة بمسائل الخلق) ..

ولذلك عندما يُخاطبنا الله تعالى في كتابه الكريم عن الأشياء فإنّه يعني – بالنسبة لنا – مسائل الخلق المحكومة لقوانين المكان والزمان ، أي الأشياء المتشيّئة في عالم الخلق .. ولا يعني جلّ وعلا كلَّ الموجودات في الكون كما يتخيّل الكثيرون وكما نراه في الكثير من موروثاتنا التفسيريّة .. فكلمة ﴿ **شَىْءٍ** ﴾ في القرآن الكريم تعني الموجودات المحسوسة المحكومة لقوانين المكان والزمان في عالم الخلق ..

واستشهادهم بالصورة القرآنيّة التالية ، على أنَّ الله تعالى شيءٌ ، هو استشهادٌ ليس سليماً ، وهو تنطّعٌ لإثبات أقوالٍ مسبقة الصنع لا يحملها كتاب الله تعالى لا من قريب ولا من بعيد ..

﴿ **قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ** ﴾ [الأنعام : ١٩]

قالوا : العبارة القرآنيّة ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ ۖ** ﴾ هي جوابٌ للسؤال ﴿ **قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ** ﴾ .. وبذلك أوّلوا العبارة ﴿ **شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ** ﴾ بأنّ معناها (وهو شهيدٌ بيني وبينكم) .. فقد فصلوا العبارة ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ ۖ** ﴾ عن العبارة ﴿ **شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ** ﴾ .. فالمبتدأ وخبره ﴿ **ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ** ﴾ وضعوا بينهما حاجزاً ، فوضعوا – من جيوبهم – للمبتدأ

خبراً بتقدير (قل اللهُ شيءٌ) ، ووضعوا – من جيوبهم – للخبر مبتدأً بتقدير (وهـــو شهيدٌ بيني وبينكم) ..

إنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ كلامٌ مستقلٌّ تامٌّ مكتملٌ بنفسه ، المبتدأ فيه هو كلمة ﴿ ٱللَّهُ ۖ ﴾ ، وخبره ﴿ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ۚ ﴾ ..... وقولهم إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ ﴾ ، لا بدّ لها من جوابٍ مرسومٍ (غير مقدَّر) في كتاب الله تعالى ، وأنّ جوابها هو العبارة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ۚ ﴾ .. قولهم هذا لا دليل عليه ، وهو ذرٌّ للرماد في الأعين .. فالجواب الذي يريدونه مستقلٌّ عن العبارة الثانية ، ويُقدَّر تقديراً .. وإذا كانوا يستغربون تقدير الجواب ، نقول لهم أين الجواب المرسوم في القرآن الكريم للصورة القرآنيّة التالية .. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [يس : ٤٥] ؟ ..

.. ما دفَعَنا إلى تقدير جواب العبارة الأولى ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ ﴾ ، هو قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّـٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦] .. فلو كان الله تعالى شيئاً ، ويُسمَّى باسم الشيء ، كما يزعمون ، لكان جلّ وعلا خالقاً لذاته ، وبالتالي لكان سبحانه وتعالى مخلوقاً ، وهذا محال .. ولسنا مستعدّين لأن نُطلّق عقولنا ونقبل قولَهم بأنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ كلامٌ عامٌّ دَخَلَه التخصيص ، بمعنى أنّ الله تعالى خلق كلَّ الأشياء ما عدا شيئاً واحداً هو ذاته .. وقد فنّدت – بالتفصيل – كلّ هذه المزاعم في كتاب : (قصّة الوجود) ..

.. ولا يمكن الاستشهاد بالعبارة القرآنيّة : ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَـٰلِقُونَ ﴾ [الطور : ٣٥] على أنَّ الله تعالى شيء ويسمّى باسم الشيء .. فالله

تعالى يقول : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ مبيّناً أنَّ الإنسان لم يُخلّق من العدم ، إنّما خُلق من مادّة مخلوقة سبقت وجوده في هذا العالم .. فكلمة ﴿ شَيْء ﴾ في هذه العبارة القرآنيّة لا تتعلّق بالخالق سبحانه وتعالى ، إنّما تتعلّق بالمادّة التي خُلق منها الإنسان ، كمادّة مخلوقة خلقها الله تعالى قبل وجود الإنسان ، بمعنى أنَّ المادّة التي خُلق منها الإنسان هي مادّة مخلوقة خلقها الله تعالى .. فالله تعالى لم يقل : (أَمْ خَلَقَهُم غَيْرُ شَيء) ، إنّما يقول ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ ..

وحتى لا يذهب خيالُ أحدٍ إلى أنَّ عدم وصف الله تعالى بالشيء يؤدّي إلى العدم ، وأنَّ الذات الإلهيّة ليست سوى فكرة مجرّدة ، فإنَّ الله تعالى يصف ذاته بأنّها لا يُوجد مثلها ولا حتى مثل مثلها شيء .. يقول تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، فكلمة ﴿ كَمِثْلِهِۦ ﴾ تعني (مثل مثله) ، فاجتماع كلمة مثل مع كاف التشبيه يعني مثل المثل ، بمعنى أنَّ الذات الإلهيّة وصفاتها ليس مثلها شيء ..

وهذه الذات التي ليس مثل مثلها شيء لها صفاتٌ ترتبط بها نستطيعُ نحنُ التفاعل مع آثارها ، كصفتي السمع والبصر : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ..

إنَّ مسائل عالم الأمر هي مسائل غير متشيّئة كالروح : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : ٨٥] وكالقرآن : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وبالتالي فهي مسائل غير خاضعة لقوانين المكان والزمان ، ولا نُدرك منها – في هذا العالم المخلوق – إلاّ آثارها المتشيّئة في هذا العالم المتشيّء ، كالنطق والصوت والفعل ... إلخ ، تلك الآثار المرتبطة بأفعال الله تعالى عبر صفاته العظيمة ..

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ [الأنعام : ٩٣]

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ [الجاثية : ٩]

﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك : ٩]

فكلمة ﴿ شَىْء ﴾ التي تأتي مرتبطة بما نزّل الله تعالى وبما أوحى الله تعالى ، في هذه الآيات الكريمة تعني آثار مسائل الأمر القرآنيّة في عالمنا المتشيّء كالنطق والصوت وَ ..... إلخ ، ولا تعني ماهيّة مسائل الأمر ، فمسائل الأمر تنتمي لعالم غير متشيّء ، لا يمكننا إدراكه عبر حواسّنا المخلوقة ..

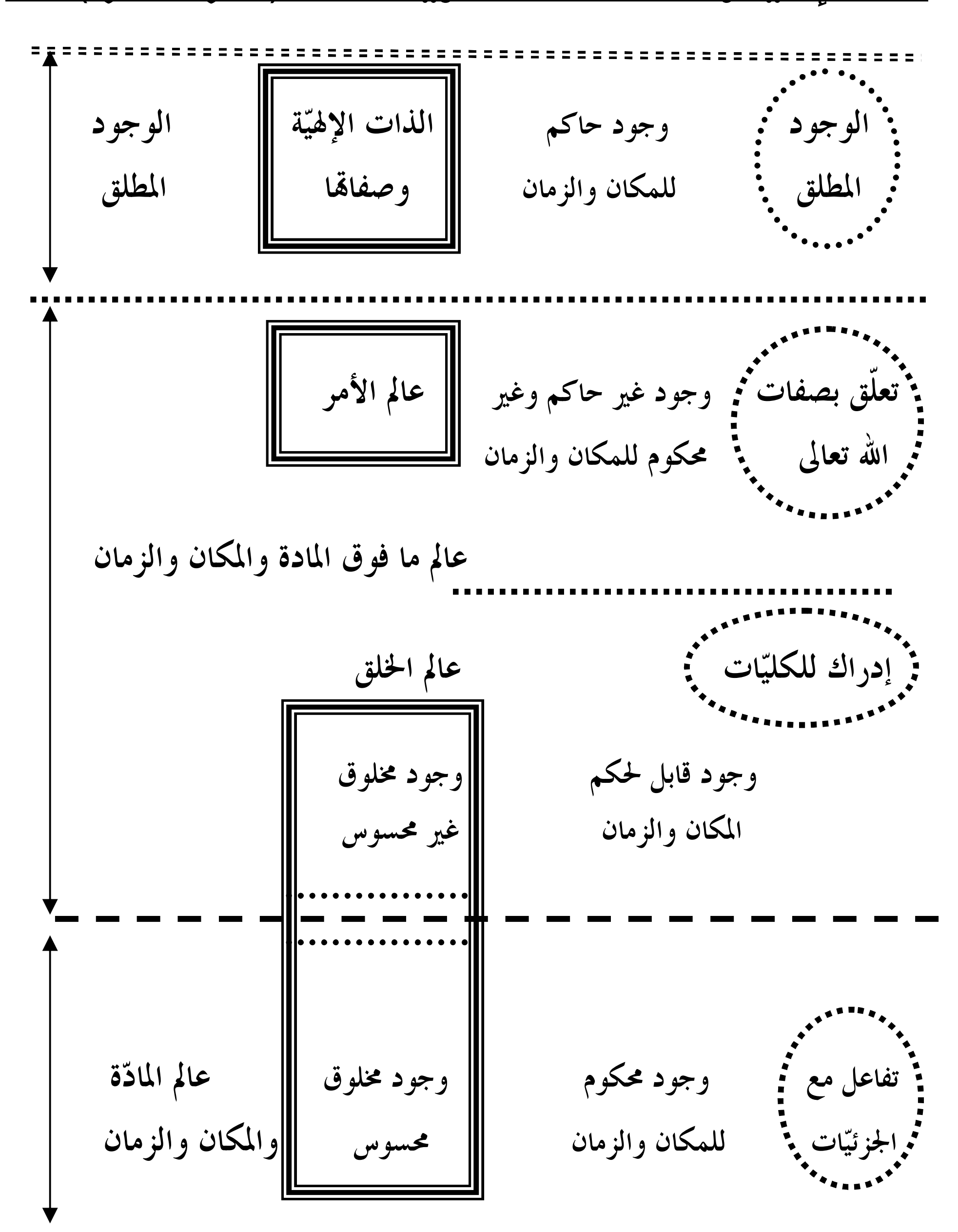
.. ولذلك عندما يقول الله تعالى ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦]

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢]

﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢]

فهو يعني الأشياء المتشيّئة ، أي المخلوقة الناتجة عن آثار عالم الأمر في عالمنا المخلوق ، ولا يعني بهذه العبارة ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مسائل الأمر التي تنتمي لعالم ما فوق المكان والزمان ، ولا يعني الذات الإلهيّة التي لا تُسمّى باسم الشيء ، كما بيّنا ..


الوجود المطلق
وجود حاكم للمكان والزمان
الذات الإلهيّة وصفاتها
الوجود المطلق
تعلّق بصفات الله تعالى
وجود غير حاكم وغير محكوم للمكان والزمان
عالم الأمر
عالم ما فوق المادة والمكان والزمان
إدراك للكليّات
عالم الخلق
وجود قابل لحكم المكان والزمان
وجود مخلوق غير محسوس
تفاعل مع الجزئيّات
وجود محكوم للمكان والزمان
وجود مخلوق محسوس
عالم المادّة والمكان والزمان

.. ولتقريب الصورة بين الصفات الإلهيّة وآثارها ، نأخذ مسألة الإرادة والمشيئة وآثارها في هذا العالم المخلوق ..

لقد رأينا في النظريّة الثانية (القدر) أنَّ الإرادة هي القصد والهدف والغاية التي تتصوّرها الذات وتريد اتّخاذ قرارٍ لها ، وذلك دون الأخذ بالأسباب التي تُخرجُ مُراد الذات إلى عالم الخلق والتشيّؤ (عالم المشيئة) .. ورأينا أيضاً أنَّ المشيئة هي قدرة الذات على تسخير الأسباب والأخذ بها ، وذلك لإخراج الإرادة (مُراد الذات) إلى عالم الحسّ والخلق (عالم المشيئة) ..

المشيئة = إرادة + تفاعل مع الأسباب في إطار المكان والزمان

ولّما كانت الأسباب تعود في خلقها إلى الله تعالى ، وتستمدُّ حيثيّات وجودها في كلِّ لحظة منه عزَّ وجل ، فإنَّ مشيئة الإنسان التي تُخرج مُراده إلى عالم الخلق والتشيّؤ ، ما كانت لتكون لولا تسخير الله تعالى للأسباب التي تُخرج هذه الإرادة .. وهكذا فالمشيئة الإنسانيّة لا تكونُ إلاَّ ضمن إطار المشيئة الإلهيّة التي تسخّر الأسباب للإنسان ، حتى يُخرج مُرادَه إلى عالم الخلق والتشيّؤ ..

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩]

ولو فرضنا جدلاً أنَّ الإنسان يملك مشيئة خارج إطار مشيئة الله تعالى ، لاقتضى ذلك أنَّ حيثيّات وجود الإنسان وحيثيّات وجود الأفعال التي يقوم بها مُستقلّة في وجودها وخواصّها عن صفات الله تعالى من خلق وقيّوميّة وَ ..... إلخ ، وبالتالي لاقتضى – هذا الفرض الجدلي – أنَّه تُوجَد للإنسان صفاتٌ قديمة مستقلّة عن صفات الله تعالى ، وبالتالي فإنَّ الذات الإنسانيّة قديمة وغير مخلوقة وتستمدُّ وجودها من ذاتها ، وكلُّ ذلك يُنافي حقيقةَ الذات الإنسانيّة وكلّ ذاتٍ مخلوقة في هذا الكون ..

إذا كانت الذات الإنسانيّة وصفاها مخلوقة وحادثة وتستمدُّ حيثيّات وجودها في كلِّ لحظة من الخالق سبحانه وتعالى ، فكيف يُمكن لأفعال الإنسان التي هي آثار صفاته ، كيف يمكن لها أن تكونَ مستقلّةً في وجودها عن آثار الصفات الإلهيّة ؟!!! ..

إنَّ الإرادة الإلهيّة هي صفةٌ للذات ، ولا يفصلها عن الصفات الأُخرى أيُّ فاصل ، ومنها صفة العلم المُطلق ، فالشيءُ قبل تشيّئه تعلمه الذات علماً مطلقاً ، وما تشيّؤه إلاّ نتيجة فعل صفة الإرادة وباقي الصفات المتوحّدة معها ..

﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : ١٠٧]

﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠]

لذلك فالخلق والتشيّؤ في هذا العالم المادّي لكلِّ ما تريده الذات عبر صفة الإرادة ، هو تفاعل آثار صفة الإرادة في إيجاد المادّة المخلوقة المتشيّئة ، أي تشيّؤ الأشياء التي تُريد الذات إيجادها ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج : ١٨]

﴿ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ [النور : ٤٥]

فكلُّ ما يحدث من حركة وفعل في هذا العالم المخلوق المتشيّء هو آثارٌ لصفات الله تعالى العظيمة في هذا العالم .. حتى الذي يختاره الإنسان بإرادته الحرّة المستقلّة عمّا يريده الله تعالى ، لا يُترجَم إلى فعل وحركة متشيّئة إلاّ عبر آثار صفات الله تعالى ، ولذلك رأينا كيف أنّه لا تُوجد للإنسان مشيئة إلاّ ضمن إطار مشيئة الله تعالى ..

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠]

وهكذا فالمشيئة الإلهيّة التي هي آثار صفة الإرادة وجميع الصفات الإلهيّة الأُخرى في هذا العالم المخلوق المتشيّء ، تعني :

١ – الأشياء والآثار الناتجة عن إرادة الذات الإلهيّة وصفاها في هذا العالم المتشيّء ..

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠]

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٣٦]

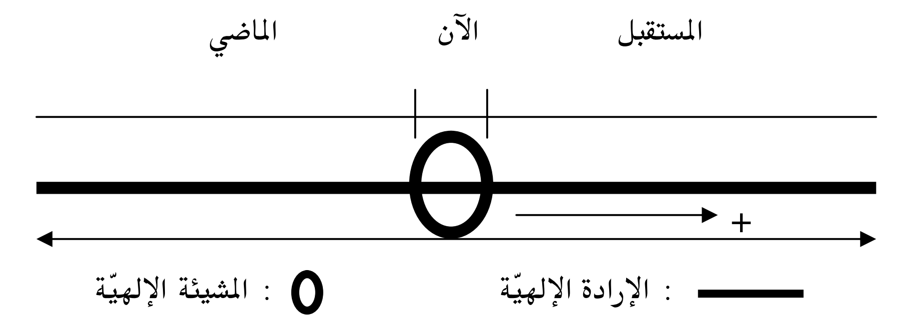
٢ – الأفعال والأشياء والأسباب التي يُسخّرها الله تعالى لإخراج إرادة الإنسان إلى آثارٍ متشيّئة في عالم الحسّ والوجود ، وهي المشيئة الإلهيّة المحيطة بالمشيئة الإنسانيّة ..



فمشيئةُ الله تعالى تعني هذين النوعين المذكورين ، أي تعني – فيما تعنيه – جميع الآثار والأفعال المتشيّئة التي يقوم بها الإنسان بحريّة تامّة في العالم المتشيّء ..

ولّما كانت الإرادة الإلهيّة صفةً للذات كغيرها من الصفات الأخرى ، فهذا يعني أنّها فوق الزمان والمكان .. ولّما كانت المشيئة هي آثار صفة الإرادة الإلهيّة وغيرها من

الصفات في هذا العالم المخلوق المتشيّء المحكوم لقوانين المكان والزمان ، فـإنَّ المشـيئة الإلهيّة تتحرّك على محور الزمن من الماضي باتّجاه المسـتقبل ، مرافقـةً للحظـة الآن (حسب مفهومنا البشري للآن) على محور الزمن .. بينما تمتدُّ الإرادةُ الإلهيّةُ على كامل محور الزمن ، لأنّها فوق الزمان والمكان ، وصفةٌ من صفات الله تعالى ..



وقد رأينا في النظريّة الثانية (القدر) كيف أنَّ الإرادة (سواء الإلهيّة أم الإنسانيّة) لا تتعلّق في الوقت ذاته بمسألتين متناقضتين ، حيث عبّر القرآن الكريم عن ذلك بعدم عطف مسألتين متناقضتين على إرادة واحدة .. ورأينا أنَّ المشيئة (سواء الإلهيّة أم الإنسانيّة) قد تتعلّق في الوقت ذاته بمسألتين متناقضتين ، حيث عبّر القرآن الكريم عن ذلك بعطف مسألتين متناقضتين على مشيئة واحدة ..

ومرجع ذلك أنَّ الإرادة الإلهيّة صفةٌ للذات الإلهيّة التي هي فوق التناقض والتبدّل والتغيّر الذي يتّصفُ به عالم الخلق المتشيّء (عالم الأسباب الماديّة) ، وكذلك الإرادة الإنسانيّة ترتبط مباشرة بنفس الإنسان المجرّدة عن عالم الخلق والتشيّؤ الحسّي ، تلك النفس التي تنتمي لعالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، ولذلك فهي (النفس) بماهيّتها المجرّدة عن تعلّقها بالجسد تنتمي لعالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ... بينما ساحة تفاعل المشيئة (سواء الإلهيّة أم الإنسانيّة) هي هذا العالم المادّي المحسوس المخلوق

المتشيّء الذي يحوي المتناقضات في الوقت ذاته ، ولذلك فالمشيئة تحمل المتناقضات في الوقت ذاته ، كون الأسباب المادّيّة المخلوقة (التي تحمل المتناقضات) جزءاً منها ..

ولذلك فالإنسان الذي يحملُ إرادةً تتّجه باتّجاه حرث الدنيا ، لا يمكنه — دون التخلّي عن إرادته هذه — أن يتّجه باتّجاه الآخرة ، كون الاتجاه نحو الآخرة نقيض الاتّجاه نحو الدنيا ، وبالتالي ما له في الآخرة من نصيب ، وبالتالي فإنَّ ارتباط الإرادة بالدنيا يعني استحالة ارتباطها بالآخرة في الوقت ذاته ، وبالتالي حرمان صاحب هذه الإرادة من نصيب الآخرة ..

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠]

إنَّ كلَّ شيءٍ (من عناصر عالم الخلق المادّي) تريدُ الذات الإلهيّة وجودَه في هذا العالم المخلوق المتشيّء سيحصل وسيُوجَد ، ولا يمكن أن يحصلَ نقيضه ، لأنَّ الإرادة الإلهيّة — كصفة للذات الإلهيّة — لا تحمل نقيضين في الوقت ذاته للمسألة ذاتها كما رأينا ..

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

بينما الأشياء التي ترتبط بالمشيئة الإلهيّة ، فقد رأينا أنَّها تتكوّن من قسمين :

١ — الأشياء والآثار الناتجة عن إرادة الذات الإلهيّة وصفاتها في هذا العالم المتشيّء ، بمعنى إخراج مُراد الذات الإلهيّة لإيجاد الأشياء في عالم الخلق ، وهذا القسم من المشيئة الإلهيّة سيحصل ، ولا يحصل نقيضه ، كون إرادة الله تعالى لا تحمل النقائض ..

٢ — الأفعال والأشياء والأسباب التي يُسخّرها الله تعالى لإخراج إرادة الإنسان إلى آثارٍ متشيّئة في عالم الحسّ والوجود .. بمعنى تسخير الأسباب لإخراج مُراد الإنسان في

عالم الخلق والتشيّؤ ، وهذا القسم من المشيئة من الممكن للبشر التأثير عليه ودفعه باتّجاه إرادة البشر (خيّرة كانت أم شرّيرة) ..

.. لننظر إلى الصور القرآنيّة التالية ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٦]

﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج : ٥]

﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم : ٤٨]

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾ [الشورى : ٤٩ – ٥٠]

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٧ – ٨]

.. إنَّ المسائل التي ترتبط بالمشيئة الإلهيّة في هذه الآيات الكريمة (تصوير المواليد في الأرحام – بسط السحاب في السماء – تحديد جنس المولود – تركيب صورة الإنسان) ، هي مسائل تحدث في هذا العالم المخلوق المتشيّء .. والمشيئة الإلهيّة المحيطة بهذه المسائل تعني تسخير الله تعالى للأسباب التي تحدث من خلالها هذه المسائل ، سواء المسائل التي يريدها الله تعالى أن تخرج إلى عالم الحسّ والوجود ، أم التي يتفاعل معها الإنسان عبر إرادته المستقلّة لإخراجها إلى عالم الحسّ (عالم الخلق والتشيّؤ) ..

ولذلك نرى أنَّ الإنسان يستطيع التدخّل والتفاعل في هذه المسائل التي هي من عالم الخلق والتشيّؤ ، وهي آثارٌ لصفات الله تعالى في هذا العالم ، وليست متعلّقةً بصفات الله تعالى مباشرةً كما هو الحال في مسائل عالم الأمر .. فمسائل الاستنساخ البشري ، وبسط السحاب في السماء ، وإنزال المطر من السماء ، وتحديد جنس المولود ، والتدخُّل بصورة المولود بعد اكتشاف الخريطة الجينيّة للبشر ، كلّها مسائل متشيّئة في هذا العالم

عبر أسبابٍ مخلوقة ومسخّرة بين يدي الإنسان ، ويتفاعل الإنسان مع هذه المسائل — وجميع مسائل عالم الخلق والتشيّؤ — ويؤثّر ويتأثّر بها ، كونه ينتمي لعالم التشيّؤ هذا ، وكون الأسباب الفاعلة في هذه المسائل مسخّرة بين يديه ، وكلّ ذلك ضمن إطار مشيئة الله تعالى .. فارتباط مشيئة الله تعالى بهذه المسائل يعني أنَّ أسباب حدوث هذه المسائل تعود إلى الله تعالى ، وهي من آثار صفاته العظيمة في هذا العالم المخلوق ..

ولو أتت هذه المسائل متعلّقةً بالإرادة الإلهيّة ، لكان من المستحيل على البشر أن يؤثّروا فيها ، لأنّها — في هذه الحالة المفترضة — ترتبط بالصفات الإلهيّة التي هي فوق عالم المتناقضات ، كصفة الإرادة وغيرها من الصفات .. فعلى سبيل المثال لو قال الله تعالى (ويجعل من يريد عقيماً) بدلاً من قوله جلّ وعلا **﴿ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ﴾** ، لاستحال شفاء العقيم ، وذلك لسببين اثنين :

١ — إذا ارتبطت إرادة الله تعالى بشيء فهذا يعني أنَّ احتمال وقوع نقيضه مستحيل .. فإرادة الله تعالى حينما ترتبط بعقم فلان من الناس ، فهذا يعني أنّه من المستحيل أن يُنجب ..

٢ — الإرادة هي — كما رأينا — دون الأخذ بالأسباب ، وبالتالي فلا أسباب لهذه المسألة (في هذه الحالة المفترضة) ، وبالتالي كيف يمكن للأطباء أن يقوموا باستخدام الأسباب لشفاء العقيم ؟ ..

ولكن بورود هذه المسألة بصيغة المشيئة **﴿ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ﴾** نرى كيف أنَّ العقيم — أحياناً — يتمّ شفاؤه وإنجابه ، فارتباط مشيئة الله تعالى بهذه المسألة يعني أنَّ الله تعالى يسخّر أسباب حصولها ، وبالتالي من الممكن وقوع نقيضها إذا استخدم الإنسان هذه الأسباب بالاتّجاه الذي يؤدّي إلى هذا النقيض ..

وحريّةُ الاختيار التي يقتضيها امتحان الإنسان في الحياة الدنيا تقتضي أن تُتْرَك للذات الإنسانيّة إرادةٌ حرّةٌ مستقلّة – حتى عن إرادة الله تعالى – تتعلّق مع الصفات الأخرى للذات الإنسانيّة .. ولذلك قد يريد الإنسان ما لم يُرده الله تعالى ..

﴿ **تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ** ﴾ [الأنفال : ٦٧]

وهذا لا يعني – كما يتوهّم التائهون ، وكما يفتري عابدو أصنام التاريخ – أنَّ الإرادة الإنسانيّة قد حلّت مكان الإرادة الإلهيّة ، أو أنَّ الإرادة الإلهيّة عاجزة عن ردع الإرادة الإنسانيّة .. إنّ من يتخيّل ذلك ينفي حريّة الاختيار الإنسانيّة المرتبطة بالامتحان العادل في هذه الدنيا ، وينفي أن يكون فعل الإنسان ناتجاً عن إرادته الحرّة المستقلّة النابعة من ذاته ، وينفي – أيضاً – المعاني المحكمة الواضحة التي تحملها كلمات الله تعالى بالنسبة لهذه المسألة ..

لقد أمرنا الله تعالى بتنفيذ أحكام منهجه ، وأن يتّصف الإنسان بصفاتٍ خيِّرة توافق ما جاء به المنهج الإلهي ، فهل عدمُ استجابةِ العصاة للأوامر الإلهيّة المُرادة من الله تعالى ، واتّصافُهُم بصفات سيّئة تناقض ما يأمر الله تعالى به ، هل هو ناتجٌ عن عجز الله تعالى وعدم قدرته عليهم ؟!!! .. إنَّ المسألة هي مسألة امتحان عادل حكيم ، وبالتالي فسح المجال للإنسان بأن يطيع ويعصي بحريّة كاملة ، وفسح المجال له بأن يريد ما يريده حتى وإن كان ما يريده مخالفاً لما يريده الله تعالى ويأمر به ..

وإنّ استدلال بعضهم بالآية الكريمة ﴿ **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس : ٨٢] ، على أنَّ كلَّ شيءٍ يحصل في هذا الكون يريده الله تعالى ، هو استدلالٌ باطل ، فالآيةُ الكريمة تقول : **[** إنَّ كلَّ شيءٍ يريده الله تعالى أن يكون في هذا العالم المخلوق سيكون **]** ، ولا تقول : إنَّ كلَّ ما يكون يريده الله تعالى ..

في حياتنا الدنيا هذه نرى أنَّ العسرَ مسألةٌ كائنةٌ بين البشر ، في حين أنَّ الله تعالى لا يريد العسر ، إنّما يريد نقيضه (اليسر) .. فالعسر مسألةٌ كائنةٌ بين البشر ، ولا يريدها الله تعالى ..

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]

ونرى أيضاً أنَّ الظلم مسالةٌ كائنةٌ بين البشر ، في حين أنَّ الله تعالى لا يريد الظلم ..

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٨]

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١]

ونرى أنَّ معظم البشر يركضون وراء عرض الدنيا الزائل ، مع أنَّ الله تعالى يريد منهم أن يتّجهوا باتّجاه الأعمال التي تنفعهم في الآخرة ..

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَ ﴾ [الأنفال : ٦٧]

فقولنا إنَّ الإنسان العاصي الشرّير تتّجه إرادته بغير الاتّجاه الذي يريده الله تعالى ، لا يعني أنَّ الإنسان قد خرج عن إطار قدرة الله تعالى .. إنّ ما نعنيه هو أنَّ هذا الإنسان خالف في حياته التي يُمتحن بها ما يريده الله تعالى من خير ، فالله تعالى أعطاه القدرة على مخالفة ما يريده الله تعالى وما يأمر به بغية امتحانه امتحاناً عادلاً في هذه الدنيا (دار الامتحان) ..

ولكن .. حتى هذه الإرادة الإنسانيّة الضالّة المخالفة لأمر الله تعالى وما يريده من خير للإنسان .. هل يستطيع الإنسان فعلها وإخراجها إلى عالم المشيئة كعملٍ حسّيّ دون الأسباب التي خلقها الله تعالى وسخّرها بين يديه ؟!!! .. بمعنى آخر .. هل يستطيع القفز فوق مشيئة الله تعالى ؟ .. إنَّ ذلك من المستحيل ، لأنَّ جميع الأسباب التي يستخدمها الإنسان لتحقيق مراده وإخراجه إلى عالم المشيئة والحسّ مخلوقة لله تعالى ، وتستمدّ حيثيّات وجودها – في كلّ لحظة – من الله تعالى ، فهو (نعني الإنسان)

والأسباب التي يتفاعل معها ، ينتمي لعالم الخلق والتشيّؤ ، ويستمدّ حيثيّات وجوده عبر آثار صفات الله تعالى ..

.. إذاً .. الإرادة الإلهيّة ، وباقي الصفات الأخرى ، هي في حقيقتها ومن زاوية الأمر الإلهي لا تحمل الشرَّ أبداً .. فالله تعالى لم يرد إلاّ الطاعة والخير للبشر ..

أمّا بالنسبة للمسألة من زاوية عالم الأفعال والمشيئة التي نتفاعل معها نحن البشر ، ومن زاوية علم الله تعالى المُسبَق لما سيكون ، فإنَّ الله تعالى أراد السماح للشرّ المرتبط بإرادة الإنسان أن يحدث ، ليكون الإنسان شاهداً على نفسه يوم القيامة ..

هذه النقطة تاه فيها الكثيرون ، فحسبوا أنَّ ارتباط الإرادة الإلهيّة بمسائل ظاهرها — من منظار عالم الخلق الذي يحوي المتناقضات — حاملاً الشرّ للإنسان ، يعني أنَّ الشرَّ عائدٌ إلى الإرادة الإلهيّة وليس إلى إرادة الإنسان الضالّة ..... وكلّ إنسان يُمعن النظر في النصوص القرآنيّة التي يتوّهم ضعيفو الإدراك أنَّها تعني تعلّق الإرادة الإلهيّة بالشر ، سيدرك أنَّ أثر إرادة الله تعالى في هذه المسائل هو السماح لإرادة الإنسان الشريرة المتوحّدة بذاته ، أن تحدث عبرَ أسبابٍ يسخّرها الله تعالى في هذا العالم الحادث المتشيّء ..

إنَّ جميع الصفات الإلهيّة بما فيها الإرادة ، هي فوق عالم الخلق والتشيّؤ الذي يحوي المتناقضات ، وقد رأينا كيف أنَّه في القرآن الكريم لا تُعطف مسألتان متناقضتان على إرادة واحدة ، بينما يُمكن أن تُعطفا على مشيئة واحدة .. فالإرادة الإلهيّة التي تحملُ الخير للإنسان لا تحمل له الشرَّ أبداً .. ومردّ ذلك أنَّ الصفات الإلهيّة هي فوق عالم الخلق الذي يحوي المتناقضات ..

والصورة القرآنيّة التالية تؤكّد أنَّ الإرادة الإلهيّة لا تُحمل الشرَّ أبداً ، وبالتالي تحمل الخير والرشد ..

﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ٧٢ — ١٠]

إنّنا نرى أنَّ إرادة الشر تأتي بصيغة المبني للمجهول ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ و لم تأت متعلّقةً بالذات الإلهيّة كما هو الحال في إرادة الرشد الخيّرة ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .. فالله تعالى الذي يريد الخير للبشر لا يريد لهم الشرَّ أبداً ..

ولننظر بعمق في النصوص القرآنيّة التي يتوهّم ضعيفو الإدراك أنّها تربط إرادة الله تعالى بالشر ، لنرى كيف أنَّ الشرَّ ناتجٌ عن إرادة الإنسان الضالّة المتمرّدة على أمر الله تعالى ، وكيف أنّه في كلِّ صورة من هذه الصور القرآنيّة نرى إرادةً شرّيرة للإنسان يترجمها إلى عملٍ شرّير ، وأنَّ الشرّ يحصل نتيجة تغيير في نفوس البشر وإرادهم باتّجاه الشر ، ولنرى كيف أنَّ إرادة الله تعالى – بالنسبة لهؤلاء الذين يملكون إرادةً شرّيرة – ترتبط بترك الإرادة الإنسانيّة الشرّيرة تحدث عبر أسباب يسخّرها الله تعالى لذلك ، ولا تعني – أبداً – أنَّ الله تعالى يريد لهم الشر .. فما يُغيّره الله تعالى في قوم يكون نتيجة تغيير في أنفسهم ، وبالتالي نتيجة اتّجاه إرادهم نحو الأسباب التي تؤدّي إلى هذا التغيير ..

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٦]

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [المائدة : ٤١]

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٩]

﴿ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥]

﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٥٤ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٤ — ٥٥]

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨٤ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤ — ٨٥]

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٢ — ٣٤]

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١]

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ۝١٥ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ۝١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ [الإسراء : ١٥ — ١٧]

﴿ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ۝١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ۝١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٦ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ١٣ — ١٧]

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس : ٢٣]

﴿ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨]

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الفتح : ١١]

هذه هي جميع النصوص القرآنيّة التي يتوهم ضعيفو الإدراك بأنّها تتعلّق فيها الإرادة الإلهيّة بالشر .. ولو نظرنا في هذه النصوص إلى سياق الحديث السابق واللاحق للعبارات القرآنيّة التي تحوي الإرادة الإلهيّة ، لرأينا فيها معاصي ، وتغييراً في النفوس ، وكفراً وابتعاداً عن منهج الله تعالى ، وآثاماً ، يرتكبها من تُخاطبهم الإرادة الإلهيّة في هذه النصوص .. فتعلُّق الإرادة الإلهيّة بهذه المسائل يعني ترك الإرادة الإنسانيّة الضالّة أن تختار طريق الضلال ، وبالتالي وقوع الإنسان الذي يحمل هذه الإرادة الضالّة في الشرّ الناتج عن إرادته الشرّيرة ..

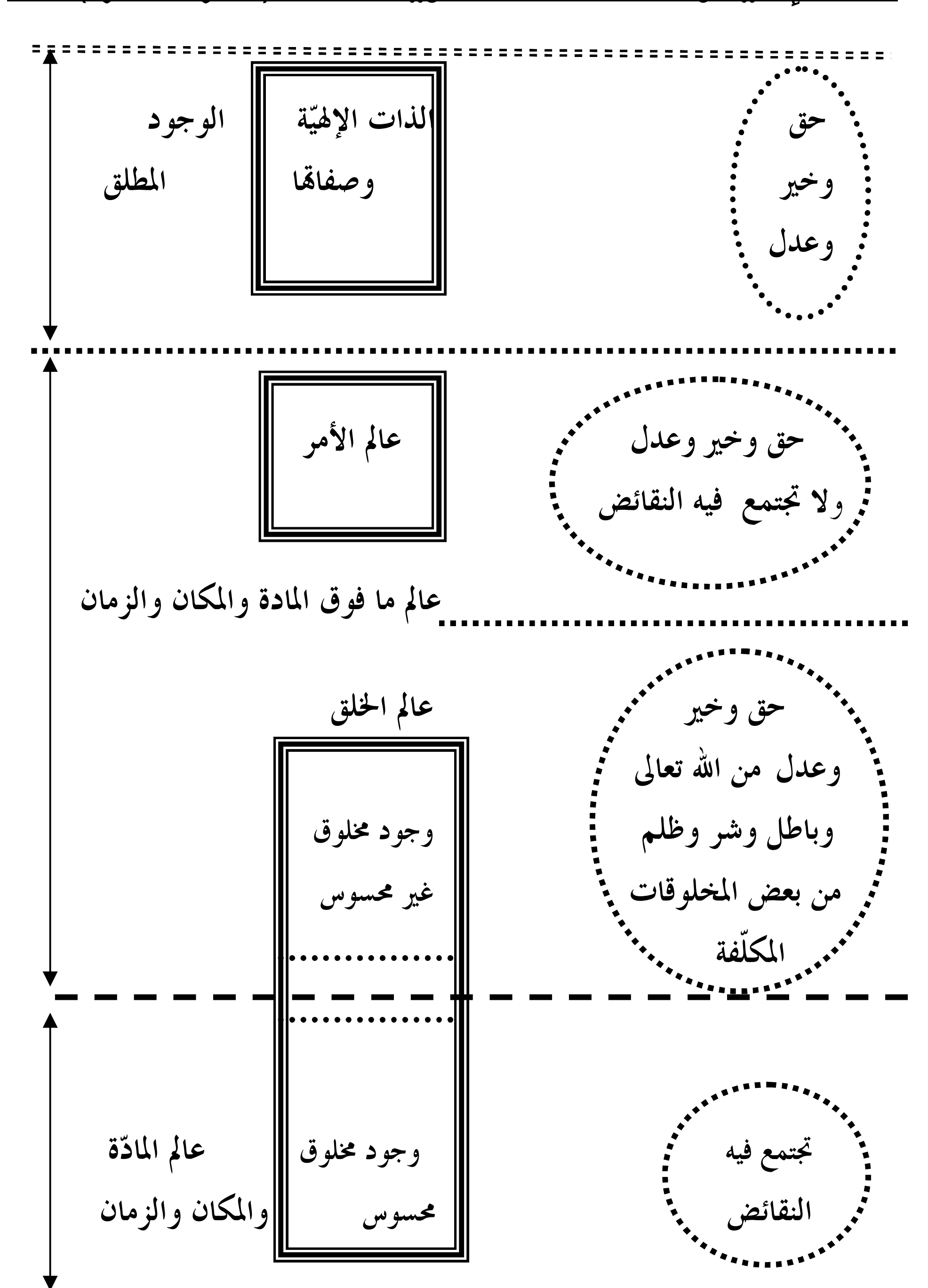
وهكذا .. علينا أن ننظر إلى الإرادة الإلهيّة من منظارين ..

١ – من منظار حقيقتها وهدفها وغايتها كصفةٍ من صفات الله تعالى ، التي هي فوق عالم الخلق والتشيّؤ الذي يحوي المتناقضات ، هي خيرٌ مطلق ، فهي صفةٌ من صفات الله تعالى المطلقة التي تحيطُ بكلٍّ موجودات هذا الكون ..

٢ – من منظار حكمة الله تعالى في ترك الإنسان الممتحن في هذه الدنيا أن يختار ما يريد ، وتسخير الله تعالى للأسباب التي سيختارها الإنسان ، ووصول الإنسان إلى النتائج المترتّبة على هذا الاختيار [وهذا ما رأيناه في النصوص القرآنيّة السابقة حيث يتوهّم ضعيفو الإدراك بارتباط الإرادة الإلهيّة بالشر] ، وهذا هو منظار تفاعل البشر مع منهج الله تعالى ... من هذا المنظار قد ترتبط إرادة الله تعالى بترك الإرادة الإنسانيّة الشرّيرة أن تُترجَم إلى أعمال شرّيرة ، وبالتالي وقوع صاحب هذه الإرادة بالشرّ الذي اتّجهت إليه إرادته .. وهذا لا يصف الإرادة الإلهيّة بالشر .. إنَّ الله تعالى يريد عدم وقوع هذه

الإرادة الشريرة ، ولكنَّ حريّة الاختيار وعدالة الامتحان ، تقتضي ترك الإنسان يفعل ما يريد ..

وهكذا فصفات الله تعالى المتوحّدة بذاته ، هي مطلقة ، وهي خيرٌ وحقٌّ وعدل ..


الوجود
المطلق
الذات الإلهيّة
وصفاتها
حق
وخير
وعدل
عالم الأمر
حق وخير وعدل
ولا تجتمع فيه النقائض
عالم ما فوق المادة والمكان والزمان
عالم الخلق
وجود مخلوق
غير محسوس
حق وخير
وعدل من الله تعالى
وباطل وشر وظلم
من بعض المخلوقات
المكلّفة
عالم المادّة
والمكان والزمان
وجود مخلوق
محسوس
تجتمع فيه
النقائض

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

القرآن العربي

.. لقد رأينا كيف أنَّ الوجود هو ثلاث مراتب ، وبيّنا أنّها :

١ – الذات الإلهيّة وصفاها ..

٢ – عالم الأمر .. وهو خارج إطار المكان والزمان ، ولا تجتمع فيه المتناقضات ، وينتمي إليه الروح والقرآن الكريم ..

٣ – عالم الخلق والتشيّؤ .. وهو عالم المادّة ، وخاضع لقوانين المكان والزمـــان ، وتجتمع فيه المتناقضات ..

وكما بيّنا في النظريّة الثانية (القدر) ، فإنَّ الإنسان مُكوَّنٌ من عنصرين متمايزين ، هما **النفس** التي تنتمي للوجود المخلوق غير المحسوس ، و**الجسد** الذي ينتمي للوجـــود المخلوق المحسوس ، والنفس بماهيّتها المُجرَّدة عن الجسد ليست خاضعة لقوانين المكـــان والزمان ، ولا تحسُّ بالزمان والمكان إلاَّ بعد دخولها الجسد أثناء اليقظة .. وبالتالي فـــإنَّ تفاعل العقل البشري وتصوّراته تنقسم إلى قسمين اثنين :

١ – في تفاعله مع العلوم المجرّدة كالرياضيات ، لا يستطيع أن يتصوَّر النقيضـــين للأمر الواحد ، كون العالم المجرّد لا تجتمع فيه المتناقضات .. فالعقل الذي يتصوّر الاثنين (كرقم مجرّد عن أيٍّ تعلّق مادّي بعالم الخلق) أكبر من الواحد ، لا يمكنه تصوّر نقيض ذلك وهو أنّ الواحد أكبر من الاثنين .. وإن أردنا أن نتصوّر الواحد أكبر من الاثـــنين فلا بُدّ من إنزال هذه المسألة إلى عالم الخلق الذي يحوي المتناقضات ، ولا بُدّ من تلبيس هذه المسألة للمادّة ، فالتفاحة (كجسم مادّي بعيداً عن الرقم المجرّد) الكبيرة أكبر من تفاحتين صغيرتين .. وكلُّ ذلك يعود إلى كون النفس الإنسانيّة مُجرّدة عن عالم المـــادّة

الحسي ، وإلى كون القضايا الرياضيّة المجرّدة أموراً معنويّة لا تتعلّق بعالم المادّة المحسوسة ..

٢ – في تفاعله مع العلوم الماديّة الحسّيّة التي تتعلّقُ بصفات المادّة الموجودة بين أيدينا في عالم الخلق والتشيّؤ ، يمكنه أن يتصوّر الشيء ونقيضه بآن واحد .. فالعقل الذي تصوّر أنّ انخفاض درجة الحرارة يؤدّي إلى تقلّص أقطار الجسم ، يمكنه أن يتصوّر أنّ انخفاض درجة الحرارة يؤدّي إلى نقيض ذلك وهو تمدّد أقطار الجسم .. فالماء – كما نعلم – في الدرجة (+٤) مئويّة يبدأ بالتمدّد مع انخفاض درجة الحرارة .. وكلُّ ذلك يعود إلى كون النفس الإنسانيّة في تفاعلها مع عالم المادّة أثناء وجودها في الجسد تكون محكومة لقوانين المكان والزمان ، وإلى كون الموادّ العلميّة المتناولة في العلوم الحسيّة تتعلّق مباشرةً بعالم المادّة المحسوسة ..

والقرآن الكريم – كما رأينا – ينتمي لعالم الأمر ، وهو أعلى من عالم الوجود غير المحسوس الذي تنتمي إليه النفس ، وأعلى من عالم الوجود المحسوس الذي ينتمي إليه الجسد .. ولذلك فنهايةُ ما يحملُ القرآن الكريم من دلالات ومعجزات لا تصل إليه النفسُ البشريّة مهما ارتقت تصوّراتها المجرّدة والمحسوسة ..

وكلُّ ذلك يتعلّقُ بأمرين اثنين :

١ – يتعلَّقُ كما رأينا بكون القرآن الكريم صياغة لغويّة من الله سبحانه وتعالى ، أي يتعلّق بكون القرآن الكريم قولَ الله تعالى .. فصياغة الجمل القرآنيّة وربطها ببعضها بعضاً هو من عند الله تعالى ..

٢ – يتعلَّقُ الأمْرُ أيضاً بكون الكلمة القرآنيّة من عند الله تعالى ، وليست مصطلحاً اصطلح البشر عليه واختاروه كما نرى من مصطلحات تظهر بين الحين والآخر .. أي يتعلّق الأمر بكون المفردة القرآنيّة فطريّة موحاة من الله تعالى ، وليست اصطلاحيّةً من صنع البشر ..

.. إنَّ المفردةَ اللغويّةَ هي الوعاءُ الحاملُ للدلالاتِ التي وُضِعتْ هذه المفـــردةُ مـــن أجلِها ، فنحن البشر حينما نصنع شيئاً أو نكتشف شيئاً أو نرى شيئاً جديداً ، نضع له مُسمّى ، وذلك بغية تعريفة حينما نتخاطب فيما بيننا .. ولذلك فجميـــعُ المفـــرداتِ اللغويّةِ الوضعيّةِ متأخِّرةٌ – في وضعِها – عن المعاني والدلالات التي تحملُها .. فالمعـــاني والحقائقُ والمشاعرُ تكونُ موجودةً ، وبعدَ ذلك يُوضعُ اللفظُ لها ..

إنَّ تسميتنا نحن البشر لأمرٍ أو شيءٍ ما تتعلّقُ بالأمور التالية :

١ – تتعلّقُ هذه التسمية بدرجة إدراكنا لماهيّة المُسمَّى .. فالتسمية بمقـــدار مـــا تصوّر حقيقة الأمر أو الشيء ، بمقدار ما تكون قريبةً من وصفه الوصف الحق ، وبالتالي فالتسمية الحقُّ للأمر أو الشيء والخالية من كلّ عيب ونقص ، تقتضي إدراكاً كـــاملاً لماهيّة هذا المُسمّى ، وبمقدار نقص إدراكنا لحقيقته ، تنقص تسميتنا له عـــن مســـتوى التسمية الحق ..

٢ – تتعلّقُ هذه التسمية بقدرتنا على وصف ما أدركنا من ماهيّة المُسمَّى ، وبالتالي بمقدار ما تكون قدرتنا على وصف ما أدركناه (عبر قالب لغوي) أكبر ، بمقدار مـــا تكون تسميتنا للمُسمّى أقرب إلى التسمية الحق ..

٣ – تتعلّقُ هذه التسمية بدرجة إدراكنا لحيثيّات تغيّر ماهيّة المُسمّى مع الزمن ، إن كان من عالم الوجود المحسوس ، وتتعلّقُ – أيضاً – بدرجة إدراكنـــا لحيثيّـــات إدراك الأجيال المتلاحقة لهذا التغيّر ، وبالتالي تكون هذه التسميةُ أقربَ إلى التسمية الحق وإلى وصف حقيقة الشيء للأجيال المتلاحقة ، بمقدار علمنا بتغيّر ماهيّة هذا الشيء مع الزمن ، وبمقدار علمنا بتغيّر إدراك الأجيال المتلاحقة لهذه الماهيّة ..

ولو نظرنا في المسميّات البشريّة للأشياء لرأينا أنَّ الكثير من الأسماء التي نطلقها على الأشياء لا تُوافقُ حقيقتَها وماهيّتَها إلاَّ بحدودٍ ضيّقة هي ذاتها حدود إدراكنـــا وقـــدرتنا على الصياغة اللغويّة لما أدركناه .. وبالتالي فتسميتنا لا ترتقي – أبـــداً – إلى التســـمية

الحق التي تصف المسمّى وصفاً مُطلقاً .. ولو كُنّا كالملائكة في اتّباعنا للحق ، وسنحاسب على تسميتنا لِلمُسميّات ، إذا ابتعدت تسميتنا عن التسمية الحق ، لما تجرّأنا على تسمية أمرٍ واحد أو شيء واحد .. هذه الحقيقة بيّنها الله تعالى في القرآن الكريم بشكلٍ واضحٍ جليٍّ حينما صوّر لنا طلبه من الملائكة بأن ينبئوه بالأسماء الحق ، حينما عرض أصحاب تلك الأسماء على الملائكة ..

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣١ – ٣٢]

عندما أجابت الملائكة : **﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ ﴾** معلنةً عدم قدرها على الإنباء عن الأسماء الحق ، إنّما قالت ذلك لأنّها لم تستطع أن تعلم العلم الحق لماهيّة أصحاب هذه الأسماء ، ولو كان الأمر مجرّد تسمية كما نسمّي نحن دون الارتقاء إلى التسمية الحق ، لما كانت هناك مشكلة أمام الملائكة ، ولسمّتها كما نسمّي نحن الأشياء ، ولكنّ التسمية المطلوبة هي التسمية الحق ، التي تصف وصفاً تامّاً حقائق أصحاب تلك الأسماء ..

وقد رأينا في النظريّة الثانية (القدر) أنّ الله تعالى علَّم آدم الأسماء كلَّها ، في عالم ما وراء المادة والمكان والزمان ، قبل حلول نفسه في جسده ، أي علّمها لآدم النفس ، وبالتالي علينا ألاَّ نفرض تصوّراتنا المكانيّة الزمانيّة على عملية التعليم هذه ، فالأمرُ تمَّ بعلم الله تعالى وقدرته وفي عالم مُجرّد عن الزمان والمكان ..

وإضافة إلى أنَّ تسميتنا للأمور والأشياء ناقصةٌ عن التسمية الحق ، بسبب علمنا الناقص عن العلم الكامل بحقيقة هذه الأشياء ، وبسبب قدرتنا الناقصة عن الصياغة المطلقة لما علمناه ، إضافة لذلك ، فإنّ هذه التسمية ذات خصوصيّة فرديّة وقوميّة ، فقد

تختلف تسمية الشيء ذاته من فرد لآخر ، ومن أمّة لأُخرى ، حسب المناظير المختلفة التي تنظر منها الأمم وأفرادها إلى هذا الشيء ، وحسب درجات علمهم بماهيّته عبر الأزمنة ، وحسب قدراتهم المختلفة على الصياغة ..

ولّما كانت حقيقة الأمور والأشياء فوق الرؤى المختلفة التي تنظر منها المخلوقات إلى هذه الأمور والأشياء ، ولّما كانت حقيقة الأمور والأشياء لا يعلمها أحد كعلم موجدها وخالقها جلّ وعلا ، ولا أحد غير الله تعالى يستطيع ترجمة هذا العلم المطلق إلى صياغة مطلقة تصوّر تصويراً مطلقاً حقيقة هذه الأمور والأشياء ، فإنَّ التسمية الحق والتي تصف وصفاً مطلقاً حقيقة المُسمَّى لا تكون إلاّ من الله تعالى ، وإنَّ ارتباط الذوات المسمّاة من الله تعالى بأسمائها ، يماثل تماماً ارتباط المادّة بصورتها ..

إذاً .. النصُّ المُطلقُ هو نصٌّ يتميّز بالصفتين التاليتين :

١ – كلماته من الله تعالى ، بمعنى أنَّها تصف المسمّيات وصفاً مطلقاً يتعلّقُ بعلم الله تعالى المُطلق ، وبقدرته المُطلقة على الصياغة .. وبالتالي فهذه الكلمات فطريّة موحاة من الله تعالى ، وليست اصطلاحيّة من صنع البشر ..

٢ – صياغةُ هذه الكلمات الفطريّة الموحاة من الله تعالى في الجمل والعبارات المكوِّنة للنص المطلق ، هي أيضاً من الله سبحانه وتعالى .. فما الفائدة من صياغة مفردات فطرية موحاة من الله تعالى في جملٍ يقوم بصياغتها البشر ..

ويبيّن لنا القرآن الكريم أنَّ الأسماءَ كلَّها علّمها لآدم النفس قبل حلول نفسه في جسده ..

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١]

.. وعندما يقول الله تعالى ﴿ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ فهذا يعني الأسماء كُلَّها .. من هنا نرى كيف أنَّ العقل البشريَّ يحمل إمكانية التفاعل مع أسماءِ كلِّ الموجودات ..

ويبيّن لنا القرآن الكريم أنّه نزَّله الله تعالى تبياناً لكلِّ شيءٍ .. ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] .. وعندما يصفُ الله تعالى كتابه الكريم بأنّه نزّلَه ﴿ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ ﴾ ، فهذا يعني أنَّه تبيانٌ لكلِّ شيء ..

إذاً .. القرآن الكريم تبيانٌ لكلِّ شيء ، والله تعالى علّم آدم الأسماء كلّها .. إذاً .. الله تعالى علّم آدم المفردات القرآنيّة التي هي تبيانٌ لكلِّ شيء ، وبالتالي تحملُ (المفردات القرآنيّة) الأسماءَ كلّها .. إذاً .. هبط آدمُ عليه السلام بالمفردات القرآنيّة إلى الأرض ، لتكون هذه المفردات اللغةَ الأولى للبشريّة والتي نطق بها أبو البشريّة آدمُ عليه السلام ..... ومع الزمن بدأت لغات البشر تتفرّع وتتوسّع باتجاهات مختلفة ، فحافظت بعض اللغات على بعض المفردات الفطريّة ، وهذا ما يُفسّر وجود بعض المفردات القرآنيّة في لغات أُخرى .. ومع الزمن قلَّ استعمال بعض هذه المفردات الفطريّة عند قوم العرب الذين احتوت لغتهم القوميّة على جميع المفردات الفطريّة ، وهذا ما يُفسِّر زعم بعض أفراد الأجيال الأُولى بأنّ بعض الكلمات القرآنيّة ليست عربيّة ..

إنّ كلَّ اللغات العالميّة (ما عدا المفردات القرآنيّة) هي لغات وضعيّة تفرّعت وابتعدت عن اللغة الفطريّة التي نزل بها آدم عليه السلام ، وتقترب هذه اللغات من الفطرة ، وتبتعد عنها ، بمقدار اقترابها وابتعادها عن اللغة الفطريّة التي علّمها الله تعالى لآدم عليه السلام ..

وهكذا فإنّ اللغة الفطريّة التي تحمل مفاتيح التسمية الحق لكلِّ ما هو موجود في هذا الكون ، انحصرت داخل إطار لغة حافظت عليها أمّة فطريّة ، استمرّت بفطرتها منذ آدم

عليه السلام إلى محمّد ﷺ .. لقد وضعت هذه الأمّة الكثير من المسمّيات الوضعيّة داخل لغتها ، لكنّها حافظت على المفردات التي نزل بها آدم عليه السلام ..

وَحَسبَ بعضهم أنّ بعض المفردات القرآنيّة التي قلَّ استعمالها عند العرب وانتقلت إلى لغات أُخرى ، أو حافظت عليها لغات أخرى .. حَسبَها ليست عربيّة بالمعنى القومي .. مع أنّها عربيّة بالمعنى الفطري الموحى من الله تعالى ، واستعمالها القومي لا يلغي فطريّتها ، لأنّها أصلاً ليست وضعيّة من قبل البشر ..

وحكمة الله تعالى اقتضت أن يُنزِّل منهجه المُعجز للبشريّة جمعاء ، والحامل لمنهج الهداية للبشريّة جمعاء ، بلغة فطريّة أوحاها لأبي البشريّة جمعاء (آدم عليه السلام) ، على رسول أُمّي فطري ، يعلم اللغة الفطريّة الموحاة من الله تعالى ، وينتمي إلى مجتمع أُمّي فطري يعلم هذه اللغة الفطريّة ، حتى يكون هذا المنهج وهذه المعجزة للبشريّة جمعاء التي تفرّعت لُغاتها عن لغة صياغة هذا المنهج ..

وبإمكاننا أن نرى هذه الحقيقة بمنظارٍ آخر ، هو منظار الناموس الإلهي المُبيَّن بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم : ٤] .. فمحمّدٌ ﷺ رسول البشريّة جمعاء : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] .. وبالتالي لا بُدَّ أن يُرسَل بلسانٍ تجتمع عنده البشريّة جمعاء ، وهذا لا يتحقَّق إلاَّ بما نطق به أبو البشرية جمعاء آدم عليه السلام .. إذاً .. المفردات القرآنيّة هي ما نطق بها لسانُ أبي البشريّة جمعاء آدم عليه السلام ..

ونقول لمن يُؤمن بالقرآن الكريم ويرى كلامنا هذا ضرباً من الخيال ، لقد قدّمنا من النصوص القرآنيّة دليلاً على صحّة ما نذهب إليه .. ومع ذلك .. هل يُعقل أنَّ الله تعالى يُفرِغ معانيه وأحكامه وأدلّته (كلامه) في قوالب لغويّة من وضع البشر لا يرون أمامهم أكثر من بضع كيلو مترات ، ثمّ يقول عن تلك القوالب اللغويّة إنّها قولي الذي

أتحدّى الإنس والجن أن يصوغوا مثله ، وإنّها قولي الذي يحوي مفاتيح أسرار الكون ، وإنّها تبيانٌ لكلِّ شيءٍ في هذا الكون ، وإنّها تحمل عُمقاً من التأويل لا يعلمه إلاّ الله تعالى ؟!!! ..

.. إذاً .. يتَّصفُ القرآن الكريم بأنَّ كلماته فطريّة موحاة من الله تعالى ، وعباراته مصاغة صياغة مُطلقة من الله تعالى ، بحيث تحمل كلَّ أسرار الكون .. هذه الصفة بيّنها الله تعالى في كتابه الكريم بقوله جلّ وعلا :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢]

إنَّ الكلمتين **﴿ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾** تعنيان بإطارهما العام قرآناً كاملاً تامّاً شاملاً لا عوج فيه وخالياً من أيِّ عيب أو نقص ، ومعناهما ليس محصوراً بإطار التفسير المعروف – تقليديّاً – بأنّه قرآن بلغة قوم العرب ... هو قرآنٌ بلغةٍ يعرفها قومُ العرب ، ولكنّ هذا المعنى يأتي من كون قوم العرب حافظوا على اللغة الفطريّة منذ آدم عليه السلام إلى نزول القرآن الكريم مصاغاً من مفردات هذه اللغة الفطريّة .. ودليلنا في هذا المذهب من التفسير هو الآتي :

١ – العبارة : **﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾** في نهاية الآية الكريمة ، هو خطاب للبشريّة جمعاء ، وليس خطاباً خاصّاً بالعرب دون غيرهم ، لأنَّ القرآن الكريم أنزله الله تعالى لجميع البشر وليس للعرب وحدهم ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء : ١٧٤]

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨]

والجزم بأنّ الكلمتين ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ لا تعنيان إلاّ قرآناً باللغة التاريخيّة لقوم العرب ، يقتضي أنّ نهاية الآية الكريمة ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ خطابٌ موجّهٌ حصراً لقوم العرب .. وهذا يتعارض مع حقيقة القرآن الكريم ككتاب للبشريّة جمعاء ..

٢ – ودليلٌ آخر على أنّ كلمة ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ تعني التمام والكمال والخلو من العيب والنقص ، هو قول الله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة : ٣٥ – ٣٧] .. فكلمة ﴿ عُرُبًا ﴾ مُتفرّعة من الجذر (ع ، ر ، ب) ، وهو ذاته الجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه كلمة ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ ، وبالتالي فكلمة ﴿ عُرُبًا ﴾ لا تخرج في معناها عن إطار المعنى الذي يحمله هذا الجذر .. ونرى أنّ كلمة ﴿ عُرُبًا ﴾ لا يمكنها أن تعني أنَّ أُولئك اللاتي سينشئهنّ الله تعالى في الآخرة لأصحاب اليمين ينتمين لقوميّة مُحدّدة هي قوم العرب ، بمعنى أنّهن من سوريا أو مصر أو الجزائر أو .... فالأَولى بمعيار القرآن الكريم عقلاً ومنطقاً والتزاماً بمنهجيّة البحث العلمي التي تُعيد كلَّ الكلمات المتفرّعة عن جذرٍ واحد إلى إطارٍ من المعنى ، الأَولى أن يكون معنى كلمة ﴿ عُرُبًا ﴾ هو أنّ اللاتي سينشئهنّ الله تعالى في الآخرة ، كاملات تامّات خاليات من أيِّ عيب أو نقص ..

٣ – ومن متعلّقات القرآن الكريم كونه عربيّاً ، أنّه غير ذي عوج ، فالكمال والتمام والخلو من العيب والنقص يقتضي أنَّه غير ذي عِوَج ..

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٧–٢٨]

٤ – والقرآن الكريم العربي بمعنى الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص ، من المؤكّد أنَّ آياته فُصّلت تفصيلاً كاملاً لكلِّ عالمٍ ومتعلّمٍ يريد أن ينهل من علومه ..

﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَـٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾ [فصّلت : ٣]

٥ – وممّا يؤكِّدُ صحّةَ تفسيرنا للقرآن العربي بشكلٍ لا يقبل الجدل هو قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَـٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ ﴾ [الرعد : ٣٧] .. فالحكم الذي يحمله كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) بمعنى تبيان الشريعة من صلاة وصيام وحج وكلّ ما أتى به القرآن الكريم ، هو مسألة مُجرَّدة تماماً عن اللغة من حيث خصوصيّتها القوميّة ، فليس من المعقول أنَّ هذه الأحكام خاصّةٌ بقوم العرب ، في الوقت الذي أنزل الله تعالى كتابه الكريم للبشريّة جمعاء .. ولفرضنا جدلاً أنَّ الأمر كذلك ، فلماذا يصلّي أهل الباكستان ، ولماذا يصوم أهل إيران ، ولماذا يحجّ أهل تركيا ؟!!! ..

.. وفي هذه العبارة القرآنيّة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَـٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ ﴾ ، نرى أنَّ الله تعالى لا يقول (وكذلك أنزلناه باللغة العربيّة) أو بأيِّ صيغةٍ تربط هذا الحكم بقومٍ محدِّدين هم قوم العرب .. إذاً .. كلمة ﴿ عَرَبِيًّاۚ ﴾ التي تصف حكم الله تعالى الذي أنزله للبشريّة جمعاء ، تصف لنا وجه الكمال والتمام والخلو من أيِّ عيب أو نقص في الحكم الذي أنزله الله تعالى ﴿ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ ﴾ ..

٦ – ومن خصائص إنزال القرآن الكريم كونه عربيّاً بمعنى كاملاً تامّاً خالياً من أيِّ عيبٍ أو نقص ، من هذه الخصائص ، أنّه أُنزل بلغة و أسلوب وتبيان (لسان) ، بحيث يتّصف بالكمال والتمام والخلو من أيّ عيب أو نقص .. وليس بلغة وأسلوب وتبيان كتبيان البشر الذي لا بُدّ وأن يحمل العيب والنقص ، لأنّ علم البشر – مقارنة مع علم الله تعالى – علمٌ ناقصٌ ..

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣]

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣- ١٩٥]

﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٢]

إنَّ العبارات : **[﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ﴾ ، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾ ، ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾]** ، تعني أسلوباً من البيان كاملاً تامّاً خالياً من أيِّ عيبٍ أو نقص .. ففي الآية الأخيرة نرى أنّ الذين يُنذرهم القرآن الكريم **﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾** ، والذين يُبشّرهم القرآن الكريم **﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾** ، موجودون في كلِّ الأمم ، وليسوا حصراً على قومٍ مُحدّدين (قوم العرب) .. ولذلك فالكلمتان **﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾** تعنيان لغةً وأسلوباً وتبياناً كاملاً تامّاً خالياً من أيِّ عيب أو نقص ..

فاللسان هو آليّة اللغة وأسلوب المخاطبة ووسيلة التبيان .. **﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾** [مريم : ٥٠] .. فالعبارة **﴿ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾** واضحةٌ وجليّةٌ في ذلك ..

.. وحكمة الله تعالى تقتضي أن يُرسل كلَّ رسولٍ بلغةِ قومِهِ وبأسلوهم وبطريقة تبياهم ، حتى يُبيّن لهم المنهج الذي يحمله ..

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤]

ولذلك فجميع الرسالات السابقة نزلت (صياغة) بلغات البشر الوضعيّة ، لأنها تحمل مناهج لأقوامٍ مُحدّدين في أزمنة مُحدّدة ، وبالتالي لم تكن قولَ الله تعالى ، إنّما كانت فقط كلامَ الله تعالى الذي تمّت صياغته بقوالب لغويّة من قِبَل المخلوقات .. بينما

نرى أنَّ منهج البشريّة جمعاء (القرآن الكريم) نزل قولاً لله تعالى ، بلغةٍ فطريّة نطق بها أبو البشريّة جمعاء (آدم عليه السلام) ..

فمنهج البشريّة جمعاء لا بُدّ أن يكون بلسانٍ فطريٍّ يجمع البشريّة جمعاء ، وبلغة فطريّة هي اللغة الأولى التي عرفتها البشريّة .. وهذا لم يتوفّر إلاّ باللغة الفطريّة التي حافظ عليها الأميّون (لغة) منذ آدم عليه السلام إلى مبعث مُحمّد ﷺ ..

وكلمة (الأعراب) من مشتقّات الجذر (ع ، ر ، ب) ، وهي تصوِّر لنا البشر الذين يتظاهرون بالكمال والتمام ولا يعترفون بعيوبهم .. فهمزة التعدّي تُبيّن لنا – إضافة لما يبيّنه لنا القرآن الكريم من صفات الأعراب – أنّهم يتعدّون على صفة الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص ، هذه الصفة التي لا يتّصفون بها أصلاً ..

في كتاب الله تعالى نرى أنَّ همزة التعدّي هذه نقلت المعنى إلى النقيض ما بين صفتي القاسطين والمقسطين .. فالقاسطون الذين هم لجهنّم حطبا ، هم نقيض المقسطين الذين يحبّهم الله تعالى ..

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴾ [الجن : ١٤ – ١٥]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨]

وهذه الهمزة تنقل المعنى إلى النقيض ما بين كلمتي عرض وأعرض .. فالذي يُعرَض عليه أو يعرِضُ لغيره أمراً أو شيئاً ما ، إنّما هو نقيض من أعرضَ بمعنى أنَّه لا يلتفت لِمَا يُعرَض عليه ..

﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ [ص : ٣١]

﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤]

.. إذاً .. الأعراب من الفعل المتعدّي : (أعرب) يحملون الصفات النقيضة للكلمات المتفرّعة عن الفعل (عرب) ..

ولّما كان البشر في الحياة الدنيا لا يُمكن أن يصلوا إلى مرتبة الكمال والتمام والخلو من أيِّ عيب أو نقص ، فإنّنا نرى أنّ الكلمات [﴿ عَرَبِيّ ﴾ ، ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ ، ﴿ عُرُبًا ﴾] ، وهي باقي مشتقات الجذر (ع ، ر ، ب) في القرآن الكريم ، تأتي في القرآن الكريم لتصوِّر لنا صفات كتاب الله تعالى ، واللاتي سيُنشئهنّ الله تعالى في الآخرة لأصحاب اليمين ، ولا تأتي هذه الكلمات أبداً لتصوِّر لنا البشر في الحياة الدنيا .. بينما تأتي كلمة الأعراب التي تُصوِّر لنا التعدّي على ما يحمله الجذر (ع ، ر ، ب) من معانٍ ودلالات ، ومتفرّعة عن الفعل المتعدّي (أعرب) ، تأتي صفةً للذين يتظاهرون بالكمال والخلو من العيوب والنواقص ..

والجزم بتفسير كلمة الأعراب في جميع كُتب التفسير ، بأنّها لا تعني إلاّ البدو (سكان البادية) ، يتعارض تماماً مع روح القرآن الكريم ، الذي يصف البشر ويُقيّمهم حسب انتماءاتهم العقيديّة ، لا حسب انتماءاتهم الجغرافيّة والإقليميّة ..... ولو كانت كلمة الأعراب لا تعني إلاّ البدو (سكان البادية) ، لاستُبدلت – في كتاب الله تعالى – بكلمة ﴿ ٱلْبَدْوِ ﴾ ، فكلمة ﴿ ٱلْبَدْوِ ﴾ كلمة قرآنيّة ، وفي القرآن الكريم لا تُوجَد كلمة مُرادفة لكلمة أُخرى بالمعنى الذي يتصوّره بعض البشر ..

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ [يوسف: ١٠٠]

ومما يُقابل كلمة عربي التي تعني – كما رأينا – الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص ، هو كلمة ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ ، التي تعني عدم الكمال وعدم التمام ، وتعني وجود العيب والنقص .. يقول الله تعالى ..

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَـٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَـٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ [الشعراء : ١٩٨ - ٢٠١]

من الواضح في هذه الصورة القرآنيّة أنَّ كلمة ﴿ ٱلۡأَعۡجَمِين ﴾ لا تعني أبعاداً قوميّة ، ولا تعني غيرَ البشر ، إنَّما تعني صفاتٍ سلبيّةً في نفوس بعض الأعجمين ، تحمل من العيب والنقص والابتعاد عن الحق ما يجعلهم لا يُؤمنون بالقرآن الكريم ، ولا يرون فيه الحقَّ ودلائل الإعجاز التي تُبيّن كماله وتمامه وخلوّه من أيِّ عيب أو نقص ..

ولو كانت كلمة ﴿ ٱلۡأَعۡجَمِين ﴾ تعني ما ذهبت إليه تفاسيرنا التاريخيّة ، من أنَّها تعني غيرَ قومِ العرب الذين يتحدّثون بلغاتٍ أُخرى ، لتناقض ذلك مع ما يحمله القرآن الكريم من أدلّة ، ومع الواقع الذي نراه بأمِّ أعيننا ..

١ – يتناقض هذا المذهب من التفسير مع كون القرآن الكريم أُنزل للبشريّة جمعاء ، وليس لقوم العرب وحدهم .. فبعض الأعجمين (إن كانت كلمة الأعجمين تحمل معنىً قوميّاً كما تذهب التفاسير) أُنزِل عليهم القرآن الكريم ، لأنّهم من جملة الناس الذين أُنزل إليهم القرآن الكريم .. وبالتالي فقولُه تعالى ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَـٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴾ لا يُمكن أن يعني بعض ما هو ليس من قوم العرب ، لأنّ المجرمين الذين تصفهم الآيات الكريمة التالية لهذه الآية ، والذين لا يُؤمنون بالقرآن الكريم حتى يروا العذاب الأليم ، موجودون في قوم العرب وفي كلِّ الأقوام ..

٢ – ويتناقض هذا المذهب من التفسير مع الواقع ، فغير العرب الكثير منهم آمن بالقرآن الكريم ، والله تعالى يقول عن بعض الأعجمين ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴾ .. فلا تُوجد أُمّة إلاّ وفيها من آمن بالقرآن الكريم .. ولذلك فإنَّ الجزم بأنَّ العبارة

القرآنيّة ﴿ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴾ تعني بعض القوميّات الأخرى ، يتناقض مع وجود المؤمنين بالقرآن الكريم في كلِّ القوميّات ، ويتناقضُ مع كون القرآن الكريم منهجاً لكلِّ القوميّات دون استثناء ..

والآية الكريمة التالية ، بتفسيرها المنسجم مع روح القرآن الكريم ككتاب مُنزل للبشريّة جمعاء ، ومع ساحة رسالة محمّد ﷺ والتي هي على امتداد البشريّة جمعاء ، تُؤكّد صحّة ما نذهب إليه في تفسيرنا لكلمة ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ ..

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصّلت : ٤٤]

ذهبت تفاسيرنا – تقليداً – إلى أنّ كلمة ﴿ ءَا۬عْجَمِى ﴾ في هذه الآية الكريمة تعني قرآناً بلغة غير قوم العرب ، وإلى أنّ كلمة ﴿ وَعَرَبِيٌّ ﴾ تعني رسولاً عربيّاً ، أو قوماً عرباً .. وهذا المذهب من التفسير يتعارض مع القرآن الكريم في النقاط التالية :

١ – الكلمتان ﴿ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ كلمتان قرآنيّتان مُتتاليتان بينهما حرف عطف ، وإعادة كلٍّ منهما إلى أمرٍ مختلفٍ عن الأمر الذي تُعاد إليه الكلمة الأخرى دون إيِّ دليلٍ ، أمرٌ يتعارض مع انسجام روح النصّ القرآني .. فالأَولى أن تُعاد الكلمتان إلى أمرٍ واحدٍ ..

٢ – إن كان المقصود – كما ذهبت التفاسير – بالعبارة القرآنيّة ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ ، أنّه لو نُزّل القرآن الكريم بلغة قوميّة أُخرى ، لقال العرب – مُحتجّين – كيف يكون القرآن بلغة مخالفة

للغتهم القوميّة وللغة الرسول ﷺ .. لو كان هذا المذهب من التفسير صحيحاً ، لأدّى ذلك – سواء علم من يجزم بهذا التفسير أم لم يعلم – إلى أنَّ لغير العرب مبرِّرات الاحتجاج على كون لغة القرآن الكريم تتعارض مع لغاتهم القوميّة ، وعلى كون لغة الرسول ﷺ تتعارض أيضاً مع لغاتهم القوميّة .. وبالتالي فهذا المذهب من التفسير يتعارض تماماً مع حقيقة القرآن الكريم ككتاب للبشريّة جمعاء ، ومع حقيقة بعث محمّد ﷺ للبشريّة جمعاء ، بعيداً عن القوميّات ولغاتها ..

٣ – نهاية الآية الكريمة ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ** ﴾ ، تُبيّن حقيقة تفاعل البشريّة جمعاء مع القرآن الكريم ، وليس العرب وحدهم ، فانقسام البشريّة إلى قسم يؤمن به ، وقسم لا يؤمن به ، مسألة لا يمكن حصرها بقوم العرب ..

إنَّ الله تعالى يقول لنا من خلال هذه الصورة القرآنيّة ، ولو جعلنا هذا القرآن بماهيّة ليست كاملة وليست تامّة وليست خالية من أيِّ عيب أو نقص ، ولو جعلنا آياته ليست مفصَّلة وليست مبيّنة بتمام كامل من أيِّ عيب أو نقص ، لكان القرآن الكريم حاوياً على العيب والنقص ، ولرأوا فيه العيب والنقص ، ولحسبوا أنَّ فيه من الكمال والتمام حسب ما يناسب أهواءهم من هذا العيب ، وبالتالي لقالوا كيف يكون ذلك ، أعيب ونقص ، وكمال وتمام ..

إنَّ الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص ، وهذا ما يتّصف به القرآن الكريم ، كتاباً وحُكماً ولساناً ، هو نتيجة لكون مفرداته فطريّة مُوحاة من الله تعالى بعيداً عن أيّ اختيارٍ بشريٍّ ، ونتيجة لربط هذه المفردات مع بعضها بعضاً في العبارة القرآنيّة ، وفق حكمة مطلقة وعلمٍ مطلقٍ من الله تعالى ..

ولذلك فدلالات المفردات القرآنيّة في العبارة القرآنيّة ، تحمل من الأدلّة والمعاني أكبر بكثير مما تُبيّنه لنا قواميس اللغة العربيّة ، ومن أن تُحيط تصوّراتنا بهذه الأدلّة والمعاني ،

ونرى أيضاً أنَّ صياغة القرآن الكريم فوق قواعد اللغة العربيّة التي تمّ تقعيدها من قبل البشر ..

ولّما كانت المفردات القرآنيّة تُسمِّي ماهيّة الأمور والأشياء تسمية مطلقة ، فإنَّ ذلك يقتضي أنّ الأسماء القرآنيّة التي تُسمِّي تلك الأمور والأشياء ، تتقارب في بنيتها اللغويّة من منظار علم الله تعالى ، تقارباً يوازي تقارب تلك الأمور والأشياء بخواصّها وصفاتها ..

ولذلك يدخل الحرف القرآني في معادلة الوصف كواحدة معنى ، وليس كمجرّد لبنة صوتيّة في بناء الكلمة .. وأكبر دليلٍ على ذلك هو الأحرف النورانيّة في بداية بعض السُّوَر ، التي منها ما يأتي في آيات كعبارات قرآنيّة مستقلّة ، ولا يُمكن لعاقل أن يتصوَّر أنّها مجرّد واحدات صوتيّة دون معنى ، يقول تعالى ..

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١]

فاللبنة الأولى للمعنى في القرآن الكريم هي الحرف القرآني ، وتأتي الكلمة القرآنيّة وصفاً مطلقاً لماهيّة الموصوف ، من خلال اجتماع معاني الحروف المكوِّنة لهذه الكلمة بترتيب مُعيّن .. فالكلمات التي تتكوّن من الحروف ذاتها ، يعود الاختلاف في ما تحمله من معانٍ إلى الاختلاف في ترتيب الحروف المكوّنة لهذه الكلمات ، مع الأخذ بعين الاعتبار كون الحرف ينتمي للجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه الكلمة ، أو كونه لا ينتمي إلى هذا الجذر .. وكلٌّ ذلك ضمن قوانين ونظم مطلقة تنتظم بها واحدات المعنى (الحروف) في صياغة مطلقة صاغها الله تعالى من اللبنات الأولى للمعنى وهي (٢٨) حرفاً قرآنيّاً ، بحيث يتمّ من خلالها الوصف المطلق للأمور والأشياء ، وصفاً يحمل مفاتيح كلّ شيءٍ في هذا الكون ..

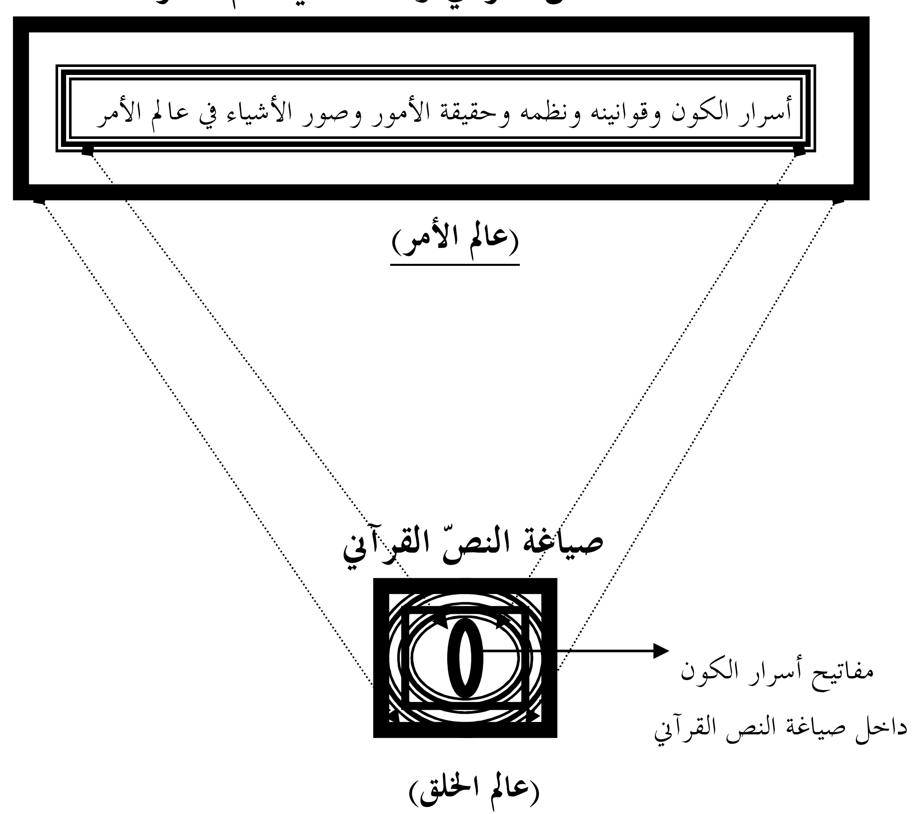
والمفردات القرآنيّة الفطريّة (بما فيها الحروف كواحدات معنى) صالحة لتسمية كلِّ ما في الكون ، وذلك من منظار حقيقتها وماهيّتها ، لا من منظار ما نراه من ظاهرها ..

فالاختلاف الذي نراه في ظاهر الأمور والأشياء في هذا الكون من منظارنا الظاهري ، يختلف عن حقيقة هذه الأمور والأشياء من منظار عالم الأمر المجرّد عن المكان والزمان والذي لا تجتمع فيه المتناقضات ..

فالقرآن الكريم الذي نزل تبياناً لكلِّ شيء ، يقتضي من جملة ما يقتضيه أن يكون تبياناً لجميع الأسماء الحق في هذا الكون ، والتي تسمّي – من منظار الله تعالى – كلَّ شيء في هذا الكون ..

وحتى نُدرك هذه الحقيقة نحتاج لمفاتيح أسرار القرآن الكريم ، للدخول إلى ما وراء الظاهر الذي نراه في كلماته وجمله ، ونحتاج أيضاً إلى مفاتيح إدراك ماهيّة الأشياء في هذا الكون .. عندها سنرى أنّ الحروف القرآنيّة والمفردات القرآنيّة والجمل القرآنيّة ينطوي تحت ما تصفه وتصوّره كلُّ شيءٍ في هذا الكون .. وفي الآخرة عندما يأتي تأويل القرآن الكريم سنرى هذه الحقيقة بأمّ أعيننا ..

دلالات النص القرآني وصياغته في عالم الأمر



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الأزل والأبد

مفهوما الأزل والأبد هما مفهومان نسبيّان ، تخضع لهما — من منظارنا نحن المحكومين لقوانين المكان والزمان — جميع الأشياء المخلوقة المتشيّئة في عالم الخلق ..

لقد رأينا أنَّ هناك نوعين في الوجود العائد لله تعالى ، هما عالم الخلق ، وعالم الأمر ، ولكلٍّ منهما خصائصه وصفاته التي تميّزه ..

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]

.. ورأينا أنَّ عالم الخلق يتميّز بكونه عالمَ الأشياء ..

﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦]

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢]

﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢]

إنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ في هذه الصور القرآنيّة ، هي مطلقة ، وتعني جميعَ الأشياء ، وهذه الأشياء هي كلُّ ما ينتمي إلى عالم الخلق ..

وكلُّ ما ينتمي إلى عالم الخلق ﴿ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ له زوجٌ آخر .. فعالم الخلق يتميّز — أيضاً — بكونه مخلوقاً من أزواج ..

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩]

وهنا — أيضاً — نرى أنَّ العبارة ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ هي عبارةٌ مطلقةٌ تعني جميع الأشياء دون استثناء .. فكلُّ شيءٍ مخلوقٍ مكوّنٌ من أزواج ، وبالتالي فكلّ ما ينتمي إلى عالم الخلق (عالم الأشياء) لم يكن شيئاً قبل خلقه ..

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : ٦٧]

والإنسان كمخلوق ينتمي إلى عالم التشيّؤ ، لا بدَّ أن ينطبق عليه ناموس الزوجيّة في كلِّ شيء .. فبالنسبة لمسألتي الإيمان والكفر كمسألتين متقابلتين ، لا بدَّ أن يكونَ البشر – في هذا العالم المخلوق المتشيّء – بالنسبة لهذه المسألة عبارة عن زوجين ، قسم كافر ، وقسم مؤمن ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : ٢]

وهكذا .. فالشرّ (نقيض الخير) ينتمي لعالم الخلق ..

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق : ١ – ٢]

.. وقد رأينا في النظريّة الثانية (القدر) كيف أنَّ المشيئة التي ساحة حركتها وتفاعلها عالمُ الخلق ، يمكنها أن ترتبط بالمسائل المتناقضة في الوقت ذاته ، ففي كتاب الله تعالى يمكن عطف مسألتين متناقضتين على مشيئة واحدة ... ومرجع ذلك أنَّ عالم الخلق والتشيّؤ (ساحة المشيئة) مكوَّن من أزواج ويحتوي المتناقضات ..

من هنا ندرك عمق الكفر الناتج عن ادّعاء بعض البشر بأنَّ لله تعالى ولداً ..

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠]

فذلك يقتضي الزوجيّة ، والزوجيّة تقتضي الانتماء إلى عالم الخلق والتشيّؤ في هذا العالم الحادث ، والله تعالى منزّهٌ عن كلّ ذلك ..

﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [النساء : ١٧١]

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٠١]

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ﴾ [مريم : ٣٥]

أمّا عالم الأمر فهو عالمٌ يتعلّقُ بالصفات الإلهيّة مباشرة ، وهو فوق عالم الخلق والتشيّؤ ، وبالتالي هو فوق الزوجيّة والتحيّز .. ولذلك في عالم الأمر لا تجتمع المتناقضات كما هو الحال بالنسبة لعالم الخلق .. فكون عالم الأمر يتعلّق بالصفات الإلهيّة مباشرة ، فهو لا يحوي المتناقضات ..

وقد رأينا كيف أنَّه – في كتاب الله تعالى – لم تأت كلمة اسم المضافة للذات الإلهيّة ، لم تأت مرتبطةً بأيِّ اسم صفة من أسماء الصفات لله تعالى ، وأنّها أتت مرتبطة بكلمتي (الله – رب) ..... وفي مسائل عالم الأمر المرتبطة مباشرة بصفات الذات الإلهيّة ، نرى أنَّه – في القرآن الكريم – لم تأت كلمة أمر ومشتقّاتها – المتعلّقة بالله تعالى – إلاّ مرتبطة بكلمتي (الله – رب) ، فلم تأت مرتبطةً بأيِّ اسم صفةٍ من أسماء الصفات لله تعالى ، فمسائل الأمر ترتبط مباشرةً بصفات الذات الإلهيّة ، وهي من مسائل الصفات ..

وفي القرآن الكريم تُعدّ كلمة ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ ومشتقّاتها واحدات وصف وتسمية لمسألةٍ من مسائل الأمر ، فهي مسألةٌ فوق عالم الخلق والتشيّؤ ..

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : ٨٥]

إنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ تعني أنَّ الروح ينتمي لعالم الأمر ، وبالتالي لا ينتمي لعالم الخلق ، وهي إجابة للسؤال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ ﴾ ، ولا تعني أبداً أنَّه لا يجوز الكلام في الروح والتحدّث به ، كما يتخيّل الكثيرون ..

ولذلك لم تأت كلمة ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ ومشتقّاتها – في القرآن الكريم – ولا مرّة مرتبطة بمسائل الخلق والتشيّؤ ، إنّما تأتي مرتبطةً بمسائل الأمر ..

﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل : ٢]

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥]

﴿ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [غافر : ١٥]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى : ٥٢]

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ [القدر : ٤]

لذلك فالروح – كما نفهمه من كتاب الله تعالى وليس من موروثاتنا التفسيريّة ، كما بيّنت في النظريّة الثانية (القدر) – هو مسألةٌ فوق الزوجيّة ، وهو لا يحمل إلاّ الخير ، لأنَّ أمر الله تعالى الذي يرتبط به الروح والذي لا يحمل إلاّ الخير ، لا يرتبط بنقيض ذلك ، ففي عالم الأمر – الذي ينتمي إليه الروح – لا تجتمع المتناقضات كما رأينا ..

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨]

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠]

وفي هذه المسألة تاه الكثيرون ، فخلطوا بين النفس الموجودة في جميع البشر والتي تقف وراء إراداتهم وأعمالهم وما يختارون ، وبين الروح الذي هو الصلة والمدد والقربى من الله تعالى كما تصفه كلمة الروح ومشتقّاتها في القرآن الكريم ..

إنَّ الروح ينتمي لعالم الأمر ، ويتعلّق مباشرةً بصفات الله تعالى ، فهو فيضٌ من نور الله تعالى .. فساحته عالم الأمر الذي هو فوق عالم الخلق والتشيّؤ المتّصف بالزوجيّة

وبالمتناقضات .. وتمتلئ نفس الإنسان بنسبة من الروح تتناسبُ مع درجة صلة هذه النفس وقربها من الله تعالى .. فهذا الروح يؤيّد الله تعالى به المؤمنين الصادقين المقرّبين منه – دون غيرِهم – نتيجةً لإيمانهم وصدقهم وعملهم بما يقرّبهم من الله تعالى ..

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢]

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

فهذا الروح نورٌ يصلُ ويقرّب المؤمنين الصادقين إلى الله تعالى ..

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٨٨ – ٨٩]

والقرآن الكريم المُوحى إلى الرسول ﷺ ، هو روح من أمر الله تعالى المتعلّق بصفاته العظيمة ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى : ٥٢]

ولذلك فالنور المتعلّق بالذات الإلهيّة ، هو اسم صفة للقرآن الكريم ..

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [النور : ٣٥]

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ ﴾ [التغابن : ٨]

وهكذا نرى أنَّ مسائلَ عالم الأمر هي فوق عالم الخلق والتشيّؤ وما فيه من نواميس ، وبالتالي فهي فوق كلِّ القوانين التي تُقاس بها مسائل عالم الخلق ومنها مقاييس الزمان والمكان ... لذلك فمفهوما الأزل والأبد هما مفهومان نسبيّان تقاس بهما مسائلُ عالم

الخلق فقط ، كون مسائل عالم الخلق خاضعة لقانون الزمان ، ولا يمكن إخضاع مسائل عالم الأمر وقياسها في معايير الزمن ، ومن يتخيّل أنَّ مسائل عالم الأمر يمكن إخضاعها لمفهوم الزمن ، فتصوّره هذا ساقطٌ ، ويريد أن يجعل منه مكيالاً يكيل فيه ما هو فوق علمه وإدراكه ، بل ما هو فوق عالمه الذي ينتمي إليه ..

وسواء مسائل الخلق أم الأمر ، يُنظَر إليها من زاويتين مختلفتين ..

١ — من زاوية العلم الإلهي الذي هو فوق عالم المادّة والمكان والزمان ومقاييسه ، فإنَّ جميع الأمور المتعلّقة بمسائل الأمر والأشياء المتعلّقة بمسائل الخلق ، موجودةٌ في علم الله تعالى ، وعلم الله تعالى بها ليس حادثاً .. إنَّ مسألة قياس الحوادث زمنيّاً هي مسألةٌ موجودةٌ فقط في عالم المادّة والمكان والزمان ، والله تعالى أسمى من أن يُقاس علمه بمقاييس مخلوقة ، هي من خلقه سبحانه وتعالى ..

٢ — من الزاوية التي ننظر منها نحن المخلوقين ، فإنَّ مسائل الخلق حادثة لها بداية ونهاية ، ومسائل الأمر نتفاعل مع آثارها في هذا العالم الحادث ، وهذا لا يعني أنّ مسائل الأمر حادثة ، فما هو حادث هو آثارُها المادّيّة المتشيّئة في هذا العالم المخلوق المتشيّء ..

وهاتان الزاويتان نراهما بشكلٍ جليٍّ في قوله تعالى المصوِّر لما قاله نوحٌ عليه السـلام لقومه ..

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [نوح : ٢ — ٤]

إنَّ المقدّمات التي طلبها نوحٌ من قومه **﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾** تُوصل إلى النتيجة **﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ﴾** ، وبالتالي فإنَّ العمل بنقيض هذه المقدّمات يُوصلُ إلى نتيجةٍ مناقضة وهي دخول النار في الآخرة والغرق في

الدنيا .. ومن هذه الزاوية التي ننظر نحن المخلوقين منها فإنَّ قومَ نوحٍ كانوا سيُغفَر لهم ولا يغرقون وبالتالي سيعيشون أكثر فيما لو عملوا بهذه المقدّمات فأطاعوا نوحاً وعبدوا الله تعالى واتّقوه ، فهذه النتيجة المفترضة ، مع النتيجة المناقضة لها وهي كفرهم وبالتالي غرقهم ... هاتان النتيجتان من الزاوية التي ننظر منها نحن المخلوقين واردتان في الوقت ذاته ، كوننا لا نعلم الغيب وما سيكون فيه ..

ولكنَّ من زاوية العلم الإلهيّ الكاشف ، ألا يعلم الله تعالى بأنَّ قوم نوحٍ سوف يكفرون وبالتالي يغرقون ، ويدخلون النار في الآخرة ؟ .. بالتأكيد يعلم الله تعالى ذلك في علمه الأزلي .. ولذلك يقول تعالى بعد تصويره للنتيجة المفترضة الأولى التي لم يأخذ بها قوم نوح .. يقول مصوّراً ما هو بعلم الله تعالى الكاشف ﴿ **إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ ، فالله تعالى بعلمه الكاشف يعلم ما سيختار قوم نوح وما هي نتيجة اختيارهم ..

وهاتان الزاويتان نراهما أيضاً في قولِه تعالى ..

﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ** ﴾ [الأنعام : ٢]

إنَّ الأجل الأوّل قضاه الله تعالى بعد أن أُوجدنا في هذا العالم ، وذلك بدليل كلمة ﴿ **ثُم** ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً ۖ** ﴾ .. وهذا الأجل هو علاقة المقدّمات بنتائجها ، كما رأينا في قصة نوحٍ عليه السلام ﴿ **ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ** ﴾ .. ولكنْ هناك أجلٌ يتعلّقُ بعلم الله تعالى الكاشف وهو ما سيكون وما سيختار الإنسان من مقدّمات وما سيصل إليه من نتائج في الدنيا والآخرة ﴿ **وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ** ﴾ .. كما

رأينا في قصّة نوح عليه السلام ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ ..

إذاً .. مسائل الخلق ومسائلُ الأمر ، يُنظَر إليها من زاويتين مختلفتين .. هناك الزاوية التي ننظر منها نحن المخلوقين ، وهي محكومة بقوانين المكان والزمان .. وهناك الزاوية المتعلّقة بالعلم الإلهي الذي هو فوق عالم المادّة والمكان والزمان ، وفوق مقاييسه ..

وفي القرآن الكريم فإنَّ الأبديّة بمعنى السرمديّة إلى اللانهاية ، تُوصف بصفة الخلود .. بينما كلمة ﴿ أَبَدًا ۚ ﴾ عندما تتعلّقُ بمسألة فهي تعني تأكيداً لحيثيّات هذه المسألة وتفصيلاً وتبياناً لها ، وذلك في سياق تفصيل هذه المسألة وتبيانِها ، ولا تعني سرمديّة الزمان إلى ما لا نهاية .. فقد تعلّقت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمسائلَ تستحيلُ عليها سرمدية الزمان إلى ما لا نهاية .. مثلاً في قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدًا ضِرَارًا وَكُفۡرًا وَتَفۡرِيقًۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادًا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ ۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدًا ۚ ﴾ [التوبة : ١٠٧ – ١٠٨]

.. النبيّ ﷺ في حياته الدنيا ، والمسجدُ الضِرار هذا ، لهما نهايةٌ من الزمان ، ولا يحملان ولا بأيّ شكلٍ من الأشكال سرمديّةً لا نهاية لها .. وبالتالي فكلمة ﴿ أَبَدًا ۚ ﴾ في هذا النصّ القرآنيّ ﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدًا ۚ ﴾ لا تعني أبداً سرمديّة الزمان إلى ما لا نهاية ، إنّما تعني تأكيداً على الأمر الإلهي بعدم الإقامة في هذا المسجد الضرار ، وتفصيلاً وتبياناً في ذلك ..

.. وكذلك الأمر نراه في دلالات كلمة ﴿ أَبَدًا ۚ ﴾ في الصورة القرآنيّة التالية :

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣]

.. فسواءٌ أزواجُ النبي ﷺ ، أم المؤمنون المعنيّون ، كلاهما له نهايتُه في عالم الـــدنيا .. وإمكانيّةُ نكحِ أزواجِ النبيِّ ﷺ من بعده ليست سرمديّة ، فهي تنتـــهي عنـــد مـــوتهن ، وبالتالي لا يمكن لكلمة ﴿ أَبَدًا ۚ ﴾ أن تعني سرمديةً لا نهاية لها .. إنّهـــا تعـــني تأكيـــداً وتفصيلاً وتبياناً للأمر الإلهيّ بعدم نكح أزواج النبيِّ ﷺ من بعده ..

.. وفي ورود كلمة ﴿ أَبَدًا ۚ ﴾ في الصور ة القرآنيّة التالية لأكبر دليلٍ على صحّة مـــا نذهب إليه ..

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٩٤ — ٩٥]

.. فالظالم الذي يدخل النار من هؤلاء ، سيتمنّى الموت والخلاص مـــن العـــذاب في الآخرة ، يقول تعالى :

﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧]

.. وهذا ينفي تماماً تعلّقَ كلمة ﴿ أَبَدًا ۚ ﴾ بسرمديةٍ لا نهاية لها .. فهي تحملُ دلالات التأكيد والتفصيل والتبيان بأنّ هؤلاء وبشكلٍ مُطلق لا يتمنّون الموت في حياتِهم الدنيا ، بسبب ظلمهم وما قدّمت أيديهم ..... إنَّ الخلود يعني الثبات على الماهيّـــة ، وبالتـــالي يعني سرمديّةً لا نهاية لها ، سواءٌ تعلّق بكلمة ﴿ أَبَدًا ۚ ﴾ أم لم يتعلّق بها ...

حينما أغوى إبليسُ آدمَ عليه السلام ، إنّما كان ذلك من خلال وسوسته لآدم بـــأنّ الشجرة التي أُمِرَ آدمُ عليه السلام بعدم الاقتراب منها ، بأنّها هي شجرة الخلد ..

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طـه : ١٢٠] ..... وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] .. في هذا القول أكبرُ دليلٍ على أنّ الخلد يعني اللانهاية ..... فالنارُ كجزاءٍ لأعداء الله تعالى ، لا نهاية لها ، ولذلك يصفها الله تعالى بدار الخلد .. ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ٢٨]

.. فالخلود – كما يصفه كتاب الله تعالى – يعني سرمديّةً لا نهاية لها .. ولا يقتضي مفهومُ السرمديّةِ هذه حتميّةَ التعلّق بكلمة ﴿ أَبَدًا ﴾ ..

إذاً .. مفهوما الأزل والأبد مفهومان نسبيّان يتعلّقان بمفهوم الزمن ..... ولّما كان مفهوم الزمن لا وجود له إلاَّ في عالم الخلق ، وليس معياراً إلاَّ للأشياء المخلوقة الموجودة في عالم الخلق ، فإنَّ مفهوما الأزل والأبد لا قيمة لهما إلاَّ بمنظارنا الدنيويِّ المحكوم لقوانين الزمان والمكان ، وليسا معياراً لعالم الأمر ، وليسا معياراً نتصوَّر بهما قدم الذات الإلهيّة ، أو قدم موجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن) ، لأنَّ الذات الإلهيّة وعالم الأمر فوق مفهوم الزمان كما رأينا ..

.. إذاً .. تصوّر قِدَم ما هو فوق عالم المكان والزمان ، هو وهمٌ ساقطٌ ناتجٌ عن محاولة وضعِ الذات الإلهيّة وصفاتها وما يتعلّق بها من عالم الأمر في معيارٍ لا تعلّق له إلاَّ بالعالم الأدنى (عالم الخلق والتشيّؤ) ..

❁ ❁ ❁

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

القرآن الكريم
وصفات الله تعالى

لكي نرى حقيقةَ القرآن الكريم وارتباطه بالذات الإلهيّة وصفاها ، ننطلــقُ في هـــذا البحث وفق منهجٍ علميٍّ يعتمدُ على البراهين الواردة في القرآن الكريم ذاته ..

لقد رأينا في بحث الكلام والقول أنَّ للكلمة المقولة الملفوظة ثلاثةَ أعماق :

١ – عمق الكلام ، وهو عمق المعنى والتصوّر الذاتي بالنسبة للمسألة الــتي تصــفها وتسمّيها هذه الكلمة ، أي عمق صورة المسألة الموصوفة بالكلمة ، في الذات المتكلّمة ..

٢ – عمق القول ، وهو عمق الصياغة اللغويّة لهذا المعنى ، أي الجزم باختيار قالــبٍ لغويٍّ ، لصياغة المعنى الكائن في الذات في هذا القالب اللغوي ..

٣ – عمق اللفظ ، وهو عمق إخراج القول من الذات بغية إسماعِه ..

وهذه الأعماق الثلاثة ترتبط بالذات القائلة وصفاها .. ففي المخلوقات تكون الأعماق الثلاثة حادثة ، كون هذه المخلوقات حادثة ، أمّا بالنسبة للذات الإلهيّة التي هي فوق عالمي الأمر والخلق كما قلنا ، فإنَّ عُمقا الكلام والقول غير حادثين ، وغير محكومين للمكان والزمان ، بينما عمق اللفظ فهو عمقٌ خاصٌّ بالمخلوقات كونه يتعلّق بالذبذبات الصوتيّة المخلوقة الحاملة للقول في هذا العالم المادّي .. ولذلك نرى أنَّ للجذر (ل ، ف ، ظ) في كتاب الله تعالى مشتقّاً وحيداً يتعلّقُ بالإنسان ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٨] ..

وما تاه فيه بعضهم بالنسبة لهذه المسألة ، هو تفاعلهم في هذا العالم المادّي مع لفظ حروف القرآن الكريم في وسطٍ مادّي عبر ذبذباتٍ حادثة (عمق الصوت واللفظ) ، دون أن يتطلّعوا إلى كون هذا العمق متعلّقاً بعالمنا المادّي (عالم الخلق) وليس بماهيّة النصِّ القرآني ككلام وكقول .. فمن أهمِّ أسباب هذا التيه عدم التمييز بين حقيقةِ النصِّ القرآني كونه معنىً ونصّاً مُصاغاً من الله سبحانه وتعالى لهذا المعنى من جهة ، وبين حمل ذلك كآثارٍ لهذا القول في عالمنا المادّي الحادث من جهةٍ أُخرى ..

ومن أسباب هذا التيه عدم التمييز الصحيح بين مفاهيم الكلام والقول واللفظ ، فعرّفوا القول بأنَّه لفظٌ ماديٌّ ، وخلطوا بينه وبين اللفظ ، فحسبوا القولَ متعلّقاً بماهيّة الذبذبات الصوتيّة الماديّة الحاملة له في عالمنا المادي .. ومن أسباب هذا التيه عدمُ إدراك الفارق بين مسائل عالم الأمر ومسائل عالم الخلق ، وإسقاطُ تصوّراتهم لمسائل عالم الخلق على مسائل عالم الأمر ..

فالعمق الأوّل (الكلام) يتعلّقُ بالذات الإلهيّة ، والعمق الثاني (القول) يتعلّق بالصفات الإلهيّة ، بينما عمق (اللفظ) الذي نتفاعل معه في حياتنا الدنيا فيتعلّقُ بآثار صفات الله تعالى في هذا العالم ... أمَّا سماع القرآن الكريم أو إخراجه من الذات كحرفٍ وصوتٍ في عالم الأمر ، فيختلف تماماً عن سماعه في عالمنا عالم الخلق ، وهذا الاختلاف يعود إلى الاختلاف بين هذين العالمين المتمايزين ، حيث لكلِّ عالمٍ ماهيّته الخاصّة به ، وصفاته الخاصّة به ..

إذاً .. الأعماق الثلاثة في عالم الأمر هي : (الكلام) ، (القول) ، (السماع وإخراج القول من الذات) .. وهذه الأعماق الثلاثة في عالم الأمر الذي يتعلّق مباشرة بالذات الإلهيّة وصفاتها ، ليست حادثة .. وبالتالي فهذه الأعماق الثلاثة بالنسبة لكتاب الله تعالى الذي ينتمي لعالم الأمر ، ليست حادثةً أبداً .. ما هو حادث هو نطقنا المادّي

نحن المخلوقين في هذا العالم لحروف القرآن الكريم ، عبر ذبذبات صوتيّةٍ حادثة حاملة لنطقنا بهذه الحروف ..

وكما أنَّ لله تعالى صفات قديمة غير حادثة (كالسمع والبصر وَ ....) ، ولنا صفات حادثة تحمل الاسم ذاته (كالسمع والبصر وَ ....) ، كذلك قول الله تعالى لحروف القرآن الكريم قديم غير حادث ، مع أنَّ لفظنا المادّي لهذه الحروف في عالمنا المادّي هذا حادث .. فالله تعالى ليس كمثله شيء في ذاته وفي صفاته التي منها الكلام والقول ..

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١]

فكلمة ﴿ كَمِثْلِهِۦ ﴾ تعني مثل مثله وهذا نقرؤه من اجتماع كاف التشبيه مع كلمة مثل في هذه الكلمة ، وبالتالي فلا ذاته جلّ وعلا مثل ذواتنا ، ولا صفاته مثل صفاتنا .. فلا سمعه جلّ وعلا مثل سمعنا ، ولا بصره مثل بصرنا ، ولا كلامه مثل كلامنا ، ولا قوله مثل قولنا ، ولا حروف قوله مثل حروف قولنا ..

.. ولربّما يحتجُّ من يُنكر قدم الحرف القرآني وعدم حدوثه ، أنَّ الحروفَ القرآنيّة كما نقرؤها هي نظمٌ مُرَكَّبٌ على التوالي والتعاقب ، وبالتالي فإنَّ ارتباطها بالذات الإلهيّة وصفاتها يقتضي حدوث الذات وصفاتها ..

إنَّ مثل هذه التصوّرات ناتجة عن إسقاط القوانين التي تحكم القول والحرف المرتبط به في عالمنا المخلوق (عالم الخلق والتشيّؤ) على صفات الذات الإلهيّة ، وكأنَّ الذات الإلهيّة وصفاتها تُحيطُ بها قوانين هذا العالم المخلوق ، وكأنّه لا يكون القول إلاّ عبر الحروف المخلوقة في عالمنا الحادث .. إنَّنا نقرأ القرآن الكريم ونلفظه ونسمعه في عالمنا المادي حروفاً مركّبةً على التوالي والتعاقب ، لأنَّ ذواتنا وأحاسيسنا وصفاتنا مخلوقة ومحكومة لقانون الزمن الذي يدفعنا من الماضي باتّجاه المستقبل على التوالي والتعاقب ..

ولتقريب المسألة إلى أذهاننا ، لنقارن بين القول الذي نسمعه ونحكيه في رؤيا منامنا وأحلامنا ، وبين القول الذي نسمعه ونلفظه أثناء يقظتنا .. ففي النوم نسمع ونحكي قولاً غير محكوم لقوانين العالم المادّي من ذبذبات صوتيّة وغيرها والتي تحكم لفظنا في عالم اليقظة ، وسبب ذلك أنّ أنفسنا كانت – أثناء النوم – خارج الجسد المادّي المحكوم لقوانين المكان والزمان ، ومع ذلك سمعت وحكت قولاً (غير محكوم لقوانين المكان والزمان) هو ذاته الذي نسمعه ونلفظه في هذا العالم المادّي عبر حروفٍ ماديّة حادثة .. وعندما نستيقظ ونريد أن نحكي ما سمعناه وقلناه في منامنا من قولٍ غير محكوم لقوانين المكان والزمان ، فإنَّنا – في اليقظة – نقوم بذلك عبر ذبذبات صوتيّة محكومة لقوانين عالم الخلق الذي تتفاعل معه أنفسنا عبر أجسادنا الماديّة ..

ولربّما يحتجُّ من ينكرُ قدمَ عمقي القول والحرف ، أنَّ القرآن الكريم الذي نقرؤه حروفاً حادثةً على ألسنتنا ، هو ذاته ما سمعناه من الرسول ﷺ ، وهو ذاته ما سمعه الرسول ﷺ من جبريل عليه السلام ، وهو ذاته ما سمعه جبريل عليه السلام من الله سبحانه وتعالى ..

إنَّ علينا أن نُدرك الفارق بين المسألةِ في عالمها الذي تنتمي إليه ، وبين ارتسامها في عوالم أخرى لها ماهيّاتها الخاصّة بها .. فهذا الارتسام هو صور للمسألة ، مرسومة بمادّة تلك العوالم .. إنَّ صور المسألة في العوالم الأخرى (كصور مجرّدة عن مادّة تلك العوالم وماهيّاتها) هي ذاتها الصورة المجرّدة للمسألة في عالمها الذي تنتمي إليه ، فالاختلاف بين الصورة الحقيقيّة للمسألة وبين ارتسامها في عوالم أُخرى ، هو نتيجة اختلاف ماهيّة عالمها الذي تنتمي إليه عن ماهيّات تلك العوالم ..

إنَّ القرآن الكريم بأعماقه الثلاثة (كلاماً وقولاً وحرفاً) يرتبط – كما رأينا – بالذات الإلهيّة وصفاتها ، وعندما سمعه الروح الأمين عليه السلام من الله تعالى ، انعكست صورته بأعماقها الثلاثة في ذات الروح الأمين عليه السلام ، وعندما سمعه

الرسول ﷺ من الروح الأمين انعكست الصورة ذاتها في ذات الرسول الحادثة ، وعندما نسمعه نحن تنعكس صورته ذاتها في ذواتنا الحادثة ..

إذاً .. علينا أن نُميّز بين الأعماق الثلاثة غير الحادثة للقرآن الكريم ، والمتعلّقة بالذات الإلهيّة وصفاتها ، وبين تفاعل الكائنات مع هذه الأعماق الثلاثة (كلاماً وقولاً وحرفاً) حيث يتعلّق ذلك بماهيّات العوالم التي تنتمي إليها تلك الكائنات ..

ففي عالمنا المادّي الذي تُوجَد فيه أنفسنا داخل أجسادنا ، نرى أنَّ روحَ القرآن الكريم يرتسمُ في نفوس البشر وفق صورٍ متباينة وأعماقٍ متفاوتة ، تتعلّقُ بشفافيّةِ هذه النفوس ودرجات إيمانها ، فتفاعلنا مع الروح القرآني يختلف من إنسانٍ لآخر ، حسب كميّة الروح (بمعنى الصلة والمدد والقربى من الله تعالى) في نفس الإنسان ..

.. من هنا نُدرك عمق قوله تعالى : **﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾** [الواقعة : ٧٩] ، بمعنى لا يدخل لمعانيه ودلالاته وأحكامه إلاَّ المُطهّرون من الذنوب والمعاصي والشرك .. ومن هنا نرى أنَّ الذين لا يملكون روح الإيمان ، وهم الذين غطّت المادّةُ أبصارَهم وعقولهم من أن ينظروا إلى ما وراءها ، نراهم لا يفقهون شيئاً من القرآن الكريم ، فلا ينعكس الروح القرآني في أنفسهم روحاً تقرّبهم من الله تعالى ..

﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴾ [الإسراء : ٤٥ – ٤٦]

وهكذا .. عندما نسمع القرآن الكريم ونقرؤه ، فإنّنا نكرِّرُ ما قاله الله تعالى ذاته ، ولكن في عالمنا المادّي هذا وحسب قوانين هذا العالم .. وهذا الذي نقرؤه هو ذاته ما سمعناه من الرسول ﷺ ، وهو ذاته ما سمعه الرسول ﷺ من الروح الأمين عليه السلام ،

سمعاً أدركه من الروح الأمين بماهيّة لا نستطيع نحن في هذا العالم المخلوق إدراكَها ، وهو ذاته ما سمعه الروح الأمين من الله تعالى بماهيّة لا يمكننا إدراكها ..

لننظر إلى الآية الكريمة ..

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦]

إنَّ العبارة القرآنيّة **﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾** واضحة صريحة ، وتعني حتّى يسمعُ ويدرك المعنيُّ في هذه الآية الكريمة – حسب ما يستطيع – كلامَ الله تعالى ، أي المعنى الكائن فيه .. وما هذه الذبذبات الصوتيّة التي تفصلُ بين أُذنه المخلوقة ولسان القائل من البشر ، إلاّ أشياء تتعلّقُ بالوسط المخلوق الذي تنتمي إليه ، فهذه الحروف الماديّة التي تنتقل إلى أذنه عبر وسطٍ مادّي ، هي ارتسامُ قول الله تعالى في هذا الوسط المادّي ..

فنحن كمخلوقات حادثة لا بدَّ لنا من هذه الأشياء الحادثة (الذبذبات الصوتيّة) لندرك ما نستطيع إدراكه من الصورة المطلقة للنصوص القرآنيّة (كلاماً وقولاً وحرفاً) ، فلا يمكننا إدراك كلام الله تعالى بأعماقه الثلاثة في هذا العالم الحادث ، إلاَّ حسب خواصّه وحسب قوانين انتشار الصوت .. ولو كنّا موجودين في عالمٍ ملائكيٍّ له خواصّه وصفاته التي تميّزه عن هذا العالم ، لأدركنا القرآن الكريم (كلاماً وقولاً وحرفاً) عبر خواص ذلك العالم وقوانينه ..

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : ٩٥]

لننظر إلى الصورتين القرآنيّتين ..

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ٢٢]

﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠]

النداء هو صوت وحرف ، وسماع المخلوقات لكلام الله تعالى لا يمكن قياسه على سماعنا لبعضنا بعضاً ، فالقول والحرف يتعلّقُ بصفة القائل ، وبالتالي فحرفيّة قول الله تعالى ترتبط بصفاته غير الحادثة ، وعمليّة سماع قول الله تعالى تتمُّ بعيداً عن قوانين عالمنا الحادث ... ولو فرضنا – جدلاً – أنَّ سماع قولِ الله تعالى لا يكون إلاَّ عبر قوانيننا الماديّة ، فلماذا لم يسمع رجالات الجيل الأوّل الذين كانوا موجودين – أحياناً – حين نزول الروح الأمين ببعض نصوص القرآن الكريم على النبي ﷺ ؟ ..

فالله تعالى عندما تحدّى عالَمي الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، إنّما تحدّاهم بما يسمعونه في عالمهم المادّي هذا ، وبما يتلونه ، وليس لعاقل أن يتصوَّر أنَّ الله تعالى قد تحدّاهم الإتيان بما هو غير مسموع ، وبما هو موجودٌ فقط في الذات الإلهيّة ..

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨]

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء : ٨٨]

إنَّ الإعجاز كائنٌ بالنظم والمعنى الذي يحمله ، والتحدّي هو في هذا القول المسموع المتلو .. ولذلك عندما توعّدَ الله تعالى من يصف قوله بقول البشر بالعذاب الشديد ، إنّما عنى بقوله تعالى هذه الكلمات المسموعة التي يسمعها الكافر الذي قال إنّها من قول

البشر ، ولم يعنِ ما هو غير مسموع ، فما عناه الله تعالى هو هذه الحروف ذاتها التي نسمعها ..

﴿ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدّثّر : ٢٤ – ٢٦]

.. وفي كلام الله تعالى يجب أن نميّز بين :

١ – كلام يتعلّق بمسائل الأمر .. والمسائل المتعلّقة به تتعلّق بصفات الله تعالى ، لأنَّ عالم الأمر – كما رأينا – هو فوق هذا العالم المخلوق المتشيّء ..

٢ – كلام يتعلَّق بمسائل الخلق .. والمسائل المتعلّقة به هي مسائل حادثة ، وتخرج هذه المسائل إلى عالم الخلق والتشيّؤ بكلمة **﴿ كُن ﴾** من الله تعالى : **﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾** [النحل : ٤٠] .. بينما عمق المعنى المرتبط بها ، وعلم الله تعالى بذلك ، ليس حادثاً ..

إنَّ كلَّ ما في هذا الكون خرج إلى الوجود بكلمة **﴿ كُن ﴾** من الله تعالى ، كعيسى عليه السلام وغيره من المخلوقات : **﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾** [النساء : ١٧١] ..

إنّنا نرى أنَّ العبارة القرآنيّة : **﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾** ، تصف كلمةَ الله تعالى التي أُلقيت إلى مريمَ ليخرج بها عيسى ابن مريم للوجود ، وهذا من كلام الله تعالى المتعلّق بمسائل الخلق .. ونرى أنَّ العبارة القرآنيّة : **﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾** تصفُ الروح الذي ملأ نفس عيسى عليه السلام ، وهذا من كلام الله تعالى المتعلّق بمسائل الأمر ، حيث الروح – كما رأينا – من مسائل عالم الأمر ..

إنَّ الكلمة كعلمٍ بمسائل عالم الخلق ، هي علمٌ قديمٌ يرتبط بصفات الله تعالى ، أمّا وجود هذه المسائل في هذا العالم الحادث ، فهو وجودٌ حادثٌ خاضعٌ لقوانين المكان والزمان .. أمَّا مسائل عالم الأمر فإنَّ علم الله تعالى بها هو قديمٌ أيضاً ، ولكنَّ وجودها غير خاضع لقوانين المكان والزمان كما هو الحال في مسائل عالم الخلق ..

فما يُحدِّدُ خضوع المسألة التي تحملها كلمة الله تعالى لقوانين المكان والزمان ، أو عدم خضوعها لهذه القوانين ، هو ماهيّة العالم الذي تنتمي إليه هذه المسألة .. فسواءٌ مسائل الخلق أم مسائل الأمر ، جميعها تعود إلى كلمات الله تعالى غير الحادثة والمرتبطة بصفاته العظيمة ..

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]

وهكذا فإنَّ الفارق الذي نتخيّله بين كلمات الله تعالى المتعلّقة بمسائل الأمر ، وبين كلمات الله تعالى المتعلّقة بإيجاد مسائل الخلق ، لا يعود إلى كلمات الله تعالى ، وإنّما يعود إلى الفارق بين ماهيّة مسائل الأمر وماهيّة مسائل الخلق .. فكلمات الله تعالى في الحالتين ترتبط بصفاته العظيمة المتوحّدة بذاته ..

وما يجب إدراكه هو أنَّ إضافة كلام الله تعالى للذات الإلهيّة ليست كإضافة الأعيان المنفصلة لاسمه الكريم ، كبيت الله ، وناقة الله ، وأرض الله ..... إلخ .. إنَّ الكلام معنىً وصفةٌ للمتكلّم ، وليس عيناً منفصلةً بذاتها .. وإضافته للذات الإلهيّة هو كإضافة صفاته الكريمة مثل علمه وحياته ..... إلخ ..

ومن لم يتّصف بصفة الكلام والقول ليس إلهاً ، فعدم الكلام والقول هو نقصٌ في الصفات .. وهذه المسألة جعلها الله تعالى حجّةً على الذين اتّخذوا العجل إلهاً ..

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٨]

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ۝ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه : ٨٨ – ٨٩]

وتنزيل القرآن الكريم وإنزاله ، يرتبط بصفات الله المتوحّدة بذاته (الحكيم – الخبير – العليم – العزيز – الرحمن – الرحيم) ..

﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١]

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : ٦]

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [غافر : ٢]

﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [فصّلت : ٢]

أمّا إنزال الأشياء المخلوقة (كالماء والحديد والأنعام) فيكون من آثار صفات الله العظيمة ، لأنَّ هذه الأشياء هي أعيانٌ منفصلةٌ عن الذات الإلهيّة ، ومحكومة لقوانين التشيّؤ والمكان والزمان ..

وبما أنَّ الكلام صفةٌ للذات ، فهو يُقاس على هذه الذات .. ولذلك فالذوات المخلوقة صفاتها مخلوقة ، وبالتالي كلامها مخلوقٌ أيضاً ..

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : ٦٥]

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصّلت : ١١]

وإضافة القرآن الكريم إلى قول الروح الأمين عليه السلام ، وإلى قول الرسول ﷺ ، لا يعني أنّهما أحدثاه ، ولا يعني أنّهما صاغاه ..

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلاً مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٠ – ٤٧]

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ – ٢١]

إنَّ كلمة ﴿ رَسُول ﴾ تعني مُبلِّغاً لرسالةٍ يحملها عن مرسلِه .. والصورتان القرآنيّتان – كما نرى – هما بصيغة الرسالة التي تعني نقلاً عن مُرسِل .. فلم تأت هاتان الصورتان على الشكل : (إنّه لقول الروح الأمين) ، (إنّه لقول محمّد) ، إنّما نراهما بصيغة الرسالة حصراً : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .. فالتعلّق – في هاتين الصورتين القرآنيّتين – بصيغة الرسالة ، هو بيانٌ بأنَّ الروح الأمين تلقّى قولَ الله تعالى من الله تعالى كرسالة ، وأبلغه كما هو تماماً للرسول ﷺ ، حيث قام الرسول ﷺ بإبلاغه كما هو تماماً للبشر ..

وقد ذهب بعضهم إلى أنَّ القرآن الكريم مخلوقٌ ، استناداً إلى الصورة القرآنيّة : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] .. فقالوا : كلمة جعل بمعنى خلق ، محتجّين ببعض الآيات ، مثل ..

﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقًا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ

وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًا ۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَـٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠ – ٣٢]

لقد فاتهم أنَّ ماهيّةَ الفعل ترتبط بماهيّة العالم الذي ينتمي إليه المفعول به ، فكلمة جعل عندما ترتبط بمسائل هي فوق هذا العالَم المخلوق المتشيّء ، تأتي بمعنى سمّى ووصف ، ولا تأتي بمعنى خلق ..

﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةً لِّأَيۡمَـٰنِكُمۡ ﴾ [البقرة : ٢٢٤]

﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر : ٩١]

﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَـٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلاً ۚ ﴾ [النحل : ٩١]

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء : ٣٩]

﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَـٰدُ ٱلرَّحۡمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ [الزخرف : ١٩]

ولا أعتقد أنَّ عاقلاً يستطيع أن يدّعي بأنَّ مشتقّات كلمة جعل في هذه الآيات الكريمة تأتي بمعنى خلق ..

ولو كان الله تعالى مخلوقاً لاستطاع البشر الإحاطة به ، ولمّا حدَّد الله تعالى طرق تكليمه للبشر بثلاثة طرق ..

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١]

ولو نظرنا إلى العبارة القرآنيّة ﴿ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ التي تأتي مرتبطةً بالمشيئة ﴿ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ ، لأدركنا أنَّ وظيفة الرسول بين الله تعالى وبين البشر

، هي نقل كلام الله تعالى المتعلّق بصفاته العظيمة (والذي لا يستطيع البشر تلقيه مباشرةً من الله تعالى) إلى عالم المشيئة الذي يتفاعل فيه البشر ..

والاستشهاد بمسألة الناسخ والمنسوخ على أنَّ القرآن الكريم مخلوق ، حيث يُزعَم أنَّ أحكام القرآن الكريم تُبَدّل وتغيّر .. هذا الاستشهاد ليس صحيحاً على الإطلاق ، لأنَّ مسألة الناسخ والمنسوخ هي كذبة كُبرى تمَّ افتراؤها على الله تعالى وعلى كتابه الكريم ، كما سنرى – إن شاء الله تعالى – في الفصل الأخير من هذا الكتاب ..

والكتب السماويّة جميعها هي كلام الله تعالى ، وليست هي فقط كلمات الله تعالى .. فالله تعالى يتكلّم بما يريد ومتى يريد وكيف يريد .. إنَّ كلام الله تعالى صفةٌ من صفاته ، وبالتالي لا يُحدَّد ولا ينتهي ..

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩]

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧]

وكيف تكون لكلمات الله تعالى حدود ، وكلّ ما في هذا الكون من وجود (في الماضي والحاضر والمستقبل) من حركة ومن معانٍ ندركها ولا ندركها ، هو آثارٌ لكلمات الله تعالى ..

وقد بيّنا أنَّ القرآن الكريم يتميّزُ عن باقي الكتب السماويّة بأنَّه قول الله تعالى ، في حين يشترك مع باقي الكتب السماويّة بكونه كلام الله تعالى .. فالكتب السماويّة الأخرى هي كلمات الله تعالى التي قيلت من قبل رسل الله تعالى ، بمعنى أنَّ المعاني والأحكام التي يريدها الله تعالى صاغتها في قوالب لغويّة رسلُ الله تعالى .. ولكنَّ الله

تعالى هو من صاغ القرآن الكريم ، وبالتالي فمعاني القرآن الكريم ودلالاته وأحكامه تتناسب مع الصفات الإلهيّة العظيمة ، فلا يُحيط بها إلاَّ الله سبحانه وتعالى ..

من هنا نرى كيف أنَّ الله تعالى تحدّى الإنس والجن على أن يأتوا بنصٍّ كالنصّ القرآني ..... وكيف بهم أن يملكوا قدرةً على الصياغة اللغويّة كقدرة الله تعالى ليصوغوا كلمات الله تعالى التي تحمل تبياناً لكلِّ شيء ؟!!! .. وفي الوقت ذاته لم يتحدَّ الله تعالى المخلوقات بأن تأتي بنصٍّ كنصوص الكتب السماويّة الأُخرى ، فصياغة تلك الكتب ليست من قِبَل الله تعالى ، أي ليست قولاً لله تعالى ..

وفي كلِّ رسالة يجب أن نُميّز بين المنهج الذي ينقل لنا ما يريده الله تعالى من معانٍ وأحكامٍ وأوامرَ يريد الله تعالى من البشر أن يتّبعوها من جهة ، وبين المعجزة التي تصدّق هذا المنهج من جهة أُخرى .. ففي رسالة موسى عليه السلام كان المنهج الذي عمل به هو التوارة ، وكانت المعجزة هي العصا وغيرها من المعجزات الحسيّة التي أُعطيت لموسى عليه السلام .. وفي رسالة عيسى عليه السلام كان المنهج الذي آتاه الله تعالى إيّاه هو الإنجيل ، وكانت المعجزة التي أُيِّد بها هي إحياء الموتى بإذن الله تعالى وغيرها من المعجزات الحسيّة التي أُيِّد بها ..

وبما أنَّ المناهج السابقة (الكتب السماوية السابقة) هي كلام الله تعالى وليست قولَه ، أي ليست حروفاً مصاغة بقالبٍ لغويٍّ من قِبَل الله تعالى ، لذلك لم تحمل هذه الكتب السماوية معجزات ، حيث المعنى (الكلمات) من الله تعالى ، والصياغة (القول) من الرسل ..

أمّا القرآن الكريم فبالإضافة إلى أنَّه كلام الله تعالى شأنه بذلك شأن كل الكتب السماويّة ، فإنَّه يتميّز بكونه قولَ الله تعالى ، قاله بحرفيّته أزلاً ، قولاً يتعلّقُ بصفاته العظيمة ، ويتميّزُ – أيضاً – بكون معجزته صفةً من صفات الله تعالى ، في حين أنَّ معجزات المناهج السماويّة السابقة فِعْلٌ من أفعال الله تعالى تنتمي لعالم الخلق ، وبالتالي

هي معجزات محكومة بقوانين لإطار المكان والزمان .. ولذلك فالقرآن الكريم هو ذاته منهجٌ لأنّه كلام الله تعالى الذي يحمل معاني أحكامه وأدلّته ، وهو ذاته معجزةٌ مستمرّةٌ غير خاضعة للمكان والزمان ، لأنَّه قول الله تعالى ..

وقد بيّنت في النظريّة السادسة (سلّم الخلاص) أنَّ القرآن الكريم يتميّز – أيضاً – بكونه الكتاب السماوي الوحيد الذي يُوصَف بأنَّه نُزِّل من عند الله تعالى بصيغة التنزيل (من الفعل نزّل) ، في حين يشترك مع الكتب السماويّة السابقة بكونه أُنزل من عند الله تعالى بصيغة الإنزال (من الفعل أنزل) .. وكلُّ النصوص القرآنيّة تؤكّد هذه الحقيقة ..

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران : ٣]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦]

وهناك نصٌّ واحدٌ يصف التوراة بالتنزيل ولكن ليس تنزيلاً من عند الله تعالى ، حيث يرد التنزيل بصيغة المبني للمجهول ..

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ [آل عمران : ٩٣]

وبيّنت أنَّ التنزيل هو دون أيِّ تحوّلٍ أو تغيير ، وهذا يتعلّق بالقرآن المعجزة ، وأنَّ الإنزال يتعلّق بالتيسير وجعل النصّ في متناول الفهم والإدراك ، وهذا يتعلّقُ بالقرآن المنهج .. فالقرآن الكريم أُنزل منهجاً شأنه شأن كلّ الكتب السماويّة ، ولكنّه ينفرد بكون نزّل معجزةً ..

ونحن عندما نقول ذلك لا نغلو ولا نقول إلاّ الحق ، فحتى الحروف المرسومة التي بين أيدينا والتي جاء بها الوحي ، لها صورة – غير ماديّة – في اللوح المحفوظ ..

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ – ٢٢]

وبيّنت في النظريّة الأولى (المعجزة) كيف أنَّ رسم القرآن الكريم كان بوحيٍّ من السماء .. وبيّنت كيف أنَّه يستحيل تبديل حرفٍ مرسومٍ بحرفٍ آخر ، ويستحيل حذفه أو زيادته ..

إذاً .. القرآن الكريم هو :

١ – كلام الله تعالى المتعلّق بذاته ، ومعانيه نابعة من الذات الإلهيّة ، حيث أنزله الله تعالى ميسّراً للذكر لمن يريد فهمه وإدراك دلالاته ..

٢ – قول الله تعالى بحرفيّته ، فصياغة معانيه وأحكامه في حروفٍ باللغة التي صيغ بها ، تتعلّق بصفات الله تعالى ، حيث نزّله الله تعالى كما هو تماماً كمعجزةٍ يتحدّى بها الإنس والجن في كلِّ مكانٍ وزمان ..

أمَّا لفظه فيرتبط بالذات التي تقرؤه ، وبالعالم الذي تنتمي إليه هذه الذات ..... وكنّا قد بيّنا أنَّ كلام الله تعالى وقوله ينقل لنا صور الأحداث المخلوقة ، عبر صياغةِ الله تعالى الأزليّة المرتبطة بصفاته المطلقة ، وذلك لمعاني الأحداث التي تعلمها الذات الإلهيّة علماً مطلقاً .. وبيّنا أنَّ نقل الله تعالى لقول المخلوقات هو صياغةٌ مطلقة للمعاني الكائنة في ذات المخلوقات (التي يُنقل قولُها) ، تلك المعاني التي يعلمها الله تعالى علماً مطلقاً أكبر بكثير من علم تلك المخلوقات ذاتها .. ولذلك فقول الله تعالى الذي ينقل به ما تقوله بعض المخلوقات ، هو قولٌ مطلق ، أعظم من قولِ المخلوقات القائلة بنسبةٍ توازي الفارق بين الله تعالى (علماً وقدرةً على الصياغة) وبين تلك المخلوقات ..

وإنَّ نزول القرآن الكريم إلى السماء الدنيا ، أحدث مسائل كونيّة لم تكن قبل نزوله .. فقبل نزوله كان للجنّ في السماء مقاعد للسمع ، أمّا بعد نزوله فقد مُلئت السماء بالحرس والشهب ..

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١ – ١٠]

فما رأته الجنّ من هذا التغيير في السماء حين نزول القرآن الكريم ، لم يحدث حين نزول كتاب موسى عليه السلام ، والذي علمت به الجن ..

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ – ٣٠]

وهكذا نرى أنَّ نزول القرآن الكريم ليس كترول باقي الكتب السماويّة ، ومردُّ ذلك تعلّقه بصفات الله تعالى ، كونه ينفرد بأنَّه الكتاب السماوي الوحيد الذي هو قول الله تعالى ، وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي نُزِّل من عند الله تعالى ..

لقد رأينا في النظريّة الثانية (القدر) كيف أنَّ تجلّي الذات الإلهيّة لأيِّ مخلوق يعني زوال هذا المخلوق ، فعندما تجلّى الله تعالى للجبل جعله دكّاً ..

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣]

والقرآن الكريم المتعلّق بصفات الله تعالى ، لو أُنزل على جبلٍ لخشعَ هذا الجبل وتصدَّع ، لأنَّه أُنزلت عليه صفةٌ من صفات الذات الإلهيّة ..

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢١ – ٢٤]

إذاً .. نزول القرآن الكريم على هذا المخلوق المتشيّء (الجبل) ، يجعله يخشع ويتصدَّع من خشية الذات التي تتّصف بهذه الصفة (القرآن الكريم) : ﴿ لَّرَأَيْتَهُۥ

خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ ، وهذه المسألة عبارة عن مَثَلٍ يضربه الله تعالى لنا لنتفكّر في عظمة هذه الصفة (القرآن الكريم) الناتجة عن عظمة الذات التي تصدر عنها هذه الصفة ..

ونرى – أيضاً – أنَّ الآيات الثلاث التي تلي الآية التي يضرب الله تعالى لنا من خلالها مثلاً يبيّن عظمة صفته العظيمة (القرآن الكريم) ، نرى كلَّ آية منها تبدأ بالعبارة القرآنيّة **﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾** ، وهو سبحانه وتعالى الذّات التي تتعلّق بها هذه الصفة (القرآن الكريم) ، ونرى أنَّ هذه الآيات تصوِّر لنا العديد من الصفات الإلهيّة التي تتّصف بها الذات الإلهيّة .. فالقرآن الكريم والصفات الإلهيّة جميعها ، ترتبط بالذات الإلهيّة ..

❁ ❁ ❁

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الارتباط التام للكلمات القرآنيّة
بجذورها اللغوية

رأينا في الفصل الأوَّل أنَّ القرآن الكريم بحروفه هو قول الله تعالى ، قولاً قديماً ، فوق الحدوث .. ورأينا أنَّ المفردات القرآنيّة هي مفردات فطريّة علّمها الله تعالى لآدم عليه السلام قبل حلول نفسه في جسده ، وحافظت على هذه المفردات أمّةٌ أميّة حتى نزول القرآن الكريم مُصاغاً من هذه المفردات ..

وقد بيَّنتُ في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) ، وفي كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، أنَّ الحرفَ القرآنيَّ هو اللبنة الأولى للمعنى ، وذلك بإعطاء كلِّ حرف قيمة عدديّة تتعلّقُ بترتيب مجموع وروده في القرآن الكريم ، وتبيّن أنَّ العبارات القرآنيّة المتوازنة بالمعنى والدلالات ، قيمها العدديّة متساوية ، وأنَّ العبارات القرآنيّة المتكاملة في إطار مسألة واحدة ، قيمها العدديّة من المضاعفات التامّة للعدد (١٩) دون زيادة أو نقصان ، وذلك تعلّقاً بقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثّر : ٣٠] .. وذلك عبر عرض آلاف الأمثلة التي تؤكّد هذه الحقيقة ..

.. إذاً .. البناء الرقمي للنصِّ القرآني يتعلّق ببناء المعنى والدلالات الذي يحمله هذا النص ، ولمّا كان الحرف هو اللبنة الأولى في هذا البناء ، فإنَّه اللبنة الأولى في بناء المعنى والدلالات .. وبإمكاننا أن نرى هذه الحقيقة من منظارٍ آخر هو ورود الحروف النورانيّة (فواتح السوَر) في بداية بعض السوَر القرآنيّة ، وهي تُقرأ حروفاً مُقطَّعة ، وقد أتى بعضها بآياتٍ مستقلّة ، وبالتأكيد تحملُ معاني ودلالات ..

إذاً .. الحرف النوراني ، أتى مستقلاً بذاته ، ليحمل المعنى المستقل الذي يحمله .. فعلى سبيل المثال حينما يقول تعالى : ﴿ قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ [ق : ١] ، فإنَّ الحرف النوراني ﴿ قٓ ۚ ﴾ يحمل ذات المعنى الذي يحمله حرف القاف في كلمة ﴿ وَٱلۡقُرۡءَان ﴾ ، ولكنّه في كلمة ﴿ وَٱلۡقُرۡءَان ﴾ يدخل مع باقي حروف هذه الكلمة في بناء المعنى والدلالات المحمول بهذه الكلمة .. وكذلك الأمر في قوله تعالى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] ، فإنَّ الحرف النوراني ﴿ نٓ ۚ ﴾ يحمل ذات المعنى الذي يحمله حرف النون في كلمة ﴿ يَسۡطُرُونَ ﴾ ، ولكنّه في كلمة ﴿ يَسۡطُرُونَ ﴾ يدخل مع باقي حروف هذه الكلمة في بناء المعنى والدلالات المحمول بهذه الكلمة ..

إذاً .. الحرف القرآنيُّ ليس مجرّدَ لبنة نطقٍ في بناء الكلمات القرآنيّة ، والكلمة القرآنيّة ليست إفراغاً للمعنى الذي يريده الله تعالى في قالبٍ لغويٍّ من صنع البشر .. إنَّ من يتخيّل ذلك ، إنّما يفرض – سلفاً – أنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالى فقط ، وليس قولَ الله تعالى ..... الكلمة القرآنيّة تصفُ المُسمَّى بها وصفاً مُطلقاً يتعلّقُ بعلم الله تعالى المطلق ، وبقدرته المطلقة على صياغة ما علمه الله تعالى ، لذلك فالكلمة القرآنيّة التي تصف المُسمَّى ، تُعطي كلَّ جيلٍ في كلِّ زمانٍ ومكان ما يُناسب علمه وحضارته عن حقيقة المُسمَّى بهذه الكلمة ..

والصلةُ ما بين المعنى المحمول بالكلمة القرآنيّة وبين الجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه ، هي صلةٌ مطلقة ، فجميع الكلمات القرآنيّة المتفرّعة عن جذر لغوي واحد ، تدور معانيها في إطار المعنى الذي يحمله هذا الجذر اللغوي .. وهذا أمرٌ طبيعي ، كون الحرف القرآني هو اللبنة الأولى للمعنى ، وكون المفردات القرآنيّة فطريّة موحاة من الله تعالى ، وليست وضعية اصطلاحيّة من صنع البشر ، وكون ما يتعلّق بالله تعالى لا يحمل شيئاً من المصادفة والعبثيّة وعدم المنهجيّة ..

إنَّ حروفاً قالها الله تعالى لا تكون إلاَّ مطلقة .. وإنَّ كلماتٍ فطريّةً من عند الله تعالى لا تكون إلاَّ مطلقة ، وتتعلّقُ تعلّقاً كاملاً بحروفها المكوِّنة لها ، وبالجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه .. وقد بيّنت في النظريّة الأولى (المعجزة) كيف أنَّ رسمَ القرآن الكريم أكبر وأشمل وأوسع من قواعد الكتابة التي نتداولها ، وأنَّ الاختلاف في رسم الكلمة ذاتها هو لحكمة إلهيّة مرادة ، وأنَّ تغيّر الحروف المرسومة ما بين كلمة وكلمة ينتجُ عنه تغيّرٌ في المعنى والدلالات .. وكذلك الأمر في صياغة الجمل القرآنيّة ، فصياغة هذه الجمل هي فوق قواعد اللغة العربيّة التي استخلصها العلماء حتّى من القرآن الكريم ذاته ، فهم لم ولن يستطيعوا الإحاطة التامّة بقواعد النحو المحمولة بالقرآن الكريم .. وكذلك الأمر فإنَّ الميزان الصرفي الذي استنبطه العلماء حتى من القرآن الكريم ، لا يُحيط إحاطة تامّة بجميع الكلمات القرآنيّة ، فلو تمّت الإحاطة بأيِّ جانبٍ من جوانب صياغة النصّ القرآني ، لتمّت الإحاطة بصفةٍ من صفات الله تعالى ..

يُوجَدُ للجذر اللغويّ في القرآن الكريم معنىً عند الله تعالى ، نستطيع الوقوفَ على جزءٍ منه حسب درجة تدبّرنا لكتاب الله تعالى ، وهذا المعنى هو وصفٌ مطلق لحقيقة المسائل المحمولة بالكلمات المتفرّعة عن هذا الجذر اللغوي .. وإنَّ عدمَ إدراكنا نحن المخلوقات – أحياناً – للرابط بين المسألة التي يصفها الجذر اللغوي ، وبين المسائل التي تصفها مشتقّاته اللغويّة ، ناتجٌ عن عدم إدراكنا لماهيّة المسائل الموصوفة بالكلمات المتفرّعة عن هذا الجذر اللغوي .. فنحن موجودون في عالمٍ مخلوق له ماهيّته الخاصّة به ، ونتفاعل مع المسائل التي تصفها الكلمات القرآنيّة وفق قوانين هذا العالم المخلوق ، بينما تحملُ الكلمات القرآنيّة وصفاً للمسائل يرتبط بصفات الله تعالى المطلقة ، المُحيطة إحاطة مُطلقة بماهيّة المسائل الموصوفة بالكلمات القرآنيّة ..

وهذا لا يعني أن نذهب بعيداً في تأويل مشتقّات الجذر اللغوي تأويلاً نخرج به عن الحقّ والصواب .. إنَّ ما نعنيه هو الاستفادة – أثناء بحثنا – من باقي مشتقّات الجذر

اللغوي الذي تفرّعت عنه الكلمة التي هي قيد البحث ، من أجل الوصول إلى إدراك حقائق يقرّها القرآن الكريم ..

وهكذا فإنَّ ارتباط الكلمة القرآنيّة معنىً بجذرها اللغوي هو ارتباط الفرع بالأصل ، ولإدراك الحقيقة النهائيّة المحيطة بذلك إدراكاً تامّاً لا بدّ من علمٍ مطلق بماهيّة وجود المسائل ، ولا بدَّ من صفاتٍ مطلقة تحيط بالقول الذي يصف هذه المسائل ، وهذا لا يكون إلاّ لله تعالى .. فالله تعالى العالم علماً مطلقاً بماهيّة المسائل التي هي آثار صفاته العظيمة في هذا العالم ، هو ذاته قائل القرآن الكريم ، وبالتالي هو وفقط هو من يستطيع الوقوف على نهاية المعاني والدلالات المحمولة بالنصوص القرآنيّة ..

وكلّما تقدّم علمنا كلّما ارتقينا في إدراك الرابط الذي يربط المسمّيات القرآنيّة للأمور والأشياء بماهيّة هذه الأمور والأشياء ، وبروح المعنى للجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه هذه المسمّيات القرآنيّة ..

وسنتعرّض لبعض الأمثلة القرآنيّة ، لنلقي الضوء على هذه الحقيقة ، ولنرى كيف أنَّ الكلمة القرآنيّة لا تخرج عن روح المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي ، وأنَّ جميع مشتقّات الجذر الواحد تدور ضمن إطار المعنى الذي يحمله هذا الجذر ، ولنرى – أيضاً – كيف أنّه لا ينوب جذرٌ لغويٌّ مكان جذرٍ آخر ، فلا تُوجَد كلمة قرآنيّة مرادفة لكلمة أُخرى تنتمي لجذر آخر ، بالمعنى الذي يتخيّله بعض البشر ..

في كتاب الله تعالى ورد للجذر (ن ، س ، أ) فرعان هما : ﴿ **ٱلنَّسِىٓءُ** ﴾ ، ﴿ **مِنسَأَتَهُۥ** ﴾ :

﴿ **إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ** ﴾ [التوبة : ٣٧]

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤]

نحن نعلم أنَّ دلالات هذا الجذر تعني التأخير ، فنقول نسأ الشيء بمعنى أخَّره ، وينسأ يُؤخِّر ، وأنسأت عنه تأخَّرت وتباعدت ، وهذا المعنى نراه واضحاً في الصورة القرآنيّة : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ ﴾ .. وفق هذا المعنى الذي يرسمه لنا الجذر (ن ، س ، أ) ، ما علاقةُ كلمة ﴿ مِنسَأَتَهُۥ ۖ ﴾ المُشتقّة منذ هذا الجذر اللغوي ، وهي التي تأتي وصفاً لعصا سليمان عليه السلام ؟ ..

نحن نعلم أنَّ عصا سليمان عليه السلام أخَّرت من علم الجن بموته .. فالجنّ لم يعلموا بموت سليمان عليه السلام إلاّ عندما خرَّ نتيجةَ أكل دابّة الأرض لمنسأته (عصاه) .. فهذه العصا التي نسأت (أخَّرت) علم الجن بموته ، هي السبب في مسألة التأخير هذه .. وبالتالي فهي منسأته ..

ووصف الله تعالى لهذه العصا بهذه الصفة ، هو وصفٌ مُطلقٌ لحقيقة المسألة المحمولة في السياق السابق واللاحق لهذه الكلمة ﴿ مِنسَأَتَهُۥ ۖ ﴾ ، فالعصا كلمة قرآنيّة ترد في كتاب الله تعالى ، ولكنَّ السياق القرآني في العبارات التي نحن بصدد دراستها يُلقي الضوء على مسألة تأخير علم الجنّ بموت سليمان عليه السلام ، ووفق هذا المنظار نرى أنَّ كلمة ﴿ مِنسَأَتَهُۥ ۖ ﴾ كمشتق من الجذر (ن ، س ، أ) تأتي وصفاً مطلقاً لحقيقة الموصوف ..

إذاً .. ارتباط الكلمة القرآنيّة بجذرها اللغوي هو ارتباطٌ مطلق ، والكلمة القرآنيّة تحمل معنىً لا يخرج عن إطار معنى جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ..

❁ ❁ ❁

للجذر (ب ، ع ، ل) في القرآن الكريم سبعة فروع ، ستّة منها تصف لنا الرجال أزواج النساء .. وفرع واحد يصف لنا صنماً يدعونه الكفّار ..

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٣ – ١٢٥]

فما علاقة الفرع **﴿ بَعْلًا ﴾** بالمعنى الذي يحمله جذره اللغوي وبباقي الفروع التي تفرّعت عن هذا الجذر اللغوي ؟!!! ..

بمقارنة مشتقّات الجذر (ب ، ع ، ل) التي تأتي وصفاً للرجال أزواج النساء ، مع مشتقّات الجذر (ز ، و ، ج) ، نرى أنّهما يتمايزان عن بعضهما في مسألتين :

١ – البعل هو صفة للرجل زوج المرأة ، ولا يكون العكس ، أي ليست المرأة بعلاً للرجل .. بينما في الزوجيّة نرى أنَّ الرجل زوجٌ للمرأة وأنَّ المرأة زوجٌ للرجل ..

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٣]

٢ – مشتقّات الجذر (ب ، ع ، ل) ترتبط بالبشر فقط ، بينما مشتقّات الجذر (ز ، و ، ج) ترتبط بالبشر وبغير البشر ..

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : ١٠]

وَلَمَّا كان الرجال قوّامون على النساء : **﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾** [النساء : ٣٤] ، ولمّا كانت صفة البعل هي للرجال دون النساء ، نستنبط أنَّ دلالات الجذر (ب ، ع ، ل) ، تُلقي الضوء على صفة القوّامة والانقياد والاتّباع .. وهذه الصفة هي ذاتُها التي يضع بها عابدو الأصنام أصنامَهم ، فهم يجعلون أصنامهم قوّامةً عليهم ويجعلون من أنفسهم

منقادين وتابعين لها .. وهذا هو ما تحمله الآية الكريمة : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ ، بمعنى أتجعلون أصناماً قوّامةً عليكم تنقادون لها وتتبعونها ، كما تنقاد المرأة لزوجها وتتّبعه .. وهذا وصفٌ مطلقٌ لا تنوب فيه أيُّ كلمة من أيِّ جذرٍ آخر عن كلمة ﴿ بَعْلاً ﴾ من الجذر (ب ، ع ، ل) ..

وهكذا نرى أنَّ كلمة ﴿ بَعْلاً ﴾ لم تخرج دلالاتها عن دلالات جذرها اللغوي ، وأنّها وصفٌ مطلق لا يكون إلاَّ بها كفرع من فروع جذرها اللغوي ..

❁ ❁ ❁

لو نظرنا في مشتقّات الجذر اللغوي (س ، ح ، ر) في القرآن لرأينا أنَّ الكلمـــات المتفرّعة عنه تنقسم – بالنسبة لإدراكنا الظاهري – إلى قسمين :

– قسم يتعلَّق بالسِّحر ، ويعني تغيير الحقيقة في أعين الناظرين ..

– قسم يتعلّق بالسَّحَر .. ومشتقّاته – في كتاب الله تعالى – هي :

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧]

﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨]

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : ٣٤]

فما هو مشترك الدلالة بين هذين الفرعين من الجذر (س ، ح ، ر) ؟ ..

السِّحر هو تغيير الحقيقة في أعين الناظرين ..

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ [طه : ٦٦]

فالحبال والعِصيّ ، هي في حقيقتها لم تكن تسعى ، ولكنّ موسى عليه السلام خُيّل إليه – نتيجةَ سحرِهم – أنّها تسعى ..

إذاً .. السّاحر هو من يقوم بتغيير الحقيقة في أعين الناظرين ..

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ [ص : ٤]

وكلمة ﴿ بِسَحَرٖ ﴾ في قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ۝٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ [القمر : ٣٣ — ٣٥]

هذه الكلمة ﴿ بِسَحَرٖ ﴾ هي ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يُصَوِّرُ لنا آليّةَ نجاةَ آل لوط وأهله ، ونراها تستثني امرأة لوطٍ عليه السلام ، فالحديثُ في سياقِ تلك الآيات هو عن آليّة النجاة التي نجّى اللهُ تعالى — بواسطتها — من نجّاهم من قومِ لوط ..

وممّا يُؤكّد صحّةَ ما نذهب إليه ، هو حرف الباء (باء الواسطة والوسيلة) في كلمة ﴿ بِسَحَرٖ ﴾ ، وكذلك ورود هذه الكلمة بصيغة النكرة .. فالنجاة كانت بواسطة سَحَر ، وليست مُجرّد نجاة تمّت خلال السَّحَر ..

فما نراه في هذا النصِّ القرآني هو عن آليّة النجاة وواسطتها ، ولذلك لم يتمّ — في هذا النصّ القرآني — استثناء امرأة لوط عليه السلام ، كما هو الحال في النصوص القرآنيّة الأخرى ، التي تصوّر لنا الناجين ، والتي تُستثنى فيها امرأة لوط عليه السلام ..

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [الحجر : ٥٨ — ٦٠]

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [النمل : ٥٦ — ٥٧]

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٢ – ٨٣]

﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٠ – ١٧٣]

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٢ – ٣٣]

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٣ – ١٣٦]

هذه النصوص القرآنيّة تتحدّثُ عن النجاةِ ذاتِها ، لذلك نرى استثناءَ امرأةِ لوطٍ فيها ، فامرأةُ لوطٍ مستثناة من آل لوطٍ وأهله في مسألةِ النجاة .. ولا تتحدّث هذه النصوص عن واسطةِ النجاةِ وكيفيّتِها ، كما هو الحال في الصورة القرآنيّة التي نحن بصدد دراستها ..

وكيفيّةُ النجاة – التي تمّت – تكون بعدم الالتفات إلى ما يحلُّ بقوم لوطٍ حين نزول العذاب فيهم ..

﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [هود : ٨١]

﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴾ [الحجر : ٦٥ – ٦٦]

فآليّة النجاة – كما نرى – هي عدم الالتفات إلى العذاب الذي يحلّ في قوم لوط .. والذي سيلتفت ، وبالتالي لا يستفيدُ من واسطةِ النجاة ، هو امرأةُ لوط عليه السلام .. فالتفاتُها يُخرجُها من ساحة الاستفادة من واسطةِ النجاة ..

ولذلك في النصِّ القرآنيّ ، قيد الدراسة ..

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ [القمر : ٣٣ – ٣٥]

نرى عدمَ استثناء امرأة لوط ، وهذا يُؤكِّدُ صحّةَ ما ذهبنا إليه من أنَّ العبارة القرآنيّة : ﴿ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴾ تصفُ كيفيّةَ النجاة وواسطتها ، حيث لم تستفد امرأةُ لوطٍ من هذه الواسطة والكيفيّة ، ولا تصفُ هذه العبارةُ القرآنيّةُ مسألةَ النجاةِ ذاتها .. إذاً .. النجاةُ كانت بواسطةِ تغيير الواقع المحيط بآلِ لوط واستثنائه من واقعِ الحاصِبِ الذي أُرسِلَ على قومِ لوط ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴾ .. وهذا عين ما تصفه العبارة القرآنيّة ﴿ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴾ ..

وكما أنَّ السِّحْرَ يغيِّرُ الواقعَ في أعينِ المسحورين ، ومن لا يلتفت إلى هذا السحر ويستطيعُ حجبَ رؤيتِه عنه لا يتأثَّرُ به ، كذلك فإنّ واقعَ التغيير الذي هو الاستثناءُ من

الحاصبِ الذي أُرسلَ على قومِ لوطٍ لا يكونُ إلاَّ بعدمِ الالتفات إلى هذا الحاصب .....
لذلك نرى أنَّ امرأة لوطٍ أصابها ما أصابَ قوم لوط ، لأنَّها التفتت ونظـــرت إلى هـــذا الحاصب ، وبالتالي لَمْ تستفدْ من أداة النجاة التي هي حجبُ الواقعِ الحاصل في قوم لوطٍ حين إرسال الحاصب عليهم ..

.. إذاً كلمةُ (سَحَر) تعني : حجبَ الواقع المحيط وعدمَ الالتفات إليه .. ونحن بإظهار هذه الدلالات لكلمة (سَحَر) ، لا نُنكرُ ساحة الزمان التي تمّت فيها تلك النجاة .. أبداً .. فهناك عبارات قرآنيّة تُبيّن أن موعدهم الصبح ، وأنّ لوطاً عليه السلام أُمِرَ بأن يسري بأهلِه بِقِطْعٍ من الليل ..

﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٨١]

فما نُريد أن نُبيّنه هو عُمق الدلالات التي تحملُها هذه الكلمة ، وعمق ارتباطها بالدلالات النابعة من الجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه ..

.. وكلمة (الأسحار) في النصّين القرآنيّين ..

﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧]

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨]

هذه الكلمة ترد بالصيغة : **﴿ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾** ، **﴿ وَبِٱلْأَسْحَار ﴾** ، وهذه الصيغة هي جمع كلمة (سَحَر) ، ومجرورة بباء الواسطة والوسيلة وليس بحرف الجر (في) ، أي بواسطةِ (الْأَسْحَارِ) يتمُّ استغفارهم لله تعالى .. و لم ترد بالصيغة (في السَّحَر) .. وهذا

يدفعنا إلى إدراكِ دلالاتها بعمقٍ أبعد من مُجرّدِ حصرها في وصف فترة زمنيّة محدَّدة معروفة من الليل تتكرّرُ كلَّ يوم ..

إذاً .. معنى كلمة [﴿ **بِٱلۡأَسۡحَارِ** ﴾ ، ﴿ **وَبِٱلۡأَسۡحَارِ** ﴾] في هاتين الآيتين الكريمتين هو : بطرقِ التغيير وعدم الالتفات إلى الذنوب والخطايا التي يطلبون من الله تعالى غفرانها ..... فطلبهم المغفرة من اللهِ تعالى يكونُ من خلالِ جهدِهِم وعزمِهِم في ترك وحجب ما يطلبون من الله تعالى غفرانه ، وفي عدم الالتفات إليه ..... أي بالتغيير والإعراض عن الخطايا ، وعدم الالتفات إليها ، يطلبون المغفرةَ من الله تعالى عن هذه الخطايا ، كما أنَّ آلَ لوطٍ نجّاهم الله تعالى من الواقع الذي نزلَ بقومِهِم من خلالِ عدمِ الالتفات إلى ذلك الواقع ..

إذاً .. جميع مشتقّات الجذر اللغوي (س ، ح ، ر) تشترك بمعنًى مجرّدٍ لا يخــرجُ في إطاره العام عن إطار المعنى والدلالات التي يحملُها هذا الجذر اللغوي ..

❁ ❁ ❁

دلالاتُ الجذر اللغوي (ن ، ح ، س) تدورُ معانيها في إطارِ خِلافِ السَّعد وعــدم التوفيق والتفاعل والاستجابة مع مُرادِ غيرِ الذات على حساب مُراد الذات ..

﴿ **إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ** ﴾ [القمر : ١٩]

﴿ **فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ** ﴾ [فصلت : ١٦]

ودلالاتُ كلمة النحاس في قولِه تعالى : ﴿ **يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ** ﴾ [الرحمن : ٣٥] ، كمشتق من الجذر (ن ، ح ، س) ، لا تخرج عن هذا الإطار من المعنى .. فالشُّوَاظُ التي تُرسَلُ هي من النارِ ﴿ **شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ** ﴾ ، وهذا

يشمل كلَّ ما هو مادّي ، وتُرسَلُ أيضاً مسألةٌ أخرى لا علاقة لها بالمادّة ، هي عدمُ التوفيق والهدايةِ إلى تحقيق المُراد **﴿ وَنُحَاسٌ ﴾** ، فالإرسالُ يشملُ الجانبين :

١ – المادّي **﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾** .. وهذا يشمل كلّ مادّة لها علاقة بالنار ، سواءٌ كان ذلك المعدن المُصطلح عليه وضعيّاً بالنحاس أم غيره ..

٢ – المعنوي **﴿ وَنُحَاسٌ ﴾** .. وهذا يشمل عدم حصول توفيق الله تعالى وهدايته مع من تصفه هذه الآية الكريمة ..

إذاً .. المعدن المُصطلح عليه بكلمة النحاس في لغتنا الوضعيّة الاصطلاحيّة ، لا علاقة له بكلمة **﴿ وَنُحَاسٌ ﴾** في هذه الآية الكريمة .. فما تعنيه هذه الكلمة هو وجه عدم التوفيق والهدايةِ إلى تحقيق المُراد وهو الوجه المعنوي المكمّل للوجه المادّي **﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾** ..

،، وهكذا فجميع مشتقّات هذا الجذر اللغوي تدور في إطارٍ واحدٍ من المعنى ، هو الإطار الذي يرسمه هذا الجذر اللغوي ..

❁ ❁ ❁

دلالاتُ الجذر اللغوي (ج ، م ، ل) تدور معانيها في إطار عظمةِ الاكتمالِ وحسنِهِ وعدم التجزّؤ .. وهذا ما نراه واضحاً جليّاً في كلمة : **﴿ جُمْلَةً ﴾** في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : ٣٢]

فما طلبَهُ الذين كفروا هو تنزيلُ القرآن الكريم دفعةً واحدةً مكتملــةً دون مرحليّــة واحتزاء ..

والجَمالُ : هُوَ ظهورُ عظمةِ الاكتمالِ وحسنِها في الماهيّة ، دون تجزّؤ وتفرّقٍ وتشتّت في هذه الماهيّة ..

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : ٦]

والجميل : هُوَ المُكتملُ في حُسنه وعظمته وماهيّته ..

﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر : ٨٥]

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل : ١٠]

.. ولذلك في قولِه تعالى :

﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات : ٣٢ – ٣٣]

.. نرى أنَّ كلمةَ ﴿ جِمَٰلَتٌ ﴾ تُصوِّرُ لنا بياناً لكتلةٍ عظيمةٍ كاملةٍ غيرِ مُجْتَزَأة .....

وهذا ما نتبيّنه من كلمة ﴿ ٱلْجَمَل ﴾ في قولِه تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤٠]

فالشرطُ الإعجازيُّ في ولوجِ الجَمَل في سَمِّ الخِياط ، هُوَ ولوجه في ذلك السَّمِ كتلةً واحدةً محافظةً على عظمتِها واكتمالِها دون اجتزاء ..

وهكذا نرى أنَّ جميعَ مشتقّات الجذر اللغوي (ج ، م ، ل) في كتاب الله تعالى ، تدورُ معانيها في إطار عظمةِ الاكتمال وحسنه وعدم تجزُّئه ..

❁ ❁ ❁

دلالاتُ مشتقّات الجذر اللغوي (ج ، د ، د) في القرآن الكريم ، تدور داخل معنى الحادث اللاحق والطارئ .. فكلمةُ جديد في كتاب الله تعالى تُجسِّدُ هذا المعنى المُجرّد بشكلٍ واضحٍ جلي ..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٩]

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [السجدة : ١٠]

وكلمةُ ﴿ جَدُّ ﴾ في كتاب الله تعالى ، لا تخرجُ دلالاتُها المُجَرَّدة عن هذا الإطار من المعنى ..

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [الجن : ٣]

فهذه الآيةُ الكريمةُ هي ضمن سياقٍ قرآنيّ ، يُصوِّرُ حالة الجنّ وموقفَهم من المنهج الجديد (القرآن الكريم) ، حين عِلْمِهِم بتروله من عند الله تعالى ..

.. فالعبارة القرآنيّة : ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ تعني : تسامى وتعاظم وعلا هذا المنهجُ الجديدُ الآتي من عند ربّنا ، فربّنا يُنَزِّه نفسَه فيه ، كونه لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ ..

وكلمةُ : ﴿ جُدَدٌ ﴾ في كتاب الله تعالى ، لا تخرج دلالاتها ومعانيها المجرّدة عن دلالات الحدوث اللاحق الطارئ .. ففي الآية الوحيدة في كتاب الله تعالى الحاملة لهذه المفردة القرآنيّة ، نرى أنَّ كلمة ﴿ جُدَدٌ ﴾ ، تُصوِّرُ لنا الحادث الطارئ اللاحق من الجبال ..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر : ٢٧]

.. وما يجبُ أن نُشيرَ إليه في هذا السياق ، أنَّ الإدراكَ الأفضل لهذه المفردة القرآنيّة ﴿ **جُدَدٌ** ﴾ ، في هذا السياق القرآني ، يتعلّقُ بدرجةِ إدراكنا لما تعنيه كلمة : ﴿ **ٱلۡجِبَال** ﴾ ، سواءٌ في الصياغة اللغويّة للقرآن الكريم ، أم في الواقع الكوني للمسألة الموصوفة بهـذه المفردة القرآنيّة .. فكلمة الجبال تستمدّ دلالاتها من جذرها اللغوي (ج ، ب ، ل) ..

❁ ❁ ❁

الجذر اللغوي (ج ، ب ، ل) تدور دلالاته ضمن إطار وَصْف الجمع الكثيف حيث الأصل الثابت ومركز الثقل ومركز الأمر والدليل .. فالجبل هو أصل الراسي الكثيف الذي يتمّ به التثبيت .. ولذلك فإنَّ الجبال التي أرسى الله تعالى بها الأرض ، تُعطف في كتاب الله تعالى على الأرض ..

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقة : ١٤]

﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴾ [المزمل : ١٤]

ففي الأرض تُعدُّ الجبال كياناً له هويّته المستقلّة ، على الرغم من أنَّ مادّة الجبال من ذات مادّة الأرض ... ومراكزُ كثافةِ البَرَد في السماء تُوصف بالجبال .. يقول تعالى :

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [النور : ٤٣]

فالعبارة القرآنيّة **﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾** لا تعني جبالاً كجبال الأرض المكوَّنة من الصخور ، إنّما تعني مراكزَ كثافةِ البَرَدِ الموجودة في السماء ، والتي منها يُنزَّلُ البَرَدُ بماهيّته كَبَرَد ..

والجِبِل هو الجمع الكثير والكثيف ..

﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلاًّ كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يس : ٦٢]

والجِبِلَّة تعني الأصل الثابت والمركز الذي تجتمع إليه كلّ التفرّعات ..

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٤]

إذاً .. تفرّعات مشتقّات الجذر (ج ، ب ، ل) تستمدُّ دلالاتها من المعنى المجرّد لهذا الجذر ، وهو : ضمن إطار وَصْف الجمع الكثيف حيث الأصل الثابت ومركز الثقل ومركز الأمر والدليل ، وكلُّ كلمةٍ من تفرّعاته تأخذ من هذا الجذر دلالةً ترتسمُ بمادّة المسألة المحمولة في السياق القرآني المحيط بها .. وهذا ما نراه جليّاً في الآية التالية ..

﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦]

إنَّ كلمةَ ﴿ ٱلۡجِبَالُ ﴾ هنا تعني مراكزَ تجمّع الدليل وثقلَها والبراهين الراسية الثابتة التي جاء بها الرسل عليهم السلام .. والعبارة القرآنيّة : ﴿ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴾ ، تعني وإن كان مكرهم الذي مكروه قد فعلوه من أجلِ أنْ تزولَ الحجج والبراهين الثابتة الراسية التي أتى بها رسل الله تعالى ، فهذه العبارة القرآنيّة – بهذه الصياغة – تصوِّرُ لنا هدف مكرهم من المنظار الذي فعله الماكرون ، ولا تصوِّر لنا حقيقةَ فِعْل هذا المكر .. ولو نظرنا في العبارات القرآنيّة السابقة واللاحقة لهذه العبارة القرآنيّة لرأينا صحّةَ ما نذهب إليه ..

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا

بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤ – ٤٧]

وهكذا نرى كيف أنَّ فهم دلالات الكلمة القرآنيّة في إطار معنى جذرها اللغوي ، يضعنا في مكانٍ أقرب لحقيقةِ دلالاتها ..

❁ ❁ ❁

الجذر اللغوي (ز ، و ، ر) يعني المَيل والانحراف .. فقول الزور هو القول المائل والمنحرف عن الحق ، وشهادة الزور هي الشهادة المائلة والمنحرفة عن الحق ..

﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان : ٤]

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢]

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [المجادلة : ٢]

وهذا المعنى للجذر اللغوي (ز ، و ، ر) بمعنى الميل والانحراف نراه في كلمة ﴿ تَّزَٰوَرُ ﴾ المتفرّعة عن هذا الجذر اللغوي ..

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ﴾ [الكهف : ١٧]

إنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ ﴾ هي بمعنى تميل عن كهفهم ذات اليمين .. فدلالات كلمة ﴿ تَّزَٰوَرُ ﴾ لا تخرج عن دلالات جذرها اللغوي ..

وكلمة ﴿ زُرۡتُمُ ﴾ في النصِّ التالي تستمدّ – أيضاً – دلالاتها من جذرها اللغوي ..

﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ – ٢]

إنَّ تحميل كلمة ﴿ زُرۡتُمُ ﴾ دلالاتٍ من مصطلحنا الوضعي ، حيث نقول زار فلانٌ فلاناً بمعنى ذهب إليه ، هذا التحميل لا وجود له في كتاب الله تعالى ، وهو عبارة عن فرض مصطلحنا الوضعي على دلالات كتاب الله تعالى ، بحيث يكون معياراً لكتاب الله تعالى ، في حين أنَّ منهجَ التدبّر السليم هو اعتبار كتاب الله تعالى معياراً لما هو دونه ..

.. اللهو ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ﴾ هو الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى ، وبالتالي الإعراض عن غيره ونسيانه .. والتكاثر في هذه الآية الكريمة يشمل كلَّ تكاثرٍ من أموالٍ وأولادٍ وغير ذلك من متاع الدنيا الزائل ، فهو تفاعلٌ عن الكثرة .. وكلمة ﴿ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ بهذه الصياغة على وزن مفاعل لم تأت في كتاب الله تعالى إلاّ في هذه السورة الكريمة ، وهي تعني المواضع المكانيّة الحسّيّة لدفن الموتى ..

وهذه الصورة القرآنيّة هي مطلع سورة تُخاطب الأحياء خطاباً إخباريّاً عن حقيقةِ عملهم الدنيوي وعن حقيقةِ مآلهم في الآخرة بعد أن يخرجوا من الدنيا ..

﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ١ – ٨]

.. إذاً قوله تعالى ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ ، يُخاطبُ الأحياء الموجودين في الحياة الدنيا بدليل الآيتين التاليتين لهما مباشرة ﴿ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ .. وبالتالي يكون معنى الآيتين ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ هو : ألهاكم حرصكم على التكاثر في متاع الدنيا الزائل من أموال وأولاد وغير ذلك ، حتّى ملتم وانحرفتم ونسيتم حقيقةَ ما ستؤولون إليه وهو المقابر .. ولا يمكن أن تحمل كلمة ﴿ زُرۡتُمُ ﴾ المعنى الاصطلاحي الوضعي الذي اعتدنا عليه ، فهذا المعنى لا يستقيم — أبداً — مع السياق السابق واللاحق لهذه الكلمة القرآنيّة ..

إذاً .. كلمة ﴿ زُرۡتُمُ ﴾ شأنها شأن أيِّ كلمة قرآنيّة تحمل دلالاتٍ لا تخرج عن دلالات جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه .. بل لا تُدرَك دلالاتُها الحقّ إلاّ ضمن إطار دلالات جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ..

❁ ❁ ❁

الجذر اللغوي (و ، د ، ي) تدور دلالاته ضمن إطارٍ من المعنى هو : المجرى والمنفذ المهيّأ لأن يحصرَ شيئاً ما أو أمراً ما بين حدّيه ، وهذا المعنى نراه جليّاً في الآيتين التاليتين :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧]

﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾[الأحقاف: ٢٤]

وفي الآية الكريمة .. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] ، نرى أنَّ كلمة ﴿ وَاد ﴾ في العبارة ﴿ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾ لا تخرج عن معنى جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ..

في هذه الآية الكريمة نرى أنَّ سليمان عليه السلام وجنوده كان إتيانهم على واد النمل ، فلماذا وردت كلمة ﴿ عَلَى ﴾ ، وما هو هذا الوادي ؟! ..

.. إنّ كلمة ﴿ عَلَى ﴾ تستخدم لاستعلاء الشيء ، وتستخدم لبلوغ الشيء حتى آخره .. إذاً سليمان عليه السلام وجنوده أتوا فوق هذا الوادي ، إتياناً يشمله حتى آخره ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾ يرتبط معناها ارتباطاً كاملاً بدلالات هاتين الكلمتين .. فكلمة وادي تعني – كما قلنا : المجرى والمنفذ الذي يحصرُ شيئاً ما أو أمراً ما بين حدّيه ، بحيث لا يخرج هذا الشيء أو هذا الأمر عن هذين الحدّين .. إذاً العبارة القرآنيّة ﴿ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾ تعني الطريق المحصور بين خطّين والذي يسير وفقه النمل ولا يحيد عنه .. ومعلوم أنّ النمل بغريزته التي فطره الله تعالى عليها ، يسير وفق خطوطٍ لا يحيد عنها ..

إذاً .. معنى الصورة القرآنيّة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾ أنّ سليمان عليه السلام وجنوده – وهم سائرون – أتوا على طابورٍ من النمل يسير في مجرى بين حدّين لا يحيد عنه ، وفق غريزته التي فطره الله تعالى عليها ، وبالتالي سيمرّ سليمان وجنوده فوق هذا الخطّ إلى آخره .. وهذا التصوير المطلق لا يكون إلاَّ بكلمة ﴿ وَاد ﴾ حصراً ، ولا يستقيمُ فهمنا للآية الكريمة إلاّ بإدراك هذه الكلمة ضمن إطار المعنى والدلالات التي يحملها جذرها اللغوي ..

وهذا المعنى نراه – أيضاً – في كلمة ﴿ وَاد ﴾ في الآيات الكريمة التالية ..

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ

كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٧]

إنَّ الآية الكريمة ﴿ **أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ** ﴾ التي تصف الشعراء ، تصفهم كشعراء وليس كأشخاص ، بمعنى أنَّها تصفهم وصفاً معنويّاً .. فالآية الكريمة تقول : ألم ترَ أنَّهم في كلِّ منزلقٍ نفسيٍّ ووهميٍّ غير واقعي يهيمون ، لتزيين قولهم بمادة الخيال والمبالغة .. فالدلالات المجرّدة لكلمة ﴿ **وَاد** ﴾ في هذه الآية الكريمة هي ذاتها في أيّ عبارة قرآنيّة أُخرى ، ولكنَّ السياق القرآنيّ المحيط بهذه الكلمة في النصّ الذي بين أيدينا يتعلّق بمسألة نفسيّة معنويّة ، وبالتالي ترتسم دلالات هذه الكلمة بذلك ، دون أن تتغيّر دلالاتها المجرّدة المستمدّة من جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ..

ومن مشتقّات الجذر اللغوي (و ، د ، ي) في كتاب الله تعالى ، كلمة **[** ﴿ **وَدِيَة** ﴾ ، ﴿ **فَدِيَة** ﴾ **]** في الآية الكريمة التالية ..

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء : ٩٢]

في حين أنَّ كلمة (وادي) على وزن (فاعل) .. نرى أنَّ هذه الكلمة ﴿ **وَدِيَة** ﴾ ، ﴿ **فَدِيَة** ﴾ ، هي من مشتقّات هذا الجذر اللغوي على وزن (عِلَة) ، كما هو الحال في

كلمة (هِبَة) من الجذر اللغوي (و ، هـ ، ب) ، وكما هو الحال في كلمة (صِفَة) من الجذر اللغوي (و ، ص ، ف) ..

إذاً .. الدِيَة هي حالةٌ تكون منفذاً مُهيّأً لكي يجري به مَن يَقْتُل نفساً في الحالتين المذكورتين في هذه الآية الكريمة ، فتنفذ نفسُه من بين حدّي القصاص في الدنيا ، والعقاب في الآخرة .. فما بين هذين الحدّين تكون الديةُ سبيلاً ينفذ به القاتل المعنيّ في هذه الآية ، كما أنّ السيل يجري في الوادي بين حدّين ، وكما أنَّ النمل يسيرُ في خطّه الغريزي بين حدّين ، وكما أنَّ الشعراء الموصوفين في الآية الكريمة التي رأيناها يهيمون متزلقين بين حدّي كلِّ متزلقٍ نفسيّ وهمي ..

إنَّ الإدراك السليمَ لأيِّ كلمةٍ قرآنيّة لا يكون إلاّ بإدراك دلالات جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه .. وإنَّ إدراك دلالات الجذر اللغوي يكون من خلال إدراك الكلمات المتفرّعة عنه في كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) ..

❁ ❁ ❁

الجذر (أ ، س ، ف) له – في القرآن الكريم – خمسة فروع ..

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ ﴾ [الأعراف : ١٥٠]

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ [يوسف : ٨٤]

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦]

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ ﴾ [طه : ٨٦]

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٥]

إنَّ تصوّراتنا الأولى لكلمة ﴿ أَسَفًا ﴾ تتنقّل بين معاني الحزن والغضب والأسى والندم .. فكيف نفهم دلالات كلمة ﴿ ءَاسَفُونَا ﴾ المتعلّقة بالله تعالى في الآية الأخيرة ؟!!! .. وهل يُعقَل أن تخرجَ هذه الكلمة عن إطار المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي ؟!!! ..

إنَّ جميع مشتقّات الجذر (ح ، ز ، ن) في القرآن الكريم تأتي متعلّقةً بالبشر فقط ، و لم تأت متعلّقةً بالذات الإلهيّة .. والحزن كما يصوّره القرآن الكريم يكون نتيجة عملٍ قام به الحزين أو غيره .. أمّا الأسف فإنّه مسألةٌ ترتبط بالذات الإلهيّة وترتبط بالبشر ، ويكون نتيجةَ عملٍ قام به غير الآسف .. فالحزن مسألةٌ مختلفةٌ عن مسألة الأسف ، ولكلِّ جذرٍ من الجذرين إطاره الخاصُّ به من المعنى ، ولا يمكن لكلمة الحزن أن تنوب عن كلمة الأسف ..

وتفرّعات الجذر (أ ، س ، ي) في القرآن الكريم نراها تتعلّق بالبشر فقط ، و لم تأت متعلّقةً بالذات الإلهيّة .. والأسى كما يصوّره القرآن الكريم يكون نتيجة عملٍ قام به الآسي أو غيره .. لذلك فالأسى لا يمكن أن يكون هو الأسف ، ولا يمكن أن ينوب عنه ، فالأسى والأسف ينتميان لجذرين لغويين مختلفين لكلٍّ منهما إطاره الخاصّ به من المعنى ..

ومشتقّات الجذر (ن ، د ، م) في القرآن الكريم تتعلّق بالبشر فقط ، ولا ترتبط بالذات الإلهيّة ، والندم مسألةٌ لا تكون إلاّ نتيجة عملٍ قام به النادم ذاته .. لذلك فالندم لا يمكن أن يكون هو الأسف ، فلكلٍّ جذرٍ من هذين الجذرين حدوده الخاصّة به من المعنى ..

ومشتقّات الجذر (غ ، ض ، ب) في القرآن الكريم ترتبط بالذات الإلهيّة ، وترتبط بالبشر ، ويكون الغضب نتيجة عملٍ قام به غير الغاضب ، وهو بذلك يكون أقرب التصوّرات إلى مسألة الأسف ، ولكنَّ الأسف لا يمكن أن يكون هو الغضب ، وإلاّ لما

وردت كلمتان متمايزتان تنتميان لجذرين مختلفين في وصف مسألة واحدة في صورة قرآنيّة واحدة ..

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفًا ﴾ [الأعراف : ١٥٠]

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفًاۚ ﴾ [طه : ٨٦]

فالأسف مسألةٌ مستقلّة لا يمكن لأيِّ فرعٍ من أيِّ جذرٍ لغويٍّ أن ينوب عنه .. ومن النظر في الفوارق بين مشتقّات الجذور الأُخرى التي تصوّرناها مرادفاتٍ للجذر (أ ، س ، ف) وبين مشتقّات الجذر (أ ، س ، ف) ، نرى أنَّ الأسف يكون نتيجة عدم تحقيق المُراد الذي يريده الآسف من المأسوف عليه ، ونتيجة انقطاع الأمل منه ..

وجميع مشتقّات الجذر (أ ، س ، ف) تدور دلالاتها ضمن هذا الإطار من المعنى والدلالات ، وكلمة ﴿ ءَاسَفُونَا ﴾ لا تخرج عن هذا الإطار .. وبالنظر في السياق المحيط بها ، وفي السياق المحيط بجميع مشتقّات هذا الجذر اللغوي ، تتأكّد معنا هذه الحقيقة ..

❁ ❁ ❁

الجذر (ج ، د ، ر) يوجد له في القرآن الكريم أربعة فروع ..

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرًا وَنِفَاقًا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩٧]

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ ﴾ [الكهف : ٧٧]

﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ [الكهف : ٨٢]

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ ﴾ [الحشر : ١٤]

فما علاقة الفرع ﴿ وَأَجۡدَر ﴾ في الآية الأولى بالجدار الذي يعني الحائط والحاجز الذي يحول بين الأشياء ؟!!! ..

إنَّ ورود هذا الوصف ﴿ وَأَجْدَر ﴾ مشتقّاً من الجذر (ج ، د ، ر) يصف لنا وبشكلٍ مطلقٍ حقيقةَ الكفر والنفاق الشديدين اللذين يتّصف بهما الأعراب ، بأنّهما عبارة عن جدار (حائط) يحول بينهم وبين أن يعلموا حدودَ ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ..

ولا يمكن لأيِّ كلمة أُخرى تنتمي لجذرٍ آخر أن تُعطي هذا الوصف المطلق الذي تصفه كلمة ﴿ وَأَجْدَر ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة .. فكلمة ﴿ أَوْلَى ﴾ – مثلاً – المتفرّعة من الجذر (و ، ل ، ي) تعني القرب والموالاة والأحقيّة ، وهذا بعيدٌ عن المعنى الذي تحمله كلمة ﴿ وَأَجْدَر ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة .. ولا يمكن لأيِّ مشتقٍّ من الجذر (ح ، ج ، ز) أن ينوب عن كلمة ﴿ وَأَجْدَر ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة .. لقد وردت مشتقّات الجذر (ح ، ج ، ز) في القرآن الكريم مرّتين ..

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ ﴾ [النمل : ٦١]

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٧]

فالجذر (ح ، ج ، ز) كما نرى يعني منع طرفين من الوصول إلى بعضهما ، أو منع طرف من الوصول إلى الآخر ، فلا يكون الحاجز إلاّ بين طرفين ، ولا يمكن للطرف المحجوز أن يتجاوز هذا الحاجز ، وإلاّ لما كان الحاجز حاجزاً .. بينما الجذر (ج ، د ، ر) كما نرى يصف لنا كياناً قائماً بذاته من الممكن الاحتماء خلفه ومن الممكن تجاوزه ..

فالصورة القرآنيّة ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ ﴾ تعني أنَّ الكفرَ والنّفاق بالنسبة للأعراب هما جدارٌ يحول بينهم وبين علْمِ ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ، ومن الممكن تجاوز هذا الجدار بتركهم للكفر والنفاق ..

❁ ❁ ❁

.. للجذر (ص ، د ، ع) في كتاب الله تعالى خمسة فروع ..

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤]

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣]

﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : ١٩]

﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الحشر : ٢١]

﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴾ [الطارق : ١٢ – ١٣]

فما علاقة هذه المشتقّات ببعضها ؟ .. وما هو إطار المعنى والدلالات الــذي يحملــه الجذر (ص ، د ، ع) في كتاب الله تعالى ؟ .. وهل يخرج عن هذا الإطار المشــتق ﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾ في الآية ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ والذي جاءَ أمــراً للرسول ﷺ ؟ ..

إنَّ تعلّقَ الجذر (ص ، د ، ع) بالشيء أو الأمر يعني شقَّ المتعلّق به وتفرّقه ، فالصدع المتعلّق بالجبل ﴿ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ يعني شقّه وتصدّعه ، وكذلك الصدع المرتبط بالأرض ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴾ ، وكذلك الصدع المرتبط بالبشر في الآخرة ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴾ والذي يعني تفرّقهم ..

وكذلك الأمر فإنَّ قولَه تعالى ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ يعني عدمَ تفرّقِ الذات وذهابِ العقل ، فخمر الآخرة لا يُشتّت النفس ولا يشقّ العقل كخمر الدنيا ﴿

يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : ١٧ – ١٩]

والفرع ﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾ في الآية الكريمة ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ لا تخرج دلالاته عن هذا الإطار .. فهذا الأمر ﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾ للرسول ﷺ (ومن بعده لكلِّ حامل للواء الدعوة) هو بمعنى : تميَّز بذاتِك مُفرِّقاً بين الحقّ والباطل ، متمثِّلاً ما يأمر الله تعالى به ، مُعرضاً بذلك عن المشركين الذين لا يريدون هـذا التفريـق .. أي اُقصد بذاتِك ما تُؤمَر به متمثّلاً دين الله تعالى مُفرِّقاً به بين الحقّ والباطل ، مُعرضاً بذلك عمّا يُريده المشركون من خلط الحقِّ بالباطل وعدمِ التفريقِ بينهما ... هذا هو الإطـار الذي نفهم به معنى كلمة ﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾ في الآية الكريمة ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ..

وأقرب الكلمات التي يمكننا تصوّرها مرادفةً لكلمة ﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾ هي : أؤمر ، بلّغ ، ..... وهذه الكلمات المتفرّعة عن جذورٍ أُخرى لكلٍّ منها إطاره الخاصّ به من المعنى ، لا يمكنها أن تنوبَ عن كلمة ﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾ في هذه الآية الكريمة ، ولا تُعطـي المعـنى الذي تعطيه هذه الكلمة المتفرّعة من الجذر (ص ، د ، ع) .. فالأمر والتبليغ هو نقـل المُراد إلى البشر وإعلامهم به ، أمّا الصدع بأمر الله تعالى فهو التفريق بأمر الله تعالى بين الحقِّ والباطل إظهاراً للحق وبالتالي لدين الله تعالى ..

❁ ❁ ❁

.. الجذر (ن ، هـ ، ر) له في القرآن الكريم ثلاثة محاور ..

١ – محور يأتي متعلّقاً بالأنهار ..

٢ – محور يأتي متعلّقاً بالنهار ..

٣ – محور يأتي متعلّقاً بالنَّهر (بمعنى الزجر) ..

فما هو إطار المعنى الذي يربط هذه المحاور ببعضها وبجذرها اللغوي ؟!!! ..

إنَّ روح المعنى الذي يحمله الجذر (ن ، هـ ، ر) هو بمعنى : حَفَر .. فحتّى في اللغة العربيّة الاصطلاحيّة يُقال : نهرت النهر أي حفرته ، واستنهر النهر إذا أخذ لمجراه موضعاً مكيناً ، والمَنْهَرُ خرقٌ في الحصن نافذٌ يدخل فيه الماء ..

وهذا المعنى المُجَرَّد الذي يحمله الجذر (ن ، هـ ، ر) ينعكس في ماهيّة المسألة التي يصفها أيُّ مُشتقٍّ من مشتقّاته ، فالأنهار – كما نعلم – هي شقوقٌ وحفرٌ في جسم الأرض بمثابة مجاري تجري بها المياه ، وهي بذلك لا تخرج عن المعنى الذي يحمله الجذر (ن ، هـ ، ر) ..

ولمعرفة علاقة النهار – الذي يحمل معنى الضياء – بجذره اللغوي (ن ، هـ ، ر) ، لا بدَّ من معرفة حقيقة النهار ، وكيف يكون النهار كحقيقة كونيّة في هذا الكون ..

إنَّ النهار جزءٌ من الليل الكوني ، فالفراغ الكوني المُحيط بالأرض وبالأجرام السماويّة والذي يفصل بينها هو أسود اللون ، ولا يظهر فيه الضياء (النهار) إلاَّ بوضع جسمٍ مادّيٍّ ضمنه ، فيتحلَّل عُنصرا الليل الكوني إلى نهار يكون على الوجه المُقابل للشمس ، وإلى ظلامٍ على الوجه الآخر .. فهذا الليل الكوني هو عبارةٌ عن مجموع عنصرين هما : النهار ، الظلام .. وبسلخ الظلام من هذا الليل الكوني يكون النهار ، وبسلخ النهار منه يكون الظلام .. وهذا ما نراه جليّاً واضحاً في قوله تعالى ..

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس : ٣٧]

فكلمة ﴿ مِنْهُ ﴾ واضحة جليّة ، ولا يمكن أن تكون بمعنى (عنه) .. فالآية تقول بصريح البيان : إنَّ الليل إذا طُرِحَ منه النهار كان الناتج هو الظلام ..

وما النهار سوى طبقة تُحيطُ بوجه نصف الكرة الأرضيّة المُقابل للشمس ، أمَّا خارج هذه الطبقة فيُوجَد ليلٌ أسود يشمل عنصريه الأساسيّين (النهار + الظلام) ، اللذين لا ينفصلان عن بعضهما إلاَّ بوجود جسمٍ مادّي يتحلّلان عليه ..

وهكذا .. فالنهارُ كُوَّةٌ في جسم الليل ، نُضِحَ منها الظلام فامتلأت ضياءً ، كما أنَّ النهر حُفرةٌ في جسم الأرض نُضح منها التراب والحجارة وامتلأت ماءً .. وهذه الحقيقة ما كُنّا لندركها لولا تطوّر العلوم الفلكيّة ، وما كنّا لنراها لولا الرحلات الفضائيّة ، ولذلك فإدراكنا لعلاقة هذا المشتق (النهار) بجذره اللغوي (ن ، هـــ ، ر) ما كان ليكون لولا إدراكنا لحقيقة المسألة التي يصفها هذا المُشتق ..

من هنا فإنَّ عدم إدراكنا لارتباط بعض المشتقّات بجذورها اللغويّة ناتجٌ عن عدم إدراكنا لماهيّة المسائل التي تصفها وتسمّيها هذه المشتقّات ، وناتجٌ – أيضاً – عن عدم تدبّرنا السليم لكتاب الله تعالى .. وكلما ارتقينا في إدراك ماهيّة المسائل الموصوفة بالكلمات القرآنيّة وفي تدبّرنا لكتاب الله تعالى ، كلّما ارتقينا في إدراك ارتباط الكلمات التي تصفها بجذورها اللغويّة .. ولذلك فعدم إدراكنا لارتباط بعض الكلمات بجذورها اللغويّة ، ليس حجّةً لإنكار ارتباط الفروع بجذورها اللغويّة ..

وروح المعنى للجذر (ن ، هـــ ، ر) الذي رأيناه حين يرتبط بالأرض فيعني شقّاً فيها تجري به المياه ، وحين يرتبط بالليل الكوني فيعني كُوَّةً فيه نُضِحَ منها الظلام فامتلأت ضياءً .. هذا المعنى المُجرّد هو ذاته حين يرتبط بالنفس البشريّة .. فنَهْرُ النفس يعني إحداث شقٍّ فيها يُنضَح منه الأمل والرجاء فيمتلأ بالأسى وعدم الرجاء ..

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء : ٢٣]

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : ١٠]

فسواءٌ أمل الوالدين بولدهما ، أم أمل السائل بمن يسأله ، هو رجاءٌ في النفس ، وحقٌّ ممزوجٌ بالحياء .. لذلك فردُّ هذا الأمل والرجاء عبر الزجر ، هو شقٌّ وخرقٌ (نَهْرٌ) في النفس ، يُنضَح منه الأمل والرجاء ليمتلئ بالخيبة والأسى وانقطاع الرجاء ... هذا هو

العمق الذي يربط المحاور الثلاثة (الأنهار – النهار – نَهَر) للجذر (ن ، هـ ، ر) ببعضها وبجذرها .. فمشتقّات الجذر الواحد هي فروع ترتبط بجذرها وتتغذّى منه ، وتدور في إطار المعنى الذي يحمله هذا الجذر ..

❁ ❁ ❁

إنَّ كلمة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ في الصورة القرآنيّة : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة : ٧١ – ٧٣] ، هي من مشتقّات الجذر (ق ، و ، ي) .. والقوّة – كما نعلم – هي نقيض الضعف ... وفق الإطار الذي تُصوِّره مشتقّات هذا الجذر ، كيف نفهم كلمة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة ؟!!! ..

إنَّ القويّ هو الذي يملك قوّةً في ذاته ، والمُقْوِي هو الذي يملك أدوات القوّة ويُسخّرها ليصبح قويّاً .. فكلمة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ لا تخرج عن إطار المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ..

وفق هذه الحدود من الدلالات نفهم معنى كلمة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ .. فالذين يُريدون امتلاك أسباب القوّة لا بُدَّ لهم من تسخير النار بما تعنيه من طاقة بشتّى صورها في أعمالهم وصناعاتهم ، فالنار (الطاقة) سببٌ ووسيلةٌ للذين يريدون التمتّع بالقوّة في هذه الدنيا ، وبالتالي فالنار متاعٌ للمُقْوِين .. هذا هو العمق الذي تحمله كلمة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ في الصورة القرآنيّة التي رأيناها ، وهو عمقٌ ينبع من دلالات جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ..

❁ ❁ ❁

نحن نعلم أنَّ مشتقّات الجذر اللغوي (ح ، ي ، ي) في كتاب الله تعالى تصفُ لنا الحياة التي هي نقيض الموت ، سواء كان ذلك في جانب الحياة الجسديّة أم في جانب الحياة الروحيّة التي تعني القربى من الله سبحانه وتعالى ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤]

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل : ٢٠ – ٢١]

والاستحياء يتعلّقُ بالجانب المعنوي الروحي من مسألة الحياة .. فالاستحياء (حيث اجتماع سين الطلب مع الحياء) هو طلب الحياة المعنويّة نتيجةَ خوفٍ مِمّا يُعاب به ويُذَم ، وذلك انطلاقاً من تغييرٍ وانكسارٍ يعتري الإنسان .. إنّه خجلٌ يتملّك الإنسان نتيجةً لهذا الانكسار ، فيطلب الحياة المعنويّة التي يخرج بها من انكساره هذا ..

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص : ٢٥]

﴿ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٥٣]

فالاستحياء – بهذا المعنى – لا يمكن أن يأتي وصفاً للذات الإلهيّة .. فالله تعالى لا ينكسر كبرياؤه ، ولا تنقص صفاته العظيمة ، ولا تهون ذاته ..

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦]

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣]

فضرب الأمثال وقول الحق ، لا يصف الذات الإلهيّة بصفة الاستحياء .. وهكذا .. ضمن هذا الإطار من الدلالات ، نستطيع إدراك استحياء النساء في الآية الكريمة التالية وغيرها من الآيات ..

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩]

إنّ استحياء النساء هنا يعني النيل من عرضهن ، وانكسار كبريائهن ، والانتقاص من كرامتهن .. فكلمة ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ ﴾ لا تخرج عن إطار المعنى المحيط بجذرها اللغوي ، مع الأخذ بعين الاعتبار سين الطلب الذي تعلّق بها ..

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ استحياء النساء هنا هو إبقاء البنات المولودات على قيد الحياة في الوقت الذي يُذبح فيه الذكور المولودون .. وبذلك نراهم يُخرجون معنى كلمة ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ ﴾ هنا عن معاني الاستحياء في كتاب الله تعالى ..

وممّا يُثبت أنَّ استحياء النساء في هذه الآية الكريمة وغيرها لا يمكن أن يعني ما ذهبوا إليه ، هو أنَّ استحياء النساء بلاءٌ عظيم نجّا الله تعالى منه بني إسرائيل ، وهذا يتنافى مع إبقاء البنات على قيد الحياة ، فعدمُ ذبحهن هو خير ولا يمكن أن يكون شرّاً ..

﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

واستحياء النساء مسألةٌ مستقلّةٌ من المسائل التي يمنّ الله تعالى بها على بني إسرائيل ، بأنّ نجّاهم من آل فرعون الذين كانوا يستحيون نساءهم ، ودليل ذلك هو واو العطف بين مسألتي ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ ﴾ .. فلا يمكن لعاقل أن يتصوّر بأنَّ الشرّ ناتجٌ عن إبقاء البنات على قيد الحياة دون ذبح ، وبالتالي لا يمكنه (نعني العاقل) أن يتصوّر أنَّ الخير هو في ذبحهن ، وأنَّ الله تعالى نجّاهم من ذلك ، بمعنى أنَّ الله تعالى نجّاهم من حالةٍ كانت بناهم فيها تُذبح ... إذاً .. استحياء النساء – كما نرى – هو مسألة مستقلّة ببلائها وشرّها ..

ولو كان المقصود بالعبارة القرآنيّة ﴿ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ ﴾ هو إبقاء البنات المولودات على قيد الحياة ، لأتت العبارة القرآنيّة (ويُبقون بناتكم) .. فكلمة البنات هي التي تقابل كلمة البنين ، وليست كلمة النساء هي من تقابل كلمة البنين ..

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٩]

﴿ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴾ [الصافات : ١٥٣]

﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ [الطور : ٣٩]

وإن كانت العبارة القرآنيّة ﴿ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ ﴾ تعني إبقاء البنات المولودات على قيد الحياة كما زعموا ، فهذا يعني – بناء على زعمهم – أنّها حشوٌ لا فائدة منه .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾ التي تعني ذبح البنين ، تعني أنَّ البنات بقين على قيد الحياة .. فالله تعالى لا يقول : (يُذبِّحون أولادكم) ، حيث الأولاد تشمل البنين والبنات ، إنّما يقول جلّ وعلا ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾ خاصّاً بذلك الأولاد الذكور ..

وفي كلمة : ﴿ نِسَآءَكُمۡۚ ﴾ في العبارة القرآنيّة : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ ﴾ دليلٌ آخر على أنَّ المسألة ليس كما زعموا ، فكلمة ﴿ نِسَآءَكُمۡۚ ﴾ تشمل ساحةً أوسع تضمّ كلَّ الإناث وليس فقط المولودات كما في زُعم ..

وهكذا نرى أنَّ عدمَ إدراك المعنى الذي تحمله الكلمة ضمن إطار المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي ، يؤدّي إلى الابتعاد عن الدلالات الحقّ التي تحملها الكلمة القرآنيّة ..

❁ ❁ ❁

يوجد للجذر (ن ، ف ، ق) في القرآن الكريم ثلاثة محاور رئيسة هي : النَّفَق ، الإنفاق ، النِّفاق ..فما هو رابط الدلالات والمعاني الذي يربطها مع بعضها ، كونها تعود لجذرٍ واحد هو الجذر (ن ، ف ، ق) ؟ ..

يدور المعنى الذي يحمله الجذر (ن ، ف ، ق) داخل إطار الخرق والإنقاص والنَّفاد .. فنفق الشيء يعني خرقه وبالتالي إنقاصه وإذهاب جزء منه ، وعندما تتّصف مسألة بمشتقّ من مشتقّات هذا الجذر ، فإنَّ ذلك يعني أنّها تتّصف بهذه الصفات ..

إنَّ النَّفق هو خرقٌ في الأرض له مخلص إلى مكانٍ آخر ..

﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ ﴾ [الأنعام : ٣٥]

وهذه الحقيقة تُلقي الآية الكريمة التالية الضوء عليها من جانبٍ آخر ..

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٧]

والإنفاق لا يخرج عن هذا الإطار من المعنى ، فهو يعني تقليل الشيء وإذهابه ، وكأنَّ خرقاً قد حصل فيه يُنقصه وَيُنفدُه ..

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠]

والنِّفاق لا يخرج – أيضاً – عن هذا الإطار من المعنى ، فهو خرقٌ في العقيدة يُذهبها ، ويلوذ به كُفْرُ المنافق ليُظهر خارجه إيماناً كاذباً ، فهو بذلك يُخفي كُفْرَه في هذا النفق ويُظهر إيماناً كاذباً خارجه .. فهذا النَّفق الكائن في عقيدته هو خرقٌ ومخلصٌ بين وجهي الكفر والإيمان ، فعقيدة المنافق كائنة في ساحة الكفر ، ويُظهر أمام الناس إيماناً كاذباً ، ويُوجد بين هذين الوجهين نفقاً يتنقّل من خلاله بين هاتين الساحتين متى شاء ..

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [الحشر : ١١]

وهكذا نرى أنَّ مشتقّات الجذر (ن ، ف ، ق) بجميع فروعها ، إذا ارتبطت بشيء فإنّها تعني خرقاً في هذا الشيء .. فعندما ترتبط بالأرض تصف لنا نفقاً ماديّاً ، وعندما ترتبط بالمال تصف لنا نفقاً في هذا المال يُنقصه ويُنفده ، وعندما ترتبط بعقيدة الإنسان تصف نفقاً بين وجهين متناقضين هما الكفر والإيمان ..

❁ ❁ ❁

مشتقّات الجذر (و ، ز ، ر) في القرآن الكريم ترتبط بالحمل الثقيل والذنب والإثم ..

﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥]

والوزير يحمل الثقل والعبء عن الذي هو وزيرٌ له ، فهو يزر عنه أثقال ما أُسند إليه من تدبير ، ويُلتجأ إليه عن طريق تحميله جزءاً من الحمل ..

﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴾ [طه : ٢٩ – ٣١]

هذا هو الإطار الذي تدور داخله معاني مشتقّات الجذر (و ، ز ، ر) في القرآن الكريم .. لذلك في الآية الكريمة ..

﴿ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٠ – ١٣]

نرى أنَّ منهجيّة البحث السليم تجعلنا نتصوّر كلمة ﴿ وَزَرَ ﴾ ضمن إطار المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي ، ففي ذلك الوقت الذي يقول فيه الإنسان ﴿ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴾ ، أي عند انقضاء الدنيا ، لا أحمال ولا آثام تُرتكب آنذاك .. فالآثام والذنوب التي يرتكبها الإنسان في حياته الدنيا ، فارّاً بها ومبتعداً عن أوامر الله تعالى ومنهجه ، لم تعد تُرتكب ،

لأنَّ الدنيا – دار الامتحان – تكون قد انقضت ، وكذلك الأمر بالنسبة لكلِّ الأحمال والأعباء التي كانت تتحمّلها البشريّة في حياتها الدنيا نتيجة امتحانها في هذه الدار ..

ولا تُوجد كلمة يمكنها أن تنوب عن كلمة ﴿ وَزَرَ ﴾ ضمن سياق هذا النصّ القرآني .. إنّ أقرب كلمة من الممكن تصوّرها بأنّها تنوب عنها هي كلمة ﴿ مَلْجَئًا ﴾ .. لقد ورد للجذر اللغوي (ل ، ج ، أ) في القرآن الكريم ثلاثة فروع ..

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ ﴾ [التوبة : ٥٧]

﴿ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ [التوبة : ١١٨]

﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى : ٤٧]

فمشتقّات الجذر (ل ، ج ، أ) – كما نرى – أتت جميعها اسماً هو كلمة ﴿ مَلْجَئًا ﴾ ، ويدور هذا المشتقّ ضمن إطار الاحتماء بشيء بعد اليقين أنَّ المُحتَمِي قد أُحيط به .. بينما مشتقّات الجذر (و ، ز ، ر) – كما رأينا – تعني حمل الثقل والعبء والإقبال على حمل الإثم ، ولا تعني الهروب من شيء ، كما هو الحال في مشتقّات الجذر (ل ، ج ، أ) ..

وهكذا نرى أنَّ كلمة ﴿ وَزَرَ ﴾ في السياق القرآني ﴿ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ ، لا تخرج عن إطار المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ..

❁ ❁ ❁

دلالات الجذر اللغوي (د ، ل ، و) في القرآن الكريم تدور في إطار الهبوط والنزول من حالٍ إلى حال .. وهذا ما نراه جليّاً في قولِه تعالى ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ٨ – ١٠] ..

ففي المعراج الروحي بالنسبة للنبيّ ﷺ ، دنا جبريل عليه السلام ونزل إلى أُفق الملائكيّة الأقرب إلى البشريّة ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ ، وسمت نفس الرسول ﷺ إلى المستوى الروحي الموازي للملائكيّة ، ممّا جعل بينهما حالةً من القرب الروحي ، لم يفصل بينهما إلاّ حقيقتيهما ، بل أصبحا أقرب إلى بعضهما حتى من هذا القرب ، لتداخل الروح بينهما ، وهذا ما نقرؤه في قولِه تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ ..

وفي تلك الحالة حصل الوحي المباشر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ، فالرسول ﷺ بعروجه الروحيِّ هذا سمى إلى درجة استقبال الوحي المباشر من الله تعالى دون رسولٍ وسيط (دون جبريل عليه السلام) ..

وهذا المعنى للجذر (د ، ل ، و) نراه جليّا في الآية الكريمة ..

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : ١٩]

ونراه أيضاً في الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٨]

.. بناءً على هذا الإطار من الدلالات نفهم دلالة الكلمة ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾ [الأعراف : ٢٢] ..

وهكذا يكون معنى هذه الصورة القرآنيّة هو : بواسطة الغرور ﴿ **بِغُرُورٍۚ** ﴾ ، هبط الشيطانُ بآدم عليه السلام وزوجه إلى مستوى المعصية ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ** ﴾ ، وبالتالي ذاقا الشجرة وهبطا كقيمة جسديّة ، كما بيّنا في كتاب قصّة الوجود ..

وهذه الدلالات لكلمة ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا** ﴾ المتفرّعة من الجذر (د ، ل ، و) ، تختلف كثيراً عن الدلالات التي يحملها الجذر (د ، ل ، ل) ، كما في كلمة ﴿ **أَدُلُّكَ** ﴾ في ذات القصّة : ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴾ .. فالفارق بين التعريف بالشيء كما في دلالات كلمة ﴿ **أَدُلُّكَ** ﴾ ، وبين الهبوط والنزول كما في دلالات كلمة ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا** ﴾ ، هو فارقٌ كبيرٌ ، ما كان لنا أن نُدركه لولا ربط الكلمات بجذورها اللغوية المتفرّعة عنها ..

❁ ❁ ❁

من مشتقّات الجذر (ق ، س ، ط) في القرآن الكريم كلمتا : [﴿ **ٱلْمُقْسِطِينَ** ﴾ ، ﴿ **ٱلْقَٰسِطُونَ** ﴾] ، وقد وَصفت هاتان الكلمتان مسألتين متناقضتين تماماً ..

﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ** ﴾ [المائدة : ٤٢]

﴿ **فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الحجرات : ٩]

﴿ **لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة : ٨]

﴿ **وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا** ﴾ [الجن : ١٤ – ١٥]

والمسألة نفسها نجدها في كلمة ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ من الجذر اللغوي (ع ، د ، ل) ، حيث تأتي في القرآن الكريم متعلّقةً بحال المؤمنين والكافرين ..

﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١]

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٠]

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٩]

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨١]

﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : ٦٠]

.. فكيف يكون ذلك ؟!!! ..

.. تدور دلالات الجذر (ق ، س ، ط) في إطار معنى إعطاء الشيء حقّه ، وقياس الأمور في ميزان واحد لا يميل على طرفٍ من الطرفين ..

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الأنعام : ١٥٢]

﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥٤]

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [الأنبياء : ٤٧]

والقسطاس المستقيم هو أقوم الميزان التي تُعطي لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه ، فلا يأخذ طرفٌ من حقِّ طرفٍ آخر ..

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ﴾ [الإسراء : ٣٥]

فالقسطاس الذي يأمرنا الله تعالى أن نزن به ، هو تعادل كفتي الميزان تعادلاً تامّاً ..

وكلمة ﴿ ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ ، هي من الفعل (قسطَ) .. وهي تعني الذين لا يزنون الأمور بينهم وبين الآخرين بالقسطاس ولا يريدون ذلك ، فحينما يزنون الأمور بينهم

وبين الآخرين يُرجِّحون – دائماً – كفّتهم على كفّةِ غيرهم ظلماً وعدواناً .. وهم بذلك يتّصفون بصفة المُطفِّفين : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : ١ – ٣]

أمّا كلمة ﴿ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ ، فهي من الفعل المتعدّي (أقسطَ) ، حيث التعدّي يقلب المعنى إلى النقيض .. وهذا بيّن في كتاب الله تعالى ، فكلمة ﴿ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ هي من الجذر (ع ، ر ، ب) ولكنّها من الفعل المتعدّي (أعربَ) الذي يقلب المعنى إلى النقيض .. وَقَلْبُ المعنى للنقيض نتيجة التعدّي نراه جليّاً بين الفعل ﴿ عَرَضَ ﴾ ، والفعل ﴿ أَعْرَضَ ﴾ .. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤]

.. إذاً .. المُقسطُون هم الذين يزنون الأمور بينهم وبين الآخرين بحيث تكون كفّتهم إمّا متعادلة مع كفّة غيرهم ، وإمّا يُرجّحون كفّة غيرهم على حساب كفّتهم ، مخافة من الله تعالى .. وإذا حكموا بين الناس يحكمون بالقسط بحيث يأخذ كلّ ذي حقٍّ حقّه ..

هذا التقابل بين كلمة ﴿ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ من جهة ، وبين كلمة ﴿ ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾ وكلمة ﴿ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ من جهةٍ أُخرى ، نراه في مجموع ورودهما في كتاب الله تعالى .. فكلمة ﴿ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ ترد ثلاث مرّات ، وكلمتا [[﴿ ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾ (مرّتين) ، ﴿ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ (مرّة واحدة)]] تردان ثلاث مرّات أيضاً ..

إذاً هاتان الكلمتان : ﴿ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ ، ﴿ ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾ لم تخرجا عن إطار معنى جذرهما اللغوي ، الذي يعني قياس الشيء على القسطاس الذي يعطي لكلّ ذي حقٍّ حقّه .. فالمقسطون يكون قياسهم بحيث تكون الأمور إمّا عدلاً تامّاً وإمّا لصالح غيرهم

خشيةً من الله تعالى ، والقاسطون يقيسونها بحيث تكون دائماً لصالحهم على حساب غيرهم ظلماً وعدواناً ..

أمّا الجذر (ع ، د ، ل) فتدور مشتقّاته ضمن إطار تسوية الأمور وموازنتها وتقويمها على هيئة متوازنة ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ – ٨]

والعدل هو إعادة الأمور إلى سويّتها .. لذلك فالفدية هي عدل ، لأنّها محاولة لإعادة الأمور إلى سويّتها ..

﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ [الأنعام : ٧٠]

والاعتدال هو التوسّط بين حالين في كمٍّ أو كيف .. والعدل بين الزوجات هو إقامةُ توازنٍ في العلاقة بينهن ، بحيث لا يتمُّ الميلُ باتّجاهٍ دون الآخر ، لذلك نرى أنَّ عظمة البيان الإلهي تصف علاقة الرجل مع زوجاته بصيغة العدل وليس بصيغة القسط .. ولمّا كانت عاطفة الرجل لا يستطيع توزيعها بشكلٍ متوازنٍ بين زوجاته ، كونها ليست مسألةً ماديّة تُقاس بموازيين المادّة ، فإنّه لا يستطيع العدلَ التامّ بينهنّ مهما حرص ..

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء : ١٢٩]

أمّا علاقة وليّ أمر اليتيم مع اليتيم ، يصفها الله تعالى بصيغة القسط ، لأنّها ليست علاقة موازنة شيء على شيء آخر ، إنّما هي عمليّة قياس في ميزان واحد لا علاقة لغير اليتيم به ..

﴿ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [النساء : ١٢٧]

وهكذا نرى أنَّ التعديل بالشيء يعني القياس عليه وإرجاع الأمور إليه ، فنحن عندما نعدل بالخير فهذا يعني أنّنا عملنا خيراً ، لأنّنا نكون قد قسنا الأمور على الخير وأرجعناها

إليه .. وعندما نعدل بالشرّ فهذا يعني أنّنا عملنا شرّاً ، لأنّنا نكون قد قسنا الأمور على الشرّ وأرجعناها إليه ..

لذلك نرى أنَّ كلمة ﴿ يَعۡدِلُونَ ﴾ في الآيات الكريمة ترتبط بالمسألة التي تُقاس عليها الأمور .. فقوله تعالى ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾ [النمل : ٦٠] ، يعني أنَّهم يقيسون الذات الإلهيّة بمقاييسهم ، ويرجعونها إلى هذه المقاييس .. وقوله تعالى ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨١] ، يعني أنّهم يقيسون الأمور على منهج الحق الذي يأمر الله تعالى به ، ويرجعونها إلى هذا المنهج ..

وهكذا نرى أنَّ مشتقّات الجذر (ق ، س ، ط) ومشتقّات الجذر (ع ، د ، ل) ، كلٌّ منها تدور في إطار المعنى والدلالات للجذر اللغوي الذي تنتمي إليه ، ونرى أنَّ لكلٍّ من الجذرين ماهيّته التي تميّزه ، فلا يمكن لأحدهما أن يُلغي الآخر أو أن ينوب عنه .. وتتجلّى هذه الحقيقة في الصورة القرآنيّة التالية : ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] .. فالإصلاح بالعدل يعني قياس الأمور بينهما بحيث لا يميل طرف على آخر فيظلمه .. والقسط هو الميزان الحق المجرّد عنهما ، والذي يجب اتّباعه في هذا الإصلاح ..

❁ ❁ ❁

في سورة الكهف ، وفي قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ، وفي مسألة أهل القرية التي بنى العبد الصالح فيها جداراً ، نرى في بداية النصّ القرآني المصوّر لهذه القصّة ، نرى كلمة ﴿ قَرۡيَةٍ ﴾ ..

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ [الكهف : ٧٧]

وفي سياق النصّ المُصوِّر لهذه القصّة نرى ورود كلمة ﴿ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ..

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٨٢]

فما الحكمة من ذلك ؟!!! ..

بالعودة إلى مشتقّات الجذر (م ، د ، ن) في القرآن الكريم وكذلك مشتقّات الجذر (ق ، ر ، ي) ، نرى ما يلي :

١ – وردت كلمة ﴿ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ في القرآن الكريم (١٤) مرّة ، جاءت فيها جميعاً معرّفةً بأل التعريف ، ووردت كلمة القرية (٣٣) مرّة ، جاءت فيها معرّفة بأل التعريف ﴿ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ وغير معرّفة ﴿ قَرْيَةٍ ﴾ ..

٢ – لم تأت كلمة ﴿ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ مضافة ولا مرّة في كتاب الله تعالى .. بينما وردت القرية مضافة : ﴿ قَرْيَتِكَ ﴾ ، ﴿ قَرْيَتِكُمْ ﴾ ، ﴿ قَرْيَتِنَآ ﴾ ..

٣ – خُوطبت القرية في القرآن الكريم كذات تؤمن وتُسأل وتملك القوّة وتهلك وتفسد وتعتو عن أمر ربّها ، وبالتالي خُوطبت خطاب العقلاء .. ولم تُخاطب المدينة بذلك الخطاب ..

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس : ٩٨]

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [يوسف : ٨٢]

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦]

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ [الحج : ٤٨]

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : ٣٤]

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ [محمد : ١٣]

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الطلاق : ٨]

٤ – كلمة ﴿ أَهْلُ ﴾ تأتي مضافة للقرية ، وتأتي مضافة للمدينة ..

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الحجر : ٦٧]

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ ﴾ [العنكبوت : ٣١]

ممّا سبق نرى أنَّ المدينة ترد صفةً للجانب المادّي الحضاري للتجمعّات البشريّة ، فهذه الصفة ظاهرة ومُشاهدة وبالتالي معروفة ، لذلك رأينا أنّ ﴿ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ تأتي دائماً معرّفة بأل التعريف ، ولم تأت نكرة ولا مرّة .. أمّا ﴿ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ فترد صفةً لجميع النشاطات البشريّة الفكريّة والعقائديّة ، تلك النشاطات التي منها الظاهر ومنها المخفي ، ولذلك رأينا أنّها تأتي مُعرّفة ﴿ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ وتأتي غير معرّفة ﴿ قَرْيَةٍ ﴾ ، ورأيناها تُضاف ، وتُخاطَب كذات عاقلة تؤمن وتظلم وَ ....

وهكذا نرى أنَّ ورود كلمتي القرية والمدينة في قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح يأتي بشكلٍ مُطلقٍ يوافق موافقةً مطلقة الموقف المناسب في كلّ حالة .. فطلب الطعام يتعلّق بالجانب البشري من كرمٍ وغيره ، وهذا تُناسبه كلمة قرية ، بينما بناء الجدار يتعلّق بالجانب المادّي الحضاري ، وهذا تناسبه كلمة المدينة ..

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ هذين الغلامين صاحبي الجدار ينتميان إلى هذا التجمّع البشري انتماءً ماديّاً فقط ، بمعنى يأكلون ويشربون ويعيشون في هذا التجمّع البشري ، فهما ينتميان إلى هذا التجمّع انتماءً يتعلّق بصفة المدينة التي تصفه ، ولذلك نرى الوصف ﴿

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ .. وهذان الغلامان لا ينتميان إلى هذا التجمّع انتماءً معتقد وفكر وأخلاق وقيم .. لذلك لم يتعلّقا بهذا التجمّع تعلقاً من زاوية وصفه بصفة القرية ..

❁ ❁ ❁

مشتقّات الجذر (ع ، ج ، ل) في القرآن الكريم ترد بصيغٍ تدلّ على السرعة (نقيض البطء) ، فالاستعجال هو الاستحثاث وطلب العجلة ، والعاجل والعاجلة نقيض الآجل والآجلة ، وعجلت الشيء إذا استبقته ..

ضمن هذا الإطار الذي تدور فيه مشتقّات الجذر (ع ، ج ، ل) في القرآن الكريم ، ما علاقة المعنيّ بكلمة ﴿ ٱلْعِجْلَ ﴾ الذي هو من مشتقّات الجذر (ع ، ج ، ل) بإطار المعنى الذي يحمله هذا الجذر اللغوي ؟!!! ..

هذه هي الصور القرآنيّة التي ترد فيها كلمة ﴿ ٱلْعِجْلَ ﴾ ..

﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥١]

﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ [البقرة : ٥٤]

﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٩٢]

﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ ﴾ [البقرة : ٩٣]

﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [النساء : ١٥٣]

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٨]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٢]

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [طه : ٨٨]

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩]

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦]

إنَّ ارتباط هذه الكلمة **﴿ ٱلْعِجْلَ ﴾** كمشتقّ من مشتقّات الجذر (ع ، ج ، ل) بدلالات هذا الجذر وبباقي الفروع المتفرّعة عنه ، هو ارتباطٌ مُطلَق ، ولإدراك — ما نستطيع إدراكه — من هذه الحقيقة لا بدَّ من النظر في جميع النصوص القرآنيّة التي ترد فيها كلمة **﴿ ٱلْعِجْلَ ﴾** ، وبذلك سنرى أنَّ هذه الكلمة ترتبط بحدثين فقط :

١ — العجل الذي جاء به إبراهيم عليه السلام كطعامٍ لضيوفه الملائكة ..

٢ — العجل الذي اتّخذه بنو إسرائيل إلهاً ، وهو العجل الذي أخرجه السامريّ لهم ..

وفي هذين الحدثين نرى أنَّ استباق الأمر ، وطلب العجلة والسرعة قد حصل .. فإبراهيم عليه السلام جاء بالعجل كطعامٍ لضيوفه على وجهٍ من السرعة **﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾** ، وقبل أن يسألهم إن كانوا يريدون طعاماً أم لا .. والقرآن الكريم يُبيّن ذلك بشكلٍ جليٍّ ..

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩]

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٥ — ٢٨]

فسواءٌ العبارة القرآنيّة ﴿ **فَمَا لَبِثَ** ﴾ في الصورة الأولى ، أم الفاءات التي تتالت في الصورة الثانية [﴿ **فَرَاغَ** ﴾ ، ﴿ **فَجَآءَ** ﴾ ، ﴿ **فَقَرَّبَهُۥٓ** ﴾ ، ﴿ **فَأَوْجَس** ﴾] ، جميعها تُشير إلى السرعة وعدم التمهّل .. وكلٌّ ذلك يُؤكّد أنَّ العجل الذي جاء به إبراهيم عليه السلام لضيوفه هو طعامٌ أعدّه بسرعة ودون تمهّل وقبل أن يسأل ضيوفه ..

وكذلك قوم موسى عليه السلام اتّخذوا العجل الذي أخرجه السامريّ لهم ، نتيجة استعجالهم لأمر ربّهم ، وقد عرفوا أنَّهم استعجلوا أمر ربّهم وأنَّهم قد ضلّوا ..

﴿ **وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝١٤٩ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ** ﴾ [الأعراف : ١٤٩ – ١٥٠]

وحتى موسى عليه السلام تفاعل مع ما يحيط بهذه المسألة على درجة من العجلة والسرعة ..

﴿ **۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ** ﴾ [طه : ٨٣ – ٨٥]

وحتى مسألة إخراج العجل من حليّهم ، تمّت على درجة كبيرة من العجلة ..

﴿ **قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ۝٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ** ﴾ [طه : ٨٧ – ٨٨]

إنَّ تتابع الفاءات في هذه الصورة القرآنيّة [﴿ فَقَذَفْنَهَا ﴾ ، ﴿ فَكَذَٰلِكَ ﴾ ، ﴿ فَأَخْرَجَ ﴾ ، ﴿ فَقَالُوا ﴾ ، ﴿ فَنَسِيَ ﴾] يُبيّنُ السرعة وعدم التريث والاستعجال في هذا الأمر ..

وهكذا نرى أنَّ وَصْفَ العجل الوارد في القرآن الكريم بكلمة من مشتقّات الجذر (ع ، ج ، ل) هو وصفٌ مطلق ، يرتبط ارتباطاً مطلقاً بحيثيّات المواقف التي تحيط بهذه المسألة .. فكلمة العجل كوصف للمسألتين المذكورتين لم تخرج عن المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي ..

❁ ❁ ❁

ورد للجذر (م ، هـ ، ل) في القرآن الكريم ستة فروع ..

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ [الكهف : ٢٩]

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴾ [الدخلن : ٤٣ — ٤٥]

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [المعارج : ٨]

﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ [المزمل : ١١]

﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق : ١٧]

فما علاقة هذه المشتقّات ببعضها بعضاً ، وبجذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ؟ ..

إنّنا نرى أنَّ مشتقّات الجذر (م ، هـ ، ل) في القرآن الكريم ترتبط بالكافرين والآثمين والمكذّبين ، وتأتي وصفاً لشرابهم وطعامهم يوم القيامة ، وتأتي وصفاً للسماء عند قيام الساعة .. وفي ذلك كلّه ابتعادٌ عن منهج الله تعالى ، وعن القوانين الطبيعيّة التي تحكم الكون في عالم الدنيا إلى نقيض ذلك ..

إنَّ ارتباط مشتقّات الجذر (م ، هـ ، ل) بالكافرين والمكذّبين والآثمين نراه يرسم لنا صورة تركهم – بعد تبليغهم منهج الله تعالى – يبتعدون عن منهج الحق ، وصورة تخبّطهم في ظلمات الضلال دون معيار ، وصورة فقدانهم لطريق السلامة .. فإمهالهم يعني إنظارهم وتركهم يفقدون الثواب المرتبط باتّباعهم لمنهج الله تعالى ، وينالون العقاب المرتبط بترك هذا المنهج ..

وارتباط مشتقّات هذا الجذر بشراب هؤلاء وطعامهم في الآخرة ، يعني فقدان الشراب والطعام للصفات الحسنة السليمة ، وابتعادهما عن كلِّ الصفات التي نعرفها عن الطعام ، فقيح أهل النار وصديدهم ، وشجرة الزقّوم ، اللذان يشويان الوجوه ويغليان في البطون ، ليسا طعاماً وشراباً يتّصفان بصفات الطعام والشراب الحسنة التي نعرفها ..

وارتباط مشتقّ من مشتقّات هذا الجذر اللغوي بالسماء عند قيام الساعة ، يعني فقدان السماء للقوانين الكونيّة الناظمة لحركة مكوّناتها والتي كانت تحكمها قبل ذلك ، والتي كانت سبباً في عدم فسادها ، وفي بقائها متوازنة غير مختلة ..

وهكذا نرى أنَّ الإطار المحيط بجميع مشتقّات الجذر (م ، هـ ، ل) في القرآن الكريم ، يعني أنَّ المسألة الموصوفة بمشتقٍّ من هذه المشتقّات ، قد تركت القوانين الطبيعيّة الخيّرة الحسنة ، واتّجهت باتّجاه نقيض ذلك ، وما يترتّب على ذلك من سوء ..

❁ ❁ ❁

يرد للجذر (و ، ر ، د) في القرآن الكريم (١١) مشتقّاً .. ولا بدَّ أنَّ جميع هذه المشتقّات تحمل دلالاتٍ من داخل إطار الدلالات التي يحملها هذا الجذر اللغوي ..

وردَ الشيء يعني أتاه وحضر إليه ..

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص : ٢٣]

وأورده الشيء أذهبه إليه وأحضره ..

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود : ٩٨]

والمورد هو المنهل .. ومورد الماء هو منهل الماء الذي يُؤتى إليه .. وبالتالي فالوارد هو الذي يرد الماء لجلبه ..

﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ ﴾ [يوسف : ١٩]

من خلال هذا الإطار الذي ترسمه لنا مشتقّات الجذر (و ، ر ، د) في القرآن الكريم ، كيف نتصوَّر معنى المشتق ﴿ وَرۡدَةٗ ﴾ في الآية الكريمة ، وهل يخرج – هذا المشتق – عن دلالات جذره اللغوي ؟ ..

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٧]

لقد رأينا أنَّ تشبيه السماء بالمهل هو وصفٌ للسماء عند الساعة ، يُبيّن حالها عندما تفقد قوانين اتّزانها المسخّرة لها من الله تعالى ، وبالتالي اتّجاهها باتّجاه الفساد والزوال .. وهذه الصفة ﴿ وَرۡدَةٗ ﴾ للسماء وقتئذٍ هي وصفٌ آخر يُبيّن حقيقتها – آنذاك – من زاوية بنيتها وانهيار بنائها المُحكم وتغيُّر حالها ..

إنَّ هذه السماء التي لا نرى فيها فطوراً ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴾ [الملك : ٣] ، والتي نراها مبنيّة بناء محكماً ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ﴾ [البقرة : ٢٢] ، ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ﴾ [ق : ٦] ، وبالتالي لا يمكن شقّ بنائها وخرقه وورودها ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٣ – ٣٥] ..... هذه السماء التي لا نستطيع ورودها والنفاذ من أقطارها ، بسبب

بنائها المحكم الذي لا فطور فيه ولا أبواب لكي نردها وننفذ من أقطارها ، ستُطوى عند الساعة كطيِّ السجل للكتب ، لتعود إلى خلقها الأوّل ..

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤]

وستكون أبواباً وسبلاً وطرقاً لم تكن من قبل **﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾** [النبأ : ١٩] ، فهي وقتئذٍ في طريقها إلى الزوال **﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾** [التكوير : ١١] ... هذا البناء المحكم الذي لا شقّ فيه ولا باب ، وبالتالي لا يمكن وروده والنفاذ منه ، سينهار عند الساعة ويزول ، وبالتالي ستكون السماء أبواباً تُرَدُ من كلِّ صوب ..... هذا هو الإطار الذي تحمله لنا كلمة **﴿ وَرْدَةً ﴾** مشتقّةً من الجذر (و ، ر ، د) ، كصفة للسماء عند الساعة ..

وكلمة **﴿ وَرْدَةً ﴾** في الآية الكريمة نراها مسبوقةً بكلمة فكانت **﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾** ، وبالتالي هي وصفٌ مطلقٌ لكينونة السماء وقتئذٍ ، وليست وصفاً لمسألةٍ أُخرى يُشبِّه الله تعالى بها السماء .. أمَّا كلمة **﴿ كَٱلدِّهَانِ ﴾** ، فنراها مسبوقةً بحرف التشبيه الكاف ، ولذلك فهي تصف مسألةً أُخرى من مشتقّات الجذر (د ، هـ ، ن) يُشبِّه الله تعالى بها السماء ..

إنَّ القرآن الكريم بحرفيّته هو قول الله تعالى ، وبالتالي فالحروف والكلمات هي من الله تعالى ، وبالتالي فإنَّ الوصف مطلق ، وعلاقة الكلمة بجذرها اللغوي هي علاقة الفرع بأصله ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

أسماء الذات وأسماء الصفات

.. رأينا في القسم السابق من هذا الفصل كيف أنَّ الكلمة القرآنيّة تـــرتبط ارتباطـــاً كاملاً بجذرها اللغوي ، وتحمل معنىً لا يخرج عن إطار المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي ، وكنّا قد رأينا أنَّ الكلمات القرآنيّة فطريّة موحاة اقتضتها حكمة الله تعالى ، وليســـت وضعيّة من اختيار البشر أُفرغَت فيها المعاني القرآنيّة ، إنّما هي كلمات قالها الله تعـــالى بحرفيّتها كما هي تماماً في عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ، وإنَّ ما ننطق بـــه عـــبر ألسنتنا في هذا العالم المادّي هو الارتسام المادّي لقول الله تعالى ..

والكلمة القرآنيّة هي واحدة وصف وتسمية ، فتأتي اسماً ، وتأتي صفةً ، وتأتي اسمـــاً وصفةً في الوقت ذاته .. وهي دائماً تستمدّ معناها من إطار المعنى الذي يحمله جـــذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ..

وعدم التمييز بين دلالات الكلمة القرآنيّة كاسم ذات تُسمّي ذواتاً مُحدَّدة ، وبينـــها كاسم صفة تصف صفةً خاصّةً من صفاتٍ ذاتٍ ما ، ناتجٌ عـــن عـــدم إدراك دلالات العبارات القرآنيّة المحيطة بالكلمات ، سواء كانت أسماء ذات أم أسماء صفات ..

اسم الذات يتفرّع عن جذر لغوي ليحمل معنىً – من دلالات هذا الجذر اللغوي – يتعلّقُ بماهيّة الذات التي تميّزها عن غيرها من الذوات الأُخرى .. أمّا أسمـــاء الصـــفات فتتفرّع عن جذرٍ لغويٍّ لتحمل معنىً – من دلالات هذا الجذر اللغوي – يتعلّقُ بصـــفةٍ من صفاتِ هذه الذات ، قد تشترك في هذه الصفة مع ذواتٍ أُخرى ..

فوصف الذات بعدّة صفاتٍ تتفرّعُ عن جذورٍ مختلفة ، لا يعني تجزئة هذه الـــذات أو تعدادها .. وإنَّ اشتراك الذات في صفة من صفاتها مع ذواتٍ أُخرى عبر اســـم صـــفة

متفرّع عن جذرٍ لغويٍّ ما ، لا يعني إلغاء هذه الذات وذوبانها في الذوات التي تشـترك معها بهذه الصفة ..

إنَّ عدمَ إدراك هذه الحقيقة القرآنيّة ، والاندفاع وراء التّصوّرات الماديّة في عالم الخلق ، والاستسلام لهوى النفس والأفكار المُقوْلبة مسبقاً ، كلّ ذلك ، يجعل بعضهم في موقعٍ تختلط عنده الأمور لدرجة لا يُدرك فيها الخطَّ الفاصل بين كون الكلمة اسمَ ذات وبين كونها اسمَ صفة ..

ولذلك .. ذهب بعضهم إلى ربط صفات القرآن الكريم (الكتاب ، الفرقان .....) بأقسامٍ خاصّةٍ متميّزة من القرآن الكريم ، وكأنَّ هذه الصفات أسماء ذوات .. وذهب بعضهم إلى إنكار ذواتٍ ذُكرت في القرآن الكريم (كالجن ، النمل ، الهدهد .....) فزعموا أنَّ هذه الكلمات هي أسماء صفات لبعض البشر ، متجاهلين الصور القرآنيّة المحيطة بهذه الكلمات والتي تُثبت – بشكلٍ لا لبس فيه – أنّ هذه الكلمات هي أسماء ذات وليست أسماء صفات ..

.. ولنقف عند بعض الأمثلة لنرى كيف أنَّ إدراك حقيقة الكلمة ، كونها اسم ذات أو اسم صفة ، هو أمرٌ ضروريٌّ لإدراك الدلالات الحقّ للكلمة ، وللصورة القرآنيّة المحيطة بها ..

كلمة ﴿ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ في كتاب الله تعالى لا تعني إلاّ الكتاب الذي نزّله الله تعالى على الرسول محمّد ﷺ ، ولا تعني أيَّ كتابٍ آخر .. وكلمة ﴿ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ لا تعني إلاّ الكتاب السماوي المعروف الذي أنزله الله تعالى على بني إسرائيل ، ولا تعني أيَّ كتابٍ سماويٍّ آخر .. وكلمة ﴿ ٱلْإِنجِيلِ ﴾ لا تعني إلاّ الكتاب الذي آتاه الله تعالى لعيسى عليه السلام .. ولذلك عندما يريد الله تعالى أن يُبيّن لنا مسألة ترتبط بالكتب السماويّة الثلاثة ، يأتي بأسمائها الثلاثة ، ولا يأتي بصفاتها التي تتداخل بينها ..

﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ [التوبة : ١١١]

أمّا أسماء الصفات (الكتاب ، الفرقان ، .....) فهي أسماء صفات لهذه الكتب السماويّة ، كلّ اسم صفة منها يصف أكثر من كتاب .. فكلمة ﴿ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ وردت في القرآن الكريم اسم صفة للقرآن الكريم ..

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢]

وأتت – أيضاً – اسم صفة للكتاب الذي آتاه الله تعالى لموسى عليه السلام ..

﴿ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٥٣]

وأتت – أيضاً – اسم صفة للكتاب (الإنجيل) الذي آتاه الله تعالى لعيسى عليه السلام ..

﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾ [مريم : ٣٠]

والكتابُ جُعل في ذريّة نوحٍ وإبراهيم عليهما السلام ..

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٦]

والفرقان آتاه الله تعالى لموسى عليه السلام كما أنّه آتاه الكتاب كما رأينا ، وكذلك آتاه الله تعالى – أعني الفرقان – لهارون عليه السلام ..

﴿ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٥٣]

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٨]

والفرقان نزّله الله تعالى على الرسول محمّد ﷺ ..

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١]

.. وصفة ﴿ ٱلنُّور﴾ (بأل التعريف) بالنسبة للرسالات السماويّة لم ترد إلاّ للقرآن الكريم ..

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن : ٨]

.. أمّا ورود كلمة ﴿ نُور﴾ (بصيغة نكرة) فقد وردت للرسالات السابقة وللرسالة الخاتمة ..

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥]

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ ﴾ [المائدة : ٤٤]

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : ٤٦]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤]

وصفة الروح لم ترد إلاّ لكتاب الله تعالى القرآن الكريم من بين الكتب السماويّة ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢]

والروح صفةٌ تعني الصلة والمدد والقربى من الله تعالى ، وقد وُصف القرآن الكريم بصفة ﴿ ٱلرُّوحِ ﴾ بأل التعريف في قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ .. ولو عدنا إلى السياق القرآني التالي لهذه العبارة القرآنيّة لرأينا أنّه يتمحور حول كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) ..

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٨٥ – ٨٩]

إذاً .. يُمكن للصفة الواحدة أن تصفَ أكثر من كتابٍ سماويّ ، ويمكن أن تختصَّ بكتابٍ سماويٍّ واحد كما هي صفة ﴿ ٱلرُّوحِ ﴾ التي تصف كتاب الله تعالى .. ولا يمكن لهذه الصفات أن تكونَ أسماءَ ذات .. كيف يكون ذلك وقد عُطفت على بعضها في وصف الكتب السماوية ، فقد عُطفت صفتا الكتاب والفرقان في وصف المنهج الذي آتاه الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٥٣] .. وُعطفت صفتا النور والكتاب في وصف القرآن الكريم ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥] ..

وَعَطْفُ هذه الصفات على بعضها في وصف ذاتٍ واحدة نراه في الآية الكريمة التالية ، التي تعطف أربع صفات في وصف الذات الإلهيّة ..

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣]

وبمناسبة سياق حديثنا عن أسماء الذات وأسماء الصفات ، لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ أسماء الصفات لله تعالى لا بدّ أن تكون موجودةً في كتاب الله تعالى ، وبأل التعريف ، أمَّا أن يتمَّ إعراضُ بعضهم عن بعض أسماء الصفات لله تعالى ، بسبب غفلة بعض السابقين عنها ، مثل الصفات : [﴿ ٱلْقَدِيرُ ﴾ ، ﴿ ٱلْقَاهِرُ ﴾ ، ﴿ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ ، ﴿ ٱلنَّصِيرُ ﴾ ، ﴿ ٱلْمُسْتَعَان ﴾ ، ﴿ ٱلْأَكْرَم ﴾] .. فهذا ابتعادٌ عن كتاب الله تعالى ..

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤]

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٨]

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال : ٤٠]

﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨]

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٣ – ٥]

.. وبالمقابل فقد وُضعت كلمات على أنَّها صفات لله تعالى ، وهي لا وجود لها في كتاب الله تعالى ، مثل : الضار ، الجليل ، العدل ، الرشيد ، المنتقم ، ....

ولإدراك هذه الحقائق لا بدَّ من الوقوف عند حيثّيات تصريف الكلمات القرآنيّة .. فعلى سبيل المثال علينا أن نُميّزَ بين كلمة ﴿ ٱلزُّرَّاع ﴾ التي تتعلّقُ في كتاب الله تعالى بالبشر ، حيث هذه الكلمة على وزن (فُعّال) فتصف لنا الجهد البشريّ في تهيئة الأرض والبذور من أجل الإنبات ، ولا تتعلّق – أبداً – بمسألة الإنبات : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ

فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾ [الفتح : ٢٩] .. علينا أنَّ نميّز بين هذه الكلمة ﴿ ٱلزُّرَّاع ﴾ وبين كلمة ﴿ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ التي هي على وزن (فاعلون) ولا تتعلّق إلاّ بالذات الإلهيّة ، كونها تصف لنا فعل الإنبات الذي لا يقدر عليه إلاّ الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ – ٦٤] ..

وهذه المسألة نجد – في كتاب الله تعالى – مسألةً شبيهةً لها ، ولكنّها مختلفةٌ عنها من زاوية تصريف الكلمات .. فكلمة ﴿ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ التي هي على وزن (فعّال) ، لا تأتي إلاّ صفةً لله تعالى .. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .. فهذه الكلمة ﴿ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ التي هي على وزن (فعّال) ، تصف لنا الأسباب المنتجة للرزق والتي تعمل بقدرة الله تعالى ، وهذا لا يكون إلاّ لله تعالى ، فكلُّ أسباب الرزق تعود إلى الله تعالى وتعمل بقدرته .. بينما في كلمة ﴿ ٱلزُّرَّاع ﴾ التي هي على وزن مُشابه ، رأيناها تتعلّقُ بالبشر ، حيث هذه الكلمة تصفُ لنا الأسباب التي يبذلها الإنسان في تهيئة الأرض من أجل الإنبات ، فهذه الصفة هي للبشر ..

إذاً .. كلمتا ﴿ ٱلزُّرَّاع ﴾ ، ﴿ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ على الرغم من أنّهما على تصريفٍ متشابه ، إلاَّ أنَّ كلمة ﴿ ٱلزُّرَّاع ﴾ تتعلّق بالبشر ، وكلمة ﴿ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ تتعلّق بالله تعالى ..

.. بينما صفة ﴿ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ التي هي على وزن (فاعلين) ، تأتي صفةً لله تعالى وللبشر ..

﴿ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة : ١١٤]

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الحج : ٥٨]

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ٧٢]

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩]

﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة : ١١]

فكلمة ﴿ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ التي هي على وزن (فاعلين) ، تصف لنا صورةَ تداول الرزق بين البشر ، وهنا يكون للإنسان جزءٌ في ذلك عبر إعطاء الآخرين من رزقه .. بينما صفة ﴿ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ التي هي على وزن (فاعلون) رأينا أنّها لا تتعلّق إلاّ بالذات الإلهيّة ، كونها تصف لنا صورةَ فعل الإنبات بعد تهيئة الأسباب لهذا الإنبات ، وهذا (الإنبات) لا يقدر عليه إلاّ الله تعالى ..

إذاً .. كلمتا ﴿ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ ، ﴿ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ ، على الرغم من أنّهما على تصريفٍ متشابه ، إلاَّ أنَّ كلمة ﴿ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ تتعلّق بالله تعالى ، وكلمة ﴿ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ تتعلّق بالله تعالى وبالبشر ..

فعودة الصفة المعنيّة لله تعالى أو للبشر ، لا تتوقّف على تصريفها ، إنّما تتعلّق بماهيّة المسألة ، وبموقعها من قدرة الله تعالى وتسخير الأسباب في إيجادها .. والمرجع الأوّل والأخير في كلّ ذلك هو كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) ..

ومسألة إدراك الفارق بين كون الكلمة اسم ذات أم اسم صفة ، هي مسألةٌ ندرك أهميّتها في مسألة الأمر الإلهي بسجود الملائكة لآدم عليه السلام ..

.. إنّ كلمة ﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ في كتاب الله تعالى تصف مسألتين اثنتين :

١ – تصف الملائكة ككائنات لا تعصي الله تعالى أبداً ، ولها عالمها الخاصّ بها ومهامّها الخاصّة بها ، وهي ليست مكلّفة كعالمي الإنس والجن .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦]

٢ – ترد في كتاب الله تعالى كاسم صفةٍ لِلملتزمين بأمر الله تعالى الذي لم يخرجوا – أبداً – عن أمره جلّ وعلا ، من المكلّفين الذين يملكون القدرة على الطاعة والمعصية بآنٍ واحد .. وذلك إضافةً للملائكة ككائنات لها ماهيّتها الخاصّة بها والمجرّدة عن عالم التكليف .. وهذه الحالة نراها جليّةً في قولِه تعالى .. **﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾** [البقرة : ٣٤] ..

إنَّ إبليس هو فردٌ من أفراد عالم الجنّ ، **﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ ﴾** [الكهف : ٥٠] .. فقوله تعالى **﴿ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾** واضحٌ وصريحٌ وبيّنٌ في انتماء إبليس إلى عالم الجنّ المُكلَّف ، وفي الوقت ذاته فإنَّ قوله تعالى **﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾** واضحٌ جليٌّ في استثناء إبليس من الملائكة المأمورين بالسجود لآدم ..

إذاً العبارة القرآنيّة **﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾** هي أمرٌ إلهيٌّ للملائكة ككائنات لها ماهيّتها الملائكيّة الخاصّة بها ، وفي الوقت ذاته هي أمرٌ لأفراد عالم الجنّ الذين لم يكونوا قد عصوا الله تعالى أبداً حتى ذلك الحين ، وهنا يدخل إبليس تحت الأمر الإلهي كونه حتى ذلك الحين لم يعص الله تعالى أبداً .. والعبارة القرآنيّة **﴿ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ ﴾** تُبيّن لنا أنَّه قبل ذلك الحين لم يكن إبليس قد فسق عن أمر ربّه ، وبالتالي كان يتّصف بصفة الملائكة ، وبالتالي يناله الأمر الإلهي بالسجود لآدم عليه السلام .. وبمعصيته هذه انتقل من صفة الملائكة إلى صفة الشيطان .. فقبل المعصية

كان يتّصف بصفة الملائكة ، وبعد هذه المعصية أصبح يتّصف بصفة الشيطان .. ولربّما وُجد – في عالم الجن آنذاك – الكثير من عالم الجنّ الذين كانوا يتّصفون بصفة الملائكة وسجدوا شأنهم شأن الملائكة ككائنات لها ماهيّتها الخاصّة بها ..

إذاً .. كلمة ﴿ **إِبْلِيس** ﴾ هي اسم الذات لهذا الفرد من عالم الجنّ ﴿ **إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ** ﴾ ، بينما صفة الملائكة التي كان يتّصف بها قبل معصيته ، وصفة الشيطان التي اتَّصف بها بعد معصيته حيث تمثّلها مائة بالمائة ، هما صفتان ناتجتان عن طاعته ومعصيته لله تعالى ، ولذلك نرى أنَّ الله تعالى حينما يُخاطب هذا الكائن المعني بأداة النداء ، إنّما يُخاطبة باسم الذات ﴿ **إِبْلِيس** ﴾ ..

﴿ **قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ** ﴾ [الحجر : ٣٢]

﴿ **قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ** ﴾ [ص : ٧٥]

وضرورة التمييز بين كون الكلمة القرآنيّة تصف ذاتاً أو أنَّها اسم صفة لذاتٍ ما ، نراها في تفاعل إدراكنا مع دلالات النصّ القرآني ﴿ **وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٢٣ – ٢٥]

العبارة القرآنيّة ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ تعني أنَّها أغلقت كلَّ النوافذ التي يطلُّ منها المكان الذي هما فيه على الخارج ، سواءٌ كان ذلك نافذةً لا يمرُّ منها البشر وهي النافذة المعروفة التي تكون لدخول الشمس والهواء ، أم كان ذلك باباً كالذي نعرفه ، والذي يعبر منه البشر بأجسادهم إلى الغرف .. فكلمة ﴿ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ تعني هذين النوعين من منافذ المكان على الخارج ..

ولكنَّ كلمة ﴿ ٱلْبَابَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ تعني باباً محدّداً لا ثاني له ، له ميّزته التي تميّزه عن باقي الأبواب (النوافذ) ، وبالتالي تعني الباب المعروف الذي ندخل عبره إلى الغرف .. وهذا الباب هو ذاته المعنيّ بقوله تعالى ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ ﴾ ، فكلمة ﴿ ٱلْبَابَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ ، تصف الشيءَ ذاته الذي تصفه كلمة ﴿ ٱلْبَابِ ۚ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ ﴾ ..

.. ولننظر إلى النصوص التالية محاولين إدراك الفارق بين كلمة ﴿ حَيَّةٌ ﴾ وبين كلمة ﴿ ثُعْبَانٌ ﴾ ..

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٠٧]

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طـه : ٢٠]

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢]

إنَّ كلمة ﴿ حَيَّةٌ ﴾ تصف عصا موسى عليه السلام حينما عادت لها الحياة ، بمعنى حينما تحوّلت من مادّة يابسة ميّتة إلى مادّةٍ حيّة ، فهي ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يصوِّر حواراً بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا

يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٧ – ٢١] .. ففي هذه الصورة القرآنيّة تصفُ لنا كلمة ﴿ **حَيَّةٌ** ﴾ مرحلةَ تحوّل العصا ككائن جامد ميّت إلى حالةٍ تدبُّ فيها الحياة وتسعى متحرّكة .. فهذه الكلمة ﴿ **حَيَّةٌ** ﴾ ليست اسمَ ذاتٍ للثعبان ، وليست اسمَ صفةٍ للثعبان ، إنّها تصفُ الحياةَ التي دبّت في العصا الميّتة ، لتصوِّرَ لنا مرحلةَ تحوّلها من حالتها الميّتة إلى حالةٍ تدبّ فيها الحياة فتسعى متحرّكة ..

ولا يمكن لكلمة ﴿ **حَيَّةٌ** ﴾ أن تكون اسمَ ذات للحيوان الزاحف المعروف ، فهذا الحيوان يموت والموت نقيض الحياة ، وبالتالي حسب التصوير القرآني المُطلق لا يمكن أن تكون كلمة ﴿ **حَيَّةٌ** ﴾ اسمَ ذات لذلك الحيوان الزاحف ..

بينما في الآيتين الكريمتين ﴿ **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الأعراف : ١٠٧] ، ﴿ **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الشعراء : ٣٢] ، نرى أنَّ السياق القرآني يُصوِّر حواراً بين موسى عليه السلام وبين فرعون ، وبإمكان القارئ أن يعود إلى سورتي الأعراف والشعراء ليرى هذه الحقيقة ، وفي هذا السياق يُصوِّرُ لنا القرآنُ الكريم مرحلةَ تحوّل تلك العصا إلى ثعبانٍ مبين ، فكلمة ﴿ **ثُعْبَانٌ** ﴾ هي اسم ذات للحيوان الزاحف المعروف ..

وإنَّ عدم إدراك الحدود الفاصلة بين أسماء الذات وأسماء الصفات في كتاب الله تعالى ، وكذلك بين أسماء الصفات فيما بينها ، قاد إلى خلطٍ حتى في فهم مرجعيّة المنهج ذاته .. فعدم إدراك الفاصل بين صفة الرسالة وبين صفة النبوّة في شخص محمّد ﷺ ، قاد إلى اعتبار الكثير من جزئيّات التاريخ (في الجيل الأوّل) جزءاً من المنهج ..

النبيّ محمّد ﷺ له في القرآن الكريم اسما ذات ، هما ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ ، ﴿ أَحْمَدُ ﴾ .. فكلمة ﴿ أَحْمَدُ ﴾ هي اسمه ﷺ قبل أن يُبعَث ، فقد ورد هذا الاسم مرّة واحدة في سياقٍ قرآنيٍّ يصف لنا تبشير عيسى عليه السلام بالنبيّ ﷺ ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] .. وكلمة ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ هي اسمه ﷺ بعد أن بُعث ، فهي على وزن (مُفَعَّل) .. وكلمة ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾ تصف جانب النقاء والطهارة والخلاص لله تعالى في شخصه ﷺ .. وكلمة ﴿ ٱلرَّسُولُ ﴾ تصف جانب الرسالة (القرآن الكريم) وما يتعلّق بها في شخصه ﷺ ...

.. ولو نظرنا في العبارة القرآنيّة : ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] ، لرأينا الفارقَ بين صفة النبوّة كطهارة ونقاء وخلاص لله تعالى ، وبين محمّدٍ كشخصٍ بشرٍ حاملٍ لهذه الصفة .. ففي العبارة : ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ، نرى صياغةً قرآنيّةً تتعلّقُ بصفة النبوّة ، وليس بالجانب الشخصي ، وهي كما نرى بصيغة الغائب ..

.. بينما في العبارة القرآنيّة : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نرى صياغةً قرآنيّةً تتعلّقُ بالجانب الشخصي ، ونراها بصيغة المخاطَب .. فالله تعالى لم يقل : (خَالِصَةً للنبيِّ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ، ولم يقل : (خَالِصَةً لَه مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ، وذلك بصياغةٍ مُشابهةٍ لِصياغةِ العبارات القرآنيّة السابقة لها ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ .. إنّما يقولُ : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ..

.. فلو كان الخطابُ القرآنيّ متعلّقاً بجانبٍ واحد موجّهٍ لجانب النبوّة ومقامِها فقط دون التعلّقِ بالجانب الشخصي ، لكان على الشكل : (إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَهُ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) .. ولو كان الخطابُ موجّهاً للجانب الشخصيّ لمحمّد ﷺ فقط دون التعلّقِ بمقام النبوّة لكان على الشكل : (إِنْ أَرَدتَ أَنْ تَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ..

إنَّ قوله تعالى **﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾** ، يصوِّر لنا أيَّ امرأةٍ تَهَبُ نفسَها لِمقامِ النبوّة ، بمعنى أنّها تُريدُ الارتقاءَ إلى شرفِ الدخولِ في ساحةِ أزواجِ النبيّ ، عَبرَ تطبيقِها للأحكامِ الخاصّةِ بدخولِ هذه الساحةِ ، من عدمِ زواجٍ من الآخرين بعدَ موتِ النبيِّ ﷺ وغير ذلك من الأحكام الخاصّةِ بأزواج النبي ..... وهذه المرأةُ بعدَ أنْ تنصاعَ للأحكامِ الخاصّةِ بهذا المقام ، مختارةً اللّه تعالى ورسولَه والدارَ الآخرة ، مبتعدةً عن زينةِ الحياةِ الدنيا من شهوةٍ للرجال وغيرِ ذلك ، داخلةً هذا المقامَ عبرَ حصولِها على شرفِ الزوجيّة مع النبي .. بعد ذلك .. تكونُ كأُنثى خالصةً لشخصه ﷺ كرجل : **﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾** .. بمعنى أنّها تكونُ كعلاقةٍ زوجيّةٍ بين ذكرٍ وأُنثى مُرتبطةً مع محمّدٍ الشخص ، حيثُ محمّد الشخص الذكر هو المقابل لها كأنثى في هذه العلاقة الزوجيّة ..

.. إذاً علينا أن نُميّزَ في شخصه ﷺ ، بين الجانب الشخصيّ ، وبين جانب النبوة ، وبين جانب الرسالة .. وهذا التمييز ضروريٌّ كي نُدركَ دلالات الكثير من آيات كتابِ الله تعالى ..... الرسول ﷺ آمن بما أُنزلَ إليه من ربّه ، يقول تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥]

.. فهذه العباراتُ القرآنيّةُ تصفُ صفةَ الرسالةِ في ذاته ﷺ .. ولكن .. هل الآيات التالية تخاطبه ﷺ كرسول ؟!!! ..

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [يونس : ٩٤ – ٩٥]

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٣ – ٧٥]

بالتأكيد لا تُخاطبه كرسول .. إنّما تخاطبه كشخص بشر ، له هواجسُهُ النفسيّة كأيِّ إنسان .. إنَّ الشخصَ هو فردٌ بشرٌ له طبيعته البشريّة كغيره من البشر ، والنبيّ هو النقي الطاهر الخالص لله تعالى ، والرسول هو ذلك النبي الحامل لمنهج الله تعالى ، والذي يطلبُ الله تعالى منه إيصالَ المنهج للناس ..

ولذلك فصفةُ التشريع تتعلّقُ بصفةِ الرسالة حصراً ، ولا تتعلّقُ بصفةِ النبيّ ، ولا بالجانب الشخصي .. والآيةُ الكريمة التالية تُبيّنُ هذه الحقيقة ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم : ١]

الله تعالى هنا يُخاطبُ نبيّه ﷺ كنبي وليس كرسول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ ، ويطلبُ منه كنبيٍّ ألاّ يحرّمَ ما أحلّه الله تعالى له ، بمعنى أنَّ الله تعالى يطلبُ من النبيِّ محمّد أن يلتزمَ بالأحكام التي يحملُها الرسولُ محمّد ..

.. وصفةُ النبوّةِ دون الرسالةِ في شخصه ﷺ ، نقرؤها أيضاً في قولِه تعالى :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة : ٤٣]

.. فالذي أذن للمعنيّين بهذه الآية الكريمة هو النبيّ محمّد ، وليس الرسولَ محمّداً ، فالإذْنُ المعنيُّ هنا فَعَلَهُ ﷺ باجتهادٍ منه ، وليس كتفسيرٍ للنصٍّ القرآني الموحى من السماء .. فليس من المعقول أن يأمرَ الله تعالى رسولَه ﷺ بأنْ يأذنَ لأولئك ، ثمّ بعدَ ذلك يلومه على التزامه بما أمره به ؟ ..

.. إذاً .. المُخاطب في قولِه تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء : ٦٥]

.. المُخاطَبُ هنا هو الرسولُ ، وليس النبيَّ أو مُحمّداً كبشر مُجرّدٍ عن صفة الرسالة .. من هنا نُدركُ حكمة الله تعالى بتعلُّق أَمْرِ الطاعةِ (في القرآن الكريم) بصفةِ الرسالة حصراً .. فأَمْرُ الطاعةِ في كتابِ الله تعالى ، يأتي دائماً وأبداً متعلّقاً بصفة الرسالة ..

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران : ٣٢]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢]

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة : ٩٢]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [الأنفال : ١]

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال : ٢٠]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال : ٤٦]

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٤]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٦]

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [محمد : ٣٣]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ١٣]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [التغابن : ١٢]

.. فليس من العبث أن يتعلّق أمر الطاعة دائماً بصفة الرسالة دون غيرها ... من هنا نُدركُ عظمة الصياغة القرآنيّة في النصّ التالي الذي ترد فيه صيغة الرسالة دون أي صيغة أُخرى ..

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

إنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ تعني – بدلالاتها الصالحة لكلِّ زمانٍ ومكان – وفيكم منهجه .. فمحمّد الشخص مات ، ولكنَّ منهج الرسالة الذي أنزله الله تعالى عليه مازال وسيبقى إلى قيام الساعة ..

ولننظر إلى النصّ التالي ..

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥]

بناءً على العبارة القرآنيّة ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ كيف سيسأل ﷺ مَنْ قَبْلَه من الرسل ؟!!! .. ألا تعني هذه العبارة النظر في مناهج الرسل السابقين عليهم السلام ؟ .. أمّا القول بأنّها خاصّة بالإسراء والمعراج وبلقاء النبيّ ﷺ مع الرسل

السابقين ، فهو قولٌ لا يُوجد أيُّ دليلٍ عليه ، لا في حيثيّات السياق السابق واللاحق لهذه العبارات القرآنيّة ، ولا في غيرها من آيات كتاب الله تعالى ..

وهكذا نرى أنَّ إدراك الحدود الفاصلة بين أسماء الذات وأسماء الصفات في القرآن الكريم ، إدراكاً سليماً مرجعيّته الصور القرآنيّة المحيطة بالكلمة وبجميع مشتقّاتها في كتاب الله تعالى ، هو ضرورة لفهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً بعيداً عن ضلالات الضالين ..

والزعم بأنَّ الكلمة القرآنيّة يمكنها أن تحملَ دلالاتِ كلمةٍ أُخرى هو زعمٌ باطل ، ومثل هذا الزعم نراه في تفسيرهم لكلمة ﴿ **بِظُلْمٍ** ﴾ في الآية الكريمة : ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الأنعام : ٨٢]

لقد استشهدوا بروايات موضوعة كالرواية التالية على أنّ كلمة ﴿ **بِظُلْمٍ** ﴾ في هذه الآية الكريمة تعني (بشرك) ..

البخاري (٣١٧٥) حسب ترقيم العالميّة :

حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ أَخْبَرَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ قَالَ لَيْسَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

بناءً على قولِهم غير الصحيح والمُفترى على الرسول ﷺ ، فإنَّ كلمة ﴿ **بِظُلْمٍ** ﴾ في هذه الآية الكريمة وُضعَت بغير مكانها ، والأفضل أن تُستبدَل بكلمة (بِشرك) .. وقولُهم هذا هو قمّةُ الإساءةِ لكتاب الله تعالى ، الذي تكمنُ مُعجزتُه في صياغته اللغويّة ، فكيف لا يستقيمُ فهمنا لآيةٍ كريمةٍ إلاَّ بعدَ أن نستبدلَ – في تفسيرِها – كلمةً بكلمةٍ

أُخرى ؟!!! .. ولماذا لم يضع الله تعالى كلمة (بشرك) في هذه الآية الكريمة بدل كلمة ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ إن كان زعمهم صحيحاً ؟!!! ..

الآيةُ الكريمةُ تصفُ حالَ الذين يُعطيهم اللهُ تعالى الأمْنَ ، بأنَّهم يتّصفون بصفتين : الصفة الأولى هي أنّهم آمنوا ، والصفةُ الثانيةُ أنّهم لم يَلبِسوا إيمانَهم هذا بظلم .. ولإدراك دلالات هذه الآية الكريمة لا بدّ من العودة إلى كتاب الله تعالى ، لإدراك دلالات كلمة : ﴿ يَلْبِسُوٓا ﴾ ..

.. في كتابِ الله تعالى تدورُ دلالاتُ الجذر اللغوي (ل ، ب ، س) في إطارِ الإحاطة والتغطية والستر ، فاللباسُ هو ما يُحيطُ باللابس وما يُغطّيه ويستُره .. واللباس الذي يُوَارِي سَوْآتِنا يُحيطُ بها ، ويغطّيها ويسترها ، ولباسُ التقوى هو إحاطةُ أنفسِنا وسترُها بالورع وتقوى الله سبحانه وتعالى .. يقولُ تعالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٌۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٦]

وإلباسُ الحقِّ بالباطلِ هو جعلُ الباطلِ مُغَطِّياً للحقِ ومحيطاً به وساتراً له ، يقولُ تعالى :

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

[آل عمران : ٧١]

.. هذه هي حدود دلالات مشتقّات الجذر اللغوي (ل ، ب ، س) في كتاب الله تعالى ... وقولُه تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَـٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ، هذا القوْلُ يُبيّنُ لنا أنَّ الشرَكَ ظلمٌ عظيم ، ولا يقتضي ذلكَ أنَّ الظلمَ هو عين الشرك .. فكلُّ شركٍ هو ظلم ، وليسُ كُلُّ ظلمٍ

يكون شركاً .. هذا ما نُدركُهُ في تدبّرنا السليم لدلالات الجذرين اللغويين (ظ ، ل ، م) ، وَ (ش ، ر ، ك) في كتاب الله تعالى ..

.. واللهُ تعالى لم يقل : [الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يأتوا بِشيءٍ من ظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ] ، حتى يشقَّ ذلك على الناس ويقولوا يا رسولَ اللهِ أيّنا لا يظلمُ نفسَه ، كما يزعمُ واضعو هذه الرواية ، وكما يُسوِّقُ من بعدِهم عابدو أصنام التاريخ .. إنّما يقول جلّ وعلا : **﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾** ..... فالفارق كبيرٌ بين قولِ الله تعالى **﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾** ، وبين العبارة المفترضة المناسبة لِزَعْمِ واضعي هذه الرواية [وَلَمْ يأتوا بِشيءٍ من ظُلْمٍ] ..

.. إذاً .. العبارة القرآنيّة : **﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾** ، تعني الذين لم يُغطّوا إيمانَهم بظلم ، أي لم يجعلوه محاطاً ومستوراً بظلم .. فإلباسُ الإيمان بظلم يعني أنَّ الإيمان أصبحَ مغطىً ومحاطاً ومستوراً بظلم .. هذا ما تعنيه العبارةُ القرآنيّة التي تكمنُ مُعجزةُ صياغتها اللغويّة في هذه الصياغة المطلقة ، دون أن نستبدلَ فيها كلمةً بكلمة ، ودونَ أنْ نفهمَ معناها من خلال دلالات كلماتٍ لا وجودَ لها في ظاهر صياغتِها اللغويّة ..

إذاً .. كلُّ كلمة قرآنيّة وُضعت بمكانها باختيار الله تعالى المطلق بحيث لا تنوب عنها أيّ كلمة أُخرى ، وهذا ما يميّز النصّ الإلهيّ المُطلق عن النصوص البشريّة الوضعيّة ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الترتيب المطلق
لحروف القرآن الكريم وكلماته

إنَّ كون القرآن الكريم قول الله تعالى ، وبالتالي صياغة لغويّة مطلقة في اللغة الفطريّة للمعاني التي يعلمها الله تعالى علماً مطلقاً ، يقتضي عدم وجود حرفٍ زائدٍ (أو ناقص) على المعنى الذي تحمله الصورة القرآنيّة .. وقد رأينا في عرضنا للمعجزات العدديّة كيف أنّ الحروف المرسومة في النصِّ القرآنيِّ ، وبهويّتها كحروفٍ لكلٍّ منها دلالاته التي تميّــزه عن غيره ، رأينا أنَّه لا يمكن حذف حرفٍ من كتاب الله تعالى ، أو زيــادة حــرف إلى كتاب الله تعالى ، أو تبديل حرفٍ بحرف في كتاب الله تعالى ..

وسنتعرّض الآن إلى مجموعة من الأمثلة ، لنرى كيف أنَّ الحرف القرآني (بهويّته التي تميّزه عن غيره من الحروف) يدخلُ في معادلة التصوير المطلق للمعنى الذي تحمله العبارة القرآنيّة ، وأنَّه لا يزيد ولا ينقص عن المعنى الذي تحمله الصورة القرآنيّة ، والذي يعلمه الله تعالى علماً مطلقاً صاغه في عبارات لغويّة صياغةً مطلقة ..

في مسألة أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام وعصيان إبليس ، وردت الصورتان القرآنيّتان التاليتان ..

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢]

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ [ص : ٧٥]

ولنقارن بين العبارة القرآنيّة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ في الصورة الأولى ، وبين العبارة القرآنيّة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ في الصورة الثانية ..

إنَّ قراءة العبارة القرآنيّة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ قراءةً سطحيّةً دون الوقوف على حقيقة دلالاتها ، تجعل القارئ يتوهّم بأنَّ الله تعالى يسأل إبليس عمّا منعه من ترك السجود ، وكأنَّ المطلوب هو عدم السجود ، وهذا يُناقض حقيقة الأمر ، ويناقض العبارة الثانية ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ .. ولذلك ذهب بعض المفسِّرين إلى القول إنَّ كلمة (لا) المضمرة في كلمة ﴿ أَلَّا ﴾ هي كلمة زائدة ، وبذلك تكون العبارة القرآنيّة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ موافقة تماماً للعبارة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ ..

وقال بعض المفسّرين إنّ هذا التكرار عبر ورود هاتين العبارتين هو لتصوير حقيقة امتناع إبليس عن السجود ، فلم يمنعه شيءٌ خارجٌ عن ذاته ، لا بالتأثير الخارجي (منعه من السجود بالقوّة مع وجود استعداد للسجود) ، ولا بالامتناع عن السجود نتيجة إقناع شيءٍ خارجٍ عن ذاته بعدم السجود .. فالعبارة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ جاءت لتنفي أنَّه كان عنده الاستعداد للسجود ، ولكنَّ قوّة أقوى منه منعته عن ذلك ، فهو ليس ممنوعاً عن السجود بسبب قوّة خارجيّة أقوى منه .. والعبارة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ جاءت لتنفي أنَّ إبليس امتنع عن السجود نتيجة أنَّ أحداً أقنعه بعدم السجود ، فهو ليس ممتنعاً عن السجود لإقناعه من الخارج .. فالعبارتان متكاملتان في تصوير حقيقة عدم سجود إبليس ، وأنَّه اختار عدم السجود بعيداً عن تأثيري (المنع الخارجي بالقوّة ، والامتناع بإقناع ذات أُخرى له بعدم السجود) ، فهو ليس ممنوعاً وليس ممتنعاً عن السجود بغير اختيار إرادته المتعلّقة بذاته ..

.. إنّ القول بأنَّ كلمة (لا) المضمرة في كلمة ﴿ أَلَّا ﴾ هي كلمة زائدة ، هو قولٌ مردودٌ ، فقول الله تعالى مُطلق ، وبالتالي لا يحوي حشواً ولا لغواً كقول البشر ، فقول الله تعالى هو صياغةٌ مطلقةٌ لكلام الله تعالى ، وعدم إدراكهم لعمق هذه الصورة القرآنيّة لا يُعطيهم الحقَّ بزعم وجود حروفٍ زائدةٍ عن المعنى المحمول فيها ..

وسننظر إلى هذه العبارة القرآنيّة من منظار تعداد الحروف الذي بيّناه في النظريّة الأولى (المعجزة) لنرى كيف أنَّ الحرف القرآنيَّ المرسوم يرتبط ارتباطاً مطلقاً بالمعاني والصور التي تحملها عباراته القرآنيّة التي ينتمي إليها ، ولنرى كيف أنّه لا يمكن للبشر الإحاطة بارتباطات العبارة القرآنيّة مع غيرها من العبارات القرآنيّة الأخرى ..

إنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ﴾ تُناظرها صورةٌ أُخرى للمسألة ذاتها تصوِّر هذه المسألة من جانبٍ آخر في سورةٍ أُخرى ﴿ **مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ** ﴾ .. وهذا التناظر ينعكس تناظراً بينهما في مجموعي حروفهما المرسومة ، فكلٌّ منهما مكوَّنٌ من (٢٠) حرفاً ..

﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ﴾ = **٢٠** حرفاً

﴿ **مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ** ﴾ = **٢٠** حرفاً

والصورة القرآنيّة ﴿ **أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ﴾ هي جزءٌ من قولِ الله تعالى وخطابهِ لإبليس ، وهي تناظر بشكلٍ تامٍّ الصورة القرآنيّة ﴿ **لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ** ﴾ في الآية التي تسبق مباشرة الآيةَ الكريمة الحاملة للصورة الأولى ﴿ **ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ** ﴾ [الأعراف : ١١] ..

﴿ **لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ** ﴾ = **١٤** حرفاً

﴿ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾ = ١٤ حرفاً

فالعبارة ﴿ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾ هي ردٌّ على الواقع الذي تصوّره العبارة ﴿ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ..... والصورة القرآنيّة ﴿ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾ هي ذاتها مُكوَّنة من صورتين متناظرتين تماماً ، كلٌّ منهما مكوَّنٌ من (٧) حروف ..

﴿ أَلَّا تَسۡجُدَ ﴾ = ٧ حروف ،،، ﴿ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾ = ٧ حروف

فهذه الصورة القرآنيّة بركنيها المتناظرين تنطق فتقول : كيف لا تسجد ﴿ أَلَّا تَسۡجُدَ ﴾ وأنا الذي أمرك بالسجود ﴿ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾ ؟ .. بمعنى كيف لا تستجيب لأمر الله تعالى وأمر الله تنبغي الاستجابة له ؟ ..

وهكذا فالصورة القرآنيّة ﴿ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾ على الرغم من ارتباطها بسياق الكلام السابق واللاحق لها ، فإنَّ لها إطارَها الخاصَّ من الاستقلاليّة عن العبارة التي تسبقها مباشرة ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ .. بمعنى أنَّ المعنى مكتمل عند نهاية العبارة القرآنيّة ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ أي قال ما منعك من السجود ، وتأتي العبارة التالية لها ﴿ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾ لتبيّن وتفصّل وتضيفَ دلالات جديدة مفادها : كيف لا تسجد وأنا الذي يأمرك بالسجود ..

وممّا يقويِّ مذهبنا في تفسير هذه العبارات القرآنيّة هو التناظر بين الصورة القرآنيّة ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ التي يكتمل عندها المعنى ، وبين الصورة القرآنيّة ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ ﴾ في الآية ذاتها ..

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ = ٩ حروف ،،، ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ ﴾ = ٩ حروف

وهكذا نرى أنَّ كلمة (لا) المضمرة في كلمة ﴿ أَلَّا ﴾ ليست كلمةً زائدة ، ونرى أنّها محسوبة بشكلٍ مُطلق ، وأنَّها لا تزيد ولا تنقص عن المعنى الذي يريده الله تعالى ، وأنّها تستمدّ مطلقها من صفات الله تعالى المنعكسة في قوله .. ولو نظرنا في المعادلات التالية التي هي جزءٌ من ارتباطات كلمة ﴿ أَلَّا ﴾ ، لرأينا جزءاً من ارتباطاتها المطلقة مع غيرها من الصور القرآنيّة ..

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = **٢٣** حرفاً

﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ ﴾ = **٢٣** حرفاً

....

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = **٢٣** حرفاً

﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة : ٣٦] = **٢٣** حرفاً

....

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = **٢٣** حرفاً

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف : ١٨] = **٢٣** حرفاً

....

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = **٢٣** حرفاً

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص : ٧٥] = **٢٣** حرفاً

فعدم السجود وعدم الاستجابة لأمر الله تعالى (وهذا ما يصوّره الركن الأوّل في كلّ معادلة) ، يقابله – كما نرى – تكبّر إبليس والهبوط من الجنّة ومن رحمة الله تعالى مذؤوماً مدحوراً ..

❁ ❁ ❁

لننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ١٩ – ٢٢]

إنّنا نرى الملاحظات التالية :

١ – تكرّرت كلمة ﴿ وَلا ﴾ بين الظلمات والنور ، وبين الظلّ والحرور ، وبين الأحياء والأموات ، و لم ترد بين الأعمى والبصير ! ..

٢ – تكرّرت العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ﴾ مرّتين ! ..

٣ – في المقارنة بين الظلّ والحرور والأحياء والأموات تقدّم الأشرف على غيره ، وعُكسَت المسألة في المقارنة بين الأعمى والبصير والظلمات والنور ! ..

٤ – تمّ مقابلة الأعمى بالبصير والظلّ بالحرور بلفظ المفرد ، وتمّ مقابلة الأحياء بالأموات بلفظ الجمع ، وتمّ مقابلة الظلمات بالنور بلفظ الجمع في إحداها (الظلمات) والمفرد في الآخر (النور) ..

لننظر – من خلال هذه الملاحظات – إلى عظمة التصوير القرآني المطلق ، لنرى كيف أنَّ ورود الحروف والكلمات وترتيبها في العبارة القرآنيّة ، هو مطلق يتعلّق بقول الله تعالى المتعلّق بصفاته المطلقة ..

نحن نعرف أنَّ النور ينافي الظلمات وينقضها ، بمعنى أنَّ وجود النور يعني عدم وجود الظلمات .. فالظلمات ليست أكثر من دليلٍ على عدم وجود النور .. إذاً .. المنافاة بين النور والظلمات هي منافاة ذاتيّة ترتبط بماهيّة هاتين المسألتين ، حيث لا تشتركان بأيِّ ساحةٍ بينهما .. ولذلك نرى كلمة ﴿ وَلا ﴾ بينهما : ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ .. فالله تعالى لم يضع – هنا – مقارنةً بين الظلمات والنور ، فلم يقل : (ولا الظلمات والنور) ، إنّما يقول : ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ ... ما نعنيه أنَّ المقارنة هنا لا تضع

الظلمات في مقابل النور ، أي ليست بين الظلمات والنور ، كالمقارنة في قولِه تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ [الرعد : ١٦] .. عدم الاستواء والمقارنة في قولِه تعالى ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ ، هي بين درجات الظلمات المتفاوتة فيما بينها ، وبين درجات النور المتفاوتة فيما بينها ..

وكذلك الأمر فإنَّ المنافاة بين الظلّ والحرور ، هي منافاة في الهُويّة والذاتيّة بينها ، حيث لا تشتركان بأيِّ شيءٍ بينهما ، ولذلك نرى كلمة ﴿ وَلا ﴾ بينهما .. ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ .. فالله تعالى لم يضع – هنا – مقارنةً بين الظلّ والحرور ، فلم يقل : (ولا الظلّ والحرور) ، إنّما يقول : ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ .. عدم الاستواء والمقارنة هنا هي بين درجات الظلّ المتفاوتة فيما بينها ، وبين درجات الحرور المتفاوتة فيما بينها ..

وكذلك الأحياء والأموات ، فإنَّ المنافاة – أيضاً – تكمن في ذاتيّة هاتين المسألتين ، فصفة الأحياء تتعلّق – هنا – بالحياة الإيمانيّة ، والأموات تتعلّق بالموت الإيماني كون الكلمة هي ﴿ ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ وليس (الموتى) ، فهاتان المسألتان المتقابلتان لا تشتركان بأيِّ أمرٍ بينهما .. ولذلك فالله تعالى لم يضع – هنا – مقارنةً بين الأحياء والأموات ، فلم يقل : (وما يستوي الأحياء والأموات) إنّما يقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ .. عدم الاستواء والمقارنة هنا هي بين درجات الأحياء المتفاوتة فيما بينها ، وبين درجات الأموات المتفاوتة فيما بينها ..

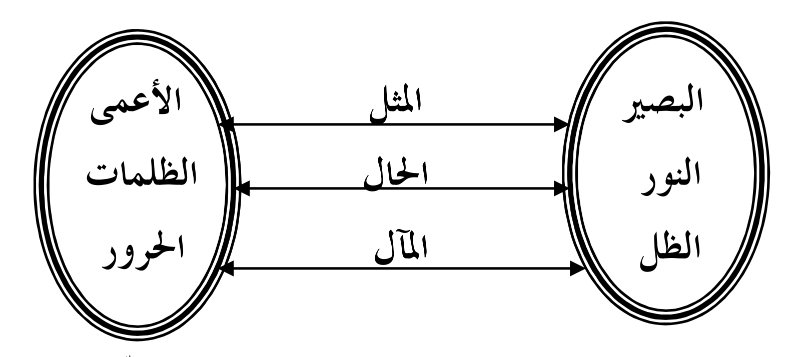
وكذلك الأمر بالنسبة لمسألتي العمى والبصر كمسألتين مجرّدتين عن تعلّقهما بالأشخاص ، هما مسألتان متنافيتان تماماً .. أمّا كلمتي الأعمى والبصير فقد ترتبطان بالشخص ذاتِه ، أي قد يكون الشخصُ أعمى فيصبح بصيراً ، وقد تنعكس المسألة ..

فالمنافاة هنا (بين الأعمى والبصير) ليست ذاتيّة ترتبط بماهيّة الشخص الموصوف ، إنّما هي منافاة من حيث الوصف ، ولذلك نرى عدم ورود كلمة **﴿ وَلا ﴾** بين الأعمى والبصير .. **﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾** .. فعدم الاستواء والمقارنة هنا بين الأعمى من جهة والبصير من جهةٍ أُخرى ..

إذاً الظلمات درجات لا تستوي فيما بينها ، والنور درجات لا تستوي فيما بينها ، والظلّ درجات لا تستوي فيما بينها ، والحرور درجات لا تستوي فيما بينها ، والأحياء درجات لا تستوي فيما بينها ، والأموات درجات لا تستوي فيما بينها .. ولذلك نرى ورود كلمة **﴿ وَلا ﴾** فيما بينها .. صحيحٌ أنَّ الظلمات تقابل النور والظلّ يقابل الحرور والأحياء يقابلون الأموات ، ولكنَّ ورود كلمة **﴿ وَلا ﴾** بين هذه المسائل المتقابلة ، يضع المقارنة وعدمَ الاستواء بين درجات كلِّ مسألة منها ، بغض النظر عن تقابلها مع المسألة المقابلة لها ..

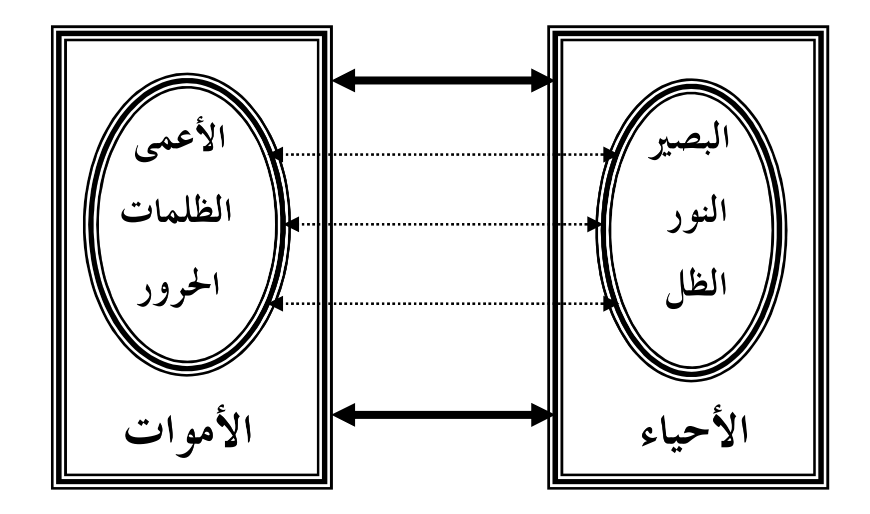
بينما صفتا الأعمى والبصير ، كصفتين ترتبطان بالشخص ذاته في لحظة ما ، فلا يُوجَد درجات لهاتين الصفتين ، فالشخص الموصوف في لحظةٍ ما ، له درجة محدّدة من العمى والبصر .. فالمقابلة هنا هي فقط بين هاتين الكلمتين ، وليست بين العمى والبصر كمسألتين مجرّدتين ، لذلك لا نرى ورود كلمة **﴿ وَلا ﴾** بين كلمتي الأعمى والبصير ..

والصورة القرآنيّة **﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾** تُقابل مثلَ المؤمن والكافر ، وحالهما ، ومآلهما ، فجميع المسائل المتقابلة في المثل والحال والمآل معطوفة على العبارة القرآنيّة **﴿ وَمَا يَسْتَوِى ﴾** .. فلا شيء يستوي بين مثل المؤمن والكافر ، ولا حالهما ، ولا مآلهما ..



بعد ذلك تأتي مقابلة جديدة بين صفتين جديدتين ، كلّ صفة منهما تقابل جميع المسائل المناظرة لها في المقابلات السابقة .. فمسائل البصير والنور والظلّ ترتبط بصفة الأحياء ، ومسائل الأعمى والظلمات والحرور ترتبط بصفة الأموات .. فالصورة القرآنيّة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تُقابل الصورة القرآنيّة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ .. وتكرار العبارة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ﴾ هو لإظهار هذه المقابلة ..

ففي حين أنَّ المقابلة الأولى هي بين الكافر والمؤمن كمثل (الأعمى والبصير) ، وكحال (الظلمات والنور) ، وكمآل (الظلّ والحرور) ، نرى أنَّ المقابلة الثانية هي في حقيقة المؤمنين والكفّار ، من زاوية علم الله تعالى المطلق لاستجابة الذات البشريّة لنور الحق ، ولحقيقة انتمائها إمّا لعالم الأحياء المستجيبين لنداء الحق ، وهذا ما تعبّر عنه في المقابلة الأولى الكلمات (البصير – النور – الظل) ، وإمّا لعالم الأموات وهذا ما تعبّر عنه في المقابلة الأولى الكلمات (الأعمى – الظلمات – الحرور) ..



.. لذلك نرى [بناءً على هذه المقابلة المرتبطة بعلم الله تعالى المطلق والكاشف لحقيقة انتماء الإنسان لساحة الأحياء أو الأموات] أنَّ المنتمين لساحة الأحياء يسمعونه نداء الحق ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ** ﴾ ، وأنَّ المنتمين لساحة الأموات لن يسمعوا نداء الحق ، ولن يستجيبوا له ، كسكان القبور المنقطعين عن الحياة ﴿ **وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ** ﴾ .... ﴿ **وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ** ﴾ ..

إنَّ إعجاز القرآن الكريم هو في المعنى المطلق الذي يحمله ، وليس في مجرّد اللفظ ، فالتقديم والتأخير لا يكون إلاَّ لحكمة مطلقة يريدها الله تعالى .. لذلك فتقديم الأشرف في مقابلة الظلّ والحرور ، وفي مقابلة الأحياء والأموات ، وتأخيره في مقابلة الأعمى والبصير ، وفي مقابلة الظلمات والنور ، هو لحكمة مُرادة ، وليس لمجرّد تناغم أواخر الآيات وتآخيها كما يتوهّم الكثيرون ..

في المقابلتين الأولى والثانية ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ تمّ التقديم بناءً على الترتيب الزمني لمسألتي الكفر والإيمان بالنسبة لرسالة الإسلام ، فطريق العمى والظلمات سبق ظهور نور الإسلام الذي حوّله إلى طريق البصيرة والنور ، فالصورة القرآنيّة التي تبيّنها هاتان الآيتان تُقابل بين طريق الظلام الذي كان يتخبّطُ به الناس كالعميان قبل مجيء الإسلام ، وبين طريق النور الذي سلكه الناس على بصيرة بعد مجيء الإسلام .. فوجود الكفّار الضالّين السائرين في طريق الظلام ، هو قبل المؤمنين المهتدين بنور الهداية ..

وتتابع الآيات الكريمة ترتيب وقوع هذه المسائل .. فبعد مجيء نور الإسلام ، تُصوِّرُ لنا هذه الآياتُ الكريمة مآل البشر وماهيّةَ انتماءاتهم في تفاعلهم مع هذا النور العظيم ، وحال تعلّقهم برحمة الله تعالى التي تسبق غضبه .. فما يتعلّق برحمة الله تعالى يسبق ما يتعلّق بغضبه .. ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ ..

إنَّ مقابلة الأعمى بالبصير والظلّ بالحرور هي مقابلة الجنس بالجنس ، ولو تمّت هاتان المقابلتان — في هذا النصّ الذي بين أيدينا — بصيغ جماعة أفراد بجماعة أفراد ، لَمَا تمّ هذا الإطلاق في الصياغة ، لأنّه في هذه الحالة سيكون هناك شيءٌ من النسبيّة ، فلربما يُوجَدُ فردٌ من أفراد أحد الجنسين مساوٍ لفردٍ من الجنس الآخر ، فقد يصل الأعمى إلى حقيقة لا يصل إليها البصير ، وقد يضلُّ البصير عن حقيقة لم يضلّ عنها الأعمى .. وهكذا نرى أنَّ مطلق المقابلة يقتضي مقابلة الجنس بالجنس ، وليس مقابلة أفراد بأفراد ..

ومقابلة الأحياء بالأموات هي أيضاً مقابلة مطلقة ، فالأحياء لا يساوون الأموات سواءٌ كانت المقابلة مقابلة الجنس بالجنس أم مقابلة أفراد بأفراد ، فلا يُوجد حيٌّ إيمانيّاً من الممكن أن يساوي ميّتاً إيمانيّاً ، ولا يُوجَد ميّتٌ إيمانيّاً من الممكن أن يساوي حيّاً إيمانيّاً .. وقد بيّنت في كتبي الأخرى كيف أنَّ كلمة ﴿ ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تعني الموت الإيماني

، سواء لمن هم على قيد الحياة ، أم لمن غادروا الدنيا .. فالذين غادروا الدنيا يصفهم الله تعالى في كتابه العزيز بكلمة ﴿ **ٱلْمَوْتَىٰ** ﴾ سواء كانوا مؤمنين أم كانوا كافرين ..

أمّا مقابلة الظلمات (بصيغة الجمع) بالنور (بصيغة المفرد) فمردّها أن طرق البشر الوضعيّة البعيدة عن منهج الله تعالى كثيرة ومتعدّدة ، لذلك تصفها كلمة ﴿ **ٱلظُّلُمَـٰتُ** ﴾ التي تأتي دائماً في كتاب الله تعالى بصيغة الجمع .. أمّا طريق الحقّ ونور الهداية الذي يأمر الله تعالى باتّباعه ، فهو سبيلٌ واحدٌ لا يتجزّأ ولا يتعدّد ، لذلك تصفه كلمة ﴿ **ٱلنُّورُ** ﴾ التي تأتي دائماً في كتاب الله تعالى بصيغة المفرد ..

وهكذا نرى أنَّ التصوير القرآني مطلق ، فلا حرف يزيد أو ينقص عن المعنى المطلق الذي يريده الله تعالى ، ولا صيغة من صيغ تصريف الكلمات في العبارة القرآنيّة تختلف عن الصياغة المطلقة لهذه العبارة القرآنيّة ، ونرى أيضاً أنَّ تقديم الكلمات وتأخيرَها في العبارة القرآنيّة هو لحكمة مطلقة يريدها الله تعالى ، وليس مصادفةً ، وليس من أجل تآخي أواخر الكلمات ، وليس لأيِّ سببٍ آخر كما هو حال كلام البشر ..

❁ ❁ ❁

.. ولننظر في الآيتين الكريمتين التاليتين ..

﴿ **وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ٤٩]

﴿ **إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ**

وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة : ١١٠]

.. إنّنا نرى ما يلي :

١ – في الآية الأولى نرى النفخَ في الطين : ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾ ، فكلمة ﴿ فِيهِ ﴾ واضحةٌ جليّةٌ في تعلّق النفخ بالطين .. بينما في الآية الثانية نرى النفخَ في الهيئة : ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ ﴾ ، فكلمة ﴿ فِيهَا ﴾ واضحةٌ جليّةٌ في تعلّق النفخ بالهيئة ..

٢ – في الآية الأولى نرى أنَّ هيئة الطير التي تُخلَق من الطين لا تُتْبَع بالإذن من الله تعالى : ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾ .. بينما في الآية الثانية نراها تُتْبَع بالإذن من الله تعالى : ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ ﴾ ، فكلمة ﴿ بِإِذۡنِيۖ ﴾ واضحة جليّة في ذلك ..

٣ – في الآية الأولى نرى أنَّ إبراء الأكمه والأبرص لا يُتْبَع بالإذن من الله تعالى : ﴿ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ ﴾ .. بينما في الآية الثانية نرى هذه المسألة تُتْبَع بالإذن من الله تعالى : ﴿ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ ﴾ ..

٤ – في الآية الأولى نرى إحياء الموتى : **﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾** .. بينما في الآية الثانية نرى إخراج الموتى : **﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾** ..

.. فما الحكمة من كلِّ ذلك ؟!!! ..

هاتان الآيتان الكريمتان تُصوِّران المسائل المحمولة بهما من زاويتين مختلفتين .. فالآية الأولى تُصوِّرُ هذه المسائل من الزاوية التي يُخاطبُ بها عيسى بني إسرائيل ، فمطلع الآية الكريمة يُبيّن ذلك : **﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾** ، ومن هذا المنظار الذي ينظر منه عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل ، فإنَّ الموتى الذين أحياهم عيسى عليه السلام ، قد انتقلوا من حالة الموت إلى حالة الحياة ، وهذا ما تصوّره العبارة القرآنيّة في هذه الآية **﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾** .. فما رآه عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل هو أنَّ هناك موتى تمّ إحياؤهم ..

ولذلك .. ومن هذه الزاوية المتعلّقة بالمنظار الذي ينظر منه عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل ، نرى تصويراً لمسائل لا تُصوَّر في الآية الثانية ، فالعبارة القرآنيّة : **﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾** .. فالأكل والادّخار في البيوت مسائل يعلمها بنو إسرائيل ويشاهدونها حسيّاً ، وهي بذلك تتناسب مع المنظار الذي تُلقي الآية من خلاله الضوء على المسائل المحمولة بها .. ولذلك تُختم الآية الكريمة بالعبارة : **﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾** ..

بينما الآيةُ الثانية تُصوِّر المسائل المحمولة فيها من زاوية علم الله تعالى المطلق بحقيقة هذه المسائل ، وليس من الزاوية التي ينظر منها عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل ، كما هو حال الآية الأولى .. فمن زاوية حقيقة المسائل المُصَوَّرة بهذه الآية الكريمة فإنَّ إحياء الموتى من البشر هو – في حقيقته – إخراج الأنفس من عالمها عالم البرزخ وعودها إلى

الأجساد الدنيويّة ، فهذه الأنفس هي موجودة ، وما حصل أنَّها أُخرجِت من عالمِها إلى عالم الدنيا لتدخل في أجسادٍ دنيويّة .. وهذا ما تنطق به العبارة القرآنيّة ﴿ **وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي** ﴾ ..

ولذلك نرى في هذه الآية الكريمة تصويراً لمسائل لا تُصوَّر في الآية الأولى ، فالعبارة القرآنيّة : ﴿ **وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ ، تُبيّنُ مسائل لا تُرى إلاّ من منظار علم الله تعالى الكاشف ، ولذلك تُصوَّر هذه المسائل في الآية الثانية ، ولا تُصوَّر في الآية الأولى .. وكذلك الأمر في العبارات القرآنيّة : ﴿ **إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ** ﴾ ، فتأييد الله تعالى لعيسى عليه السلام بروح القدس ، وتكليمه للناس في المهد وكهلاً ، وتعليمه له الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، كُلُّ ذلك مسائل تتعلّق بعلم الله تعالى المُطلق وليس بالمنظار الذي ينظر منه البشر .. ولذلك تُذكر هذه المسائل في الآية الثانية ، ولا تُذكر في الآية الأولى ..

والقضيّة ذاتها في مسألة إبراء الأكمه والأبرص ، فمن الزاوية التي ينظر منها عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل فإنَّ إبراء الأكمه والأبرص مسألة حسيّة مُشاهدة تتشابه ظاهريّاً مع إبراء الكثير من الأمراض ، ولذلك لم تُتبَع بالإذن من الله تعالى : ﴿ **وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ** ﴾ .. بينما هذه المسألة ذاتها من المنظار الذي يعلم الله تعالى به هذه الأشياء علماً مطلقاً ، فإنَّ إبراء الأكمه والأبرص لا يكون إلاّ بإذنٍ من الله تعالى ، ولذلك تُتْبَع هذه المسألة قي الآية الثانية بالإذن من الله تعالى : ﴿ **وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي** ﴾ ..

ومسألة الطير الذي كان عيسى عليه السلام يخلقه من الطين ، فهي مسألةٌ تُصوَّر في هاتين الآيتين الكريمتين تصويراً مُطلقاً يُبيّنُ مراحل هذه المسألة من بدايتها إلى نهايتها .. فهذه المسألة تمّت وفق المراحل التالية :

١ – المرحلة الأولى هي خَلْق هيئة للطير من الطين ، وهي مرحلة شبيهة بما يصنعه البشر من تماثيل ، وهذه مرحلة يستطيع البشر فعلها ، ولذلك نراها في الآية الأولى متعلّقة بالطين ، فهي مرحلة ما زال الطين فيها طيناً .. ولذلك نرى عظمةَ الصياغة القرآنيّة بأنْ ترد هذه المرحلة في الآية الأولى ، ولا تُتْبَع هذه المرحلة بالإذن من الله تعالى : **﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ﴾** .. فهذه مرحلة مُشاهدة من البشر ، ويستطيعُ البشر فعلها ، ولذلك يُناسب العبارات المصوّرة لها أن ترد في الآية الأولى ، وألاّ تُتْبَع بالإذن من الله تعالى .. والدليل على أنَّ هذه المرحلة لا تتجاوز الحالة الطينيّة إلى الحالة الحيّة هو كلمة **﴿ فِيهِ ﴾** التي تتعلّق بالطين لا بالهيئة : **﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾** ..

٢ – المرحلة الثانية هي تحويل الهيئة الطينيّة التي هي المرحلة الأولى ، إلى هيئة حيّة ، بمعنى تحوّل مادّة الطين إلى مادّة حيّة ، وهذا يتعلّقُ بعلم الله تعالى وبمنظاره الذي لا يرى منه البشر ذلك ، وهذا ما لا يستطيع البشر فعله ، ولذلك نرى هذه المرحلة مُصوَّرةً في الآية الثانية وَمَتْبوعةً بالإذن من الله تعالى : **﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي ﴾** ، والدليل على أنَّ المسألة تتعلّقُ بالمرحلة الثانية التي تتحوّل فيها الهيئة الطينيّة إلى هيئة حيّة هو كلمة **﴿ فِيهَا ﴾** التي تعود للهيئة ، لا للطين : **﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ ﴾** ..

٣ – المرحلة الثالثة هي تحويل الهيئة الحيّة من مادّة حيّة إلى طيرٍ يطير ويتحرّك ، وهذه مرحلة لها وجهان :

هناك وجه حسيٌّ يراه البشر ويتفاعلون معه ، حيث يرون طيناً تحوّل إلى طيرٍ يطير ، ولذلك تُذكَرُ هذه المرحلة (الثالثة) في الآية الأولى مَتْبوعةً بالإذن من الله تعالى ، ولكن بعد المرحلة الأولى مباشرةً : ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾ ..

والوجه الثاني لهذه المرحلة (الثالثة) هو وجهٌ لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، ويتعلّق بالسرِّ الذي لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، والذي تحوّلت به الهيئة الحيّة إلى طيرٍ يطير ويتحرّك ، حيث لا يرى البشر ولا يعلمون هذا السر ، ولذلك تُذكَرُ هذه المرحلة (الثالثة) في الآية الثانية مَتْبوعةً بالإذن من الله تعالى ، ولكن بعد المرحلة الثانية مباشرةً : ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ ﴾ ..

أعتقد أنّنا أصبحنا نرى – أكثر – حقيقةَ مُطلق الصياغة القرآنيّة ، وكيف أنَّ الحروف والكلمات في الجملة القرآنيّة مُرتّبة ترتيباً مُطلقاً ، يتعلّق بعلم الله تعالى المُطلَق وبقدرته المطلقة على الصياغة ..

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى التقديم والتأخير في مسألتي الشفاعة والعدل في الآيتين التاليتين ..

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ٤٨]

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٣]

فلماذا قُدِّمَت الشفاعة على العدل في الآية الأولى وأُخِّرت في الثانية ؟!!! .. ولماذا ارتبطت الشفاعة بعدم القبول في الآية الأولى وبعدم النفع في الثانية ؟!!! .. ولماذا ارتبط العدل بعدم الأخذ في الآية الأولى وبعدم القبول في الثانية ؟!!! .. ولماذا اُستخدمت

كلمة ﴿ عَدۡلٌ ﴾ دون كلمة ﴿ فِدۡيَةٌ ﴾ كما هو في الآية الكريمة : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الحديد : ١٥] ؟!!! ..

العدل – كما رأينا – هو تسوية الأمور وإعادتها إلى سويّتها .. ﴿ أَوۡ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ ﴾ .. وهذا يكون قبل فوات الأوان ، أي يكون في المرحلة التي تمكن فيها تسوية الأمور .. ولذلك فالعدل الذي هو بمعنى الفداء نراه في كتاب الله تعالى يتعلّق بالشفاعة ، أي بمرحلة ما قبل الدخول في العذاب .. وباستثناء الصورتين القرآنيّتين موضوع البحث ، هناك صورة أخرى يرد فيها العدل الذي هو بمعنى الفداء ..

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبًا وَلَهۡوًا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٍ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٌ مِّنۡ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٧٠]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٍ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ ﴾ تُصوِّرُ لنا مرحلة الشفاعة التي هي قبل الدخول إلى النار ..

بينما الفدية نراها في كتاب الله تعالى تُصوِّرُ مرحلةَ ما بعد الشفاعة ، أي تكونُ في المرحلة التي لا تمكن فيها هو تسوية الأمور ، حيث الدخول في العذاب أمرٌ واقع لا مفرّ منه .. وهذه هي الآيات الكريمة المصوّرة لذلك ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٩١]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٦]

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥٤]

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [الرعد : ١٨]

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧]

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد : ١٣ – ١٥]

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [المعارج : ١١ – ١٤]

وبما أنَّ الصورتين القرآنيّتين (موضوع بحثنا) تتعلّقان بمرحلة لا تتجاوز الشفاعة ، فمن مقتضيات التصوير القرآني المطلق أن ترد صيغة العدل دون صيغة الفدية ..

ولو نظرنا إلى هذه المسألة من زاوية ترتيب وقوعها من المقدّمات باتّجاه النتائج ، لرأيناها تُصوَّرُ في القرآن الكريم تصويراً مطلقاً مطابقاً تماماً لهذا الترتيب ..

إنَّ نفي الشفاعة أهمّ من نفي قبولها ، فنفي انتفاع النفس من الشفاعة يستلزم نفي قبولها ، أمّا نفي قبول الشفاعة من النفس فلا ينفي انتفاعها من طرق أخرى .. ولذلك نرى أنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ في الآية الأولى ، تنفي قبول الشفاعة من النفس ، ولا تنفي انتفاع النفس من شفيعٍ آخر غير هذه النفس ، ونراها ترد قبل نفي أخذ العدل من النفس ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ ..

بينما الصورة القرآنيّة ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ في الآية الثانية ، نراها تنفي انتفاع النفس من أيِّ طريقٍ من طرق الشفاعة ، فهذه الصورة تنقل لنا مسألةً أعظم وأعمّ من المسألة التي تنقلها لنا الصورة الأولى ، ولذلك نراها ترد بعد نفي قبول العدل من النفس ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ ..

إنَّ قبول الشيء يسبق أخذه ، وأخذه يسبق الانتفاع به .. فالمسألة مكوَّنة من ثلاث مراحل (قبول – أخذ – نفع) ، ولو عدنا إلى أيٍّ من الآيتين الكريمتين ، لرأينا أنَّ ترتيب ورود المسائل وترتيب اقترانها بالقبول والأخذ والنفع هو ترتيبٌ مطلق يتبع للتصوير القرآني المطلق ..

ففي الآية الأولى نرى أنَّ عدم القبول يسبق عدم الأخذ ، فعدم قبول الشفاعة من النفس أسهل عليها من عدم أخذ الفدية منها ، لذلك نرى أنَّ الترتيب الوارد في الآية الكريمة مُطابقٌ تماماً لذلك : ﴿ **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ** ﴾ .. وفي الآية الثانية نرى أنَّ عدمَ القبول يسبق عدمَ النفع ، فعدم قبول الفدية من النفس أسهل عليها من عدم انتفاعها من أيِّ طريقٍ من طرق الشفاعة والخلاص .. لذلك نرى أنَّ الترتيب الوارد في الآية الكريمة مطابقٌ تماماً لذلك : ﴿ **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ ..

ولو نظرنا إلى المسألة من زاوية ارتباط مسائل الشفاعة والعدل بالنفس الشافعة التي تقوم بعملية الشفع للنفس طالبة الشفاعة (صاحبة الذنوب) لرأينا عمقاً آخر ..

في الصورة الأولى ﴿ **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ** ﴾ .. يعود الضمير في كلمة ﴿ **مِنْهَا** ﴾ إلى النفس الشافعة ومقدّمة الفدية ، ولا يعود إلى النفس المشفوع لها (صاحبة الذنوب) .. فارتباط النفس الشافعة في مسألتي الشفاعة والعدل هو القبول والأخذ وليس النفع ، فالنفع يعود إلى النفس المشفوع لها (إنْ قُبِلَت هذه الشفاعة) ، ولذلك نرى في هذه الصورة القرآنيّة ورود صيغ عدم القبول وعدم الأخذ ، ونرى أنَّ الشفاعة فيها مُقدَّمة على إعطاء الفدية ، فالمسألةُ تقومُ بها نفسٌ من أجلِ نفسٍ أُخرى ، ولذلك تبدأ الصورة القرآنيّة بالشفاعة أوّلاً ..

بينما في الصورة القرآنيّة ﴿ **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ ، يعود الضمير في كلمتي : [﴿ **مِنْهَا** ﴾ ، ﴿ **تَنفَعُهَا** ﴾] إلى النفس المشفوع لها (صاحبة الذنوب) ، فارتباط مسألتي العدل والشفاعة بالنفس المشفوع لها – إن قُبِلا – هو القبول والنفع ، ونرى أنَّ الفدية – في هذه الصورة القرآنيّة – مُقَدَّمة على الشفاعة ، فالمسألة تقوم بها النفس من أجل ذاتها ، ولذلك تبدأ الصورة القرآنيّة بالفدية أوّلاً ..

❀ ❀ ❀

.. لننظر إلى تقديم كلمة ﴿ رَجُلٌ ﴾ وتأخيرِها عن العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ، في الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠]

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠]

فما الحكمة من هذا التقديم والتأخير ؟ .. للإجابة على ذلك لا بدّ من إدراك الخصوصيّة التي تميّز كلَّ قصّة من القصّتين المحيطتين بهاتين الصورتين القرآنيّتين ..

القصّة الأولى قصّةٌ فرديّةٌ حدثت مع موسى عليه السلام بعد أن وكزَ رجلاً فقضى عليه ، أمَّا القصّة الثانية فهي قصّة رسالة إيمانيّة من الله تعالى لأهل المدينة كافّة .. وورود العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يشيرُ إلى انتشار الأمر في المدينة .. فبالنسبة لقصّةِ موسى عليه السلام فقد وصل الأمر إلى ملأ فرعون ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ .. وبالنسبة للقصّة الثانية فإنَّ الأمر قد انتشر في كلِّ المدينة ، ولذلك خاطبهم الرجل جميعهم بصيغةٍ عامّة ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ..

في القصّة الثانية نرى أنَّ الأمر يهمّ جميع أفراد المدينة ، وهو أهمّ من الموقف الفردي الشخصي للرجل والمرسلين .. هذه الحقيقة يصوّرها لنا القرآن الكريم عبر تقديم العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ على العبارة القرآنيّة ﴿ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ .. بينما لم يتمّ ذلك في القصّة الأولى لأنَّ المسألة فرديّة تهمّ موسى عليه السلام والرجل الذي أخبره أكثر ممّا تهمّ أهل المدينة ... وهكذا نرى أنَّ تقديمَ العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ

﴾ في القصّة الثانية هو لإظهار أهمّيّة الأمر لجميع أفراد المدينة بما فيهم الرجل الذي جاء يسعى .. بينما تأخيرها في القصّة الأولى هو لإظهار أهمّيّة الأمر للرجل ولموسى عليه السلام ..

وورود العبارة القرآنيّة ﴿ **مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ** ﴾ بين كلمة ﴿ **رَجُلٌ** ﴾ وكلمة ﴿ **يَسْعَىٰ** ﴾ في الصورة الأولى : ﴿ **وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ** ﴾ ، هو للدلالة على أنَّ السعي مكاني ، امتدَّ من أقصى المدينة إلى المكان الذي يُوجد فيه موسى عليه السلام ، فالمسألة فرديّة امتدّت من أقصى المدينة ، بمعنى أنَّ هذا الرجل كان موجوداً في أقصى المدينة ، ومن هناك جاء يسعى ليخبر موسى عليه السلام بأنَّ الملأ يأتمرون به ليقتلوه ..

أمّا ورود العبارة القرآنيّة ﴿ **رَجُلٌ يَسْعَىٰ** ﴾ خلف العبارة القرآنيّة ﴿ **مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ** ﴾ في الصورة الثانية : ﴿ **وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ** ﴾ ، فهو للدلالة على السعي الإيماني إضافة لسعيه المكاني ، فهو أثناء سعيه المكاني كان يسعى إيمانيّاً عبر دعوته لاتّباع المُرسَلين الذي أُرسلوا إلى أهل المدينة ، فالمسألة المكانيّة ﴿ **رَجُلٌ يَسْعَىٰ** ﴾ سبقتها مسألة سعيٍ إيمانيٍّ أدّى إلى هذا السعي المكاني ..

وهكذا نرى أنّ تقديمَ الكلمات القرآنيّة وتأخيرَها هو لحكمة مطلقة ، ترتبط بصفات الله تعالى المطلقة ..

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى تقديم المخاطب والغائب وتأخيرهما بالنسبة لمسألة الرزق في الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ **وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ** ﴾ [الأنعام : ١٥١]

﴿ **وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ** ﴾ [الإسراء : ٣١]

في الصورة الأولى نرى أنَّ الإملاق مسألةٌ واقعة ، ويعاني منها الآباء والأبناء ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ ﴾ ، ولذلك نرى أنَّ الله تعالى يُخاطب الآباء مقدِّماً رزقهم على رزق أولادهم ، فهم بحاجة للرزق كأولادهم ﴿ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ ﴾ .. أمَّا في الصورة الثانية فنرى أنَّ الإملاق مسألةٌ لم تقع بعد ، وإنّما يخشى الآباء وقوعها بسبب أولادهم ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ ﴾ ، ولذلك يخاطبهم الله تعالى مقدِّماً رزق أولادهم على رزقهم ﴿ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ ﴾ ، لأنَّ ما يخشونه هو رزق أولادهم في المستقبل قبل رزقهم هم ..

❁ ❁ ❁

لقد وردت العبارة القرآنيّة ﴿ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ في كتاب الله تعالى ثلاث مرّات ، واحدة منها مُؤكَّدة باللام .. ولو نظرنا في هذه الصور القرآنيّة ضمن سياقها المحيط بها ، لرأينا أنَّ إضافةَ حرف اللام التوكيدي هو لحكمة إلهيّة من أجل تمييز الصبر الوارد في الصورة المُؤكَّدة بحرف اللام ..

الصورتان القرآنيّتان غير المؤكَّدتين بحرف اللام نراهما تنقلان لنا صور التقوى والصبر على ابتلاء الله تعالى وعلى المصائب التي تصيب الإنسان ..

﴿ ۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦]

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧]

فالابتلاء والمصائب المُرادة من الله تعالى لامتحان الإنسان ، وكذلك الصبر على تقوى الله تعالى وعبادته ، بحاجة إلى صبر لاجتياز الامتحان ، وهذا الصبر هو من عزم الأمور ..

.. أمّا الصورة المؤكَّدة بحرف اللام ، نراها تنقل لنا صورة الصبر المرتبط بالغفران على ظلم الناس وبغيهم ..

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٠ – ٤٣]

فالصبر على ظلم الناس وبغيهم ، وغفران ذلك لهم ، بحاجة إلى قدْرٍ أكبر من التحمّل والصبر ، وإلى طاقة إيمانيّة أكبر ، وذلك مقارنةً مع الصبر على المصائب الواردة في الصورتين السابقتين غير المؤكّدتين باللام والتي لا يُطلب فيهما الغفران ..

❁ ❁ ❁

ومسألة اللام التوكيديّة هذه ، وعمق التصوير المرتبط بها ، نراه – أيضاً – في اقترانها بإتيان الساعة .. لقد وردت كلمة **﴿ ءَاتِيَةٌ ﴾** في القرآن الكريم أربع مرّات ، أتت فيها مقترنة بكلمة الساعة وبهذه الصياغة حصراً .. وقد أتت مرّتين مؤكّدةً باللام ، ومرّتين غير مؤكّدة بهذه اللام .. ولو نظرنا في الصورتين القرآنيّتين المحيطتين بالعبارة القرآنيّة غير المؤكَّدة باللام **﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾** ، لرأيناهما إخباراً من الله تعالى بإتيان الساعة ، ليعلم البشر ذلك ، فالمُراد هو العلم بإتيان الساعة ..

﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾ [طه : ١٣ – ١٦]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [الحج : ٦ – ٧]

ولو نظرنا في الصورتين القرآنيّتين المحيطتين بالعبارة المؤكَّدة باللام ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ ﴾ لرأيناهما تصوِّران – إضافة إلى الإخبار بإتيان الساعة – طلبَ الصفح الجميل ، والتذكّر بعدم استواء الأعمى والبصير والصالحات والسيئات ، والعلم والعمل بذلك .. فاليقين الكامل بإتيان الساعة ، وما يعنيه من ثواب وعقاب ، هو مقدّمة وحافز للصفح الجميل ولعمل الصالحات وللابتعاد عن السيئات ..

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٨٥ – ٨٦]

﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [غافر : ٥٨ – ٥٩]

إنَّ الإخبار بإتيان الساعة هنا هو مقدّمة مؤكَّدة تقتضي – لمن يؤمن بها – نتيجة مُرادة هي عمل الخير من صفحٍ وابتعادٍ عن السيئات وعن الضلالة .. فاليقين بهذه المقدّمة المؤكَّدة ، يدفع الإنسان إلى النتيجة الخيّرة المُرادة ، لذلك نرى أنَّ العبارة القرآنيّة تأتي مرتبطة باللام المؤكِّدة ..

❁ ❁ ❁

ولنأخذ مثالاً آخر .. ما الحكمة من استبدال الواو فاءً ، بين الصورتين التاليتين ..

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا ﴾ [البقرة : ٣٥]

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا ﴾ [الأعراف : ١٩]

للإجابة على هذا السؤال لا بدَّ من النظر في الصور القرآنيّة المحيطة بهاتين العبارتين ..

الصورة الثانية هي خطابٌ من الله تعالى لآدم عليه السلام من أجل دخول الجنّة ، فآدم أثناء خطابه بهذه الصورة القرآنيّة لم يكن داخلاً الجنّة بعد ..

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٨ – ١٩]

ودليل ذلك أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ معطوفة على العبارة القرآنيّة ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ ﴾ .. فالأمر الإلهيّ بإخراج إبليس مذؤوماً مدحوراً وبدخول آدم وزوجه الجنّة ، هما أمران مرتبطان بكلمة ﴿ قَالَ ﴾ في بداية هذه الصورة القرآنيّة ..

إذاً .. آدم (في هذه الصورة القرآنيّة) لم يدخل الجنّة بعد ، فكلمة ﴿ ٱسْكُنْ ﴾ تدور في إطار معنى الدخول من أجل السكن ، والدخول يسبق الأكل من الجنّة ، فالأكل يكون بعد الانتهاء من الدخول .. ولذلك نرى أنَّ الصورة القرآنيّة هي ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا ﴾ ، فالأكل يكون بعد الفراغ من الدخول ، ولذلك يأتي مقترناً بالفاء كما نرى ﴿ فَكُلَا ﴾ .. ونرى في هذه الصورة أنَّ الأكل هو ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ ، فالجنّةُ لم يدخلها آدمُ وزوجه بعد ..

أمّا الصورة القرآنيّة الأولى فهي خطابٌ من الله تعالى لآدم عليه السلام بعد دخوله الجنّة .. ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .. فكلمة ﴿ ٱسْكُنْ ﴾ هنا تدور دلالاتها في إطار معنى الإقامة ، ولذلك نرى أنَّ مسألة الأكل تُعطف على الإقامة ، وليست متأخّرة عنها كما هو الحال في الصورة السابقة .. ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا ﴾ .. ونرى أيضاً أنَّ الأكل هو ﴿ مِنْهَا ﴾ فآدم وزوجه هما – هنا – في الجنّة ..

❁ ❁ ❁

وهذه الحكمة الكامنة وراء استبدال حرف الفاء بالواو ، حيث يدلُّ حرف الفاء على خطاب الدخول ، ويدلّ حرف الواو على خطاب الإقامة .. هذه الحكمة نراها جليّةً في استبدال الواو فاءً ما بين الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٥٨]

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦١]

.. من الواضح أنَّ الخطاب في الصورة الأولى تمَّ قبل الدخول ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ، ولذلك جاء الأكل متأخّراً عن الدخول ، ولذلك نرى اقتران الأكل بالفاء ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ .. بينما في الصورة الثانية نرى أنَّ الخطاب هو خطاب للإقامة والسكن ﴿ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾

، ولذلك نرى أنَّ الأكل مقترنٌ بالواو ، فالأكل معطوفٌ على الإقامة والسكن وليس متأخّراً عنه ..

ونرى – أيضاً – أنّه في خطاب الدخول [حيث تُصوَّر المسألة من الخارج ، والدخول لم يتمّ بعد] تمّ تقديم دخول الباب سجّداً على قولهم حطّة ، فمن هذا المنظار الخارجي للمسألة يكون دخول الباب سجّداً أقرب إليهم من قولهم حطّة ، فهذا الدخول يتقدّم على قولهم حطّة : ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ ..

بينما في خطاب الإقامة والسكن [حيث تُصوَّر المسألة من الداخل ، وبعد الدخول] تمّ تقديم قولهم حطّة على دخولهم الباب سجّداً ، فمن هذا المنظار الداخلي للمسألة يكون قولهم حطّة أقرب إليهم من دخولهم الباب سجّداً ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ ..

❁ ❁ ❁

ولنأخذ مثالاً آخر .. ما الحكمة من استبدال الفاء بكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ في الصورتين التاليتين ..

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا ﴾ [الكهف : ٥٧]

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ ﴾ [السجدة : ٢٢]

.. في الصورة الأولى نرى أنَّ الإعراض عن آيات الله تعالى يتبع مباشرةً التذكير بها ، فالمُعرِض عن آيات الله تعالى – هنا – لا يفقه حُكمَ هذه الآيات ومُرادها ، ولا يعي نداء الحقّ الذي تحمله هذه الآيات ، وبالتالي لن يهتدي إلى نور هذه الآيات ، وهذا ما يُبيّنه حرف الفاء ، وبقية الآية الكريمة ..

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : ٥٧]

أمَّا الصورة الثانية فنرى فيها الإعراض عن آيات الله تعالى لا يتبع التذكير بها مباشرة ، إنّما هو إعراض عن تريّث وسماع لهذه الآيات ، وهذا ما تبيّنه كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ وبقيّة الآية الكريمة ..

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة : ٢٢]

ولذلك يصفهم الله تعالى بالمجرمين ، لأنّهم يُعرضون عن آيات الله تعالى عن سابق إصرار وعلم بحقيقة ما يُعرضون عنه ..

.. إذاً .. كلُّ صورة من هاتين الصورتين تُصوِّرُ لنا صنفاً من البشر المُعرضين عن آيات الله تعالى ، واستبدال حرف الفاء بكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ بين هاتين الصورتين هو دليل ذلك كما بيّنا ..

وهكذا نرى أنَّ حذف حرف ، أو زيادته ، أو تبديله ، أو حذف كلمة ، أو زيادتها ، أو تبديلها ، ما بين الصور القرآنيّة ، هو لحكمة إلهيّة مُطلقة تتعلّق بصفات الله تعالى المطلقة .. ومردّ ذلك – كما رأينا في الفصل الأوّل – أنَّ القرآن الكريم قول الله تعالى ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

اقتران الكلمات
في الصورة القرآنيّة

رأينا فيما سبق أنَّ الكلمة القرآنيّة تستقي روحَ معناها من جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ، وأنَّ جميع مشتقّات الجذر الواحد يُحيط بها إطارٌ من المعنى نابعٌ من جذرها اللغوي ، ورأينا كيف أنَّنا نستفيد من هذه الحقيقة فندرك دلالات الكلمة ضمن إطار معاني باقي مشتقّاتها التي تشترك معها في جذر لغوي واحد .. ورأينا – أيضاً – كيف أنّه لا بدّ من التمييز بين كون الكلمة اسم ذات أم اسم صفة ، ليتمّ إدراك الحقائق التي تحملها الصور القرآنيّة إدراكاً سليماً .. ورأينا أنَّ كلَّ ما في القرآن الكريم مطلق ، فلا يُوجد حرفٌ يزيد أو ينقص عن المعنى المطلق الذي يريده الله تعالى ، وأنَّ ترتيب كلمات القرآن الكريم وحروفه هو ترتيبٌ مطلق يتعلّق بصفات الله تعالى المطلقة ..

سنبحث الآن مسألة اقتران الكلمات في الصور القرآنيّة ، وعلاقة ذلك باقتران الحقائق التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمات ، لنرى كيف أنّ هذا الاقتران هو انعكاس مطلق لاقتران المسائل المسمّاة والموصوفة بهذه الكلمات .. فالقرآن الكريم وصفٌ مطلق لحقائق الأمور والأشياء يتعلّق بصفات الله تعالى المطلقة ، وهو تصويرٌ مطلق لارتباط هذه المسائل مع بعضها بعضاً ..

ولنختر بعض الأمثلة القرآنيّة التي تُثبت ذلك .. وهذه الأمثلة ليست من باب الحصر ، إنّما من باب البرهنة على هذه الحقيقة القرآنيّة ..

رأينا في النظريّة الثانية (القدر) كيف أنَّ كلمة ﴿ **مُّصِيبَةٌ** ﴾ ترد في القرآن الكريم (١٠) مرّات تأتي فيها جميعها مقترنة بكلمة أصاب أو إحدى مشتقّاتها [﴿ **أَصَٰبَتۡهُم** ﴾

، ﴿ أَصَـٰبَتۡكُم ﴾ ، ﴿ تُصِبۡكَ ﴾ ، ﴿ تُصِيبَهُم ﴾ ، ﴿ أَصَـٰبَكُمۡ ﴾ ، ﴿ أَصَاب ﴾] ، وقد رأينا أنَّ هذا الاقتران هو انعكاس لحقيقة المصيبة التي تصيب الإنسان خارج إطار اختياره المباشر ، فهذا الاقتران هو نتيجة اقتران المصيبة – كما يصوّرها لنا القرآن الكريم – بالقضاء الكوني الجبري الذي يصيب الإنسان خارج إطار علمه واختياره .. فهذا الاقتران بين كلمة ﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾ ومشتقّات كلمة ﴿ أَصَاب ﴾ ليس مصادفةً وليس عبثاً ، إنّما هو تصوير مطلق لحقيقة المصيبة التي تصيب الإنسان ..

وبيّنا أنَّ ما يعنيه قول الله تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٢ – ٢٣] ، هو المصائب التي تصيب الإنسان دون اختيار ودون علم .. وكان دليلنا في ذلك هو اقتران كلمة ﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾ في القرآن الكريم (في جميع مرّات ورودها) بكلمة ﴿ أَصَاب ﴾ ومشتقّاها ..

❁ ❁ ❁

ورأينا – أيضاً – في النظريّة الثانية (القدر) كيف أنّه في الحياة الدنيا يقترن اللعب باللهو ، فلا ينفكّ أحدهما عن الآخر ، وكيف أنَّ القرآن الكريم يصوّر هذه الحقيقة عبر اقتران اللعب باللهو مع بعضهما حينما يقترنان بالحياة الدنيا ..

﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ ﴾ [الأنعام : ٣٢]

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٤]

﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ ﴾ [محمد : ٣٦]

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ ﴾ [الحديد : ٢٠]

فاللعب في هذه الدنيا هو الحركة والسعي دون هدفٍ نبيل ، وهذا يؤدّي إلى اللهو ، واللهو هو السعي والحركة بهدف المتعة بعيداً عن الأهداف النبيلة ..

❁ ❁ ❁

ورأينا أيضاً في النظريّة الثانية (القدر) أنَّ كلمة ﴿ ٱلْقَيِّمُ ﴾ ترد في القرآن الكريم (٤) مرّات تأتي فيها جميعها مرتبطة بكلمة ﴿ ٱلدِّينُ ﴾ ، وهذا الاقتران هو تصوير مطلق لحقيقة دين الله تعالى الذي يأمرنا باتّباعه ، فلا قيّم في عمل الإنسان إلاّ التزامه بهذا الدين ..

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦]

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠]

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم : ٤٣]

❁ ❁ ❁

ورأينا أيضاً في النظريّة الثانية (القدر) أنَّ اسم الصفة ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ لله تعالى يقتضي ألاّ يغيب الله تعالى بعلمه وقدرته وحكمته وجزائه ووجوده عن كلِّ ما يجري في هذا الكون .. وهذه القيّوميّة تقتضي صفة الحياة الدائمة غير المخلوقة ، وهذا ما يُعبّر عنه اسم الصفة ﴿ ٱلْحَيُّ ﴾ للذات الإلهيّة .. فصفة ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ تقتضي صفة ﴿ ٱلْحَيُّ ﴾ ..

هذا الاقتران الذي يربط صفة القيّوميّة بصفة الحياة يصوّره الله تعالى في القرآن الكريم تصويراً مطلقاً عبر اقتران كلمة ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ بكلمة ﴿ ٱلْحَيُّ ﴾ .. ففي القرآن الكريم ترد كلمة ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (٣) مرّات تأتي فيها مقترنة بكلمة ﴿ ٱلْحَيُّ ﴾ ..

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ٢]

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾ [طه : ١١١]

❁ ❁ ❁

ترد كلمة ﴿ ٱلۡإِنسَٰن ﴾ في القرآن الكريم (٦٥) مرّة ، تصف فيها أحواله ، وحقيقة خلقه ، وحقيقة عمله وكسبه ، وعقيدته الإيمانيّة والتزامه بمنهج الله تعالى .. وفي جميع الصور القرآنيّة التي تأتي فيها كلمة ﴿ ٱلۡإِنسَٰن ﴾ لتصف عقيدته والتزامه بمنهج الله تعالى ، لا تُوجد صورة تبيّن اقتران ﴿ ٱلۡإِنسَٰن ﴾ – حينما يكون مجرّداً عن منهج الله تعالى – بالخير ، وما نراه في هذه الصور القرآنيّة هو نقيض ذلك تماماً ..

فكلمة ﴿ ٱلۡإِنسَٰن ﴾ في القرآن الكريم التي تأتي وصفاً مجرّداً عن منهج الله تعالى ، تأتي في صور يقترن فيها الإنسان بالظلم والكفر ..

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم : ٣٤]

﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧]

ولا يُستثنى من هذه الصور القرآنيّة التي تصف الإنسان بالكفر والظلم والخسران إلاّ من يلتزم بمنهج الله تعالى الذي يحمله إلى نقيض ذلك ، ليضعه في ساحة الإيمان والعدل والخير ..

﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾ [التين : ٤ – ٦]

فارتباط الكلمة القرآنيّة بغيرها من الكلمات في الصورة القرآنيّة هو تصويرٌ مطلق لحقيقة المسائل التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمات ، وهو انعكاسٌ مطلق لحقيقة ارتباطها مع بعضها بعضاً ..

❁ ❁ ❁

الإيمان باليوم الآخِر لا يكون إلاّ بعد الإيمان بالله تعالى ، فلا يكون هناك إيمانٌ باليوم الآخر دون أن يكون مسبوقاً بالإيمان بالله تعالى .. هذه الحقيقة نراها في كتاب الله تعالى عبر ورود العبارة [﴿ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ ، ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ﴾] حينما تتعلّق بمسألة الإيمان ، مسبوقةً بالإيمان بالله تعالى ..

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [البقرة : ٨]

﴿ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [البقرة : ٦٢]

﴿ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ ﴾ [البقرة : ١٢٦]

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [البقرة : ١٧٧]

﴿ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [البقرة : ٢٢٨]

﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ﴾ [البقرة : ٢٣٢]

﴿ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ ﴾ [البقرة : ٢٦٤]

﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [آل عمران : ١١٤]

﴿ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ﴾ [النساء : ٣٨]

﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [النساء : ٣٩]

﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [النساء : ٥٩]

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [النساء : ١٦٢]

﴿ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [المائدة : ٦٩]

﴿ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨]

﴿ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ [التوبة : ١٩]

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ [التوبة : ٢٩]

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ [التوبة : ٤٤]

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ [التوبة : ٤٥]

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ [التوبة : ٩٩]

﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ ﴾ [النور : ٢]

﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۚ ﴾ [الطلاق : ٢]

.. وحتى حينما تتعلّق بالكفر باليوم الآخر ، نراها مسبوقة بعبارة تصوّر الكفر بالله تعالى ..

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ [النساء : ١٣٦]

وحتى حينما تتعلّق هذه العبارة ﴿ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ﴾ برجاء اليوم الآخر ، فإنّها ترد مسبوقة إمّا بعبادة الله تعالى وإمّا برجائه ..

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ﴾ [العنكبوت : ٣٦]

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١]

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ۚ ﴾ [الممتحنة : ٦]

وكلُّ ذلك يتعلّق بكون القرآن الكريم قولَ الله تعالى المطلق الذي يصوّر الحقائق تصويراً مطلقاً ، فلا إيمان باليوم الآخر قبل الإيمان بالله تعالى ، ولا رجاء لليوم الآخر قبل عبادة الله تعالى ورجائه ..

❁ ❁ ❁

في القرآن الكريم نرى أنَّ جميع مشتقّات كلمة بدا : [﴿ بَدَا ﴾ ، ﴿ بَدَتْ ﴾ ، ﴿ تُبْدُواْ ﴾ ، ﴿ تُبْدُونَ ﴾ ، ﴿ تُبْدُونَهَا ﴾ ، ﴿ تُبْدُوهُ ﴾ ، ﴿ يُبْدِهَا ﴾ ، ﴿ يُبْدُونَ ﴾ ، ﴿ لِيُبْدِيَ ﴾ ، ﴿ يُبْدِينَ ﴾ ، ﴿ تُبْدَ ﴾] مرتبطة بالإنسان ، ولم تأت ولا مرّة مرتبطةً بالله تعالى .. وهذا تصويرٌ مُطلقٌ لحقيقة علم الله تعالى الذي هو فوق البداء ..

فالله تعالى يعلم الأمور والأشياء علماً مطلقاً ، قبل ظهورها ، وأثناء ذلك ، وبعده ، ولا يُوجَد أمرٌ أو شيءٌ يبدو لعلم الله تعالى لم يكن الله تعالى عالماً به ، فالبداء مسألةٌ ترتبط بالإنسان المحكوم لقوانين المكان والزمان .. وهكذا نرى كيف أنَّ اقتران الكلمات القرآنيّة مع بعضها ، هو انعكاسٌ مطلق لارتباط المسائل التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمات مع بعضها بعضاً ..

❁ ❁ ❁

إنَّ التدبّر مسألةٌ ترتبط بالعقل المتعلّق بالنفس المجرّدة التي تنتمي لعالم ما فوق المكان والزمان (العالم المخلوق غير المحسوس) ، وهذا التدبّر هو – في حقيقته – تتبّع مسائل مجرّدة غير محسوسة ، أي هو تتبّع مسائل الأمر حصراً دون المسائل الخاضعة لإدراكنا الحسّي ، فالتدبّر لا يكون إلاَّ لمسائل الأمر .. هذه الحقيقة يصوِّرها القرآن الكريم تصويراً مطلقاً عبر اقتران صيغ التدبّر [﴿ يَتَدَبَّرُون ﴾ ، ﴿ يُدَبِّرُ ﴾ ، ﴿ يَدَّبَّرُوا ﴾ ، ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰت ﴾] بمسائل عالم الأمر [﴿ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ، ﴿ ٱلْأَمْرَ ﴾ ، ﴿ ٱلْقَوْل ﴾] :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ ﴾ [النساء : ٨٢]

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ ﴾ [يونس : ٣]

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١]

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢]

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨]

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [السجدة : ٥]

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص : ٢٩]

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤]

﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات : ٣ – ٥]

❁ ❁ ❁

إنَّ الفوزَ الحقيقيّ من منظار الحياة الحقيقيّة التي تشمل الآخرة (دار الخلود) هو طاعة الله تعالى ، عبر الابتعاد عن السيئات والمعاصي ، ونول رضوانه وفضله ، وبالتالي فالفوز في حقيقته هو عدم دخول الإنسان نار جهنّم ، وصرف عذابها عنه ، ودخوله الجنّة حيث يخلد فيها .. هذه هي حقيقة الفوز الذي يحصل عليه الإنسان نتيجة اختباره في هذه الدنيا ، وما عدا ذلك ممّا يكسبه الإنسان من متاعٍ دنيويٍّ هو زائل ، ولا يُعَدُّ فوزاً ..

هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم عبر ارتباط جميع مشتقّات الجذر (ف ، و ، ز) بطاعة الله تعالى ونوله رضوانه الله تعالى وفضله ، وبالابتعاد عن السيئات والمعاصي ، وبالتالي بصرف جهنّم عنه ودخوله الجنّة .. فهذا الاقتران يعكس بشكلٍ مطلقٍ اقتران الفوز بعدم دخول النار ، وبدخوله الجنّة ..

❁ ❁ ❁

الأساطير كما يصفها القرآن الكريم ، مسألة تتعلّق بالأوّلين ، فلا أساطير إلاّ عبر الأوّلين .. هذه الحقيقة يصوّرها كتاب الله تعالى عبر اقتران كلمة ﴿ أَسَٰطِيرُ ﴾ مع كلمة

﴿ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .. فقد وردت كلمة ﴿ أَسَٰطِيرُ ﴾ (٩) مرّات في كتاب الله تعالى ، أتت في جميعها مقترنة بكلمة ﴿ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ..

﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٥]

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣١]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل : ٢٤]

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٨٣]

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ [الفرقان : ٥]

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النمل : ٦٨]

﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٧]

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القلم : ١٥]

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المطففين : ١٣]

❁ ❁ ❁

مسألتا الغدو والآصال هما مسألتان متناظرتان تماماً ، ولذلك نرى أنَّ كلمتي الغدو والآصال المعرّفتين تردان في القرآن الكريم بشكلٍ متناظرٍ تماماً ، فكلٌّ منهما ترد (٣) مرّات .. وَذِكْرُ الله تعالى والسجود له وتسبيحه مسألةٌ ترتبط بهاتين المسألتين معاً ، وارتباطها بإحداهما يقتضي ارتباطها بالأخرى ، فعندما ترتبط بالغدو ترتبط بالآصال ، وعندما ترتبط بالآصال ترتبط بالغدو ..

هذه الحقيقة نراها مصوَّرةً تصويراً مطلقاً في كتاب الله تعالى عبر اقتران كلمتي الغدو والآصال المعرّفتين ، واقترانهما بذكر الله تعالى وسجود المخلوقات وتسبيحها له ..

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥]

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴾ [الرعد : ١٥]

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور : ٣٦ – ٣٧]

❁ ❁ ❁

المأوى الذي يصفه الله تعالى بقوله المطلق هو المآل الذي لا مآل بعده والذي لا يتغيّر ولا يتبدّل ، وبالتالي لابدّ أن يكون – بالنسبة للإنسان – إمّا في الجنّة وإمّا في الجحيم .. هذه الحقيقة نراها عبر اقتران كلمة ﴿ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ في جميع مرّات ورودها في القرآن الكريم بالكلمات [﴿ جَنَّٰت ﴾ ، ﴿ جَنَّة ﴾ ، ﴿ ٱلْجَحِيم ﴾ ، ﴿ ٱلْجَنَّة ﴾] ..

﴿ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٩]

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٥]

﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٣٩]

﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤١]

ولو أخذنا الكلمات : [﴿ مَأْوَىٰكُمُ ﴾ ، ﴿ وَمَأْوَىٰهُ ﴾ ، ﴿ مَأْوَىٰهُمْ ﴾] ، لرأينا أنّها ترد في جميع مرّات ورودها في القرآن الكريم متعلّقةً مقترنة إمّا بكلمة : ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ ،

وإمّا بكلمة : ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ .. وبإمكان القارئ أن يعود إلى كتاب الله تعالى ليتأكّد من هذه الحقيقة القرآنيّة ..

❁ ❁ ❁

الألم مسألةٌ ترتبط بالعذاب ، وكلمة ﴿ ٱلْأَلِيمَ ﴾ هي صفة للعذاب الشديد ، فلا أليم إلاّ العذاب الشديد .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم تصويراً مطلقاً عبر اقتران كلمتي [﴿ أَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ أَلِيمًا ﴾] بكلمة ﴿ ٱلْعَذَابُ ﴾ .. لقد وردت الكلمتان (٧٢) مرّة ، جاءتا في جميعها صفة للعذاب ، ما عدا صورتين قرآنيّتين تأتي فيهما كلمة ﴿ أَلِيمٍ ﴾ مقترنة بيوم العذاب ..

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود : ٢٦]

﴿ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٦٥]

وما عدا صورتين أتت فيهما كلمة ﴿ أَلِيمٍ ﴾ مقترنة بأخذ الله تعالى للقرى الظالمة ، ولعقاب الله تعالى ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [فصّلت : ٤٣]

وفي هذه الصور الأربع نرى أنَّ المسائل المقترنة بكلمة ﴿ أَلِيمٍ ﴾ لا تخرج عن إطار مسألة العذاب ... وهكذا نرى أنَّ ارتباط صفة الأليم بالعذاب يصوّرها القرآن الكريم عبر اقتران كلمتي [﴿ أَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ أَلِيمًا ﴾] بكلمة ﴿ ٱلْعَذَابُ ﴾ وما ينوب عنها ..

فاقتران الكلمات القرآنيّة هو تصويرٌ مطلق لاقتران المسائل التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمات ..

❁ ❁ ❁

الآلاء لا تكون إلاّ لله تعالى ، فهي من عطاء الله تعالى ، عطاء ألوهيّة وعطاء ربوبيّة ، ولا ترتبط الآلاء بغير الله تعالى .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم تصويراً مطلقاً عبر اقتران كلمة ﴿ **ءَالَآء** ﴾ بالكلمات [﴿ **ٱلله** ﴾ ، ﴿ **رَبِّك** ﴾ ، ﴿ **رَبِّكُمَا** ﴾] .. لقد وردت كلمة ﴿ **ءَالَآء** ﴾ في القرآن الكريم (٣٤) مرّة ، أتت فيها مرّتين مضافة لله تعالى : ﴿ **فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ** ﴾ [الأعراف : ٦٩] ،،، ﴿ **فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ** ﴾ [الأعراف : ٧٤] ... وأتت فيها مرّة واحدة مضافة لكلمة ربّك : ﴿ **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ** ﴾ [النجم : ٥٥] ... وأتت فيها (٣١) مرّة في سورة الرحمن مضافة لكلمة ربّكما : ﴿ **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [الرحمن : ١٣] ..

❁ ❁ ❁

كلمة ﴿ **تَبَارَك** ﴾ ترد في القرآن الكريم (٩) مرّات ، تأتي فيها متعلّقةً بالله تعالى ..

﴿ **أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ [الأعراف : ٥٤]

﴿ **فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ** ﴾ [المؤمنون : ١٤]

﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ** ﴾ [الفرقان : ١]

﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورٗا** ﴾ [الفرقان : ١٠]

﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا** ﴾ [الفرقان : ٦١]

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٤]

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الزخرف : ٨٥]

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨]

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : ١]

❁ ❁ ❁

الدلالات التي تحملها كلمة ﴿ مُّسَمًّى ﴾ في كتاب الله تعالى لا تكون إلاّ للأجل .. ولذلك نرى أنَّ كلمة ﴿ مُّسَمًّى ﴾ ترد في كتاب الله تعالى (٢١) مرّة ، تأتي في جميعها مقترنةً بكلمة ﴿ أَجَلٌ ﴾ ..

﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]

﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ﴾ [الأنعام : ٢]

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ﴾ [الأنعام : ٦٠]

﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود : ٣]

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الرعد : ٢]

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [إبراهيم : ١٠]

﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ﴾ [النحل : ٦١]

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه : ١٢٩]

﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج : ٥]

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٣٣]

﴿ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ [العنكبوت : ٥٣]

﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ [الروم : ٨]

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ [لقمان : ٢٩]

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ [فاطر : ١٣]

﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ ﴾ [فاطر : ٤٥]

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ ﴾ [الزمر : ٥]

﴿ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ﴾ [الزمر : ٤٢]

﴿ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [غافر : ٦٧]

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ [الشورى : ١٤]

﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ [الأحقاف : ٣]

﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ﴾ [نوح : ٤]

❁ ❁ ❁

الإخلاص الحقّ الذي يصفه الله تعالى في كتابه الكريم هو لله تعالى ، ولذلك نرى أنَّ كلمة ﴿ مُخۡلِصٗا ﴾ ترد في القرآن الكريم (٣) مرّات ، ترد فيها ضمن سياقٍ يصف إخلاص الدين لله تعالى ..

﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر : ٢]

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر : ١١]

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر : ١٤]

وترد كلمة ﴿ مُخۡلِصُونَ ﴾ مرّة واحدة ، نراها أيضاً ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يصف الإخلاص لله تعالى ..

﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٩]

وترد كلمة ﴿ مُخۡلِصِينَ ﴾ في القرآن الكريم (٧) مرّات ، ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يصف إخلاص الدين لله تعالى ..

﴿ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩]

﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [يونس : ٢٢]

﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥]

﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان : ٣٢]

﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ١٤]

﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ﴾ [غافر : ٦٥]

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البيّنة : ٥]

وترد كلمة ﴿ مُخۡلَصٗا ﴾ مرّة واحدة لتصف موسى عليه السلام كونه مُخلَصاً لله تعالى ..

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم : ٥١]

وترد كلمة ﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ في كتاب الله تعالى (٨) مرّات ، تكون فيها جميعها مقترنةً بصفة العبوديّة لله تعالى ..

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤]

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٤٠]

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ٤٠]

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ٧٤]

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٨]

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ١٦٠]

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ١٦٩]

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٣]

كلٌّ ذلك يتبع التصوير المطلق للقرآن الكريم والذي يتعلّق بصفات الله تعالى المطلقة ..

❁ ❁ ❁

الرضوان الحق الذي يصفه القرآن الكريم لا يكون إلاّ من الله سبحانه وتعالى .. هذه الحقيقة نراها عبر اقتران كلمة ﴿ رِضْوَٰن ﴾ بالله تعالى ، في جميع مرات ورودها في القرآن الكريم ..

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥]

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٢]

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٤]

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [التوبة : ٢١]

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢]

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ [التوبة : ١٠٩]

﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ ﴾ [الحديد : ٢٠]

﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد : ٢٧]

وكلمة ﴿ وَرِضْوَٰنًا ۚ ﴾ ، وكذلك كلمة ﴿ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ ، نراهما تردان في كتاب الله تعالى دائماً متعلّقتين بالله تعالى ..

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ ﴾ [المائدة : ٢]

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة : ١٦]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ [محمد : ٢٨]

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴾ [الفتح : ٢٩]

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الحشر : ٨]

❁ ❁ ❁

للجذر (ع ، ت ، ق) في القرآن الكريم مشتقٌّ وحيد هو كلمة ﴿ ٱلْعَتِيقِ ﴾ التي ترد مرّتين في كتاب الله تعالى ، وهذه الكلمة تعني العتق ، بمعنى الأمان .. وهذه الصفة لا تكون – في الدنيا – إلاَّ لبيت الله الحرام ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾ [آل عمران : ٩٦ – ٩٧] ... هذه الحقيقة نراها في اقتران كلمة ﴿ ٱلْعَتِيقِ ﴾ بكلمة ﴿ ٱلْبَيْت ﴾ في المرّتين اللتين ترد بهما في كتاب الله تعالى ..

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٩]

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٣٣]

❁ ❁ ❁

البخل مسألة لا يريدها الله تعالى ، فهي ليست خيراً للإنسان ، وبالتالي هي شرّ له ..

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٠]

فالبخل مسألة ترتبط بأمر الناس ولا ترتبط بأمر الله تعالى .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم عبر اقتران كلمة ﴿ بِٱلْبُخْلِ ﴾ بأمر الناس .. لقد وردت كلمة ﴿ بِٱلْبُخْلِ ﴾ في القرآن الكريم مرّتين أتت فيهما مقترنة بأمر الناس ..

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء : ٣٧]

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحديد : ٢٤]

❁ ❁ ❁

الصفة ﴿ مَّجْنُونٍ ﴾ كما يصوِّرها القرآن الكريم ، لا تعني أبداً انتساب إنسانٍ ما إلى عالم الجن ، ولا عيشه في عالم الجن .. هذه الحقيقة نراها في كتاب الله تعالى عبر ورود كلمة ﴿ مَّجْنُونٍ ﴾ في القرآن الكريم دون أن تكون وصفاً من الله تعالى لأيٍّ من البشر ، فقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم (١١) مرّة ، جاءت فيها إمّا ضمن سياقٍ

قرآنيٍّ يصوِّرُ اتّهام الكافرين لرسل الله تعالى بهذه الصفة ﴿ مَّجْنُونٍ ﴾ ، وإمّا ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يصور نفي الله تعالى لهذه الصفة عن رسله ..

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦]

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : ٢٧]

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات : ٣٦]

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان : ١٤]

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٣٩]

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢]

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور : ٢٩]

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [القمر : ٩]

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : ٢]

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم : ٥١]

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : ٢٢]

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى اقتران كلمة ﴿ فَاطِرُ ﴾ في جميع مرّات ورودها في القرآن الكريم ، بالعبارة القرآنيّة ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وكيف أنَّ هذا الاقتران هو تصويرٌ مطلق للحقيقة الكونيّة الموصوفة بهذه العبارات القرآنيّة ..

﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأنعام : ١٤]

﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ [يوسف : ١٠١]

﴿ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [إبراهيم : ١٠]

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [فاطر : ١]

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الزمر : ٤٦]

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الشورى : ١١]

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى اقتران كلمة ﴿ عَدۡنٖۚ ﴾ في جميع مرّات ورودها في القرآن الكريم **[** وهي المشتقّ الوحيد للجذر (ع ، د ، ن) في القرآن الكريم **]** ، بالكلمة ﴿ **جَنَّٰت** ﴾ .. فهذا الاقتران هو تصويرٌ مطلق للحقائق المتعلّقة بهذه العبارات القرآنيّة ..

﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ﴾ [التوبة : ٧٢]

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ [الرعد : ٢٣]

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ [النحل : ٣١]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [الكهف : ٣١]

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾ [مريم : ٦١]

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [طه : ٧٦]

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ [فاطر : ٣٣]

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ [ص : ٥٠]

﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ ﴾ [غافر: ٨]

﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الصف : ١٢]

﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ ﴾ [البيّنة : ٨]

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى اقتران كلمة [﴿ كَرۡب ﴾ ، ﴿ ٱلۡكَرۡب ﴾] في جميع مرّات ورودها في القرآن الكريم [وهي المشتقّ الوحيد للجذر (ك ، ر ، ب) في القرآن الكريم] ، بمسألة النجاة [﴿ يُنَجِّيكُم ﴾ ، ﴿ فَنَجَّيۡنَٰه ﴾ ، ﴿ وَنَجَّيۡنَٰه ﴾ ، ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا ﴾] .. فهذا الاقتران هو تصويرٌ مطلق للحقائق المتعلّقة بهذه العبارات القرآنيّة ..

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٤]

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء : ٧٦]

﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الصافات : ٧٦]

﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الصافات : ١١٥]

❁ ❁ ❁

عندما تقع البغضاء بين طرفين فإنَّ ذلك يؤدّي إلى العداوة بين هذين الطرفين ، ومن جهةٍ ثانية عندما تقع العداوة بينهما لا بدَّ أن تُؤدِّي إلى البغضاء .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم عبر اقتران الكلمتين [﴿ ٱلۡعَدَاوَة ﴾ ، ﴿ ٱلۡبَغۡضَآءُ ﴾] مع بعضهما ، وهما مسبوقتان بإحدى الكلمات [﴿ بَيۡنَهُم ﴾ ، ﴿ بَيۡنَكُم ﴾ ، ﴿ بَيۡنَنَا ﴾] ..

لقد وردت كلمة ﴿ ٱلۡبَغۡضَآءُ ﴾ في القرآن الكريم (٥) مرّات ، منها واحدة فقط تصوّر البغضاء من طرفٍ واحد ، أي غير مقترنة بإحدى الكلمات [﴿ بَيۡنَهُم ﴾ ، ﴿ بَيۡنَكُم ﴾ ، ﴿ بَيۡنَنَا ﴾] .. ولذلك لا نراها تقترن بالعداوة .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِى صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأَيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٨]

أمّا الصور الأربع المحيطة بكلمة ﴿ ٱلۡبَغۡضَآءُ ﴾ ، نراها تقترن بإحدى الكلمات [﴿ بَيۡنَهُم ﴾ ، ﴿ بَيۡنَكُم ﴾ ، ﴿ بَيۡنَنَا ﴾] ، وبالتالي تقترن بكلمة ﴿ ٱلۡعَدَاوَة ﴾ ، وهي الصور ذاتها التي ترد فيها كلمة ﴿ ٱلۡعَدَاوَة ﴾ المعرّفة ..

﴿ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ [المائدة : ١٤]

﴿ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ [المائدة : ٦٤]

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ ﴾ [المائدة : ٩١]

﴿ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا ﴾ [الممتحنة : ٤]

❁ ❁ ❁

نحن نعلم أنَّ الحريق يؤدّي إلى العذاب ، فلا حريق دون عذاب ، فالحريق يقترن بالعذاب ويقتضيه .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم عبر اقتران كلمة ﴿ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ بكلمة ﴿ عَذَاب ﴾ .. لقد وردت كلمة ﴿ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ في القرآن الكريم (٥) مرّات ، أتت فيها مضافة للعذاب ومقترنة به ..

﴿ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [آل عمران : ١٨١]

﴿ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠]

﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنۡيَا خِزۡىٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج : ٩]

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج : ٢٢]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠]

❁ ❁ ❁

القرآن الكريم نزّله الله تعالى تبياناً لكلِّ شيء : ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النحل : ٨٩] ، فالمنهج كلُّ المنهج محتوى في أعماق النصّ القرآني ، بعمقيه الظاهر والباطن ، فلا منهج خارج النصّ القرآني ، والسنّة الشريفة لا تضيف أحكاماً إلى النصّ القرآني ، إنّما تُفسِّر كليّات النصّ القرآني .. هذه الحقيقة نستطيع رؤيتها في كتاب الله تعالى من عدة مناظير وبالكثير من النصوص القرآنيّة ..

من هذه المناظير ومن هذه النصوص ، هو اقتران كلمة ﴿ قُلِ ﴾ خلف النصوص القرآنيّة الحاملة لكلمة ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ ﴾ ، أو لكلمة ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ ﴾ أو للعبارة القرآنيّة ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ ﴾ ، وذلك تأكيدٌ على أنَّه حتى في طلب الفتوى المُوجّهة لشخص النبيِّ ﷺ من قبل الناس ، وحتى في الأسئلة الموجّهة لشخص النبي ﷺ ، حتى في ذلك ، يأخذُ ﷺ الإجابةَ من النصِّ القرآني ..

ففي طلب الفتوى المُوجّهة لشخص النبيِّ ﷺ من قبل الناس ، حتى في ذلك ، يأخذُ ﷺ الإجابةَ من النصِّ القرآني .. فكلمة : ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ ﴾ ترد مرّتين في كتاب الله تعالى ، في قوله تعالى : ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ .... ﴾ [النساء : ١٢٧] ، وفي قوله تعالى : ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ .... ﴾ [النساء : ١٧٦] .. وفي هذين

النصّين نرى أنَّ مرجعيّة الفتوى هي النصّ القرآني حتى لفتوى النبيّ ﷺ في تفاعله مع الناس ..... فخلف العبارتين : [[﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، ﴿ يَسْتَفْتُونَك ﴾]] ، نرى العبارة القرآنيّة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ ..... فهذه العبارة : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ في سياقها القرآني التالي لاستفتاء الناس وطلبهم الفتوى من النبيّ ﷺ ، تؤكّدُ أنَّ النصَّ القرآنيَّ هو المرجعيّة الوحيدة للإفتاء ، حتى وإن كان المُفتي هو النبيُّ ﷺ .. وكلُّ ذلك يتعلّق بحكمة الله تعالى في تدرّج رسالاته السماويّة وصولاً إلى منهجٍ فوق التاريخ ومعجزةٍ فوق التاريخ ، ليكون المنهجُ وتكونَ المعجزةُ صالحين لكلِّ زمانٍ ومكان ..

وفي كتاب الله تعالى نرى أنّه في إجابة النبيِّ ﷺ على الأسئلة المطروحة عليه ، لا يخرج عن النصِّ القرآني .. فكلمة : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ في كتاب الله تعالى ، وكذلك العبارة : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ ﴾ ، نرى خلفهما عبارات قرآنيّة لا تُعطي النبيّ ﷺ صلاحيةَ الإجابة خارج النصّ القرآني .. فكلمة ﴿ قُل ﴾ خلف كلمة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ ، وخلف العبارة ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ ﴾ ، تؤكّدُ أنّه ﷺ في إجابته على أسئلة الناس التي تُطرح عليه ، لا يتجاوز النصّ القرآني ..

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٦٣]

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [البقرة : ١٨٩]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾ [البقرة : ٢١٥]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ ﴾ [البقرة : ٢١٧]

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ ﴾ [البقرة : ٢١٩]

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ ﴾ [البقرة : ٢٢٠]

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة : ٢٢٢]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ [المائدة : ٤]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ ﴾ [الأنفال : ١]

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : ٨٥]

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٣]

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه : ١٠٥]

أمّا إن كان الأمر يتعلّق بالذات الإلهيّة والتقرّب إلى الله تعالى والدعاء ، فإنّنا نرى أنّ الإجابة لم تقترن بكلمة ﴿ قُل ﴾ ، فلا واسطة بين الله تعالى وبين العبد حينما يريد العبد عبادة الله تعالى والتقرّب إليه .. وكلّ ذلك يتعلّق بحقيقة الدين الإسلامي الذي أتى لإخلاص العبادة لله تعالى وحده ، ولتنزيه الذات الإلهيّة عن أيِّ شرك .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم عبر عدم اقتران إجابة الله تعالى بكلمة ﴿ قُل ﴾ حين السؤال عن الله تعالى ..

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦]

وهكذا نرى أنَّ اقتران الكلمات القرآنيّة مع بعضها هو لحكمة إلهيّة تتعلّق بالتصوير القرآني المطلق الذي يصوّر الأمور والأشياء تصويراً مطلقاً يتعلّق بعلم الله تعالى المطلق وبقدرته المطلقة على الصياغة ..

❁ ❁ ❁

صفة الرجيم تعني الطرد النهائي من رحمة الله تعالى ، وهذه الصفة لا ترتبط إلاَّ بالشيطان المطرود طرداً نهائيّاً من رحمة الله تعالى ، فالشيطان هو المخلوق الوحيد الذي تمثّل هذه الصفة مائة بالمائة .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم تصويراً مطلقاً عبر اقتران كلمة ﴿ ٱلرَّجِيمِ ﴾ بكلمة ﴿ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ، فقد وردت كلمة ﴿ ٱلرَّجِيمِ ﴾ في القرآن الكريم (٦) مرّات أتت في جميعها مقترنةً بكلمة ﴿ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ..

﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران : ٣٦]

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : ١٧]

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر : ٣٤]

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل : ٩٨]

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [ص : ٧٧]

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير : ٢٥]

❁ ❁ ❁

الرعب مسألةٌ معنويّة ساحة فعلها القلوب .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم تصويراً مطلقاً عبر اقتران الرعب بالقلوب .. لقد وردت كلمة : ﴿ ٱلرُّعْبَ ﴾ في القرآن

الكريم (٤) مرّات ، أتت فيها مقترنةً بإحدى الكلمتين : [﴿ قُلُوب ﴾ ، ﴿ قُلُوبِهِم ﴾] ..

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ [آل عمران : ١٥٥]

﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال : ١٢]

﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأحزاب : ٢٦]

﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الحشر : ٢]

❁ ❁ ❁

الابتعاد عن منهج الله تعالى وبالتالي عن الحق مرجعه وسوسة الشيطان وهوى النفس .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم تصويراً مطلقاً عبر اقتران مسألتي التسويل والوسوسة – كمسألتين معنويّتين غير ماديّتين – بالشيطان وبالنفس البشريّة ، فكلاهما (الشيطان والنفس البشريّة) لا ينتميان إلى عالم المادّة الكثيف الذي تنتمي إليه أجسادُنا .. وها هي جميع مشتقّات هاتين المسألتين في القرآن الكريم ..

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأعراف : ٢٠]

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف : ١٨]

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف : ٨٣]

﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ [طـه : ٩٦]

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [طـه : ١٢٠]

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٥]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق : ١٦]

﴿ .... مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤ – ٦]

❁ ❁ ❁

الميمنة والمشأمة مرتبتان من مراتب البشر يوم القيامة ، وقد رأينا في النظريّة الأولى (المعجزة) التناظر التام بينهما عبر تساوي عدد مرّات ورود كلٍّ منهما في القرآن الكريم ، فكلٌّ منهما ترد (٣) مرّات .. ولكلٍّ منهما أصحاب تنطبق عليهم صفات المرتبة التي ينتمون إليها ، فلولا هؤلاء الأصحاب لما كانت هاتان المرتبتان .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم عبر اقتران كلٍّ من كلمتي [﴿ ٱلْمَيْمَنَة ﴾ ، ﴿ ٱلْمَشْـَٔمَة ﴾] بكلمة ﴿ أَصْحَٰب ﴾ ..

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ [الواقعة : ٧ – ٩]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ [البلد : ١٨ – ١٩]

❁ ❁ ❁

كلمة ﴿ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في كتاب الله تعالى لا تصف مسألةً معيّنةً كالأذن والعين والأنف .... ، إنّما تصف مسألةً معنويّةً تتعلّق بمركز قرار الإنسان كتعقّل وتفكّر وتدبّر .. هذه الحقيقة نراها في كتاب الله تعالى عبر ورود كلمة ﴿ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [وهي المشتقّ الوحيد للجذر (ل ، ب ، ب) في القرآن الكريم] ، مقترنة – في جميع مرّات ورودها – بإحدى الكلمات [﴿ أُوْلُوا ﴾ ، ﴿ لِأُوْلِى ﴾ ، ﴿ يَٰٓأُوْلِى ﴾] ..

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩]

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة : ١٩٧]

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩]

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧]

﴿ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠]

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٠]

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ ﴾ [يوسف : ١١١]

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الرعد : ١٩]

﴿ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [إبراهيم : ٥٢]

﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص : ٢٩]

﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص : ٤٣]

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر : ٩]

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر : ١٨]

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر : ٢١]

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [غافر: ٥٤]

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ ﴾ [الطلاق : ١٠]

وهذه القضيّة نراها في مشتقّات الجذر (ع ، ق ، ل) في القرآن الكريم ، فجميع مشتقّات هذا الجذر تأتي بالصيغ الفعليّة **[﴿ عَقَلُوهُ ﴾ ، ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ نَعْقِلُ ﴾ ،**

﴿ يَعۡقِلُهَآ ﴾ ، ﴿ يَعۡقِلُونَ ﴾] ، ولم ترد كلمة (العقل) بالصيغة الاسميّة ولا مرّة في القرآن الكريم ، فالعقل ليس جزءاً محدّداً بعينه ، إنّما هو تفعيل قدرات الذات لاستنباط حقائق الأشياء ..

❁ ❁ ❁

إنَّ تفكّر الإنسان بآيات الله تعالى ، وإيمانَه بمُوجد هذه الآيات ، هو نتاج صفتي [﴿ صَبَّار ﴾ ، ﴿ شَكُور ﴾] في ذات الإنسان ، فلا بدّ من امتلاك الإنسان لهاتين الصفتين حتى يتفكّر بآيات الله تعالى ..... هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم عبر اقتران الكلمات [﴿ لَأٓيَٰتٖ ﴾ ، ﴿ صَبَّار ﴾ ، ﴿ شَكُور ﴾] ..

لقد وردت كلمة ﴿ صَبَّار ﴾ في القرآن الكريم (٤) مرّات ، اقترنت فيها بكلمتي : [﴿ لَأٓيَٰتٖ ﴾ ، ﴿ شَكُور ﴾] .. وكلمة ﴿ شَكُور ﴾ عندما تصف الإنسان وتقترن بالآيات ، تقترن بكلمة ﴿ صَبَّار ﴾ ..

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [إبراهيم : ٥]

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [لقمان : ٣١]

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [سبأ : ١٩]

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [الشورى : ٣٣]

❁ ❁ ❁

الغيب مسألة تحكم المخلوقات فقط ، ولا غيب على الله تعالى ، فالله تعالى يعلم الغيب علماً مطلقاً .. وهكذا فارتباط العلم المطلق بالغيوب لا يكون إلاّ لله تعالى ، ومن جهةٍ أُخرى فإنَّ الغيوب لا يعلمها علماً مطلقاً إلاّ الله تعالى .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم تصويراً مطلقاً عبر اقتران كلمة ﴿ عَلَّٰم ﴾ المرتبطة بالله تعالى بكلمة ﴿

﴿ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .. فقد وردت كلمة ﴿ عَلَّٰم ﴾ في القرآن الكريم (٤) مرّات ، ووردت كلمة ﴿ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (٤) مرّات أيضاً ، وقد جاءتا دائماً مقترنتين مع بعضهما ..

﴿ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١٠٩]

﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦]

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [التوبة : ٧٨]

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [سبأ : ٤٨]

❀ ❀ ❀

كلمتا [﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ ، ﴿ أَقْسَمُواْ ﴾] المتعلّقتان بالبشر ، وبهذه الصيغة ، تردان (٨) مرّات ، وبالمقابل فإنَّ كلمة ﴿ أُقْسِمُ ﴾ العائدة إلى الله تعالى ترد أيضاً (٨) مرّات ، وهذا دليلٌ للتناظر بينهما .. ولو نظرنا إلى كلمة ﴿ أُقْسِمُ ﴾ العائدة إلى الله تعالى لرأينا أنّها تأتي في القرآن الكريم مسبوقةً دائماً بكلمة ﴿ لَآ ﴾ .. فما الحكمة من اقتران كلمة ﴿ أُقْسِمُ ﴾ المرتبطة بالله تعالى بكلمة ﴿ لَآ ﴾ التي تفيد النفي ؟!!! ..

إنَّ القسم – بالنسبة لنا نحن البشر – يتكوّن من عنصرين ..

١ – المُقسَم به ، وهو ما نقرّ بأنّه أعظمّ منّا ، ونريد جعله شاهداً علينا ومعاقباً لنا ومنقصاً من قيمتنا ، إن لم نكن صادقين بصحة المُقسَم عليه الذي نريد إثباته ..

٢ – المُقسَم عليه ، وهو ما نريد إثباته عبر القسم ..

هذه هي حقيقة القسم بالنسبة لنا نحن البشر ، ولذلك نرى أنَّ القرآن الكريم يأتي بكلمتي [﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ ، ﴿ أَقْسَمُواْ ﴾] المتعلّقتين بالبشر دون أن تُسبقا بكلمة ﴿ لَآ ﴾ .. فالقسم هنا قَسمٌ كامل ..

أمَّا بالنسبة لله تعالى فالمسألة مختلفة ..

١ – من زاوية المُقسَم عليه ، فإنَّ الله تعالى يريد أن يُثبت لنا صحّة المُقسَم عليه ..

٢ – من زاوية المُقسَم به ، فإنَّ المسألة تُخالف مسألة القسم بالنسبة للبشر .. إنَّ المُقسَم به لنا البشر هو أعظم من صاحب القسم ، أمّا بالنسبة لله تعالى فلا وجود للقسم من هذه الزاوية ، لأنّه لا شيء أعظم من الله تعالى .. وهكذا نرى أنَّ القسم (المتعلّق بالله تعالى) من هذه الزاوية ليس قسماً كقسمنا الذي نقسم به ، بينما من زاوية المُقسَم عليه فهو قسم ..

فمسألة القسم عندما ترتبط بالله تعالى تعني أنَّه لا يُوجَد ما هو أعظم من الله تعالى ليقسم به من أجل إثبات صحّة المقسَم عليه ، وأنَّ المقسَم عليه ثابت دون الحاجة للقسم ، كون القائل هو الله تعالى .. ولذلك فالقسم المرتبط بالله تعالى هو من زاوية إثبات صحّة المقسم عليه يفيد معنى القسم ، ومن زاوية المقسم به ليس قسماً .. هذا هو عمق الحقيقة التي يصوّرها لنا القرآن الكريم عبر اقتران كلمة ﴿ أُقْسِمُ ﴾ المرتبطة بالله تعالى بكلمة ﴿ لَآ ﴾ ..

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة : ٧٥]

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقّة : ٣٨ – ٣٩]

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المعارج : ٤٠]

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ١ – ٢]

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ [التكوير : ١٥ – ١٦]

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ [الانشقاق : ١٦]

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ [البلد : ٩٠]

من خلال الأمثلة التي رأيناها ، نرى أنَّ اقتران الكلمات في الصورة القرآنيّة هو تصويرٌ مطلق لاقتران المسائل التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمات .. فهذه العبارات القرآنيّة هي بحرفيّتها قول الله تعالى المتعلّق بصفاته العظيمة والذي نزّله جلّ وعلا من عنده ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

آيات الله تعالى

.. كلمة ﴿ ءَايَةً ﴾ في القرآن الكريم تصف لنا دلالاتٍ إطارها الدليل والمعجزة والبرهان ..

﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ ﴾ [البقرة : ٢٤٨]

﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ٢٥٩]

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس : ٩٢]

.. فالآية تشير إلى الدليل والبرهان الإعجازي ، الذي يدركه أصحاب العقول في موجودات هذا الكون ، سواء عالم الخلق أم عالم الأمر ..

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل : ٦٥]

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٧ – ١٥٨]

إنّ كلمة آية في القرآن الكريم عندما تقترن بمسألة ما فإنّها تصف لنا ما تحمله هذه المسألة من برهان ودليلٍ معجز يدلّ على قدرة الله تعالى ، ولا تعني مجرّد المسألة بعيداً عن إعجازها وبرهانها وأدلتها .. فكلُّ ما في الوجود يحمل آية تدلّ على عظمة المُوجد سبحانه وتعالى ..

وكلمة ﴿ ءَايَةً ﴾ في القرآن الكريم تأتي أيضاً لتصف برهاناً وحكماً ودليلاً تحمله كلمات الله تعالى ..

﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ ﴾ [البقرة : ١٠٦]

﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل : ١٠١]

فكلمة ﴿ ءَايَة ﴾ هنا تعني برهاناً ودليلاً وحكماً تحمله كلمات الله تعالى في القرآن الكريم ، ينسخ ويبدّل حكماً وبرهاناً ودليلاً سابقاً كان معروفاً قبل نزول القرآن الكريم ، وسنرى إن شاء الله تعالى هذه المسألة بشكلٍ واضح في الفصل الرابع الذي تمّ تخصيصه لمسألة الناسخ والمنسوخ المزعومة ..

ولو حملنا كلمة ﴿ ءَايَة ﴾ (برهاناً ودليلاً ومعجزةً وحكماً) على مجموعة الكلمات القرآنيّة بين فاصلتين ، نكون بذلك قد حجّمنا وأطّرنا كلام الله تعالى .. فكلمات الله تعالى تحمل من البراهين والأدلّة والمعجزات (الآيات) ما لا يستطيع مخلوق الإحاطة به ..

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ [الكهف : ١٠٩]

﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [لقمان : ٢٧]

وطَلَبُ الكفّار من الرسول ﷺ آية هو طلبهم برهاناً حسيّاً مُعجزاً ، وليس مجموعة كلمات قرآنيّة كالتي تنزل عليه ..

﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس : ٢٠]

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧]

﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٌ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥]

وكلمة ﴿ ءَايَٰت ﴾ (جمع آية) بالإضافة إلى أنّها تأتي وصفاً للبراهين والمعجزات والأدلّة الكونيّة الدالّة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، فإنّها تأتي أيضاً وصفاً لما تحمله كلمات الله تعالى من براهين وأدلّة ومعجزات ومعانٍ وأحكام ..

﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥]

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٦]

﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[النور : ١]

ولو نظرنا إلى الصورة القرآنيّة الأخيرة لرأينا أنّ كلمة ﴿ ءَايَٰت ﴾ فيها تعني البراهين والأدلّة والأحكام التي تحملها كلمات الله تعالى ، ولا تعني مجرّد الكلمات بعيداً عن هذه الأحكام والأدلة .. ولو كان المقصود بكلمة ﴿ ءَايَٰت ﴾ الكلمات القرآنيّة لما أتت ضمن العبارة القرآنيّة بالصيغة ﴿ وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾ ، فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ ﴾ دون الصياغة (وأنزلناها آيات) تؤكّد صحّة ما نذهب إليه ..

.. وكلمة ﴿ ءَايَـٰت ﴾ التي تصف المعاني والدلالات والبراهين والأحكام التي تحملها كلمات الله تعالى في القرآن الكريم ، نراها في قوله تعالى ..

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ [البقرة : ١٥١]

﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ١]

ولّما كانت آيات الله تعالى (براهينه وأدلّته الإعجازيّة) موجودة في كلِّ شيء من هذا الكون ، ولّما كانت كلمات الله تعالى في كتابه الكريم تصف وصفاً مطلقاً هذه الدلالات والبراهين ، فإنَّ رؤية آيات الله تعالى في هذا الكون كما تصفها كلمات الله تعالى في القرآن الكريم ، هي برهان يتبيّن البشر من خلاله أنَّ القرآن الكريم حقٌّ من عند الله تعالى ..

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٢ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصّلت : ٥٢ – ٥٣]

فآيات كتاب الله تعالى (براهينه وأحكامه وأدلّته ومعجزاته ومعانيه) فُصِّلت وعُبِّر عنها عبر كلمات الله تعالى باللغة الفطريّة التي علّمها لآدم عليه السلام في السماء ، وبالتالي فإنّ تفصيل الآيات التي يحملها كتاب الله تعالى – بالنسبة لنا – ناتج عن إدراكنا لدلالات هذه اللغة الفطريّة ..

﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصّلت : ٣]

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ﴾ [فصّلت : ٤٤]

وهكذا .. فكلمة [﴿ ءَايَة ﴾ ، ﴿ ءَايَـٰت ﴾] ، عندما تأتي مرتبطةً بكلمات الله تعالى في القرآن الكريم ، فإنّها تعني مجموعة البراهين والأدلّة والأحكام التي تحملها

كلمات الله تعالى ، ولا يمكن تأطيرها بمجرّد الكلمات القرآنيّة بعيداً عمّا تحمله من معان .. ولو كانت كلمة ﴿ ءَايَة ﴾ لا تعني إلاّ مجموعة كلمات قرآنيّة بين فاصلتين ، لما طلب الكافرون من الرسول ﷺ أن يترّل عليهم آيات من السماء ، في الوقت الذي يترل فيه القرآن الكريم ..

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨ – ٥١]

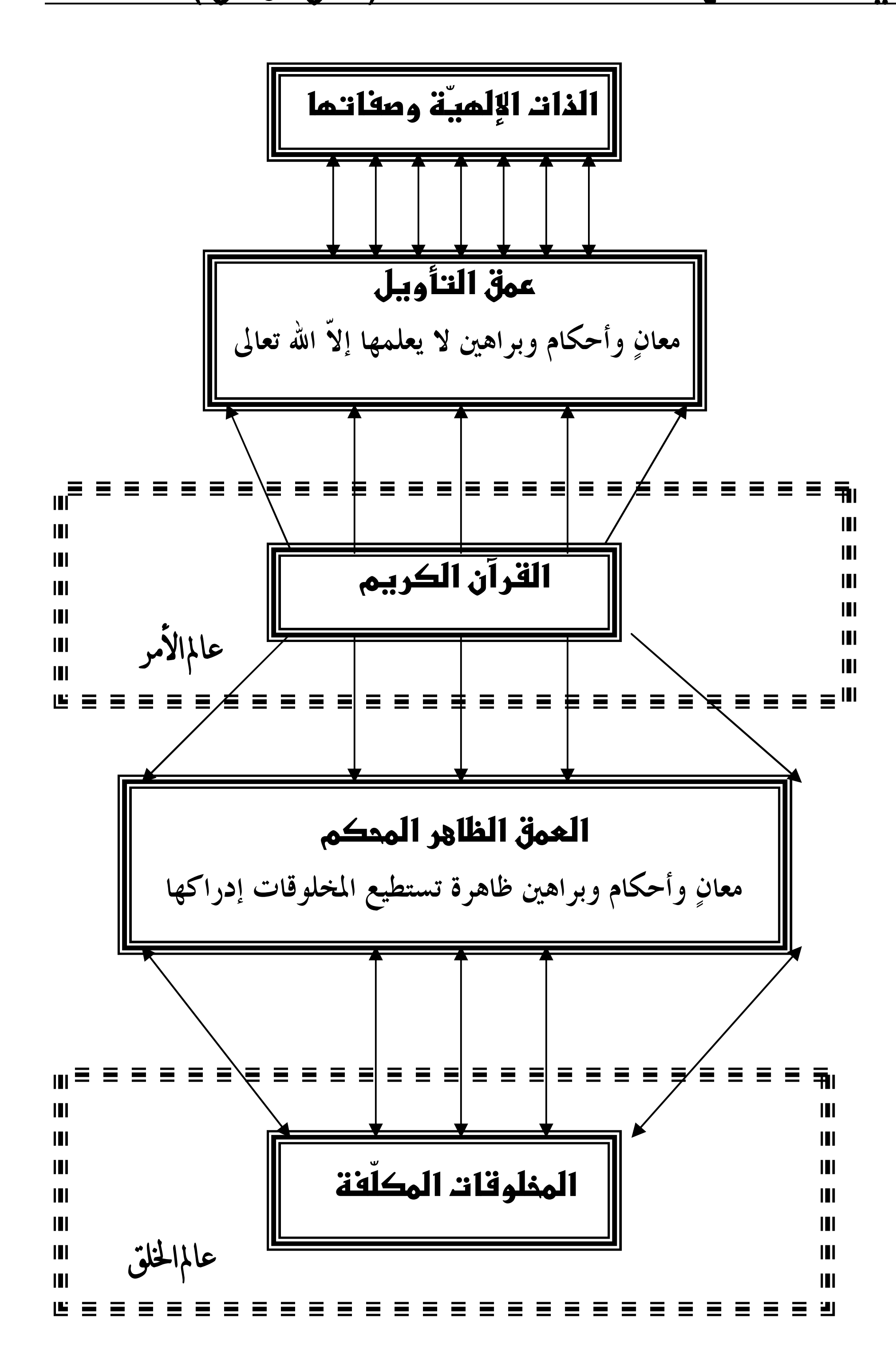
العبارة القرآنيّة ﴿ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ لا ترد عبثاً ، فقبل نزول القرآن الكريم كان ﷺ لا يتلو أيَّ كتاب ولا يخطّه بيمينه ، أمّا بعد نزول القرآن الكريم فقد انقلبت المسألة ، وأصبح ﷺ يقرأ لغة السماء (المفردات القرآنيّة) ، وهذا ما يؤكّده ورود العبارة ﴿ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ في هذا النصّ القرآني ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴾ تعني الدلائل الإعجازيّة والبراهين والأحكام الموجودة في صدور الذين أوتوا العلم ممّا يحمله القرآن الكريم من هذه البراهين والأحكام ..

والعبارة القرآنيّة ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ تؤكّد أنَّ معجزة الرسالة الخاتمة لا تتجاوز ما يحمل النصّ القرآني ذاته من دلائل إعجازيّة تثبت – في كلّ زمانٍ ومكان – مصداقيّة نزوله من عند الله تعالى ، وهي معجزة تكفي عن كلّ المعجزات التي يتم طَلَبُهَا .. وهذا ما نراه أيضاً في العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ ﴾ [الإسراء : ٥٩] ..

وكون القرآن الكريم يتعلّق بصفات الله تعالى فإنّ ذلك يقتضي أنّ له عمقاً من التأويل لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، فلا سبيل لمخلوق أن يحيط بصفةٍ من صفات الله تعالى .. وكون القرآن الكريم يحمل منهج الله تعالى فإنّ ذلك يقتضي أنَّ له معاني ظاهرة يستطيع البشر إدراكها والتفاعل معها ..

وهكذا .. فالقرآن الكريم له وجهٌ يرتبط – من جهة تأويله وإدراك نهاية معانيه والإحاطة به – بالله تعالى ، وله وجهٌ يرتبط – من جهة حمله للمعاني والأحكام التي تبيّن المنهج المطلوب من البشر اتّباعه – بالبشر وإدراكهم ..


الذات الإلهيّة وصفاتها
عمق التأويل
معانٍ وأحكام وبراهين لا يعلمها إلاّ الله تعالى
القرآن الكريم
عالم الأمر
العمق الظاهر المحكم
معانٍ وأحكام وبراهين ظاهرة تستطيع المخلوقات إدراكها
المخلوقات المكلّفة
عالم الخلق

إنَّ انتماءنا لعالم الخلق وخضوعنا لقوانين المكان والزمان ، عبر أسر أنفسنا داخل الجسد المادّي ، إضافةً إلى ماهيّة عالم الدنيا الذي نحيا فيه ، كلُّ ذلك يحول بيننا وبين إدراك تأويل القرآن الكريم .. فلا يأتي تأويل القرآن الكريم إلاّ في الآخرة ..

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٢ – ٥٣]

والآية الكريمة التالية تُلقي الضوء – بشكلٍ جليٍّ – على عمقي البراهين والأحكام والأدلّة القرآنيّة ..

١ – العمق الظاهر الذي تدركه المخلوقات ..

٢ – وعمق التأويل الذي لا يعلمه إلاّ الله تعالى ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧]

.. ذهبتُ معظمُ التفاسيرِ الموروثةِ ، في تفسيرِ هذه الآية الكريمة ، إلى أنَّ آياتِ كتابِ الله تعالى تنقسم إلى قِسمين .. قسم مُحكم ، وقسم متشابه .. واختلفوا في تحديد ماهيّة المُحكَم وماهيّة المتشابه ، وفي تحديد الآيات المُحكمة والآياتِ المُتشابهة .. واجترعت الأمّةُ هذا التفسيرَ الموروثَ قروناً كثيرةً من الزمن .. كُلُّ ذلك حصلَ ويحصل مع أنَّ الله تعالى يُبيّنُ لنا أنَّ كلَّ آياتِ الله تعالى – دون أيِّ استثناء – هي مُحكمة .. يقول تعالى :

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] .. وكُلُّ ذلك حصلَ ويحصل مع أنَّ الله تعالى يُبيّنُ لنا أنَّ كلَّ كتابِ الله تعالى متشابه .. يقول تعالى :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣]

.. والسؤالُ الذي يطرحُ نفسَه في هذا السياق .. كيفَ نُوفِّقُ بين هذه الآيات الكريمة ؟!!! ... القرآنُ الكريمُ منه آياتٌ محكمات وأُخر متشابهات ، وكلُّ آياتِه أُحكمت ، وهو كلّهُ متشابهٌ مثاني .. كيف يكونُ ذلك في الوقتِ ذاتِه ؟!!! ..

.. جوهرُ القضيّة يتمحور في معنى كلمة ﴿ ءَايَٰت ﴾ في قوله تعالى ﴿ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ ... فكلمةُ ﴿ ءَايَٰت ﴾ في كتابِ اللهِ تعالى تعني دلالاتٍ ومعجزاتٍ وأحكاماً ، وليست مقصورةً على مجموعةِ كلماتٍ قرآنيّةٍ كما يتخيّلُ الكثيرون .. إنَّ العبارةَ القرآنيّةَ تحملُ الآيات في ظاهرِها وباطنها ، وليست مُجرّدَ مجموعةِ كلماتٍ مصفوفةٍ في الجملة القرآنيّة ... الآيات تُحْمَلُ في العبارة القرآنيّة ، ولا يستطيعُ مخلوقٌ أن يُحيطَ بالآيات التي تحملُها العبارةُ القرآنيّة .. والآيةُ الكريمةُ التالية تؤكّدُ هذا المفهوم كما رأينا ..

﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور : ١]

.. فاللهُ تعالى لم يقل (وَأَنْزَلْنَاهَا آياتٍ بَيِّنَاتٍ) ، إنّما يقول : ﴿ وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾ ، بمعنى أنّها تحملُ أحكاماً ومعاني ودلالات بيّنة لعلّ البشر يتذكّرون بها .. إذاً

العبارات القرآنيّةُ هي قَوْلُ اللهِ تعالى الذي يحملُ الآيات بظاهر صياغتِه اللغويّة وبباطِنِها ..

.. من هنا نرى أنَّ قولَه تعالى .. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ ، يعني أنَّ أيَّ عبارةٍ قرآنيّةٍ مُكَوَّنَةٍ من مجموعةِ كلمات ، نستنبطُ منها أحكاماً ودلالاتٍ واضحةً بيّنةً من ظاهر صياغتها اللغويّة ، وهذه الأحكامُ الظاهرةُ البيِّنَةُ هي الأصل والمرجع في الأحكام .. هذا ما نفهمُهُ من قَوْلِه تعالى : ﴿ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ ..

.. وهذه العبارةُ القرآنيّةُ ذاتُها تحملُ بأعماقِها دلالاتٍ باطنةً يحتاجُ استنباطُها إلى الغوص في أعماقِ النصِّ القرآني ، وهذا ما نفهمُهُ من قَوْلِه تعالى ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ ... فالعبارتان : ﴿ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ ، ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ ، تصفُ كُلٌّ منهما كتابَ الله تعالى كاملاً دون أيِّ تجزئة لنصوصه ..

.. وهذا أمْرٌ طبيعيٌّ ، فلو كانت دلالاتُ كتابِ الله تعالى لا تتجاوز المعاني الظاهرة في ظاهر صياغتِه اللغويّة ، لَمَا كان تبياناً لكلِّ شيء ، كما يقولُ الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩]

.. ولو كانت دلالاتُ كتابِ الله تعالى دونَ معانٍ باطنةٍ في أعماقِه ، لَمَا كانَ هناكَ معنىً لِقوْلِه تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [يوسف : ١١١] ، ولَمَا كُنّا لِنُدرِكَ قَوْلَه تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] ..

ولو كان المقصود بكلمة ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ في قوله تعالى ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ هو جمع آية [مجموعة الكلمات القرآنيّة الواقعة بين فاصلتين] كما ذهب إلى ذلك معظم المفسّرين ، لاقتضى ذلك انتفاء التكامل والتعاضد بين كلمات الله تعالى في القرآن الكريم ، ولاقتضى ذلك التفريق والتمييز بين كلمات الله تعالى ، وبالتالي تكون لكلِّ آية من الآيات المحكمة [حسب ما ذهبوا إليه] استقلاليّة خاصّة تميّزها عن غيرها ، وبالتالي تكون أُمّاً دون غيرها ، وبالتالي يكون مجموع الآيات [حسب تعريفهم للآية بأنّها مجموعة كلمات بين فاصلتين] هو جمع كلمة (أم) ، وهذا ينافي العبارة القرآنيّة ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، فورود العبارة القرآنيّة ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ بهذه الصيغة حيث كلمة ﴿ أُمُّ ﴾ بصيغة المفرد ، دليلٌ آخر على أنَّ كلمة ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ في قوله تعالى ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ تعني البراهين والأدلّة والأحكام والمعاني التي تحملُها كلمات الله تعالى في القرآن الكريم ، بكليّتها دون تمييز وتفريق ..

وكما رأينا فإنَّ قوله تعالى ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] ينفي تجزئة كلمات القرآن الكريم إلى قسمين : محكم ، ومتشابه .. فآيات الله تعالى كلُّها ودون تجزئة هي محكمة .. وقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر : ٢٣] ينفي – أيضاً – تجزئة كلمات القرآن الكريم إلى قسمين : محكم ، ومتشابه .. فآيات الله تعالى كلُّها ودون تجزئة هي متشابهة ..

فنحنُ لا نستطيع التفريق والتمييز بين كلمات الله تعالى وتجزئة كتابه الكريم إلى أجزاء ، منها ما هو محكم ومنها ما هو متشابه .. ومن يتصوّر هذه التجزئة يكون إمّا جاهلاً وإمّا متجاهلاً لحقيقة القرآن الكريم وتعلّقه بصفات الله تعالى المطلقة ..

إنَّ ما نستطيع تمييزه هو أنَّ آيات القرآن الكريم (دلالاته وبراهينه وأحكامه ومعانيه) بكليّتها هي بالنسبة لإدراكنا لها وتصوّرنا لمعانيها وبراهينها تكون وفق عمقين : عمق محكم ظاهر واضح ، وعمق متشابه خفي يختلط علينا لا نستطيع إدراكه بشكلٍ كامل في حياتنا الدنيا ..

العبارة القرآنيّة ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ تصوِّر لنا العمق الأوَّل ، وتعني أنَّ كلَّ كلمات القرآن الكريم بكليّتها ودون أيِّ تجزئة ، تحمل براهين ودلالاتٍ وأحكاماً ظاهرةً واضحةً (محكمة) لا يتسرّب إليها خللٌ ولا فسادٌ في الفهم ، ولا تختلف فيها العقول والمدارك .. وهذه البراهين والأحكام والمعاني صريحة لا تحتمل سواها ، وهي الأحكام التي يطلب الله تعالى من الخلق أن يعلموها ويعملوا بها ، ولذلك فهذه الأحكام هي حجّة على المكلّفين يوم القيامة ، ولذلك فهي أمُّ الكتاب ومرجعُه ، حيث تُرجَع إليها جميع المسائل والأحكام المطلوبة من الخلق ، وهذا ما نقرؤه في العبارة ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ..

والعبارة القرآنيّة ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ تعني أنَّ لكلمات الله تعالى – في القرآن الكريم – دلالاتٍ وبراهينَ ومعاني عميقة ممّا استأثر الله تعالى به علمه ، لا نستطيع إدراكها في حياتنا الدنيا ، وهي لا تتعلّق بالمسائل التعبديّة التي يُطلَبُ من الخلق علمها والعمل بها ، وهذه الدلالات لا يراها البشر إلاّ في الآخرة ..... ومنها دلالاتٌ وبراهينُ ومعاني ستظهر للأجيال اللاحقة نتيجة تطوّر العلوم الحضاريّة ، حيث ترى الأجيال

اللاحقة حملَ النصِّ القرآني لدلالاتٍ لم تكن معلومة لما قبلها من أجيال ، وفور إدراكها تُصبح محكمةً لأنَّها تصبح واضحةً جليّةً لا يتسرب إليها الخلل في الفهم والإدراك ..

.. فكلمة ﴿ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ مشتقّة من الجذر (ش ، ب ، هـ) الذي يعني عدم إدراك حقيقة المسألة ، واختلاط الأمر بالنسبة لها ، مع أنَّ لها وجهاً ظاهراً .. فالصورة القرآنيّة : ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا ﴾ [البقرة : ٧٠] ، تعني أنَّ الأمر قد اختلط عليهم فلم يعودوا يدركوا حقيقة البقرة المطلوبة ، مع أنَّ البقر ظاهرٌ أمامهم .. والصورة القرآنيّة : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ ﴾ [البقرة : ٢٥] ، تعني أنَّ ظاهر ذلك الرزق متماثلٌ مع أنَّ حقيقةَ طعمه مختلفة .. وكذلك الصورة القرآنيّة : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ ﴾ [النساء : ١٥٧] ، تعني أنَّ الصلب والقتل شُبّه لهم ، بمعنى أنّهم رأوا ظاهراً يُوهم بالصلب مع أنَّ حقيقة الأمر وباطنه غير ذلك ..

وهكذا فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ تعني أنَّ لكلمات الله تعالى ودلالاتها وبراهينها الظاهرة عمقاً لا سبيل لنا في إدراك نهاية حقيقته وتأويله ونهاية ما يحمل من أدلّة ومعاني .. لذلك نرى أنَّ كلمة ﴿ وَأُخَر ﴾ ترد بصيغةِ النكرة ، وهذا دليلٌ على أنَّ المسألةَ تتعلّقُ بدلالاتٍ مخفيّةٍ عنّا ، وأنَّ المسألةَ لا تتعلّقُ بنصوصٍ من كتابِ الله تعالى مُحدّدةٍ دون غيرِها .. فلو كان الأمْرُ كما ذهبت تفاسيرُنا التاريخيّة ، من أنَّ نصوصَ القرآن الكريم تنقسمُ إلى قسمين ، قسم مُحكم ، وقسم مُتشابه .. لو كان الأمرُ كذلك .. لكانت العبارةُ القرآنيّةُ ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ ، لكانت صياغتُها بصيغة المعرفة : (والأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) ، حيثُ النصوصُ المتشابهةُ معلومة ، ولتناقضَ ذلكَ – أيضاً – مع حيثيّاتِ صياغةِ النصِّ القرآني : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾

.. فالعبارةُ القرآنيّةُ ﴿ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾ تُبيِّنُ لنا أنَّ العمقَ المتشابه ليس خاصّاً بجزءٍ مُحدَّدٍ من نصوصِ القرآن الكريم دون غيرِها .. فوجودُ قسمٍ معلومٍ من آياتِ كتابِ الله تعالى دون غيرِها تتَّصف بصفة المتشابهات ، هذا الوجودُ المُفترَضُ تُناسبُه الصياغة : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ المُتشابهات مِنْهُ) .. ولكن ما نراه أنَّ كلمة (المُتشابهات) لا وجودَ لها ، وما هو موجود هو العبارةُ القرآنيّة ﴿ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾ .. هذا بالإضافةِ إلى وجودِ نصّين قرآنيّين يُؤكدان أنَّ القرآنَ الكريمَ كُلَّه محكم ، وأنّه في الوقتِ ذاتِه كُلَّه مُتشابه ..

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود : ١]

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر : ٢٣]

.. وكُلُّ ذلك يُؤكِّدُ صحّةَ ما نذهبُ إليه في تفسيرِنا لهذه المسألة ..

.. إذاً .. الأعماقُ الباطنةُ للنصِّ القرآنيِّ ليست ظاهرةً أمام أعيننا ، كالأعماق الظاهرة المُحكمة .. ومن جهةٍ أُخرى فإنَّ كُلَّ نصوصِ القرآن الكريم ودون أيِّ استثناء تحملُ هذا العمقَ الباطن .. لذلك فإنّنا نرى صيغةَ النكرة في قولِه تعالى ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ ، ونرى الصياغة القرآنيّة ﴿ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾ .. هذا ما تحملُه صياغةُ هذه العبارات القرآنيّة ، وهذا ما يُدركُهُ كلُّ باحثٍ عن الحقيقة ، ينظرُ إلى دلالاتِ كتابِ الله تعالى بتجرّدٍ عقلي بعيداً عن برزخ التاريخ ..

.. وهذا العمق الباطن المتشابه لدلالات النصِّ القرآني ، نهايتُهُ عمق التأويل الذي لا يعلمه إلا اللهُ تعالى ، ولا يأتي إلاّ في الآخرة .. يقولُ تعالى :

﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدًى وَرَحۡمَةً لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ

رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٢ – ٥٣]

.. إذاً تأويلُ القرآن الكريم ، هو بمعنى نهاية ما يحمل من معاني باطنة متشابهة [وليس بمعنى التفسير والتبيان كما يذهب الكثيرون] .. هذا التأويل .. لا يأتي إلا في الآخرة ، فلا يمكن لمخلوقٍ أن يُحيطَ بالدلالات التي يحملُها كتابُ الله تعالى .. بينما تفسير القرآن الكريم وتبيين أحكامه هو مسألة أُخرى غير التأويل ، وهي مسألة يأمرنا الله تعالى بها ..

.. وفي العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾ نرى أنَّ حرفَ الواو في كلمة ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ ليس حرفَ عطف ، ولا يُمكنُ أن يكونَ حرفَ عطف ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال .. فلو كان حرفَ عَطْف بمعنى لو كان الراسخون في العلم يعلمون تأويلَ القرآن الكريم ، لو كان ذلك ، لكانت العبارة القرآنيّة ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾ تتعلّقُ بالذاتِ الإلهيّة كتعلّقها بالراسخين في العلم ، وهذا مُحال .. إذاً العبارة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ هي عبارةٌ مُستقلّةٌ تماماً عن العبارة : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾ .. وحرف الواو في كلمة ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ هو استئنافٌ لجملةٍ جديدةٍ ، تحملُ دلالاتٍ جديدةً مُستقلّةً تماماً عن دلالات العبارات القرآنيّة السابقة لهذه الكلمة ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ ..

.. والتأويلُ المعنيُّ في كتاب الله تعالى ، ليس التفسير وليس التبيان ، إنّما هو نهايةُ ما تؤولُ إليه الأعماقُ الباطنةُ ... وفي رحلةِ موسى عليه السلام مع العبد الصالح ، نرى أنَّ موسى عليه السلام تفاعلَ مع ظاهر أحداثِها ، وأنَّ العبدَ الصالحَ تفاعلَ مع باطنِ أحداثِها

.. بعدَ ذلك ونتيجةً لاستغراب موسى عليه السلام لتفاعل العبد الصالح مع باطن الأحداث ، بعدَ ذلك قال العبدُ الصالحُ لموسى عليه السلام ﴿ **قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ [الكهف : ٧٨] ، بمعنى سأنبِّئكَ بحقيقة نهايةِ المعنى الباطن للأحداث التي رأيتَها ..

وعلينا أن نقف عند الضمير المتّصل (الهاء) في كلمة ﴿ **تَأْوِيلِهِۦ** ﴾ ، في قوله تعالى ﴿ **ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ** ﴾ .. إنَّ الضمير هنا يعود إلى كليّة القرآن الكريم ، شأنه بذلك شأن الهاء في كلمة ﴿ **مِنْهُ** ﴾ في العبارة السابقة مباشرة ﴿ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ** ﴾ ، ولا يعود هذا الضمير إلى بعض كلمات الله تعالى في كتابه الكريم دون غيرها [القسم المتشابه دون المحكم] كما ذهب الكثير من المفسّرين .. وممّا يؤكّد أنَّ هذا الضمير يعود إلى كليّة القرآن الكريم هو النصّ الذي رأيناه : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ** ﴾ [الأعراف : ٥٢ – ٥٣] ، فتأويل القرآن الكريم (كلّه ودون اجتزاء) مسألة لا يمكننا إدراكها وعلمها ، ولا تأتي إلاّ في الآخرة ، ولذلك يقول الله تعالى ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ ، وهنا أيضاً يعود الضمير المتّصل (الهاء) في كلمة ﴿ **تَأْوِيلَهُۥٓ** ﴾ إلى كليّة القرآن الكريم وليس إلى جزءٍ منه كما يذهبون ..

وكما رأينا أنَّ (الهاء) في كلمة ﴿ **تَأْوِيلِهِۦ** ﴾ ، في قوله تعالى ﴿ **ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ** ﴾ تعود إلى كليّة القرآن الكريم ، وأنَّ (الهاء) في كلمة ﴿ **تَأْوِيلَهُۥٓ** ﴾

في قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ تعود إلى كليّة القرآن الكريم وليس إلى جزءٍ منه ، فإنَّ الهاء في كلمة ﴿ بِهِۦ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ تعود أيضاً إلى كليّة القرآن الكريم ... ولذلك فإنَّ الضمير المضاف إليه في كلمة ﴿ كُلٌّ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ ، قد حُذف لوضوح عودة (الهاء) كما رأينا إلى كليّة القرآن الكريم ، ولو كان هذا الضمير المضاف إليه في كلمة ﴿ كُلٌّ ﴾ يعود إلى جزءٍ من كلمات الله تعالى دون الأخرى ، للزم عدم حذف المضاف إليه في كلمة ﴿ كُلٌّ ﴾ ، وللزم إضافة هذا المضاف إليه [الجزء المفترض الذي يعود إليه الضمير] إلى كلمة ﴿ كُلٌّ ﴾ ..

والعبارة القرآنيّة ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ تفيد الكليّة في الإيمان والبحث بأيِّ مسألة قرآنيّة ، وعدم التفريق بين كلمات الله تعالى التي تحمل الأحكام والبراهين والأدلّة لجوانب هذه المسألة .. فكلُّ صورة قرآنيّة تصوّرُ جانباً من جوانب المسألة تُحقِّقُ في الوقت ذاته جميع الصور والمعاني والأحكام والبراهين التي تحملها العبارات القرآنيّة التي تصوِّر جوانبها الأخرى ..

فالعبارة القرآنيّة ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ترسم لنا منهجاً سليماً للبحث في أحكام القرآن الكريم ومسائله ، واتّباع هذا المنهج الكليّ أثناء دراسة القرآن الكريم وتفسيره هو الميزان الذي يزن به أولوا الألباب حقيقةَ استنتاجاتهم وتفسيراتهم لكتاب الله تعالى ، وهو الحدّ الذي يميّزهم عن غيرهم ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ..

وفي هذا السياق من البحث لا بدّ أن نقف عند قولِه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر : ٢٣] .. فهذه الآية الكريمة تصف لنا العمق

المتشابه الذي يحمله النصّ القرآنيّ في كلِّ حرفٍ من حروفه (إضافة لحمله للعمق المُحكَم كما بيّنا) ..

إذاً .. المتشابه والمثاني صفتان متلازمتان للعمق الباطن لكتاب الله تعالى .. فماذا تعني كلمة مثاني ؟!!! ..

.. كلمةُ مثاني ترد مرّتين في كتاب الله تعالى .. في هذه الآية الكريمة : **﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾** ، وفي قوله تعالى : **﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾** [الحجر : ٨٧] .. فماذا تعني كلمة مثاني ؟ ..

.. المثاني بِمعنى الباطِنِ المَخْفِي المطوي .. يقولُ تعالى : **﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾** [هود : ٥] .. إذاً .. العمقُ المُتَشَابِهُ الباطنُ لِلقرآنِ الكريم ، هُوَ محتوىً بمَثَانٍ ، بمعنى أنّهُ دلالاتٌ مَخفيّةٌ في باطنِ النصِّ القرآني ، ولا بُدَّ من رَفْعِ الأغطيةِ التي تكمنُ تَحْتَهَا هذه الدلالات ، لمعرفة تلكَ الدلالات .. فالمثنى هو غطاءٌ تحتَهُ عُمقٌ من هذه الدلالات الباطنة الكامنة في أعماقِ النصِّ القرآني ..

.. وَلِفَهْمِ حقيقةِ هذه المسألة .. لنتصوَّر أننا نريدُ الغوصَ في أعماقِ البحر ، وذلك من خِلالِ دَرَجٍ يتَّجِهُ نحو قاعِه .. فتجاوزُ الدرجةِ الأولى منه باتّجاه قاعِه ، وما يُرافقه من اكتشافِ الحقيقةِ الكامنة عند تلك الدرجة ، يُقابِلُ رفعَ الغطاءِ الأوّلِ مِنْ أغطيةِ الأعماقِ الباطنةِ لِلقرآن الكريم ، أي يُقابِلُ تجاوزَ المثنى الأوَّل .. وتجاوزُ الدرجةِ الثانية منه باتّجاه قاعِه ، وما يُرافقه من اكتشافِ الحقيقةِ الكامنة عند تلك الدرجة ، يُقابِلُ رفعَ الغطاءِ الثاني مِنْ أغطيةِ الأعماقِ الباطنةِ لِلقرآن الكريم ، أي يُقابِلُ تجاوزَ المثنى الثاني .. وهكذا .. وصولاً إلى الدرجة السابعة في أعماق ذلك البحر ، حيثُ يقابلُ ذلك الغوصَ في أعماق القرآن العظيم وصولاً إلى المثنى السابِع ..

.. إذاً قولُهُ تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر : ٨٧] ، يُصوِّرُ لنا ما أعطاه اللهُ تعالى لرسوله ﷺ ، وللعقل البشري – بشكلٍ عام – من القدرةِ على الغوصِ في أعماقِ النصِّ القرآني سبع درجات ، لاستنباط الدلالات والأحكام في تلك الأعماقِ الباطنة .. وهذا يختلف عن عمق التأويل الذي لا يأتي إلاّ في الآخرة ، فعمق التأويل هو نهاية العمق المتشابه ونهاية ما تؤول إليه دلالات كتاب الله تعالى وأحكامه وأدلّته ..

.. أمّا القول بأنَّ السبع المثاني هي سورةُ فاتحة الكتاب ، بناءً على القول المنسوب إلى الرسول ﷺ في الروايات :

.. **البخاري (٤١١٤)** :

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ شُعْبَةَ قَالَ حَدَّثَنِي خُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي فَقَالَ أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ثُمَّ قَالَ لِي لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ أَلَمْ تَقُلْ **لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**

البخاري (٤٣٣٥) :

حَدَّثَنَا آدَمُ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ حَدَّثَنَا سَعِيدٌ الْمَقْبُرِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**

.. هذا القول لا يُمكنُ أن يخرج عن الرسول ﷺ ، لأنّه ﷺ ، لا يُخالفُ النصَّ القرآني .. والنصُّ القرآنيُّ يقولُ غيرَ ذلك .. ففاتحةُ الكتاب سورةٌ معروفةٌ .. بمعنى أنّها

ليست نكرة ، وفي الوقتِ ذاتِه فاتحةُ الكتابِ جزءٌ من القرآنِ العظيم .. والله تعالى يصفُ ما آتاه في هذه المسألةِ بصيغة النكرة ، وبصياغةٍ نرى فيها عطفاً على القرآن العظيم .. يقول تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ** ﴾ .. فالله تعالى لم يقل : (ولقد آتيناك السبعَ المثاني في القرآنِ العظيم) ، و لم يقل : (ولقد آتيناك المثاني السبعَ في القرآنِ العظيم) ، كي يتمَّ الجزمُ بِأنَ قولَهُ تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ** ﴾ ، يعني فاتِحةَ الكتاب ، أو بعضاً من سُوَرِه ..

.. ففاتحةُ الكتاب جزءٌ من القرآن الكريم ، وليست خارجَ نصوصِه ، وهي معلومة وليست نكرة ، والقرآنُ الكريمُ كُلُّه مثاني ، وليس فقط سورة الفاتحة ، وإلاّ كيف بنا أن نفهمَ قوْلَ الله تعالى : ﴿ **ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ** ﴾ [الزمر : ٢٣] .. كُلُّ ذلك يُؤكِّدُ صحّةَ ما نذهبُ إليه ، وينفي أن تكونَ فاتحةُ الكتاب هي المعنيّة حصراً بهذه الآية الكريمة ..

.. وحتى في صياغةِ هذه الروايات ، نرى أنَّ واضعَها يصفُ فاتحةَ الكتاب بصيغة المعرفة وليس بصيغة النكرة ، ففي الحديث الأوّل نرى العبارة : [[**قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**]] ، وفي الحديث الثاني نرى العبارة : [[**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**]] .. فهل يُعقَل أنْ تُوصَفَ أشهرُ سورةٍ في كتابِ الله تعالى بأنَّ آياتِها نكرة وأنّها تُعطفُ على كتابِ الله تعالى ونحنُ نعلمُ أنّها جزءٌ منه ؟!!! .. وبالتالي هل واضعُ هذه الرواية أكبرُ قدرةً على الصياغة اللغويّة من الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ؟!!! ..

.. ومن جهةٍ أُخرى نرى أيضاً أنَّ واضعَ هذه الروايات يصفُ فاتحةَ الكتاب بأنَّها هي القرآنُ العظيم ، في الوقت الذي يصفُها بأنَّها هي السبعُ المثاني ، وكلُّ ذلك يُؤكِّدُ

عدمَ صحّةِ مثل هذه الروايات ... الله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ ، وحرف العطف في قولِه تعالى : ﴿ وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ يفيدُ تمييزَ القرآن العظيم عن المسألة المحمولة بقولِه تعالى : ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ .. وكلُّ ذلك يؤكّدُ عدمَ صحّةِ مثل هذه الروايات .. فلماذا تُجْعَل مثل هذه الروايات معياراً لفهم دلالاتِ كتاب الله تعالى ، في الوقت الذي نرى فيه مخالفتَها لكتابِ الله تعالى ؟!!! ..

.. إذاً .. العبارة القرآنيّة : ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ تصفُ مسألةً لها خصوصيّتُها عما تصفه العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ ، ولا تصفُ نصوصاً مُعيَّنةً دون غيرِها من نصوصِ الْقُرْآنِ الْعَظِيم .. هذا ما نُدركُه حينما نحترمُ قواعدَ اللغةِ العربيّة ، وحينما نجعلُ كتابَ الله تعالى معياراً للروايات لا العكس ..

.. وهكذا نرى أنَّ اللهَ تعالى أعطى رسولَه ﷺ والعقلَ البشريَّ القدرةَ على الغوصِ في أعماق النصِّ القرآني سبعَ درجاتٍ ، لاستنباط السنّةِ من أعماقِ القرآن الكريم .. هذا ما نقرؤه بشكلٍ جليٍّ في قولِه تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾

.. إذاً .. جُزئيَّاتُ الكُليّاتِ التي يَحْمِلُها القُرآنُ الكريمُ ، تكمنُ في العُمْقِ المُتشابِهِ الباطِنِ لِلقرآنِ الكريم كشعائر العبادات وغيرها ، حيثُ مُهمَّةُ السنّةِ استخراجُها منْ أعماقِ النصِّ القرآني .. فاللهُ تعالى أعطى رسولَه ﷺ القدرةَ على الغوصِ في الأعماقِ الباطِنَةِ لِلقرآنِ الكريم سبعَ درجاتٍ ، يرفع بها سبعةَ أغطية من أغطيةِ الأعماقِ الباطنةِ فيه ، ليرى الأحكامَ الكامنةَ في تلك الأعماقِ ويستخرجَها سنّةً للناس ..

وهكذا نرى أنَّ كلمات الله تعالى في كتابه الكريم كلّها مطلقة ومتكاملة ومتعاضدة في وصف الأحكام والبراهين والأدلّة والمعاني التي تحملها ، وفي تصويرها ، وذلك كون القرآن الكريم كلام الله تعالى وقوله المطلق الذي نزّله الله تعالى تبياناً لكلِّ شيء ..

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

[النحل : ٨٩]



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

منهج البحث القرآني

رأينا في القسم السابق من هذا الفصل كيف أنَّ الدلالات والبراهين والأحكام والمعاني القرآنيّة التي تحملها كلمات الله تعالى في كتابه الكريم ، متكاملة متعاضدة في تصوير حقيقة المسائل التي تحملها .. ورأينا أنَّ إيماننا وتصوّرنا لأيّ مسألة قرآنيّة يقتضي العودة إلى كليّة القرآن الكريم ، أي تحقيق جميع الصور القرآنيّة المُصوِّرة لجوانب هذه المسألة في الوقت ذاته .. وهذا كما رأينا تحمله العبارة القرآنيّة **﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾** ..

فأيّ حكمٍ أو تصوّرٍ يمكننا استنتاجه من أيِّ صورة قرآنيّة لا بدّ له — حتى يكون سليماً — من عدم مخالفة أيِّ صورةٍ قرآنيّة من الصور التي تصوّر جوانب هذا الحكم .. فالقرآن الكريم روحٌ من أمر الله تعالى ، وبالتالي ينتمي لعالم الأمر الذي لا تجتمع فيه النقائض ، وبالتالي لا يُوجَد فيه أيُّ اختلاف ما بين حكمين أو معنيين ..

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢]

وسننطلق الآن من مبدأ **﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾** في تفسير بعض المسائل القرآنيّة لنرى كيف أنّ فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً سليماً كما يريده الله تعالى لا بدّ له من العودة إلى كليّة القرآن الكريم ، ولنرى كيف أنَّ الصورة القرآنيّة يُنظَر إليها من مناظير الصور الأخرى التي تصوّر جوانب هذه المسألة ، ولنرى كيف تاه بعضهم حينما حاولوا تجاهل الصور الأخرى التي تبيّن فساد تصوّراتهم الخاطئة ..

.. لنقف عند مسألة خلق السماوات والأرض في القرآن الكريم كنموذج نبحثه وفق منهج الكليّة في البحث القرآني **﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾** لنرى من خلاله كيف أنَّ البحث

السليم في القرآن الكريم يقتضي تحقيق جميع الصور القرآنيّة التي تصوّر جوانب المسألة المدروسة ..

إنَّ أوّل ما يجب إدراكه هو أنَّ الوقوف على حقيقة خلق السماوات والأرض هو مسألة مستحيلة ، فلا يقين في هذه المسألة إلاّ ما يخبرنا الله تعالى عنه ..

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [الكهف : ٥١]

وما يجب إدراكه أيضاً هو أنَّ الزمن مخلوقٌ من مخلوقات الله تعالى ، يحكم المادّة وفق انسيابٍ يتعلّق بحركتها ، وأنّ الله تعالى فوق الزمن ومعاييره ، وأنَّ إيجاد الله تعالى للأشياء إنّما يكون بكلمة **﴿ كُن ﴾** ولا يحتاج لأيِّ زمن ..

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

فالمادّة الأولى التي خُلِقَت منها السماوات والأرض ، وُجدَت بكلمة **﴿ كُن ﴾** من الله تعالى ، وما زالت هذه المادّة (المكوِّنة لجسم هذا الكون) تستمدّ حيثيّات وجودها من الخالق سبحانه وتعالى ، فهي موجودة داخل إطار من المكان والزمان – كما رأينا في النظريّة الثانية (القدر) – نتيجة حركة الطاقة التي يُودعها الله تعالى ويحرّكها ضمن إطار المكان الذي تملؤه هذه المادّة ، فلولا قيّوميّة الله تعالى وأمره في كلِّ لحظة ببقاء هذه المادّة في عالم المكان والزمان لزالت هذه المادّة **﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ﴾** [الروم : ٢٥] ..

فالله تعالى يُمسك السماوات والأرض في كلِّ لحظة من الزوال ، عن طريق إعطائها حيثيّات وجودها ..

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر : ٤١]

وما يجب إدراكه – أيضاً – هو أنَّ ورود العبارات القرآنيّة التي تصوّرُ خلقَ الله تعالى للسماوات والأرض عبر الأيّام ، لا يُحِقّ لنا سحب تصوّراتنا – الماديّة المحكومة لقوانين المكان والزمان أثناء تفاعلنا مع الأشياء – على الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ..

إنَّ اليوم هو مقياسٌ زماني مكاني يحكم الأجسام الماديّة في مكانٍ ما ، فاليوم عندنا على الأرض [الذي هو (٢٤) ساعة] يقابل دوران الأرض حول نفسها دورة كاملة ، واليوم في كوكب آخر يعني الزمن المرافق لدوران ذلك الكوكب حول نفسه دورة كاملة .. وهكذا .. فكلمة ﴿ أَيَّامٖ ﴾ والتي تتعلّق بخلق السماوات والأرض ، تعني خضوع المادّة الأولى [التي أوجدها الله تعالى قبل مرحلة الخلق هذه ، تلك المادّة التي خُلقت منها السماوات والأرض] تعني خضوعها لدورات مكانيّة حول نفسها [ست دورات] ، تمايزت من خلالها إلى الهيئة التي نراها الآن ..

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤]

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [يونس : ٣]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ [هود : ٧]

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الرحمن : ٥٩]

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [السجدة : ٤]

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨]

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ﴾ [الحديد : ٤]

ولا يمكن سحب مفهومنا عن اليوم على مسألة ارتباط كلمة ﴿ أَيَّامٍ ﴾ في القرآن الكريم بخلق السماوات والأرض ، فاليوم بمفهومنا هو تعاقب الليل والنهار تحت ضوء الشمس نتيجة دوران الأرض حول نفسها .. بينما في ذلك الوقت الذي خُلِقَت فيه السماوات والأرض ، لم تكن هناك شمس ، وبالتالي لم يكن هناك ليل ولا نهار ..

يجب علينا أن نخلع تصوّراتنا الماديّة المكانيّة الزمانيّة أثناء الحديث عن الذات الإلهيّة ، ويجب علينا أن نسحب – في تصوّراتنا – كلمة ﴿ أَيَّامٍ ﴾ التي ترتبط بخلق السماوات والأرض على دورات المادّة الأولى [التي أوجدها الله تعالى سابقاً] في هيئتها المكانيّة ، دورات كاملة أدّت إلى تشكّل الكون الحالي ..

وما يحدّده علماء الفلك من زمنٍ مرّ على وجود مكوّنات هذا الكون ، هو مسألة أُخرى ، تتعلّق بتغيّر صفات المادّة مع الزمن ، وفق معايير ماديّة بحتة ، ووفق نواميس ندركها كجزئيّات من الناموس الكلّي الذي يحكم حركة هذا الكون .. وهذا التغيّر لصفات المادّة مع الزمن ، إنّما بدأ بعد انتهاء خلق الكون (في الأيام الستّة التي يبيّنها

القرآن الكريم) ، وبعد دوران المادّة الأولى حول نفسها وتمايزها حتى أخذ الكون شكله الحالي ..

فهذا الدوران للمادّة الأولى حول نفسها ، والذي تمّ خلال ستة أيّام (ست دورات كاملة متمايزة) ، لا يمكن إخضاعه لمقاييسنا الزمنيّة ، كإخضاع المادّة الموجودة تحت حواسّنا ومشاهدتنا لهذه المقاييس .. فنحن لم نشهد حقيقة خلق السماوات والأرض عبر الأيّام الستّة التي يُخبرنا الله تعالى عنها في القرآن الكريم ، ولا تُوجَد بين أيدينا مقدّمات عن هذه المسألة يمكننا دراستها ..... وبالتالي ستبقى هذه المسألة خارج مقاييسنا الزمنيّة ، وخارج المعايير الجزئيّة لتغيّر صفات المادّة التي بين أيدينا ..

وما يجب أنْ نُدركَه – أيضاً – هو أنَّ توضّع الأرض الحالي ومكانها في جسم الكون ، مسألة لا يمكن سحبها على توضعها ومكانها في بداية الخلق ، فنحن نعلم أنَّ مكوّنات هذا الكون (بما فيها الأرض) تتحرّك ، وأنَّ كلاً منها يسبح في فلكه ..

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠]

وبالتالي لا يمكن الانطلاق من توضّع الأرض الحالي ومن مكانها في جسم الكون ، كمقدّمة يقينيّة لرسم صورة مراحل خلق السماوات والأرض ، كما هو حال بعض الفرضيّات الغربيّة التي تتغيّر من وقتٍ لآخر .. فهذه المسألة ستبقى خارج مقاييسنا المكانيّة ، وخارج كلّ المعايير الجزئيّة التي نشاهدها ونخضعها لحواسّنا ..

.. إذاً .. لا يمكننا الانطلاق من المادّة الحالية الموجودة بين أيدينا (زماناً ومكاناً) كمقدّمات نعتبرها يقينيّة لرسم صورة مراحل تكوّن السماوات والأرض .. وهذا هو عين ما ينطق به قول الله تعالى ..

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [الكهف / ٥١]

كما نقول للمتاجرين باسم الدين ، الذين يقدّمون أنفسهم علماء يجمعون بين العلم (الفرضيات الغربيّة) والقرآن الكريم ، نقول لهم : عليكم ألاّ تقفزوا فوق صياغة النصوص القرآنيّة الواضحة والجليّة في ذلك ، من أجل موافقة تخيّلات وأهواء ينقضها كتاب الله تعالى جملة وتفصيلاً ... فالقرآن الكريم – في هذه المسألة وغيرها – واضح جليٌّ ، ونصوصه لا تقبل – أبداً – كلَّ محاولات لي الأعناق التي تقومون بها ، من أجل موافقة فرضيات وتخيّلات متعدّدة ومتناقضة ، سيثبت بطلانها لاحقاً ..

.. إنّكم بذلك تسيئون للنصّ القرآني ، سواء علمتم بذلك أم لم تعلموا .. فالمؤمن بكتاب الله تعالى ينطلق – في تفسير آياته – من الالتزام بالصياغة اللغويّة لنصوصه ، وفق منهجيّة ثابتة لا تخرج عمّا يحمله كتاب الله تعالى من دلالاتٍ وأحكام .. وما تقومون به هو مخالفة واضحة لصريح صياغة كتاب الله تعالى من أجل موافقة فرضيات سيثبت بطلانها في يومٍ من الأيام ..

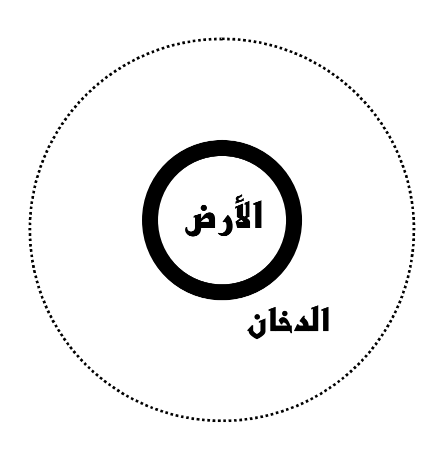
ولنبدأ برسم مراحل مسألة خَلْق السماوات والأرض ، كما تصوّرها لنا الصور القرآنيّة التي تصوِّر جوانب هذه المسألة ومراحلها ، فنأخذ كلّ صورة قرآنيّة لوحدها ضمن سياقها القرآني وضمن المرحلة التي تصوّرها ، ومن ثمّ نقوم بدمج مراحل جميع الصور القرآنيّة المصوِّرة لجوانب هذه المسألة ومراحلها ، لنحصل – إن شاء الله تعالى – على حقيقة المسألة كما ترسمها كلمات الله تعالى (حسب إدراكنا لمدلول الآيات الكريمة) ، بعيداً عن تناقضات التفاسير الموروثة ، وبعيداً عن الفرضيّات الغربيّة التي تتغيّر من حينٍ لآخر .. وبذلك نعمل وفق مبدأ الكليّة في البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ ﴾ ..

.. لننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [فصّلت : ٩ – ١٢]

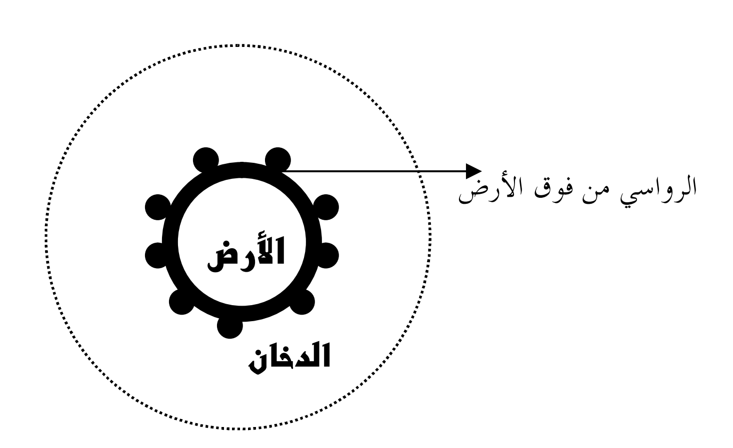
هذه الصورة القرآنيّة ترسم لنا المراحل المتتابعة التالية ..

١ – تمّ خَلْق الأرض في يومين : **﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾** ..



٢ – تمّ جعل الرواسي من فوق الأرض ، أي إيجاد الرواسي دون إرسائها في جسم الأرض ، ودليل ذلك الكلمتان **﴿ مِن فَوۡقِهَا ﴾** في العبارة **﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا ﴾** .. وسنرى إن شاء الله تعالى كيف أنَّ إرساء هذه الرواسي التي وُجِدت في هذه

المرحلة من خلق الأرض ، سيكون في المراحل المتأخّرة من خلق السماوات والأرض ، وبعد خلق السماوات السبع ..



٣ – بارك الله تعالى فيها .. ﴿ **وَبَٰرَكَ فِيهَا** ﴾ ..

٤ – قدَّر الله تعالى فيها أقواتها .. ﴿ **وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا** ﴾ ..

وقد تمّت نهاية هذه المرحلة في أربعة أيّام ، يدخل ضمنها اليومان اللذان خُلقَت فيهما الأرض ، فالصورة القرآنيّة ﴿ **فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ** ﴾ تُبيّن لنا أنَّ كلَّ ما حصل حتى نهاية تلك المرحلة [خلق الأرض من المرحلة الأولى ، وجعل الرواسي في الأرض من فوقها ومباركتها وتقدير أقواتها] هو في أربعة أيّام ..

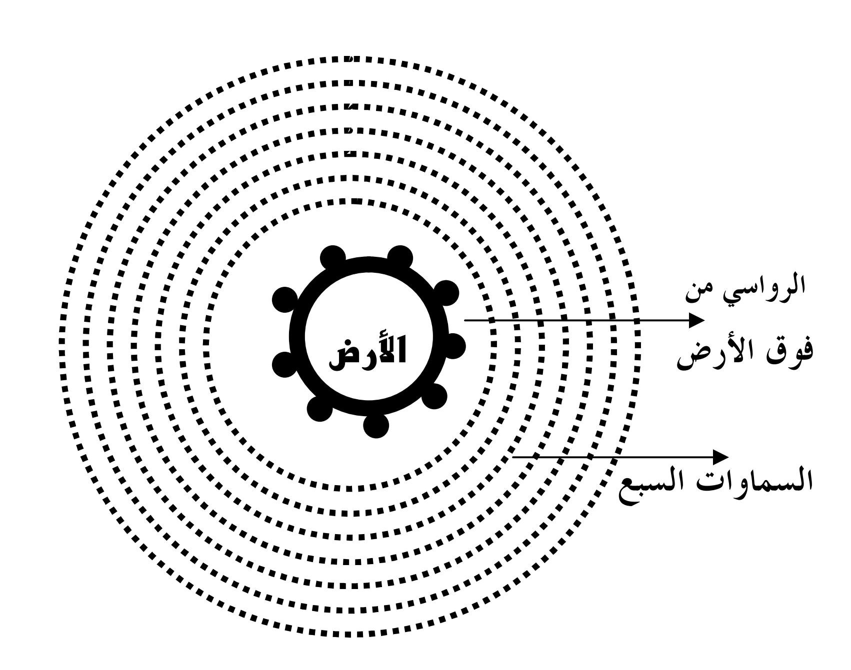
فعندما يقول أحدنا إنَّه قطع زمناً من المحطة الأولى إلى الثانية في يومين ، وإلى الثالثة في أربعة أيّام ، إنّما يعني أنَّ الأيام الأربعة هي من بداية المحطّة الأولى حتى الثالثة .. ولربّ قائل يقول لماذا لم يُخصّص الله تعالى – في قوله – يومين للمرحلة الثانية كما خصَّص للمرحلة الأولى ؟!!! .. نقول : عندما قال الله تعالى إنَّه خلق الأرض في يومين ، فإنّ ذلك يعني أنَّ هذه المرحلة (خلق الأرض) تمّت في يومين ، ولا يعني أنَّ هذين اليومين لم يُخلَق بهما إلاّ الأرض .. أمّا الصورة القرآنيّة ﴿ **فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ**

﴾ فتعني أنَّ الأيام الأربعة دون زيادة أو نقصان صارت مستغرقة في تلك الأعمال حتى نهاية المرحلة الثانية ، فهذه العبارات القرآنيّة تبيّن تداخل المرحلة الثانية مع المرحلة الأولى في الأيام الأربعة ، في حين أنَّ خلق الأرض تمّ خلال اليومين الأوّلين .. هذا ما نقرؤه من صياغة هذه العبارات القرآنيّة ..

٥ – الاستواء إلى السماء وهي دخان ، وتخييرها والأرض الإتيان طوعاً أو كرهاً ، واختيارهما الإتيان طوعاً .. **﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾** ..

٦ – قضاء الله تعالى السماوات السبع في يومين ، وأوحى في كلِّ سماء أمرها ..

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ ﴾ ..



.. ولننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات : ٢٧ – ٣٣]

.. إنّنا نرى أنَّ هذه الصورة القرآنيّة تبدأ من مرحلة بناء السماء ، حسب المراحل التالية :

١ – بناء السماء : ﴿ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ ..

٢ – رفع سمكها وتسويتها : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ ..

٣ – غطش ليلها وإخراج ضحاها : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ ..

٤ – دحي الأرض : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ ..

٥ – إخراج ماء الأرض منها وكذلك المرعى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ ..

٦ – إرساء الجبال ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ ، تلك الجبال المخلوقة في مرحلة سابقة ..

فكما رأينا في الصورة القرآنيّة الأولى أنَّ الله تعالى جعلَ في الأرض رواسي من فوقها دون إرسائها في جسم الأرض ، وذلك قبل الاستواء إلى السماء وتسويتها .. هذه الجبال التي جُعلت من فوق الأرض تمّ إرساؤها في هذه المرحلة ، فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة تُبيّن مرحلةً متأخّرة عن المرحلة التي تبيّنها العبارة القرآنيّة في الصورة السابقة ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا ﴾ ..

والصورة القرآنيّة التالية تؤكّد أنَّ خَلْقَ السماوات مرحلة تسبق إرساء رواسي في الأرض .. تلك الرواسي التي جُعلَت من فوق الأرض [دون إرساء في جسم الأرض] قبل تسوية السماء كما رأينا ..

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : ١٠]

وما نراه في هذه الصورة القرآنيّة أنَّ إنزال الماء من السماء على الأرض لِيُنْبِتَ اللهُ تعالى فيها من كلِّ زوجٍ كريم ، كان بعد إلقاء الرواسي في الأرض ، بينما في الصورة القرآنيّة السابقة رأينا أنَّ إخراج ماء الأرض منها ومرعاها منها ، كان قبل إرساء الجبال فيها .. وهنا علينا أن نُميّز بين ماء الأرض الذي أخرجه الله تعالى منها ومرعى الأرض الذي أخرجه الله تعالى منها ، من جهة ، وبين الماء الذي أنزله الله تعالى من السماء لِيُنبت في الأرض من كلِّ زوج كريم ، من جهةٍ أُخرى ..

والصورة القرآنيّة التالية تؤكّد لنا أنَّ خَلْقَ جميع موادّ الأرض ومكوّناتها إنّما كان قبل تسوية السماء إلى سبع سماوات ، وبالتالي فالجبال كرواسي للأرض خُلقَت قبل تسوية السماء سبع سماوات ، فما تأخّر [كما رأينا] هو إرساؤها في جسم الأرض ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٩]

ولننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠ – ٣٢]

هذه الصورة القرآنيّة ترسم لنا مراحل الخلق بعد فتق السماوات والأرض ، وذلك حسب الترتيب التالي ..

١ – كانت السماوات والأرض رتقاً : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ ..

٢ – فتقهما الله تعالى : ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ ..

٣ – جعل الله تعالى كلَّ شيءٍ حيٍّ من الماء : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا ﴾ ..

٤ – جعلَ الله تعالى رواسي في الأرض : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ ..

٥ – جَعل فيها فِجاجاً سبلاً : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ..

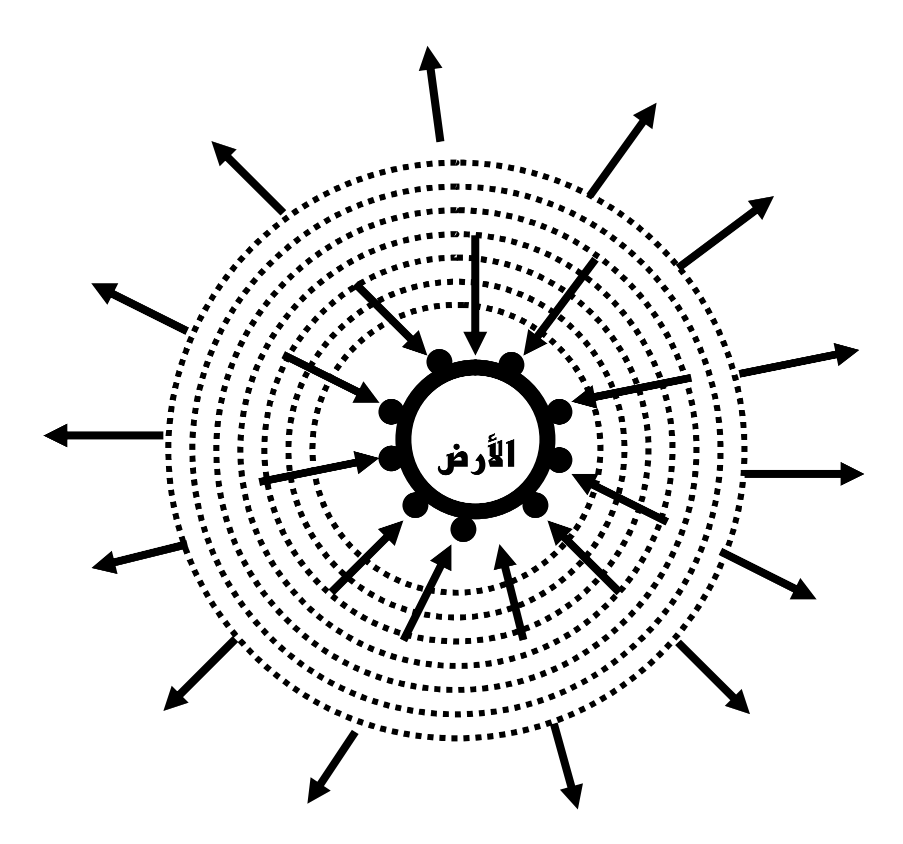
٦ – جعل الله تعالى السماء سقفاً محفوظاً : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ ..

وهكذا نرى أنَّ السماوات السبع كانت رتقاً مع الأرض قبل فتقهما .. فتسوية السماء إلى سبع سماوات هي مرحلة سابقة لمرحلة فتق السماوات عن الأرض .. ونرى أيضاً أنَّ جَعْلَ الرواسي في الأرض هي مرحلة لاحقة لفتق السماوات عن الأرض ..

ومسألة اتّساع السماء التي بدأت بفتقها عن الأرض ، ما زالت مستمرّة ..

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧]

إذاً بفتق السماوات عن الأرض تشكّلت قوّتان متعاكستان تماماً ، القوّة الأولى هي القوّة الجاذبة والتي أدّت (وما زالت تؤدّي) إلى إرساء الجبال [التي جعلَها الله تعالى في مرحلة سابقة] في جسم الأرض ، والقوّة الثانية المعاكسة والموازنة لها هي القوّة النابذة والتي أدّت (وما زالت تؤدّي) إلى اتّساع السماء ..



.. هذا الناموس الذي يحكم حركة الكون الآن ، والذي سمّاه الله تعالى في القرآن الكريم بـــ : ﴿ ٱلصُّور ﴾ كما بيّنا ، سيُنفَخُ فيه لتنعكس قوانينه رأساً على عقب ..

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨]

فالسماء التي تتّسع الآن ، ستطوى ليعود الخلق إلى النقطة التي بدأ منها .. بمعنى أنَّ القوّة النابذة التي تؤدّي – الآن – إلى اتّساع السماء ، ستنعكس إلى قوّة جاذبة تُطوى فيها السماء كطي السجل للكتب ، لتعود إلى أوّل الخلق ..

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤]

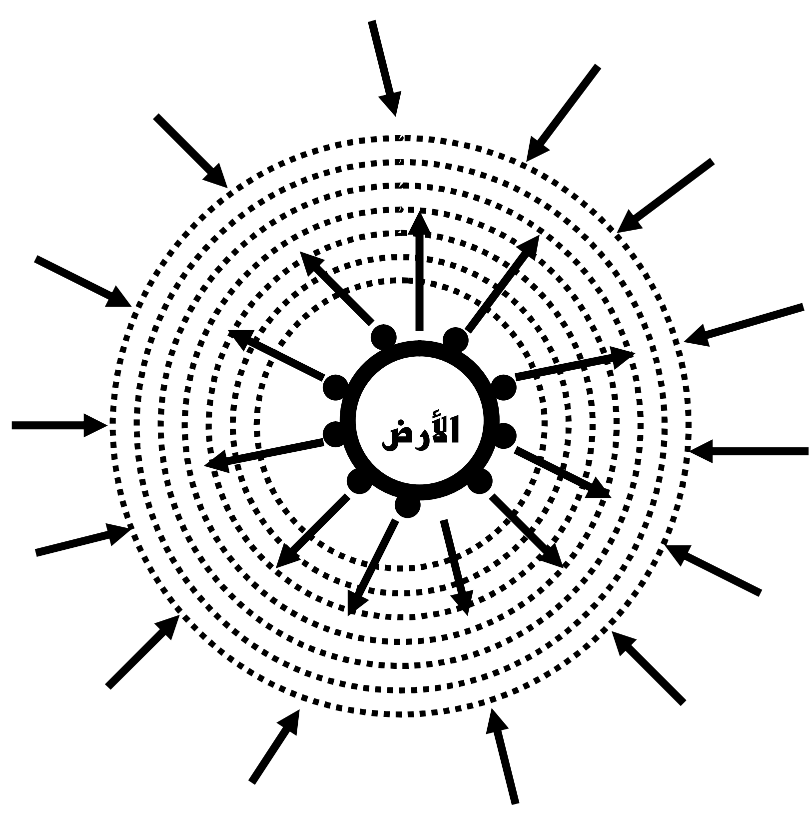
والقوّة الجاذبة التي أرست (وما زالت ترسي) الجبال في جسم الأرض ، ستنعكس إلى قوّة نابذة ، تُخرِج الجبال من جسم الأرض ، لتعود كثيباً مهيلاً من فوق الأرض كالعهن المنفوش ، والإنسان الذي يسير فوق الأرض محكوماً بقانون الجاذبيّة سيكون عند بداية الساعة كالفراش المبثوث ، حيث قوّة الجاذبيّة ستتحوّل إلى قوّة نابذة ..

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩ – ١٠]

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴾ [المزمّل : ١٤]

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ : ١٩ – ٢٠]

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة : ٤ – ٥]



ومسألة استقلاليّة خلق الجبال عن خلق الأرض مسألة تتأكّد لنا من خلال عطف القرآن الكريم لها على الأرض .. صحيحٌ أنَّ الجبال جزءٌ من الأرض ، ومادّتها من موادّ الأرض ، ولكنَّ الله تعالى يصفها بخصوصيّةٍ مستقلّة عن الأرض ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقّة : ١٤]

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴾ [المزمّل : ٧٣]

وبدمج جميع الصور القرآنيّة المصوّرة لجوانب هذه المسألة ، أي بالنظر إليها من منظار منهج البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ، نرى مراحل هذه المسألة – حسب إدراكنا لدلالات الآيات الكريمة – على الشكل التالي ..

١ – المادّة الأولى أُوجدت بكلمة ﴿ كُن ﴾ من الله تعالى ، وهي موجودة قبل المراحل التي نحن بصدد دراستها .. ﴿ **بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [البقرة : ١١٧]

٢ – خَلَق الله تعالى الأرض في يومين .. ﴿ **خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ** ﴾ ..

٣ – جَعَلَ فيها رواسي من فوقها ، دون إرسائها في جسم الأرض .. ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا** ﴾ ..

٤ – بارك فيها .. ﴿ **وَبَٰرَكَ فِيهَا** ﴾ ..

٥ – قدّر فيها أقواتها .. ﴿ **وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا** ﴾ ..

٦ – الاستواء إلى وهي دخان وتخييرها هي والأرض بالإتيان طوعاً أو كَرْهاً ، واختيارهما الإتيان طوعاً .. ﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ** ﴾ ..

٧ – بناء السماء ورَفْعُ سَمْكَها وتسويتُها ، وإغطاشُ ليلِها وإخراجُ ضحاها .. ﴿ **ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا** ﴾ ..

٨ – تسويتها سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كلٍّ سماءٍ أمرها .. ﴿ **فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا** ﴾ .. وفي هذه المرحلة تمَّ خَلْقُ السماوات بغير عَمَدٍ نراها .. ﴿ **خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ ..

٩ – تزيين السماء الدنيا بمصابيح .. ﴿ **وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ** ﴾ ..

وحتّى هذه المرحلة فإنَّ السماوات والأرض كانتا رتقاً لم تُفتقا بعد .. بمعنى لم يحدث الانفجار الذي كوّن قوّتين متعاكستين (جاذبة ونابذة) كما رأينا ..

١٠ – فتق السماوات عن الأرض ، وتكوّن القوّتين المتعاكستين (الجاذبة والنابذة) .. ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا** ﴾ .. ونتيجة لذلك بدأت المرحلة التالية ..

١١ – اتّساع السماء الذي ما زال حتى الآن .. ﴿ **وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ ..

١٢ – ونتيجةً للفتق تمّ دحي الأرض .. ﴿ **وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ** ﴾ ..

١٣ – ونتيجةً للفتق تمَّ إخراج ماء الأرض ومرعاها منها .. ﴿ **أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا** ﴾ ..

١٤ – ومع هذا تمَّ جعل كلّ شيءٍ حيٍّ من الماء .. ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ** ﴾ ..

١٥ – ونتيجةً للفتق تمَّ إرساء الجبال (التي كانت من فوق الأرض) في الأرض ، حتى لا تميد بالمخلوقات .. ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ** ﴾ .. ﴿ **وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ** ﴾ .. ﴿ **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** ﴾ ..

١٦ – جعل فيها فِجاجاً سُبُلاً .. ﴿ **وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا** ﴾ ..

١٧ – جعل السماء سقفاً محفوظاً .. ﴿ **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا** ﴾ ..

١٨ – بثَّ في الأرض من كلِّ دابّة .. ﴿ **وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ** ﴾ ..

١٩ – أنزل من السماء ماءً ليُنْبِتَ في الأرض من كلِّ زوجٍ كريم .. ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ﴾ ..

وجميع المراحل ابتداءً من تسوية السماء سبع سماوات ، حتى إرساء الجبال في الأرض ، تمّت في اليومين الأخيرين من أيام خلق السماوات والأرض التي استغرقت ستة أيّام ..

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** ﴾ [ق : ٣٨]

وكما قلنا فإنَّ هذه المراحل لا يُمكن إخضاعها لمقاييسنا الزمانيّة والمكانيّة التي نقيس بها تغيّر صفات المادّة الواقعة تحت حواسّنا ، وذلك وفق معايير جزئيّة لا تخرج – في النهاية – عن تصوّراتنا الحسيّة المحكومة بقوانين الزمان والمكان ، وصفات المادّة الموجودة بين أيدينا هي نتائج لتلك المراحل من الخلق ، وبالتالي فإنّ الانطلاق من هذه النتائج باتّجاه المقدّمات التي أدّت إلى هذه الصفات لا يخلو من تأثير تصوّراتنا المُسبقة الصنع التي نفرضها في محاولتنا للوصول إلى تلك المقدّمات .. فنحن لم نشهد هذه المراحل ، ولا تُوجَد بين أيدينا مقدّمات لها يمكننا دراستها وإخضاعها للتجارب ، ولا نعلم عن هذه المسألة سوى ما يخبرنا الله تعالى عنها ..

ولذلك يجب عدم الخلط بين ما يبيّنه لنا كتاب الله تعالى من مراحل خلق السماوات والأرض من منظار علم الله تعالى الذي هو فوق مقاييسنا المجتزأة ، وبين ما يقوله علماء الفلك من زمنٍ مرَّ على مكوّنات هذا الكون ، انطلاقاً من النظر إلى صفات المادّة التي بين أيدينا من مناظير لا يمكن اعتبارها ناموساً كاملاً يشمل حركة الكون (كلّ الكون) حتى وقتنا الحاضر ..

من خلال بحثنا لهذه المسألة نرى أنَّ القرآن الكريم تُفهم دلالاته وأحكامه ومعانيه بكليّته ، ولا يمكن تجزئة آياته بشكلٍ مستقلٍّ عن بعضها بعضاً .. فلو اتبعنا منهج البعضيّة في هذه المسألة ، وفهم الآيات القرآنيّة بشكلٍ مستقلٍّ عن بعضها بعضاً ، لأوهم ذلك بوجود تناقض بين الآيات الكريمة .. ففي مسألة الجبال رأينا أنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوۡقِهَا** ﴾ تسبق مرحلة تسوية السماوات ، وفي الصور الأخرى رأينا وصفاً للجبال بعد مرحلة تسوية السماوات .. وفي مسألة الماء رأينا كيف أنّه علينا أن نُميّز بين ماء الأرض الذي أُخرج منها نتيجة دحيها بعد الفتق .. ﴿ **وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا** ﴾ .. حيث يُضاف هذا الماء للأرض ويأتي بصيغة الإخراج منها ﴿ **أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا** ﴾ .. علينا أنّ نُميّز بين هذا الماء وبين الماء الذي أُنزل من السماء بعد هذه المرحلة بمراحل كما رأينا ﴿ **وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٍ كَرِيمٍ** ﴾ ..

وقد رأينا كيف أنَّ منهج الكليّة في البحث القرآني قادنا إلى إدراك حقيقة مهمّة جداً ، هي أنَّ الجبال مرّت بمرحلتين ، الأولى خَلْقُها وقد تمّت قبل تسوية السماء إلى سبع سماوات ، والثانية إرساؤها في جسم الأرض ، وقد تمّت بعد تسوية السماوات السبع .. ورأينا أيضاً أنَّ منهج الكليّة في البحث القرآني قادنا إلى إدراك حقيقة أُخرى هي أنَّ خلق

الأرض سبق تسوية السماوات السبع ، بينما دحي الأرض وإخراج مائها ومرعاها منها تأخّر عن تسوية هذه السماوات ..

❁ ❁ ❁

.. ولنقف عن مسألة أُخرى ، هي التمييز – في كتاب الله تعالى – بين دلالات كلمة : **﴿ إِخْوَانٍ ﴾** ، ودلالات كلمة : **﴿ إِخْوَة ﴾** ..

.. القاسم المشترك بين مشتقّات الجذر اللغوي : (أ ، خ ، و) ، هو الانتمـــاء إلى مشترَكٍ واحدٍ أعلى ، يعودُ إليه جميعُ المنتمين إلى ذلك المُشترَك ، دون أن يقتضي ذلـــك حتميّة مماثلةِ الأخ لأخيه كقيمةٍ شخصيّة ..

.. فالأخ كنسبٍ دمويٍّ هو الشريك في الولادة من أبٍ وأم ، بمعنى الانتماء إلى ذات الأب والأم اللذين ينتمي إليهما الأخ الآخر .. ولذلك فالأخ من الأب هو شريك فقط في العودة إلى أبٍ واحد :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [يوسف : ٥٩]

.. والأخوّةُ تكونُ نتيجةَ الانتماءِ إلى مشتركٍ يعودُ إلى مسألةٍ واحدة كقضيّةٍ يرجعُ إليها الأخ وأخوه .. ففي قضيّةِ القِصَاص نرى أنَّ كلمةَ أخ تعني الاشتراك في قضيّةِ العفو ما بين مَن أعفى ومن عُفي له ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٨]

.. والانتماء إلى مُشتركٍ واحدٍ هو الدخولُ في النار ، يجعلُ من الأمّةِ الداخلةِ في النار أختاً لكلِّ أمّةٍ تدخلُ النار ..

﴿ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

.. وانتماءُ آياتِ الله تعالى التي يريها جلَّ وعلا للبشر إلى مُشتركٍ واحدٍ هو رؤيةُ البشر لها ، يجعلُ من كلٍّ منها أختاً لغيرها من الآيات ..

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٨]

.. والانتماء إلى مُشتركٍ واحدٍ هو الوقوع في ساحةِ الغيبة ، يجعلُ ممّن اغتابَ أخاً لِمن اُغتيب ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحجرات : ١٢]

.. وهذا الانتماءُ المُشترَك الذي بسببه يُوصَفُ الأخُ أخاً لأخيه ، مُجَرَّدٌ عن التوافق والتعارض في ساحةِ ذلك المُشترَك .. فقد يكونُ الانتماءُ باتّجاهٍ واحدٍ نحو ذلك المُشترَك ، بمعنى التوافق نحو حقيقةِ المُشترَك :

﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٨]

.. وقد يكونُ الانتماءُ باتّجاهين متناقضين نحو ذلك المُشترَك ، بمعنى التعارض نحو حقيقةِ المُشترَك .. فهودٌ عليه السلام وُضِعَ معَ عادٍ في إطار علاقةٍ تعودُ إلى مشترَكٍ أعلى ، هو الامتحانُ في عبادةِ الله تعالى والدعوة لذلك .. وعلى الرّغم من التعارض

والاختلاف بينه وبين عاد ، فإنَّ هذا المشترَكَ الأعلى من الانتماء جعلَ هوداً أخاً لعاد ، دون أن يجعلَ عاداً في مكان الأخ لهود عليه السلام ..

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥]

.. وعلى الرّغم من التعارض والاختلاف بين صالحٍ عليه السلام وبين ثمود ، فإنَّ هذا المشترَكَ الأعلى من الانتماء لامتحانٍ في عبادةِ الله تعالى والدعوة لذلك ، جعلَ صالحاً أخاً لثمود ، دون أن يجعلَ ثمود في مكان الأخ لصالح عليه السلام ..

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣]

.. وعلى الرّغم من التعارض والاختلاف بين شعيبٍ عليه السلام وبين مَدين ، فإنَّ هذا المشترَكَ الأعلى من الانتماء لامتحانٍ في عبادةِ اللهِ تعالى والدعوة لذلك ، جعلَ شعيباً أخاً لمدين ، دون أن يجعلَ مدين في مكان الأخ لشعيب عليه السلام ..

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٥]

.. وكذلك الأمر بالنسبةِ لنوحٍ عليه السلام ..

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٠٦]

.. أمّا لوطٌ عليه السلام فكان أخاً لقومِه : ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦١]

.. وكانوا إخواناً له — كما سنرى لاحقاً — بسبب تفاعلهم الحسيِّ السلبي في المُشترك الذي بُعث لوطٌ عليه السلام من أجله ..

.. والعلاقة بين الأخ وأخيه في إطار ذلك المُشتَرَك الذي ينتمي إليه كلٌّ من الأخ وأخيه ، إمّا أن تكونَ جامدةً غَيرَ مُفَعَّلة في إطار ذلك المُشتَرَك ، أي لا تتجاوزُ مُجرّدَ الانتماءِ إلى ذلك المُشتَرَك ، وهنا يكون جمع كلمة أخ — في هذه الحالة — على وزن (فِعلة) ، أي يكون الجمع هو كلمة (إخوة) .. وهذا الجمع يعني أنَّ الإخوةَ يعودون إلى انتماءٍ واحد ، دون أن يقتضي ذلك تفاعلاً بينهم ضمن إطارِ المشترك في ذلك الانتماء الذي وُصفوا بسببها بالإخوة ..

.. ففي الإخوّةِ كنسبٍ دمويٍّ يعني العودةَ إلى انتماءٍ واحد هو الولادة من أب وأم ، نرى أنَّ كلمة (إخوة) على وزن (فعلة) هي التي تستخدم في القرآن الكريم لمسألةِ الميراث ، وليس كلمة (إخوان) .. فسواءٌ كان هناك تفاعلٌ وتواصلٌ بين الإخوة ، أم لم يكن ، فإنَّ ذلك لا يُؤثِّرُ في مسألةِ الميراث :

﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ [النساء : ١١]

﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ ﴾ [النساء : ١٧٦]

.. وإخوةُ يوسفَ عليه السلام لم يكن بينهم وبين يوسف تفاعلٌ وتواصلٌ في إطار الأخوّة ، فلم يُعطوا الأخوّةَ بينهم حقَّها من التواصل ، ولذلك وُصفوا بالإخوة ، و لم يُوصفوا بالإخوان :

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يوسف : ٥]

﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف : ٧]

﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف : ٥٨]

﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠]

.. والمؤمنون في كُلِّ العالم يعودون بهذه الصفة إلى انتماءٍ واحدٍ هو الاطمئنان والتسليم الغيبي بوجود الله تعالى ، ولكنّهم – كمؤمنين موزّعين في كلِّ أنحاء العالَم وينتمون لأديان مختلفة – لا يُوجَدُ بينهم تفاعلٌ وتواصلٌ في ذلك .. ولذلك يُجمعون بكلمة إخوة على وزن (فعلة) ، وليس بكلمة إخوان :

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠]

.. أمَّا إنْ كان هناك تواصلٌ وتفاعلٌ بين الأخ وأخيه وإعطاءُ الحقِّ الكامل لمفهوم الانتماء الذي يعودُ إليه الأخ وأخوه ، فإنَّ كلمة أخ في هذه الحالة تُجمع إخوان على وزن (فعلان) .. فبالانتقال من مُجرّد الانتماء إلى مُشتَرَكٍ واحدٍ يُوصَفُ من خلالِه الأخُ بأنَّه أخٌ لأخيه ، إلى التفاعل بين الأخ وأخيه من تواصلٍ وإعطاءِ الحقِّ الكامل لذلك المُشترَك ، يتمُّ الانتقالُ من الإخوة إلى الإخوان ..

.. فالمؤمنون بعد أن ألَّفَ الله تعالى بين قلوبهم ، أصبحوا إخواناً بواسطةِ نعمةِ الله تعالى في تفاعلهم ضمن إطار هذا التأليف ..

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣]

.. وَطَلَبُ المغفرة للمؤمنين هو تفاعلٌ معهم في صفة الإيمان ، ولذلك نرى صيغة الإخوان وليس الإخوة ..

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠]

والتفاعلُ بين أصحاب الجنّة وتقابلُهُم على السرر ، يجعلهم إخوانا ..

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧]

.. والمبذِّرون بكينونتهم هذه يشتركون مع الشياطين بصفةٍ يتفاعلون معهم في إطارها ، ولذلك يُوصفون بأنّهم بهذه الكينونة هم إخوانٌ للشياطين ..

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٧]

.. واليتامى يُوصفون بالإخوان بعد التفاعل معهم وبعد مخالطتهم ..

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٠]

.. والإخوان في الدين يكونون نتيجةَ تفاعلهم مع إخوانهم في إطار التوبة وإقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة ..

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١]

.. وقوم لوط كانوا في تفاعلٍ حسّيٍّ سَلبيٍّ مع لوط عليه السلام في مسألةِ إتيان الذكران ، تلك المسألة التي حذّرهم منها لوطٌ عليه السلام ، وأُهلكوا بسببها ، ولذلك هم القوم الوحيدون الذين وُصفوا بأنّهم إخوانٌ للرسول الذي بُعثَ فيهم .. فتفاعلهم الحسيّ السلبيّ مع ما بُعث به لوطٌ عليه السلام ، جعلهم إخواناً له ..

﴿ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴾ [ق : ١٣]

.. وهذا المعنى المُجرّد للإخوان ، نستشفّه أيضاً من النصوص القرآنيّة التالية ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران : ١٥٦]

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٨]

﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٢]

﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ ﴾ [النور : ٦١]

﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ ﴾ [الأحزاب : ٥]

﴿ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الأحزاب : ١٨]

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الحشر : ١١]

ولذلك اُستخدمت كلمة إخوان — في القرآن الكريم — لوصف التفاعل بين الأخوة الذين يعودون لأب وأم ، وذلك نتيجة تفاعلِهم في إطار مسألةٍ مُشتركة .. فالمرأةُ تُبدي زينتها لإخوانها ولبني إخوانها في حال عِلمِ إخوانها وبني إخوانها بها .. بمعنى آخر .. لو لم يكن يعلم بعضُ أخوتها أو بعض بني أخوتها أنّها أختهم أو عمّتهم لسببٍ من البعد ، لحرم عليها أن تُبدي زينتها لهم ، لأنّهم — في هذه الحالة — أخوتها وليسوا إخوانها ، ونظرتهم — في هذه الحالة — لها لا تختلف عن نظرتهم لأيّ امرأة أجنبيّة .. هذا من جهة .. ومن جهةٍ أخرى إن علمت المرأةُ أن أخاً لها أو ابنَ أخ لا يعتبر قيمةً للأخوّة ، بمعنى أنّه إنسانٌ شاذ ينظرُ إليها كنظرة أيّ غريب ، فإنّه يُحرّمُ عليها أن تبدي زينتها له ، لأنّه في هذه الحالة المفترضة يُعدّ من إخوتها أو من بني إخوتها ، وليس من إخوانها أو من بني إخوانها .. ولذلك نرى عظمة الصياغة القرآنيّة تُصوِّرُ لنا هذه الحالة بصيغة الإخوان وليس بصيغة الأخوة ..

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١]

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٥]

.. أمّا في مسألةِ التحريم ، فنرى أنَّ الصياغة تأتي : ﴿ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ و لم تأت بجمع الإخوة ولا بجمع الإخوان ، وذلك بإعادة المسألة إلى جذرها الأوّل ..

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ [النساء : ٢٣]

.. إذاً .. في كتاب الله تعالى تُستخدَمُ كلمةُ الإخوان دون كلمة الإخوة ، حتّى بين المولودين من أبٍ وأم ، لإلقاء الضوء على حالة التفاعل والتواصل بينهم في مُشتركٍ ما ، ولتمييزهم عن الإخوة الذين لا يجمعهم ذلك المشترك ..

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾

وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢ – ٨٧]

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

وفي القرآن الكريم يأتي وزن : (فعلان) بمعنى ممارسة الفعل وتواصلَه ، وسنختار – دون تعليق – بعض النصوص القرآنيّة الحاملة لهذا الوزن (فعلان) لنرى هذه الحقيقة ..

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة : ٦٠]

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : ٥]

﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر : ١٥]

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥]

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [التوبة : ٣٤]

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩]

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴾ [طه : ٨٦]

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٤]

❁ ❁ ❁

وإنَّ عدم إدراك الأحكام والمعاني والدلالات التي تحملها كلمات الله تعالى عبر منهج الكليّة في البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ ﴾ ، قد يُوهم أحياناً بأنَّ بعض العبارات القرآنيّة تحمل معنىً متناقضاً تماماً للمعنى الذي تحمله عبارات أُخرى ..

ففي الصورة القرآنيّة ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء : ١٦] ، لا بدَّ أن ننظر إلى دلالاتها من منظار باقي الصور القرآنيّة الأخرى التي تصوِّر جوانبها الأخرى ، حين ذلك نضبط تصوّراتنا تجاهها بالاتّجاه السليم ..

العبارة القرآنيّة ﴿ **أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا** ﴾ التي تصوِّر أمر الله تعالى ، تُرى من مناظير الآيات الكريمة المبيّنة لحقيقة أمر الله تعالى ، فأمر الله تعالى هو بالطاعة والعدل والإحسان ، وليس بالفسق والعصيان ..

﴿ **وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٨]

﴿ **۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل : ٩٠]

وسنّة الله تعالى التي لا تتبدّل ولا تتغيّر في هلاك القرى لا تكون إلاَّ بعد أن يبعث الله تعالى في أمِّها رسولاً حاملاً أمر الله تعالى بالحقّ واتّباعه ، وبعد أن تعصي القرى أمر الله تعالى وتظلم فيه ..

﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ** ﴾ [القصص : ٥٩]

إذاً .. أمر الله تعالى في العبارة القرآنيّة ﴿ **وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا** ﴾ هو أمْرُه تعالى بالطاعة واتّباع الرسل ، والعبارة القرآنيّة ﴿ **فَفَسَقُواْ فِيهَا** ﴾ تعني أنّهم خرجوا على أمر الطاعة الذي أمرهم به رسل الله تعالى ، فأمر الله تعالى هو بالطاعة واتّباع المنهج ، وليس بالفسق والعصيان ... والعبارة القرآنيّة ﴿ **فَفَسَقُواْ فِيهَا** ﴾ تؤكّد صحّة ما نذهب إليه ، فهي تعني الخروج عن الأمر الذي طُلب منهم ، وبالتالي طُلبت منهم الطاعة فخرجوا عن الأمر ، وبالتالي حقّ عليها القول فدمّرت تدميرا .. ﴿ **فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا** ﴾ ..

❁ ❁ ❁

.. ولننظر إلى الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣]

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧]

الصورة الأولى لا يمكن إدراك معانيها إلاّ من منظار الصورة الثانية ، وإلاّ قد يتوهّم بعضهم بوجود تناقض بين هاتين الصورتين القرآنيّتين ..

الصورة الأولى تُبيّن لنا أنَّ بعضَ الذين حُملوا مع نوحٍ عليه السلام لهم ذريّة ، والصورة الثانية تبيّن لنا أنّه لم يبقَ إلاَّ ذريّة نوحٍ عليه السلام .. وبدمج الصورتين مع بعضهما نرى أنَّ الصورة الأولى تُبيّن لنا أولاد نوح قبل الطوفان ، الذين حُملوا معه في السفينة ، فهؤلاء أنجبوا بعد الطوفان شأنهم شأن أبيهم نوح عليه السلام ، ولذلك فذريّتهم بعد الطوفان هي من ذريّة نوح ، وهذا لا يتعارض أبداً مع الصورة الثانية ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ .. فالباقون هم ذريّة نوح عليه السلام ، وفي ذلك لا فارق بين ذريّة أبنائه الذين حُملوا معه في السفينة وبين ذريّته ..

وهكذا نرى أنَّ القرآن الكريم روحٌ كاملةٌ لا تتجزّأ ، فجميع صوره متكاملة متعاضدة في وصف المسائل التي يحملها ، ومنهج البحث القرآني السليم هو المنهج المحمول بقوله تعالى ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ..

❁ ❁ ❁

.. ولنأخذ مسألةً أُخرى لنرى كيف أنّ عدم اتّباع منهج البحث الكلّي في كتاب الله تعالى ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ وفرض بعض الأفعال التي تمّت في الجيل الأوّل على دلالات النصوص القرآنيّة ، يصل بنا إلى نتائج لا يحملها النصّ القرآني ..

.. هذه المسألة هي مسألة قطع يد السارق ، وقد وردت في الآية الكريمة ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلاً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨]

ذهب جمهور العلماء إلى وضع شروط القطع ، فقالوا : القطع لا يجب إلاّ عند شرطين : قدر النصاب ، وأن تكون السرقة من الحرز .. وقال آخرون (مثل ابن عبّاس وابن الزبير والحسن البصري) : القدر غير معتبر ، فالقطع واجب في سرقة القليل والكثير ، والحرز أيضاً غير معتبر ، وتمسّكوا بعموم هذه الآية الكريمة ..

.. والذين قالوا بوجوب شرط قدر النصاب ، اختلفوا في قدر هذا النصاب ، فقال الشافعي [نقلاً عن تفسير الفخر الرازي] : يجب القطع في ربع دينار ، وقال أبو حنيفة : لا يجوز القطع إلاّ في عشرة دراهم مضروبة ، وقال مالك وأحمد وإسحق : إنهّ مقدّر بثلاثة دراهم ، أو ربع دينار ، وقال ابن أبي ليلى : إنّه مقدّر بخمسة دراهم ، وكلّ واحدٍ من هؤلاء المجتهدين يطعن في الخبر الذي يرويه الآخر ..

واختلفوا أيضاً ، هل يُجمَع بين القطع والغرم ، قال الشافعي : أُغرم السارق ما سرق ، وقال أبو حنيفة والثوري وأحمد وإسحق : لا يجمع بين القطع والغرم ، فإن غرم فلا قطع ، وإن قطع فلا غرم ، وقال مالك : يقطع بكلّ حال ، وأمّا الغرم فيلزمه إن كان غنيّاً ، ولا يلزمه إن كان فقيراً .. وأباح بعضهم إيقاف هذا الحكم في ظروفٍ محدّدة .. كما فعل عمر بن الخطّاب ..

وكلّ ذلك تتناقله الأمّة وكأنّه نصوصٌ قرآنيّة لا يجوز تجاوزها ، دون أيِّ تفعيلٍ للعقل في تدبّر كلمات الآية الوحيدة في كتاب الله تعالى ، التي تحمل حكم قطع أيدي السارق ..

لننظر في الصياغة اللغويّة لهذه الآية الكريمة :

[١] – هذه الآية الكريمة مجملة ، فلا يُذكَر بظاهر صياغتها اللغويّة القدر المسروق الذي يبدأ عنده القطع ، ولا يُذكر فيها أيّ اليدين تُقطع ، هل اليمنى أم اليسرى ، ولا يُحدّد فيها مقدار ما يُقطع من اليد ، هل إلى الأصابع ، أم إلى الكف ، أم إلى الساعدين ، أم إلى المرفقين ، أم إلى المنكبين .. فقوله تعالى **﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾** هو قولٌ مُجمل يحمل كلَّ الاحتمالات التي تدور داخل إطار الصياغة اللغويّة لهذه العبارة القرآنيّة ..

[٢] – العبارة القرآنيّة **﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾** لا يمكن أن تُحصر دلالاتها بالقطع الحسّي دون غيره ، فذلك سيؤدّي إلى قطع الأيادي من المنكبين ، فقوله تعالى **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾** [المائدة : ٦] ، يؤكّد أنّ الأيادي تمتدّ إلى ما بعد المرافق ، فالله يريد منّا أن نغسل أيدينا إلى المرافق ، أي أن نغسل جزءاً من أيدينا ، الذي هو إلى المرافق ..

وفي المسألة التي بين أيدينا ، نرى أنَّ النصّ هو **﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾** ، فالله تعالى لم يقل (فاقطعوا يديهما إلى كذا) .. إذاً العبارة القرآنيّة **﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾** تحمل دلالات أوسع ممّا تمّت قراءته منها خلال التاريخ ..

[٣] – العبارة القرآنيّة **﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾** نراها بصيغة مُثنى الجمع ، فكلمة (أيدي) فيها تُبيّن لنا الجمع ، والضمير (هما) يبيّن لنا المثنى ، فالله تعالى لم يقل (فاقطعوا يديهما) بصيغة المثنى فقط ، أو (فاقطعوا أيديهم) بصيغة الجمع فقط ، إنّما يقول جلّ وعلا **﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾** .. وفي هذا دليلٌ آخر على ضرورة تدبّر ما تحمله هذه العبارة من دلالات ..

[٤] – العبارة القرآنيّة ﴿ **جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا** ﴾ ضمن إطار السياق ﴿ **فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا** ﴾ تبيّن التوافق بين درجة عقوبة القطع من جهةٍ ، وبين درجة السرقة والطريقة التي تمّت بها من جهةٍ أُخرى ، فالقطع يجب أن يكون جزاءً موافقاً للسرقة ، أي يجب أن نميّز في عقوبة القطع بين سرقة وسرقة ، فليس من المعقول أنّ من سرق الحدّ الأدنى من القدر الموجب للقطع تتساوى عقوبته مع من سرق المبالغ الطائلة .. إذاً .. لا بدّ من الوقوف عند دلالات هذه الآية الكريمة ، وفق منهج البحث القرآني ﴿ **ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ** ﴾ ..

الصيغة الاسميّة ﴿ **وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ** ﴾ كاسم فاعل معرّف بأل التعريف ، له دلالاته في كتاب الله تعالى .. فالذي يجب إقامة الحدّ عليه هو من لبسته هذه الصفة ، ولا يُوجد أدنى شكٍّ ببراءته منها ، حتى لا يقع الظلم ..

وكلمة ﴿ **فَٱقۡطَعُوٓاْ** ﴾ هي من مشتقّات الجذر اللغوي (ق ، ط ، ع) ، ودلالات هذا الجذر اللغوي تعني الفصل ، وهذا يكون ما بين الحالة الماديّة والمعنويّة حسب السياق القرآني المحيط بمشتقٍّ من مشتقّاتها .. فهناك القطع الحسّي المادّي : ﴿ **إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ** ﴾ [المائدة : ٣٣] ، وهناك القطع بمعنى الجرح ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ** ﴾ [يوسف : ٣١] ، وهناك القطع بمعنى الفصل المعنوي والتجزئة للمسألة التي يُراد تقطيعها ﴿ **فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ**

حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٣] .. كلٌّ هذه المعاني تستمدّ دلالاتها من إطار المعنى الذي يحمله الجذر (ق ، ط ، ع) في كتاب الله تعالى ، وهذا المعنى المجرّد هو ذاته لجميع هذه الحالات ، ولكنَّ الفارق بين حالةٍ وأخرى يعود إلى السياق القرآني المحيط بالمشتقّ المتفرّع عن هذا الجذر اللغوي ..

.. وكلمة **﴿ أَيْدِيَهُمَا ﴾** في الصورة القرآنيّة **﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾** ، لا يمكن حصر دلالاتها بمجرّد اليد الحسّيّة المعروفة ، فهذه الكلمة المشتقّة من الجذر (ي ، د ، ي) تعني وسيلة القوّة والسيطرة وآليّة الحركة ، فإنْ كانت وفق سياقٍ قرآنيٍّ يتحدّث عن مسائل ماديّة ، فهي حين ذلك تعني اليد الحسيّة المعروفة ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة : ٦]

وإن كانت ضمن سياقٍ يتحدّث عن الأمور المعنويّة التي تقف خلف الأمور الماديّة ، فهي تعني وسائل القوّة والسيطرة ..

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١١٠]

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٥ – ٤٧]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ ﴾ [الفتح : ١٠]

إذاً .. في ورود كلمة **﴿ أَيْدِيَهُمَا ﴾** بصيغة الجمع **﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾** ، دليلٌ على احتواء هذه العبارة القرآنيّة على جميع المعاني المتعدّدة لليد ، من

المعنى الحسّي وصولاً إلى المعنى المعنوي ، فالمطلوب هو قطع أيدي السارق ، وأيدي السارقة ، وما يُحدّد ماهيّة القطع ، ودرجته ، هو أن يكون جزاءً موافقاً للسرقة الحاصلة ، ولماهيّة حدوثها ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ ، وكلُّ ذلك تركه الله تعالى مفتوحاً ليحدِّد القاضي في كلِّ زمانٍ ومكان حقيقة تطبيق هذا الحكم ، بناءً على دلالات هذه العبارة القرآنيّة الواسعة كما رأينا ..

.. فقدر المبلغ المسروق ، وطريقة السرقة ، وعلاقة السارق بالمسروق ، وكلُّ الظروف المحيطة بهذه المسألة ، تُحدِّد ماهيّة العقوبة ، هل ترقى إلى القطع الحسّي ، وإن كانت ترقى إلى ذلك من أيّ نقطة يتمّ القطع ، أم أنّ الجزاء يكون بكفِّ يد السارق وتجريده من وسائل سيطرته (أيديه) على الأُمور ، أم أنّها تشمل الحالتين ، أم أنَّ قطع يد السارق – في بعض الحالات – يكون بتأمين عمل شريف له يكفيه الحاجة للسرقة ، أم .... كلُّ ذلك يتحدّد من خلال دراسة حالة السرقة في الزمان والمكان والظروف التي حصلت فيها ، ومن خلال تفعيل العقل في استنباط أحكام هذه المسألة من الدلالات التي يحملها كتابُ الله تعالى بكليّته ..

إذاً .. دلالات هذه العبارة القرآنيّة أكبر بكثير ممّا تقوله تفاسيرنا الموروثة ، وما اختلف فيه الفقهاء كما رأينا في تحديد قدر السرقة التي يتمّ عندها القطع الحسّي ، وما اختلفوا فيه من تحديد مكان القطع ، وهل يُجْمَع القطع مع التغريم أم لا ، كلّ ذلك مردّه عدم الوقوف عند دلالات هذه العبارة القرآنيّة ، وفرض بعض الروايات التاريخيّة على دلالاتها ..

إنَّ الفقه الإسلاميّ الحقّ ، الذي يُستنبط من كتابِ الله تعالى ، لا تختلف فيه الأُمّة ، لأنّه يأتي عبر تفعيل العقل – في كلِّ زمانٍ ومكان – في استنباط دلالات آيات كتاب الله تعالى ، ومن هذا المنظار نقول : لماذا لا يكون إيقاف عمر بن الخطّاب لحكم قطع يد السارق [إن صحّت الرواية] نتيجة إدراكه لدلالات هذه الآية الكريمة ، التي تحمل –

كما رأينا – مساحةً أوسع من العقوبة ليست محصورة بالقطع الحسّي .. فعمر بن الخطاب وغيره من البشر لا يملكون حقّ إيقاف أحكام كتاب الله تعالى ..

❁ ❁ ❁

لنقف عند الفارق بين دلالات كلمة ﴿ عَلِمَ ﴾ في كتاب الله تعالى بصيغة الماضي ، وبين دلالات كلمة ﴿ يَعْلَمُ ﴾ بصيغة المضارع ، لنرى كيف أنَّ حركة الصورة المرسومة في كلٍّ من هاتين الكلمتين تختلف عنها في الصورة الأخرى ..

لإدراك دلالات كلمة ﴿ عَلِمَ ﴾ في كتاب الله تعالى والمتعلّقة بالذات الإلهيّة لا بدَّ أن نُدرك دلالاتها في إطار ما ندركه من كون الذات الإلهيّة فوق قوانين المكان والزمان .. فعلم الله تعالى الذي هو الوقوف على الحقائق والأمور ، هو علم كاشف مجرّد عن قوانين المكان والزمان ، وهذا ما نقرؤه بدلالات كلمة ﴿ عَلِمَ ﴾ حينما تتعلّق بالذات الإلهيّة .. فالله تعالى وقف بعلمه الكاشف – أزلاً – على حقيقة ما يكون من أمور وأشياء ..

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٧]

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ [البقرة : ٢٣٥]

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣]

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال : ٦٦]

﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨]

﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ٢٧]

﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ [المزمّل : ٢٠]

أمَّا صورة الدلالة التي ترسمها كلمة ﴿ يَعْلَم ﴾ بصيغة المضارع فهي تتعلّق بعلم الله تعالى المُشاهِد للحادثة حين وقوعها في عالم المكان والزمان ، فالحادثة التي علمها الله تعالى أزلاً بعلمه الكاشف قبل حدوثها ، يراها جلّ وعلا أثناء حدوثها في عالمها المكاني والزماني ، وهذا ما تصوِّره لنا كلمة ﴿ يَعْلَم ﴾ في كتاب الله تعالى .. وفي الآيات الكريمة التالية لأكبر دليلٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد ..

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ ﴾ [البقرة : ١٤٣]

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ ﴾ [آل عمران : ١٤٠]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢]

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٦]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ ﴾ [المائدة : ٩٤]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ [التوبة : ١٦]

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [الكهف : ١٢]

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [سبأ : ٢١]

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ [محمّد : ٣١]

إذاً في كتاب الله تعالى تختلف دلالات الصورة القرآنيّة المحيطة بكلمة ﴿ عَلِمَ ﴾ بصيغة الماضي ، عن دلالات الصورة القرآنيّة المحيطة بكلمة ﴿ يَعۡلَمَ ﴾ بصيغة المضارع .. فصيغة الماضي – كما رأينا – تصوِّر علمَ الله تعالى الكاشف أزلاً ، وصيغة المضارع أقرب إلى دلالة علم الله تعالى المتعلّق بالمشاهدة للحادثة أثناء وقوعها في عالمها المكاني والزماني ، تلك الحادثة التي علمها الله تعالى أزلاً قبل حدوثها ووجودها في عالمها الحادث ..

ومنهج البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ ﴾ يفرض علينا حين بحثنا في كتاب الله تعالى أن نقف عند ماهيّة الكلمة القرآنيّة ، من أيّ جذرٍ أتت ، وبأيِّ صيغةٍ ترد ..

❁ ❁ ❁

ولنأخذ مسألةً أُخرى ندرسها وفق منهج البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ ﴾ معتبرين دلالات النصّ القرآني معياراً لتصوّراتنا – نحن البشر – لا العكس .. لننظر إلى كلمة ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ في كتاب الله تعالى ..

نحن البشر نرى دلالات كلمة ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ من مناظيرنا البشريّة المحكومة لقوانين الزمان والمكان .. بينما دلالات هذه الكلمة في كتاب الله تعالى نراها فوق حدود الزمان والمكان ، فهي تعني الموقف الذي عنده يتمّ تصوير الحكم المحمول بالسياق القرآني المحيط بكلمة ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ ..

كلمة ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ ترد (٨) مرّات في كتاب الله تعالى ، تأتي فيها جميعها مجرّدة عن الزمن .. والنصّ القرآني التالي يؤكّد هذه الحقيقة ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٥ – ٦٦]

إنَّ كلمة ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ تعني عند الموقف الذي علم الله تعالى فيه بعلمه الكاشف أزلاً أنَّ هناك ضعفاً عند بعض المؤمنين الذين لا يستطيع أحدهم مواجهة عشرة من الكافرين ، عند هذا الحدّ خفّف الله تعالى نسبة المواجهة من واحد إلى عشرة للمؤمنين الأقوياء في الآية الأولى ، إلى واحد إلى اثنين للمؤمنين الضعاف في الآية الثانية ..

وكلمة ﴿ وَعَلِمَ ﴾ بصيغة الماضي دون المضارع في العبارة القرآنيّة ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ ﴾ تؤكّد صحّة تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة ، فالكلمة ﴿ وَعَلِمَ ﴾ هي بصيغة الماضي وليس المضارع ، وكنّا قد رأينا كيف أنَّ هذه الصيغة تصوِّر علم الله تعالى الكاشف أزلاً لما سيكون ..

وهذه المسألة نراها ذاتها في النصّ القرآني التالي ..

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ

بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٧]

إنّ ورود كلمة ﴿ عَلِمَ ﴾ بصيغة الماضي دون المضارع في هذه الآية الكريمة ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ يدلّ على علم الله تعالى الكاشف أزلاً ، ولا يعني – أبداً – أحداثاً حدثت وتمّ بعدها حصول علم الله تعالى ، وبالتالي فكلمة ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ ﴾ في هذه الآية الكريمة ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ ﴾ ، هذه الكلمة ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ ﴾ تتعلّق بعلم الله تعالى الكاشف أزلاً ، وتعني عند الحد الذي علم الله تعالى فيه أزلاً أنّكم بكينونتكم البشريّة تختانون أنفسكم ، عند هذا الحد تتعلّق الأحكام الواردة في هذه الآية الكريمة من مباشرة وأكل وشرب ....

وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة ﴿ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ في الآية الكريمة ..

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧١]

فبنو إسرائيل عندما طلبوا من موسى عليه السلام أن يبيّن لهم صفات البقرة التي أُمروا بذبحها ، وصل بهم البيان إلى حدٍّ فاصلٍ وقفوا عنده وكفّوا عن أسئلتهم وذبحوا هذه البقرة .. هذا الحدّ تصوّره لنا كلمة ﴿ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ في هذه الآية الكريمة ..

وهذا ما نراه في بقية الصور القرآنيّة الحاملة لكلمة ﴿ ءَالْـَٔنَ ﴾ ، بهذه الخصوصيّة من الرسم في كتاب الله تعالى ..

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٨]

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [يونس : ٥١]

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١]

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١]

إذاً .. الدلالة المتعلّقة بهذه الكلمة ﴿ ءَالْـَٔنَ ﴾ مجرّدة عن مفهوم الزمان ، ومتعلّقة بالحدّ الذي عنده تعلّق الحكم والخبر المحمول بالسياق القرآني المحيط ..

.. بينما في الآية الكريمة التالية ..

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن : ٩]

نرى أنَّ رسم كلمة ﴿ ٱلْـَٔانَ ﴾ فيها يختلف عنه في كلِّ الحالات السابقة .. ففي الحالات السابقة رُسمت بالشكل ﴿ ءَالْـَٔنَ ﴾ دون حرف الألف بين حرفي اللام والنون ، وفي هذه الآية الكريمة نرى وجود حرف الألف بين حرفي اللام والنون ﴿ ٱلْـَٔانَ ﴾ ،

وبالتالي فالدلالة المحمولة بهذه الكلمة المميّزة رسماً تحمل خصوصيّةً تميّزها عن الدلالة المحمولة بكلمة ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ في الآيات السبع الأولى ..

ولو نظرنا في السياق القرآني المحيط بكلمة ﴿ ٱلۡأٓنَ ﴾ بهذا الرسم المختلف ، لرأينا أنّه على الرغم من أنَّ الصورة المرسومة بهذا السياق متعلّقة بالحدّ الذي عنده تغيّر الحكم من عدم وجود شهاب رصد إلى وجود شهاب رصد لمن يقعد من الجن مقاعد للسمع ، على الرغم من ذلك فإنَّ حالة استرقاق السمع لم تنته ..

﴿ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ [الجن : ٨ – ١٠]

.. فالذي تغيّر ليس محاولة استرقاق السمع ... الذي تغيّر هو وجود الشهاب الرصد لمن يحاول استرقاق السمع ..

﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴾ [الحجر : ١٦ – ١٨]

﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴾ [الصافات : ٧ – ١٠]

فاسترقاق السمع كان قبل هذا الأمر وبقي بعده ، والجديد في الأمر أنّه هناك شهاب رصد ثاقب مبين يتبع من يحاول استرقاق السمع ، فاسترقاق السمع لم ينته ..

وما نراه في كلمة ﴿ ٱلْآنَ ﴾ أنّها لا تتعلّق بهذا الأمر الجديد الذي هو الحد الفاصل بين أمرين وهو وجود الشهاب الرصد ، إنّما تتعلّقُ بمسألة محاولة السمع ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ ، تلك المسألة التي لم تنته كمحاولة .. ولذلك فكلمة ﴿ ٱلْآنَ ﴾ في هذا السياق والتعلّق بمسألة ليست حدّاً فاصلاً بين أمرين ، نراها تختلف في دلالاتها عن كلمة ﴿ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ في الآيات السبع الأولى .. ولذلك نرى أنَّ عظمة الرسم القرآني المطلق يأتي بها برسمٍ يختلف عن قرينائها في الآيات الأخرى ..

❁ ❁ ❁

ولندرس مسائل الإيمان والإسلام والإحسان في كتاب الله تعالى ، حسب منهج البحث القرآني السليم ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ، لنرى كيف أنَّ المصطلحات الشرعيّة الصحيحة هي تلك المستنبطة من الصياغة اللغويّة للكلمات والجمل الحاملة لها في كتاب الله تعالى ..

مشتقّات الجذر (س ، ل ، م) في كتاب الله تعالى تدور داخل إطار الانقياد والخضوع والخلاص للمنقاد له ، وتعني – مع ذلك – الخلاص من العيب والنقص والأذى .. فأسلم للأمر خضع وانقاد له ..

﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٧١]

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤]

وأسلم للأمر خلص له في انقياده وخضوعه ..

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء : ١٢٥]

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ٢٢]

فالشيء عندما يكون سَلَمَاً لشيء ، فهو خالصٌ له في انقياده وخضوعه ..

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ﴾ [الزمر : ٢٩]

وسلَّم الشيء يعني خلّصه ، وبالتالي نجّاه ..

﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ ﴾ [الأنفال : ٤٣]

والسلام هو نقيض العيب والنقص ..

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ [المائدة : ١٦]

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ [يونس : ٢٥]

لذلك .. فالسلام اسمٌ من أسماء الله تعالى الحسنى ، لسلامته جلّ وعلا من النقص والعيب والفناء ..

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ﴾ [الحشر : ٢٣]

واسم ﴿ سُلَيْمَـٰنُ ﴾ عليه السلام نراه مشتقّاً من هذا الجذر اللغوي لأنّه – إضافة لانقياده وخضوعه وخلاصه لله تعالى – انقاد وخضع له ما لم يخضع لغيره من البشر ، فقد انقاد له وخضع الجنّ والإنس والطير والريح .....

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل : ١٧]

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ ﴾ [سبأ : ١٢]

ومن مشتقّات الجذر (س ، ل ، م) ، الاستسلام والخضوع والمهادنة ..

﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ [النساء : ٩٠]

﴿ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۚ ﴾ [النحل : ٢٨]

والسَّلْم هو الخلاص من الحرب والانقياد والخضوع للأمر .. ولذلك يأمرنا الله تعالى أن نجنح للسَّلْم إن جنح الأعداء له ، منقادين وخاضعين لأمر الله تعالى ..

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنفال : ٦١]

وبالمقابل يأمرنا الله تعالى ألاَّ ندعو إلى السَّلْم إن كان في ذلك هوانٌ للأمّة و لم يحقّق انقياد الأعداء وخضوعهم لأمر الله تعالى ..

﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ [محمد : ٣٥]

والاستسلام هو من مشتقّات الجذر (س ، ل ، م) ..

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات : ٢٥ – ٢٦]

والسُّلَّم هو من مشتقّات الجذر (س ، ل ، م) ، فهو السبب الذي يُرتقى به للوصول إلى الشيء بغية إخضاعه للوصول إلى المُراد ..

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ ﴾ [الأنعام : ٣٥]

وكلمة **﴿ سَلِيمٍ ﴾** ترد في القرآن الكريم مرّتين تأتي فيهما صفة للقلب الخالص من الشرك والذنوب ، المنقاد الخاضع لأمر الله تعالى ..

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ – ٨٩]

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٣ – ٨٤]

وهكذا نرى أنَّ كلمة ﴿ مُسۡلِمِينَ ﴾ صفةٌ تُطلق على المنقادين الخاضعين ..

﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣١]

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨]

ولذلك فهذه الكلمة ﴿ مُّسۡلِمُونَ ﴾ تُطلق على المنقادين الخاضعين بجوارحهم وأعمالهم لمنهج الله تعالى وشعائره ..

﴿ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [النمل : ٨١]

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٩]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ نراها تصف لنا حالهم بعد إيمانهم بآيات الله تعالى ، وبالتالي تصف لنا خضوعهم وانقيادهم وتطبيقهم للشعائر التي تحملها آيات الله تعالى .. وكذلك العبارة القرآنيّة ﴿ وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ نراها – أيضاً – تصف خضوعهم لشعائر الله تعالى والعمل بأحكام الآيات التي عملوا بها ..

وهذه الحقيقة تظهر واضحةً جليّةً في الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤]

فالذي اطمأنَّ وصدّق بقلبه منهج الله تعالى ﴿ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ فإنَّ التوكّل على الله تعالى هو من مقتضيات الانقياد والخضوع لأوامر الله تعالى وشعائره التي يحملها منهجه ﴿ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ ..

وبالتالي يستطيع البشر الشهادة على إسلام المرء ، وعلى عدم إسلامه ، لأنَّ الشعائر والأعمال الحسيّة ، التي ينقاد بها ويخضع لمنهج الله تعالى ، هي مسائل مشاهدَة في عـالم الحسِّ الذي نعيشه .. ولذلك نرى أنَّ القرآن الكريم يُصوِّر لنا طلبَ الشهادة على مسألة الإسلام ، فتطبيق الشعائر ، والانقياد بالجوارح ، هي أعمالٌ حسيّةٌ يراها البشر ..

﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢]

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤]

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : ١١١]

والدين الذي يرضاه الله تعالى ويقبله ، هو الانقياد والخضوع لشعائر الله تعالى وأوامره ، فمن لم يُترجِم إيمانَه إلى عملٍ حسيٍّ يخضع به لشعائر الله تعالى وأوامره فلن يُقبل منه أيُّ دين ..

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩]

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥]

وفي الرسالات السابقة يُبيّن لنا القرآن الكريم أنَّ الشعائر قد ضُيِّعت بعد موت الرسل عليهم السلام ..

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ

خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٨ – ٥٩]

ولّما كان الإسلام هو الانقياد والخضوع لمنهج الله تعالى عبر العمل الحسّي بما يحمله هذا المنهج من شعائر وعبادات ، ولّما كانت الشعائر قد ضُيّعت بالنسبة للرسالات السابقة ، لذلك نرى – في القرآن الكريم – أنَّ كلمة ﴿ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ لم تُطلق – بالنسبة للرسالات السابقة – إلاَّ على الرسل عليهم السلام ، ومن عاصرهم وانقاد معهم لشعائر الله تعالى ..

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧ – ١٢٨]

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣]

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢]

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصۡرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧]

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : ١١١]

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧١ – ٧٢]

أمّا في الرسالة الخاتمة ، التي تكفّل الله تعالى بحفظ كتابها ، فإنَّ شعائر العبادات موجودة في النصّ المحفوظ (القرآن الكريم) ، ولا يمكن تضييعها ، ولذلك فإنَّ صفة ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ تُطلق على المنقادين الخاضعين بجوارحهم من أتباع منهج الرسالة الخاتمة ، فهذه الصفة أصبحت محصورةً في متّبعي منهج الرسالة الخاتمة ..

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٥]

ولذلك يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يُخاطب الذين أوتوا الكتاب والذين لم يُؤتوا الكتاب (الأميّين) بأن يدعوهم إلى المنهج الذي يستطيعون من خلاله إقامة شعائر الله تعالى ، والعمل بأحكامه ، للوصول بهم إلى طريق الهدى ..

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠]

أمّا مشتقّات الجذر (أ ، م ، ن) في كتاب الله تعالى ، فتدور دلالاتها داخل إطار الثقة بالشيء ، والاطمئنان إليه ، والتصديق به ، وسكن القلب تجاهه ..

فأمن فلانٌ فلاناً على الوديعة (الأمانة) ، وثق به ، واطمأن إليه بأنّه سيعيد هذه الأمانة ، دون الحاجة لإقامة برهانٍ ودليل حسّي عليه ، فالذي أمن (الآمن) يثق ويطمئن غيباً بالمُؤتمن (الموثوق به) ..

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾ [البقرة : ٢٨٣]

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ﴾ [آل عمران : ٧٥]

وأمن فلانٌ ، سكن قلبه وطمأنّ و لم يخف ..

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ١٠٧]

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ [النحل : ٤٥]

فالأمْن هو الطمأنينة وسكن القلب وعدم الخوف ..

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢]

ولذلك فكلمة ﴿ ٱلْمُؤْمِن ﴾ هي اسم صفة لله تعالى ، وهذه الكلمة بأل التعريف ﴿ ٱلْمُؤْمِن ﴾ لم ترد – في كتاب الله تعالى – إلاّ مرّة واحدة كصفة لله تعالى ..

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ [الحشر : ٢٣]

وهكذا نرى أنَّ الإيمان هو الاطمئنان والوثوق والتصديق بمسائل غيبيّة ، ليست حسيّة مُشاهدة تُحيط بها الحواس في عالم المادّة والحسّ كمسائل الإسلام .. ولذلك عندما يُرفَع غطاءُ الغيب عن هذه المسائل ، يُصبح الإيمان بها لا معنى له ، فلا ينفع الإيمان بمسائل رُفع عنا غطاء الغيب ..

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨]

ولمّا كان الإيمان هو التصديق بمسائل غيبيّة فإنَّ ساحته هي القلب ، فالقلب هو ساحة الإيمان ، والجوارح – كما رأينا – هي ساحة الإسلام .. ولذلك نرى أنَّ القلب يرتبط به الإيمان ، ولا يرتبط به الإسلام ..

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ ﴾ [المائدة : ٤١]

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ١٠]

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات : ١٤]

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

وبالتالي فالإيمان لا يطّلع عليه إلاّ الله تعالى ، وهو بذلك يختلف عن الإسلام الذي يشهده البشر ، ولذلك يطلب المؤمنون من الله تعالى (الذي يطّلع على حقيقةِ إيمانهم) أن يكتبهم مع الشاهدين ، ولا يطلبون من البشر أن يشهدوا على إيمانهم ، كما هو الحال عندما طلبوا الشهادة على إسلامهم ، فالإيمان مسألة لا يطّلع عليها إلاّ الله تعالى ..

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٣]

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٣]

من هنا نرى الحكمة من أمر الله تعالى بأن لا نقول عن أيِّ أحدٍ (يُلقي علينا السلام) بأنّه ليس مؤمناً مبتغين بذلك عرض الحياة الدنيا .. فنحن كبشر لا نستطيع أن نجزم بإيمان إنسان ، أو بعدم إيمانه ..

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء : ٩٤]

إذاً .. في هذه الحياة الدنيا (عالم المادّة والأسباب) لا بدَّ من اختبار الإنسان ، حتّى يُترجم حقيقة إيمانه الكامنة في قلبه إلى أعمالٍ حسيّة ، تكون شاهداً عليه يوم القيامة ..

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢]

ولمّا كان القلبُ ساحةَ الإيمان ، ولمّا كانت أركان الإيمان غيبيّة غير حسيّة ، فإنَّ الإيمان يزيد وينقص .. بينما الإسلام كانقياد لمجموعة شعائر محدّدة مشاهدة ثابتة ، فهو مسألة أُخرى .. هذه الحقيقة نراها في كتاب الله تعالى عبر اقتران مشتقّات الجذر (ز ، ي ، د) بالإيمان ، وعدم ارتباطها بالإسلام دون الإيمان ..

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٧٣]

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال : ٢]

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ ﴾ [التوبة : ١٢٤]

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾ [الأحزاب : ٢٢]

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ ﴾ [الفتح : ٤]

﴿ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ ﴾ [المدثر : ٣١]

ولّما كان القلبُ ساحةَ الإيمان ، ولّما كانت أركان الإيمان مسائل غيبيّة ، لذلك فالإيمان بحاجة إلى تثبيت من الله تعالى .. وعظمة البيان الإلهي تصوّر هذه الحقيقة عبر اقتران مشتقّات الجذر (ث ، ب ، ت) بالإيمان وعدم ارتباطها بالإسلام ، فالشعائر محدّدة وحسيّة وواضحة وثابتة ، وبالتالي لا تحتاج إلى تثبيت ..

﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾[الأنفال : ١٢]

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ [إبراهيم : ٢٧]

﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [النحل : ١٠٢]

ولّما كان التوكّل على الله تعالى يرتبط بالإيمان ، ولا يرتبط بالإسلام كشعائر محدّدة ومحسوسة ، لذلك نرى في كتاب الله تعالى أنَّ التوكّل على الله تعالى يرتبط بالمؤمنين دون غيرهم ..

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٢] ، [آل عمران : ١٦٠] ، [المائدة : ١١] ، [التوبة : ٥١] ، [إبراهيم : ١١] ، [المجادلة : ١٠] ، [التغابن : ١٣] ..

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣]

وفي الصورة القرآنيّة ﴿ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤] ، نرى أنَّ التوكّل يرتبط بالإيمان ولا يرتبط بالإسلام .. فالتوكّل على الله تعالى يأتي جواب شرطٍ للإيمان بالله تعالى ﴿ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ ، والعبارة القرآنيّة ﴿ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ تعني أنّكم إن كنتم منقادين خاضعين لأمر الله تعالى ، فإنّ إيمانكم بالله تعالى يقتضي توكّلكم عليه ..

ولّما كانت أركان الإيمان غيبيّة وليست حسيّة مُشاهدة ، وساحة الإيمان القلب ، ولا يطّلع على حقيقة الإيمان إلاّ الله تعالى ، فإنَّ حقيقة إيمان الناس لا يشهد عليها إلاّ الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣]

إذاً .. قد يُوجد مسلم خاضعٌ لشعائر الله تعالى الحسيّة المُشاهدة ، ولكن دون أن يطمئن قلبه ودون أن يسكن ويثق بأمور الإيمان الغيبيّة ..

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ [الحجرات : ١٤]

ولّما كان الإسلام هو الانقياد والخضوع الظاهر المُشاهد للشعائر ، نرى أنَّ امرأة لوط عليه السلام التي لم تؤمن بقلبها على الرغم من انقيادها الظاهري أمام الناس ، كانت السبب في وصف بيت لوط عليه السلام بصفة الإسلام دون الإيمان ..

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات : ٣٥ – ٣٦]

فالذين أُخرجوا من القرية الهالكة هم المؤمنون ، وهؤلاء المؤمنون (لوط عليه السلام وأهله عدا امرأته) موجودون في بيتٍ يحوي على عنصرٍ غير مؤمن (امرأة لوط) ، ولذلك فهذا البيت بمجموع أفراده تنطبق عليه صفة الإسلام ، ولا تنطبق عليه صفة الإيمان ، فجميع أفراده (بما فيهم امرأة لوط) منقادون خاضعون للشعائر ، ولكنَّ عدم إيمان امرأة لوط رفع عنه (كبيت) صفة الإيمان ..

وما يجب أن نعلمه أنّ الإيمان مسألةٌ مجرّدة ، يُؤخذ تعلّقها من السياق القرآني المحيط بالكلمات المعبّرة عنها .. فهناك فارق بين ورود الكلمات المعبّرة عن مسألة الإيمان دون تعلّق بالله تعالى ، وبين الكلمات المعبّرة عن مسألة الإيمان المتعلّقة بالله تعالى ، أو تلك المتعلّقة بما هو دون الله تعالى .. ففي قوله تعالى ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦]

نرى أنَّ العبارة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ هي خطابٌ للذين آمنوا ، وهؤلاء الذين آمنوا يطلب الله تعالى منهم أن يؤمنوا ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ بالأمور التالية : ١ – ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ ،،، ٢ – ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ،،، ٣ – ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ ،،، ٤ – ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ .. إذاً .. هؤلاء الذين يخاطبهم الله تعالى بصفة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ لم يؤمنوا بالمسائل التي تبيّنها الآية الكريمة ﴿ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ

ﭐلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ ، وإلاّ لما سُبقت هذه المسائل بالأمر الإلهي ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ ..

إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ تحمل خطاباً إلهيّاً للذين اطمئنّوا بأنّه لا بدّ لهذا الكون من إله ، وهم يتّجهون بفطرتهم النقيّة بحثاً عن حقيقة ما يريده الإله منهم ، ولكنّهم لم يتعرّفوا على حقيقة المنهج الإلهي وما يريده الإله منهم ، فيقول لهم : ما تبحثون عنه ستصلون إليه حينما تحقّقون الأمور التالية ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ ..

والمسألة ذاتها نراها في النصّ التالي ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف : ١٠ – ١١]

.. أمّا ﴿ ٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ فهو من مشتقّات الجذر (ح ، س ، ن) ، ودلالات هذه المسألة تنبع من المعاني التي يحملها جذرها اللغوي ..

حَسُنَ الشيء ، سلم من السوء والنقص والعيب ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء : ٦٩] .. وأحسن به سلّمه من السوء وجزاه الخير ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِىٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .. وأحسن الشيء ، جعله بأفضل حالٍ ، سالماً من العيب والنقص ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [السجدة : ٧] ، ﴿ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ﴾ [غافر : ٦٤] .. وحُسن

الشيء خيره ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ ﴾ [آل عمران : ١٤٨] ، ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] ..

ويكون الشيء حسناً إذا كان خيراً وسالماً من السوء والنقص والعيوب ..

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .. وأحسن تعني أسلم ، بمعنى أفضل ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمًا لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .. والإحسان هو أفضل العمل الخالص من السوء والعيب والنقص ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٌ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَـٰنٍۗ ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَـٰنًا وَتَوۡفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٢] .. والمُحسن هو المُخلص بلا سوء ولا نقص ﴿ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٌ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ ﴾ [لقمان : ٢٢] .. فالمُحسن الذي يعمل بإخلاص بعيداً عن السوء ، إنّما يدفعه ذلك إلى استحضاره لمراقبة الله تعالى له ، فهو يُنفق في السرّاء والضرّاء ، ويكظم الغيظ ، ويعفو عن الناس الذين ظلموه ، ويصفح عنهم ، ويصبر عليهم وعلى ما يصيبه ، ويتّق الله تعالى حقّ تقاته ، ويجاهد في سبيل الله تعالى حقّ جهاده .. وكلّ ذلك لأنّه يستحضر في كلِّ لحظة من حركات حياته رؤيةَ الله تعالى له ..

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤]

﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [المائدة : ١٣]

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠]

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩]

وهكذا نرى أنَّ عبادة المُحسِن لله تعالى وانقيادَه بجوارحه لشعائر الله تعالى وأحكامه (الإسلام) ، واطمئنانَه وإيمانَه بالغيب الذي ينتظره والذي يريد الله تعالى الإيمان به (الإيمان) .. كلٌّ ذلك يتفاعل معه المُحسِن من منظار استحضاره لمراقبة الله تعالى له ، كأنّه يرى الله تعالى ، ويرى جزاءَ كلِّ عملٍ يعمله ..

إنَّ علينا أن نتفاعل في فكرنا الإسلامي مع هذه المصطلحات القرآنيّة وغيرها ، وفق ما يحمله كتاب الله تعالى لها ، وليس وفق الروايات والقال والقيل .. فقد رأينا كيف أنَّ صفة الإسلام بمعنى الخضوع الحسيّ واتّباع الشعائر هي صفة انحصرت في متّبعي الرسالة الخاتمة ، ورأينا أنّ صفة الإيمان (المجرّدة) قد تُوجَد عند أيِّ إنسانٍ مهما كان دينه ومذهبه ، حينما يتّجه بفطرته النقيّة مطمئناً بأنّه لا بدّ من إلهٍ لهذا الكون .... وفق هذه المصطلحات القرآنيّة الحق نُدرك معنى العبارات القرآنيّة [﴿ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ ....] ..

فالصيغة ﴿ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ ، عبر تعلّق باء الواسطة والوسيلة بالاسم ﴿ ٱللَّهِ ﴾ ، تعني سار في حياته الدنيا مطمئناً واثقاً مصدّقاً بالحقّ ، بواسطة استحضار عظمة الله تعالى في نفسه .. فبواسطة استحضار هيبة الله تعالى وثوابه ، يسير في حياته الدنيا مطمئناً متّجهاً نحو ما يريده الله تعالى منه ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

مطلق القرآن الكريم ومخصّصه

القرآن الكريم كلام الله تعالى وقوله الذي نزّله وأنزله إلينا لنتدبّر آياته ، وهو كتاب الله تعالى الذي يحمل تبياناً لكلِّ شيء ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] ، وهذا يقتضي أنَّه لا يمكن أنْ يُخَصِّصَ مطلقَه أو أنْ يُطلِقَ مخصَّصَه أيُّ نصٍّ خارج نصوصه ، وحتى داخل دفتي كتاب الله تعالى فإنَّه لا يُمكنُ أنْ يُخصَّصَ لفظٌ ظاهره العموم ، أو أنَّ يُعَمَّمَ نصٌّ ظاهره الخصوص .. فالالتزام بحرفيّة صياغته اللغويّة ضرورة لا بدَّ منها لفهم دلالاته وأحكامه ..

ونتيجة فرض فهم بعض السابقين لبعض النصوص على دلالات هـذه النصـوص ، واعتبار هذا الفهم معياراً لكتاب الله تعالى ، ونتيجة فرض بعض الروايـات المنسـوبة للرسول ﷺ على كتاب الله تعالى ورفعها إلى نصوصٍ موازيةٍ للنصِّ القرآني ، بل واعتبار بعضها ناسخاً لبعض نصوص القرآن الكريم ، كما زعم الكثيرون ، نتيجة كـلّ ذلـك فُسِّرت بعض آيات كتاب الله تعالى تفسيراً يتناقض مع ظاهر صياغتها اللغويّة ..

وسنتعرّض – إن شاء الله تعالى – لبعض الآيات الكريمة التي فُسِّرت تفسيراً مناقضـاً لظاهر صياغتها اللغويّة لنرى كيف أنَّ عدم اعتبار القرآن الكريم المرجع الأوّل والأخـير في فهمنا لدلالاته سيؤدّي إلى مفاهيم مغلوطة لم يترل الله تعالى بها من سلطان ..

في مسألة الطلاق ، فسّروا قول الله تعالى ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، بأنَّه كلام عموم ولكن يُراد به الخصوص ، فكلمة ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ ﴾ التي تعني جميع المطلّقات ودون أيِّ استثناء ، جعلوها مخصَّصة بالمرأة المطلَّقة الحرَّة المدخول بها التي يمكنها الحيض وغير الحامل .. بمعنى أنَّهم استثنوا منها المرأة

الحامل مستشهدين بقوله تعالى **﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ ﴾** [الطلاق : ٤] ، واستثنوا المرأة الصغيرة التي لم تبلغ الحيض ، والمرأة الكبير الآيسة من المحيض ، مستشهدين بقوله تعالى **﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَۚ ﴾** [الطلاق : ٤] ، واستثنوا المرأة غير المدخول بها ، مستشهدين بقوله تعالى **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ ﴾** [الأحزاب : ٤٩] ، واستثنوا منها المرأة الرقيقة (حسب مفهوم الرق الذي فرضوه على الأمّة وما أنزل الله تعالى به من سلطان) معتبرين عدّة المرأة حيضتين ، مستشهدين بكلامٍ موضوعٍ على الرسول ﷺ (في سنن الترمذي حديث : ١١٠٢ ، حسب ترقيم العالميّة) ، بأنَّه قال : **[طلاق الأمة تطليقتان وعدّها حيضتان]** ، وفي رواية أُخرى (في سنن أبي داود حديث رقم : ١٨٧٢ ، حسب ترقيم العالميّة) ، أنّه قال : **[طلاق الأمة تطليقتان وقرؤها حيضتان]** ..

إذاً .. خصَّصوا كلمة **﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾** بحالةٍ خاصّةٍ مستثنين فيها عدة حالات من الحالات التي تشملها هذه الكلمة **﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾** ، وذلك دون أيِّ اعتبارٍ وتدبُّرٍ لدلالات النصوص القرآنيّة الحاملة لمسألة الطلاق في كتاب الله تعالى ..

.. إنَّ احتجاجهم بأنَّ قوله تعالى **﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ ﴾** [الطلاق : ٤] يصوِّرُ لنا عدّةَ المرأة ، وبالتالي فالعبارة القرآنيّة **﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ ﴾** لا علاقة لها بالمرأة الحامل ، على الرغم من أنَّ كلمة **﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾** تشمل جميع المطلقات دون استثناء ، هذا الاحتجاج ليس سليماً على

الإطلاق ، فهم لم يقفوا عند كلمة ﴿ أَجَلُهُنَّ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، فكلمة ﴿ أَجَلُهُنَّ ﴾ تصف لنا الأجل الذي هو موضوعٌ آخر ، له حدوده ودلالاته التي تميّزه عن العدّة ..

في كتاب الله تعالى نرى أنَّ الأجل هو لحظة حسم العلاقة الزوجيّة إمّا بالإمساك وإمّا بالفراق ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق : ٢] .. بينما العدّة هي فترة تربّص وامتناع عن المعاشرة الزوجيّة ، وهاتان المسألتان هما مسألتان مختلفتان ، ولكنّهما تتطابقان بالنسبة للمرأة غير الحامل ، حيث عدة المرأة غير الحامل تساوي أجلها ، فبنهاية العدّة يأتي الأجل الذي هو حسم العلاقة الزوجيّة إمّا بالإمساك وإمّا بالفراق ..

أمّا بالنسبة للمرأة الحامل فإنَّ عِدَّتها (فترة تربّصها وامتناعها عن المعاشرة الزوجيّة) ثابتة لا تتغيَّر وهي ثلاثة قروء ، أمّا أجلُها فهو موضوعٌ آخر هو لحظة حسم العلاقة الزوجيّة ، وهذا لا يكون إلاّ بعد أن تضع حملها ﴿ وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، وهنا – بالنسبة للمرأة الحامل – تختلف العدّة عن الأجل ، فقد تسبق العدّة الأجل ، وقد يسبق الأجل العدّة ، والآية (٢٢٨) من سورة البقرّة تحمل أحكاماً لحالة المرأة المطلّقة الحامل ، وقد بيّنت ذلك بالتفصيل في كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، تبياناً مؤيَّداً بالمعجزة العدديّة التي لا تعرف الكذب والخداع ..

إذاً قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ يشمل المرأة الحامل ، فالمرأة الحامل المطلقة يجب أن تتربّص ثلاثة قروء مهما كان زمن حملها .. وكذلك الأمر فإنَّ المرأة التي يئست من المحيض والتي لم تحض بيّن الله تعالى عدّتها بثلاثة شهور ﴿ وَٱلَّـٰٓئِى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓئِى

﴿ لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق : ٤] وهذا تبيين لحالة معيّنة من الحالات التي تحملها العبارة ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ .. وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة غير المدخول بها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب : ٤٩] وهذا – أيضاً – تبيين لحالة معيّنة من الحالات التي تحملها العبارة ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ .. وكلٌّ ذلك لا يخصِّص العبارةَ القرآنيّةَ ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ ، ولا تخصّصُه هذه العبارةُ القرآنيّة ، إنّما هو تبيين وتفصيل لجوانب من الحالات التي تحملها هذه العبارة القرآنيّة ..

وتتجلّى عظمة الصياغة القرآنيّة بورود كلمة ﴿ قُرُوٓءٍ ﴾ بهذه الصيغة من مشتقّات الجذر (ق ، ر ، أ) لتشمل جميع الحالات ..

.. القراءةُ في أصلِها تعني إدراكَ حقيقةِ المقروءِ واستنباطَ دلالاتِهِ الكامنةِ فيه ، على قدرِ المستطاع .. يقولُ تعالى : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] ، بمعنى يُدركون حقيقتَهُ ، ويستنبطونَ دلالاتِه .. وذاتُ المعنى تحملُه كلمة ﴿ ٱقْرَءُوا ﴾ في قولِه تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة : ١٩] ..

.. وعدَّةُ الشيءِ مجموعُ وحداتِه .. وعدّةُ المُطَلَّقةِ هي : مجموعُ وحداتِ الدوراتِ الزمنيّةِ التي تحكمُ حركةَ إخصابِها الجنسيِّ .. ذلك المجموع الذي تتربص فيه بنفسِها عن زوجِها ..

.. من هنا نرى أنَّ القرءَ المعنيَّ في قولِهِ تعالى : ﴿ **وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ** ﴾ ، هو : زمنُ دورةِ الإخصابِ الجنسيِّ لِلمرأةِ المُطَلَّقة ، والــذي تُدرِكُــهُ وتستنبطُهُ مِما اعتادت عليه قبلَ حَمْلِها إنْ كانت حاملاً ، وما تُدرِكُهُ من زمــنُ دورةِ إخصابِها الجنسيِّ الذي يحكمُ حياتَها إنْ كانت في طورِ دوراتِ الحيض ، وهوَ الشــهر الذي حدّدَهُ اللهُ تعالى للآيسات من المحيض واللاتي لم يحضن ..

.. من هنا نرى أنَّ ورودَ كلمةِ ﴿ **قُرُوٓءٖ** ﴾ من مشتقّات الجــذر (ق ، ر ، أ) في العبارة القرآنية : ﴿ **وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ** ﴾ ، يُعطي كلمــةَ ﴿ **وَٱلۡمُطَلَّقَٰت** ﴾ ، في هذه العبارة القرآنيّة إطلاقاً يشملُ : المرأةَ الحامل ، والمرأةَ داخلَ طورِ الحيض ، والمرأةَ التي يئست من المحيض ، والمرأةَ التي لم تحض ..

.. فالمرأةُ المُطلَّقةُ تُستَقْرَأُ فترةُ تربُّصِها حسب حالتِها بين هذه الحالات .. وبالتــالي فمجيءُ كلمةُ ﴿ **قُرُوٓءٖ** ﴾ من مشتقّات الجذر اللغوي (ق ، ر ، أ) ، يُناسبُ إطــلاقَ كلمةِ : ﴿ **وَٱلۡمُطَلَّقَٰت** ﴾ في العبارة القرآنيّــة : ﴿ **وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ** ﴾ ، لتشمل جميع حالات الطلاق دون أيِّ استثناء ..

أمّا بالنسبة للقول الموضوع على الرسول ﷺ بأنَّه قال : [**طلاق الأمة تطليقتان وعدّتها حيضتان**] ، وفي رواية أُخرى : [**طلاق الأمة تطليقتان وقرؤها حيضتان**] ... هذا القول لا يمكن أن يخرج عن الرسول ﷺ لأنّه ﷺ لا يُخالف القرآن الكريم ، والقرآن الكريم يقول ﴿ **وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ** ﴾ ، وذلك بصيغة عمومٍ تشمل جميع المطلقات دون استثناء ..

وهكذا نرى أنَّ التخصيص الذي فرضوه على العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ ﴾ غيرُ صحيح على الإطلاق ، وهو نتيجة عدم الوقوف عند دلالات العبارات القرآنيّة ، ونتيجة فرض بعض الروايات وبعض المفاهيم على دلالات كتاب الله تعالى ..

❁ ❁ ❁

ولنأخذ مسألةً أُخرى ، تمَّ فيها إطلاق المخصّص ، على نقيض من المسألة السابقة ، وذلك جرياً خلف الروايات الموضوعة ، وخلف أهواء بعض المفسّرين السابقين واللاحقين .. فقد أطلقوا قولَ الله تعالى ليشمل كلَّ الناس ..

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥]

بناءً على تفسيرهم فإنَّه لا يُقبل من أيِّ إنسانٍ أيُّ دينٍ آخر ، غير دين الرسالة الخاتمة ، أي أنّهم أطلقوا دلالات هذه الآية الكريمة لتشمل كلَّ الناس ودون استثناء .. وقبل الدخول في تفسير هذه الآية الكريمة فإنَّ ما ذهبوا به في تفسيرهم لها يشابه تماماً افتراء أهل الكتاب على الله تعالى ، وذلك بقولهم : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] ، فقد زعم أهل الكتاب احتكار الخلاص لهم دون الآخرين ، وتفسير الآية التي بين أيدينا كما زعموا هو احتكارٌ للخلاص لا يختلف أبداً عن احتكار أهل الكتاب ..

ولذلك نرى الردَّ الإلهي على زعم الكثيرين من المسلمين باحتكار الخلاص وعلى زعم أهل الكتاب ، واضحاً جليّاً لا يحيد عنه إلاّ كلُّ أعمى ..

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٣ – ١٢٤]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ﴾ لوحدها تكفي أولي الألباب ليعيدوا تصوّراتهم على معيار كتاب الله تعالى .. والعبارة القرآنيّة ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ نراها بصيغة مطلقة غير مخصّصة بدينٍ أو مذهبٍ دون غيره ، ولو فرضنا جدلاً أنّها مخصّصة بالإيمان عبر الرسالة الخاتمة دون غيرها ، عندها لا يبقى أيُّ معنى لقوله تعالى ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ﴾ ..

ولو عدنا إلى الآية الكريمة التي نحن بصدد دراستها لرأينا أنّها تصوِّرُ حالةً خاصّةً تتعلّق بالمسلم الذي يريد أن يبتغي غير الإسلام ديناً ، انطلاقاً من كونه مسلماً : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ ، وهذا ما ترسمه لنا كلمة ﴿ يَبْتَغِ ﴾ بصيغة المضارع ..... ففي قوله تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ ﴾ [الأنعام : ١١٤] نرى أنَّ كلمة ﴿ أَبْتَغِى ﴾ تعني أدع الحقّ الذي أنا عليه وأريد بدلاً منه حَكَمَاً آخر ..

.. والآية الكريمة التالية مباشرة للآية التي نحن بصدد دراستها تؤكّد صحّة تفسيرنا هذا ..

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥ – ٨٦]

فهؤلاء المرتدّون من المسلمين الذين يبتغون ديناً آخر غير الدين الإسلامي ، يكونون بارتدادهم هذا قد عملوا ثلاثة أعمال ، لا يستطيع عملها إلاّ المسلم المرتد ..

١ – ﴿ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ ..

٢ – ﴿ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ ﴾ ..

٣ – ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ ..

فالذي يكفر بعد إيمانه ، وبعد أن يشهد أنَّ الرسول ﷺ حقّ ، وبعد أن تأتيه البيّنات ، هو مسلمٌ ارتدّ عن الإسلام إلى دينٍ آخر ، لذلك لا يُقبل منه أيُّ دينٍ آخر ، كونه علم حقيقة الإسلام ، ورأى أحقيّته ، وهو بذلك يختلف كثيراً عن الآخرين الذين لم يعلموا حقيقة الإسلام ، و لم يشهدوا أنّ الرسول ﷺ حق ، و لم تأهم البيّنات ..

إذاً .. مجاراة للراويات الملفّقة ، ولأقوال بعض السابقين ، وللأهواء والعصبيّات ، تمَّ إطلاق نصٍّ خاصٍّ بالمرتدّين من المسلمين ، ليشمل البشريّة جمعاء ، وهذا هو تحريفٌ للكلم عن مواضعه ..

❁ ❁ ❁

ولنأخذ مسألةً أُخرى .. لقد أطلق الكثيرون دلالات الآية الكريمة التالية لشمل جميع من صاحب النبيّ ﷺ ، بمعنى من عاش معه من أفراد الجيل الأوّل ، وخصَّصوها بأنّها تعني أفراد ذلك الجيل دون الأجيال الأُخرى ..

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠]

إنَّ كلمة ﴿ مِن ﴾ في العبارة القرآنيّة : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ تُخصِّص جزءاً من المهاجرين والأنصار ، فالإطلاق الذي تحمله الكلمتان

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ تخصّصه كلمة ﴿ مِن ﴾ ، ليكونوا جزءاً من ﴿ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ .. فكلمة ﴿ مِن ﴾ – وفق هذا المحمل التاريخي – تفيد التبعيض ولا تُفيد التبيين ..

ثمَّ كيف تفيد التبيين لتشملَ كلَّ الصحابة بمعنى من عاصر النبيّ ﷺ وشاهده وعاش معه ، وهناك من أهل المدينة (أي ممّن تشملهم تعاريفهم للصحابة) من مردوا على النفاق ، وثبتوا عليه واستمرّوا و لم يتوبوا ، بمعنى أنَّهم أصبحوا أساتذةً في النفاق فبلغوا فيه حدّاً لا يعلم النبيّ ﷺ ذاته أنّهم منافقون ، وهذا ما تؤكّده الآية الكريمة التالية مباشرةً لهذه الآية ..

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة : ١٠٠ – ١٠١]

أليس أهلُ المدينة هم من المهاجرين والأنصار ؟ .. أليست العبارة ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ تصوّرُ بعضاً من أهل المدينة ؟!!! .... فكيف – إذاً – يكون هؤلاء الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة ، كيف يكونون مشمولين مع الذين رضي اللهُ تعالى عنهم ، والمعنيّين بالعبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ من الآيةِ الأولى ؟!!! .. ألا يقدح ذلك في إطلاق دلالات

العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إطلاقاً يشمل جميع من تنطبق عليه تعاريفهم للصحابة ؟!!! ..

إذاً هذا الإطلاق لدلالات هذه الآية الكريمة لشمل كلّ من ثبتت صحبته للنبيّ ﷺ ليس صحيحاً على الإطلاق ، فمن غير المعقول أن يعلم رجالات التاريخ ومصنّفو الأحاديث ما لم يستطع ﷺ ذاته معرفته .. كيف يعلمون أنّ جميع من تنطبق عليه تعاريفهم للصحبة عدلاً ، في الوقت الذي لم يعلم ﷺ ذاته بعض من مرد على النفاق من هؤلاء الذين عاش معهم في مدينة واحدة ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ ﴾ ؟!!! ..

وفي الوقت ذاته الذي تحمل فيه هذه الآية الكريمة إطلاقاً ليس خاصّاً بجيلٍ دون غيره ، نراهم يخصّصون دلالات هذه الآية بالجيل الأوّل دون غيره .. ففي العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ ﴾ ، نرى أنَّ كلمة ﴿ ٱتَّبَعُوهُم ﴾ ترد بصيغة الماضي ، وبذلك تحملُ دلالاتٍ تتجاوزُ الجانبَ التاريخيَّ الذي فُسِّرَتْ به هذه الآية الكريمة .. فلو كانت دلالاتُ هذه الآية الكريمة لا تتجاوزَ الإطارَ التاريخيَّ الذي فُسِّرَت به ، لكانت على الشكل : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ يَتَّبعونَهم بِإِحْسَانٍ) ، أي بورود كلمة (يَتَّبعونَهم) بصيغة المضارع بدلَ كلمةَ ﴿ ٱتَّبَعُوهُم ﴾ بصيغة الماضي .. ففرض الدلالة التاريخيّة على العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ ، بحيث لا تعني إلاَّ الجيلَ الأوَّلَ ، يقتضي وَصْفَ من يتّبعُهم لاحقاً بصيغة المضارع وليس الماضي ، فهذه الآيةُ الكريمةُ نزلت زمنَ الجيل الأوَّل ، ومُتَّبعو الجيل الأوّل هم لاحقون لهم وليسوا سابقين ، وبالتالي سيتّبعونَهم بعد نزول هذه الآية الكريمة ، وكلُّ ذلك تناسبه صيغةُ المضارع وليس الماضي ..

إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ تحملُ دلالاتٍ تتجاوزُ الإطارَ التاريخيَّ لتشملَ صفةً مجرّدةً عن التاريخ .. فالسبقُ المعنيُّ هو سَبْقٌ إيمانيٌّ ، وهو سبْقُ خلاصٍ ونقاءٍ وقربى من الله سبحانه وتعالى ، من الممكن أن يدخلَ ساحتَه أيُّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكان حينما يُحقّقُ متطلبات هذا السبق ..

وكلمة ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ بهذه الحيثيّة من الصياغة – وذلك بكونها جمعاً لاسم فاعل – تقوّي هذا المذهب من التفسير ... فالسبقُ المعنيُّ هو عملٌ يقومُ به فاعلٌ له ، من خلاصٍ ونقاءٍ وقربى من الله سبحانه وتعالى .. وكلُّ ذلك مسألةٌ ليست مؤطّرةً في إطارٍ تاريخيٍّ خاصٍّ بجيلٍ محدَّدٍ دون غيره ..

فهذه الكلمة ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ ترد في كتاب الله تعالى بدلالاتٍ مجرّدةٍ عن السبق التاريخي ، حاملةً معنى السبقِ الإيمانيِّ والقربى من الله سبحانه وتعالى .. يقول تعالى ..

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الواقعة : ١٠ – ١٤]

ولو كان المعنيّون بالصفة التي يحملُها قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ ، حكراً على جيلٍ دون غيره ، فكيف بنا إذاً – أن نفهمَ قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ ؟!!! ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ تحملُ دلالاتٍ مطلقةً مجرّدةً عن أحداث التاريخ ، لتبيّنَ لنا ماهيّةَ السبق المعنيِّ بالعبارة السابقة لها ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ ، وذلك من هجرٍ لكلِّ ما ينهى اللهُ تعالى عنه ومن نصرٍ لكلِّ ما يريدُه الله تعالى ، فعلى هذا الإطلاق – المجرّد عن التاريخ – تحملُ كلمةُ ﴿ مِن ﴾ في العبارة ﴿ مِنَ

﴿ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ ، معنى التبيين ، وعلى هذا الإطلاق نستطيعُ مقارنةَ معنى التبيين في كلمة ﴿ مِن ﴾ ، من العبارة القرآنيّة ﴿ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ ، مع معنى التبيين في كلمة ﴿ مِن ﴾ من العبارة القرآنيّة ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾ [الحج : ٣٠] ..

إنَّ معنى التبيين يتعلَّقُ بإطلاق دلالات العبارة القرآنيّة وعدمِ حصرِها في إطارٍ تاريخيٍّ مُحدَّد ، وبالتالي فالقولُ بأنَّ كلمة ﴿ مِن ﴾ في العبارة ﴿ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ ، تحملُ معنى التبيين دون التبعيض ، مع حمل الآية الكريمة على محملٍ تاريخيٍّ لا يتجاوزُ أفرادَ الجيل الأوَّل كما يذهبون ، مقارنةً مع العبارة القرآنيّة ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾ [الحج : ٣٠] ، هذا القولُ ليس سليماً ولا بأيِّ وجهٍ من الأوجه ، لأنَّ العبارةَ القرآنيّة ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾ تحملُ دلالاتٍ فوقَ التاريخ والزمان والمكان ..

إذاً .. أطلقوا ما هو مخصَّص ، وخصَّصوا ما هو مطلق ، وكلُّ ذلك اندفاعاً خلف العصبيّات المذهبيّة والطائفيّة التي لا تعتبر النصَّ القرآنيَّ معياراً لأيِّ رواية أو أيِّ تصوّر ..

❁ ❁ ❁

.. ولننظر إلى كلمة ﴿ لِلنَّاس ﴾ في قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران : ١٤]

كلمة ﴿ لِلنَّاس ﴾ في هذه الآية الكريمة تعني الناس ، رجالاً ونساءً ، وليست محصورة بالرجال ، كما ذهب الكثيرون ، وتخصيصها بالرجال دون النساء هو خروجٌ على حقيقة الصياغة اللغويّة لهذه الآية الكريمة ..

وهؤلاء الذين يحسبون كلمة ﴿ لِلنَّاس ﴾ خاصةً بالرجال دون النساء ، لم يقفوا عند العبارة القرآنيّة ﴿ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ .. فالذي زُيّن هو ﴿ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، وليس شهوة النساء كما يتخيّلون .. بمعنى أنَّ حُبَّ شهوة النساء زُيّنت للرجال ، وزُيّنت للنساء أيضاً .. بمعنى أنَّه زُيّن للرجل أن يشتهي المرأة ، وزُيّن للمرأةِ أن يشتهيها الرجل .. وبالتالي فكلمة ﴿ لِلنَّاس ﴾ تعني الناسَ رجالاً ونساءً ..

.. من هنا نرى كيف تُوضَعُ المفاهيمُ المسبقةُ الصنع التي لا تقف عن دلالات الكلمات القرآنيّة الحق ، تُوضَعُ معياراً للصياغة الحرفيّة لكتاب الله تعالى .. ونرى أنَّه علينا أن نفهمَ كتابَ الله تعالى كما هي صياغته اللغويّة ، وأن نُدرك دلالات الكلمة ضمن سياقها القرآني ، فلا نخصِّص ما هو مطلق في صياغته اللغويّة ..

❁ ❁ ❁

والقضية ذاتها نراها في كلمة ﴿ ٱلنَّاس ﴾ في الآية الكريمة التالية :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣]

.. هنا أيضاً زعموا أنَّ كلمة ﴿ ٱلنَّاس ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ لا تعني كُلَّ الناس ، وأنّها خاصّة وليست عامّةً كما هي في صياغة النصِّ القرآني .. وقد ورد في تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ، للإمام محمّد الرازي فخر الدين ، ورد النصّ التالي في تفسير هذه الآية الكريمة : [**وفي المراد بقوله : ﴿ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ وجوه : الأوّل : أنَّ هذا القائل هو نعيم بن مسعود كما ذكرناه في سبب نزول هذه الآية ، وإنّما جاز إطلاق لفظ الناس على الإنسان الواحد ، لأنّه إذا قال قولاً وله أتباع يقولون مثل**

قوله أو يرضون بقوله ، حسن حينئذ إضافة ذلك الفعل إلى الكل .... الثاني : وهو قول ابن عبّاس ، ومحمّد بن إسحاق : أنّ ركباً من عبد القيس مرّوا بأبي سفيان ، فدسهم إلى المسلمين ليجبنوهم وضمن لهم عليه جعلاً ، الثالث : قال السدي : هم المنافقون .... قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ ﴾ المراد بالناس هو أبو سفيان وأصحابه ورؤساء عسكره ....] ..

.. ولو نظرنا في هذه الآية الكريمة لرأينا أنّها تُصَوِّرُ لنا هواجسَ النفسِ البشريّةِ في وسوستِها للخشيةِ مِمَّا يجمعُ له الناس ، حين المواجهة مع أولئك الناس ..

.. وفي قولِه تعالى الذي يصفُ قولَ امرأة العزيز **﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾** [يوسف : ٥٣] ، نرى أنَّ الله تعالى يصف ذلك بقولِه **﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾** ، وليس بالصياغة (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَن رَحِمَ رَبِّي) .. فبورود كلمة **﴿ مَا ﴾** وليس كلمة (مَن) نرى أنَّ كُلَّ نفسٍ فيها نسبةٌ من الأمر بالسوء .. ولو كانت العبارة القرآنيّة على الشكل (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَن رَحِمَ رَبِّي) ، لكانت هناك نفوسٌ لا تأمرُ أبداً بالسوء ، وهناك نفوسٌ أخرى تأمر بالسوء .. ولكن بورود الصيغة **﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾** نرى أنَّ كُلَّ نفسٍ فيها نسبةٌ ما من الأمر بالسوء ..

إذاً العبارة القرآنيّة **﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ ﴾** تُبيّنُ لنا هواجسَ النفسِ البشريّة ، عند كُلِّ الناس ودون أيِّ استثناء ، وذلك في وسوستِها للخشيةِ مِمَّا يجمعُ له الناس ، حين المواجهة مع أولئك الناس .. إذاً كلمة **﴿ ٱلنَّاس ﴾** تعني الناس ، وليست مخصّصةً بأشخاصٍ محدّدين من رجالات الجيل الأوّل ..

وهذا هو الحقّ في فهمنا لدلالات كتاب الله تعالى ، فالأولى بنا أنْ نفهمَ دلالاتِه كما هي صياغة عباراته القرآنيّة الحاملة لهذه الدلالات ..

❁ ❁ ❁

.. ولننظر إلى قوله تعالى ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١]

وهذا نقلٌ حرفيٌّ من تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ، للإمام محمّد الرازي فخر الدين ، ورد النصّ التالي في تفسير هذه الآية الكريمة : **[قوله ﴿ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الأطفال لأنّه جمع قائم كصوم جمع صائم ، والقائم بالأمور هم الرجال فعلى هذا الأقوام الرجال لا النساء]** ..

إذاً .. العبارة **﴿ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾** فُسّرت على أنّها رجال من رجال ، وبذلك تمّ تحميلها دلالات تختلف مع ظاهر صياغتها اللغويّة ، دفعاً لها لتكون في مقابل العبارة القرآنيّة **﴿ نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ ﴾** .. ولو أراد الله تعالى بها الرجال حصراً لقال : (رجالٌ من رجالٍ) ، ولكنّ العبارة – كما نرى – هي **﴿ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾** ..

إنّ كلمة **﴿ قَوۡمٞ ﴾** في كتاب الله تعالى وفي سياقها العام تعني الرجال والنساء على حدٍّ سواء ، وليست مقصورة على الرجال دون النساء ، وإلاّ كيف بنا أن نُدرك دلالات قوله تعالى .. **﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴾** [الكهف : ٩٠] ، فهل هؤلاء القوم الذين أتاهم ذو القرنين عبارة عن

رجال ولا نساء بينهم ؟!!! .. وهل زينة القوم التي هي حليّهم هل هي خاصّة بالرجال ولا علاقة للنساء بها .. ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .. وهل الناموس الإلهي المحمول بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد : ١١] ، هل هو للرجال ولا علاقة للنساء به ؟!!! ..... ولا أريد الإطالة ، فكلمة ﴿ قَوۡمٌ ﴾ في كتاب الله تعالى وفي سياقها العام تعني الرجال والنساء على حدٍّ سواء ..

.. ولو نظرنا في الآية الكريمة التي بين أيدينا لرأينا أنّها تبدأ بالعبارة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهي تخاطب جملة المؤمنين رجالاً ونساء .. وبالتالي فالعبارة التالية لها ﴿ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ ، تخاطب جملة المؤمنين رجالاً ونساء ، كونها تحمل العبارة ﴿ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ .. وهنا نرى أنَّ موضوع السخرية الذي ينهانا الله تعالى عنه لا يتعلّق بالأفراد داخل القوم ، وإنّما يتعلّق بالسخرية من الأقوام الآخرين ، فالسخرية من أيِّ قومٍ آخرين غير قومنا ، ينهانا الله تعالى عنها ، أي يخاطبنا الله تعالى كقوم (رجالاً ونساء على حدٍّ سواء) بأن لا نسخر من أيِّ قومٍ آخرين (رجالاً ونساء) ، بمعنى أنَّ العصبيّة القوميّة لأيِّ قوم يجب ألا تدفعهم (رجالاً ونساء) لأن يسخروا من الأقوام الآخرين ..

بعد ذلك ينطلق البيان الإلهي إلى داخل ساحة القوم ، ليرسم لنا حكماً آخر : ﴿ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ ، فالنساء داخل ساحة القوم ينهاهنّ الله تعالى من أنْ يسخرن من بعضهن ، وقد تمّ اختيار النساء دون الرجال في هذه الآية الكريمة لسببين :

١ – لأنَّ سخريّة المرأة من المرأة كونها امرأة ، هي في الذات وفي القيمة الشخصيّة الإنسانيّة للمرأة ، وهذا يختلف تماماً عن السخريّة المحمولة بقوله تعالى :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢]

فالتسخير بمعنى العمل عند الآخرين ضمن إطار حركة المجتمع ، هو ضرورة كي تستمرّ الحياة ، وهذا التسخير الإيجابي نراه بصيغة عامّة تشمل الرجال والنساء **﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ ﴾** ..

٢ – لأنَّ ذمّ سخريّة الرجل من الرجل (ومن المرأة) مسألة وردت في كتاب الله تعالى ..

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة : ٢١٢]

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩]

إذاً .. لا يمكن لنا أنَّ نخصّص قول الله تعالى **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾** ، على أنَّه خاصٌّ بالرجال دون النساء ، في الوقت الذي نرى فيه إطلاقاً يشمل الرجال والنساء على حدٍّ سواء ..

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى الآية الكريمة ..

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : ٦٦]

إنّنا نرى ورود كلمة ﴿ قَوْمُكَ ﴾ بصيغة مطلقة تشمل كلَّ القوم المضافين للـــنبيِّ ﷺ .. وهذا ما نراه في الآية التالية التي تُصوِّر شكوى الرسول ﷺ في الآخرة ..

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠]

فكلمة ﴿ قَوْمِى ﴾ كما نرى هي بصيغة غير مخصَّصة ، تشمل القومَ كلَّ القوم .. فكيف يكون ذلك ؟!!! ..

حينما نُبحر في دلالات كتاب الله تعالى علينا أن نتجرّد عن أيِّ عصبيّة ذاتيّة أو مذهبيّة أو طائفيّة ، حين ذلك نستطيع إدراك – ما نستطيع إدراكه – من دلالات كتاب الله تعالى ، شريطة أن نتّبع منهج بحثٍ سليمٍ لا يخرج من مقدّماته إلى نتائجه عن كتاب الله تعالى ..

إنَّ الكلمتين : [﴿ قَوْمُكَ ﴾ ، ﴿ قَوْمِى ﴾] في هاتين الآيتين لا نستطيع تخصيصهما ، فكلمة قوم حينما تضاف لضميرٍ يتعلّق بالنبيّ ﷺ فإنّها تعني قومَه ، وهذا ما نراه بشكلٍ جليٍّ في قوله تعالى ..

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤]

فكلمة ﴿ وَلِقَوْمِكَ ﴾ هنا نراها – أيضاً – تعني القوم كلّ القوم ، فالقرآن الكريم عزٌّ وشأنٌ وقيمةٌ إيمانيّة لكلِّ القوم ، والله سبحانه وتعالى سيسأل القوم كلَّ القوم عمّا عملوه في إيصال القرآن الكريم للأقوام الآخرين ..

إذاً قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ يعني أنَّ القوم كلَّ القوم كذّبوا بالقرآن الكريم ، ولا يعني أنّهم كذّبوه ، أبداً ، فالآية الكريمة ليست على الشكل (وكذَّبه قومُك) ، إنّما هي ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾ ، والفارق كبير بين هاتين الصياغتين ..

.. لو كانت الصياغة (وكذَّبه قومُك) ، لكان القوم كلّ القوم قد كذّبوا القرآن الكريم كلّه .. بينما في الصياغة ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ ﴾ نرى أنَّ القوم كلَّ القوم كذَّبوا ببعض ما يحمل القرآن الكريم من دلالات ، وبالتالي تحت اسم اتّباع النصِّ القرآني تمَّ تكذيب أحكامِه ، بمعنى : بواسطة شعارات اتِّباع القرآن الكريم تمّ التكذيب به .. فهناك أحكامٌ من كتاب الله تعالى تمَّ الإعراض عنها من كلِّ القوم ، هكذا يُدرك من يضع النصَّ القرآنيّ معياراً لكلِّ ما هو دونه .. أمّا أن نضع روايات التاريخ ، وأقوال بعض السابقين ، وعصبيّاتنا المذهبيّة والطائفيّة ، معياراً لدلالات كتاب الله تعالى ، فهذا يعني أنّنا سُنعرضُ عن حقيقة الصياغة اللغويّة لآياته الكريمة ..

ونقول لمن يستغرب كلامنا هذا ، سترى — إن شاء الله تعالى — في الفصل القادم كيف تمّ تلفيق مسألة الناسخ والمنسوخ ، التي تُضاف من خلالها أحكامٌ إلى كتاب الله تعالى ، لا يحملها لا من قريب ولا من بعيد ، وتُحذَف من خلالها أحكامٌ واضحةٌ جليّة من كتاب الله تعالى .. وقد بيّنت في بعض كتبي الأخرى كيف أنَّ الخروج من النار بعد الدخول إليها هو أُكذوبة تماثل تماماً ذات الأكذوبة التي افتراها أهل الكتاب على منهج الله تعالى ، وبيّنت — أيضاً — أنَّ مسألة العبيد وملك اليمين كما تمَّ الإجماع عليها ، ينقضها القرآن الكريم من أساسها ، وأنّها لا تليق أبداً بمنهجٍ أنزله الله تعالى رحمةً للعالمين .. وبيّنت — أيضاً — كيف أنَّ أحكام الطلاق في كتاب الله تعالى تختلف كثيراً عمّا تمّ تأطيره فقهيّاً ، جرياً وراء الروايات التاريخيّة ومقولات السابقين ... وبيّنت الكثير من المسائل التي يحملها القرآن الكريم ، والتي تمّ تغييبها واستبدالها بأحكامٍ أُخرى ..

إذاً .. قوله تعالى ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ ﴾ يعني أنَّ القوم كلَّ القوم كذّبوا ببعض الأحكام التي يحملها كتاب الله تعالى ، هكذا تنطق الصياغة اللغويّة لهذه العبارة القرآنيّة ، وهكذا يُدرك كلُّ من يُبحر في أعماق النصّ القرآني بتجرّد ومنهجيّة علميّة لا يُطلّق فيها عقله ..

وفي الآية الكريمة ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ التي تحمل شكوى الرسول ﷺ في الآخرة ، نرى أنَّ النصّ ليس على الشكل (يا رب إنَّ قومي هجروا القرآن) ، إنّما هي ﴿ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ ، فالفارق بين هجر القرآن الكريم ، وبين اتّخاذه مهجوراً ، هو فارق كبير ..

فكلمة ﴿ ٱتَّخَذُواْ ﴾ هي من الجذر اللغوي (أ ، خ ، ذ) ، الذي تدور دلالاته في إطار معنى التناول ، ودخلت تاء الجهد والعمل — في هذه الكلمة — لترسم لنا صورة التفاعل مع معنى التناول .. إذاً .. اتّخاذ القرآن مهجوراً ، هو تركه والإعراض عنه حينما يتمّ تناول الأحكام واستنباطها والعمل بها .. وهذا يختلف عن الهجر بمعنى الترك ، فهم يحفظون القرآن عن ظهر قلب ويجوّدونه بأعذب الأصوات ، ومستعدّون للموت دفاعاً عنه ، ولكنّهم حينما يتناولون الأحكام ويستنبطونها ويعملون بها ، نراهم يتركونه جرياً وراء الروايات التي يخالف الكثير منها دلالات كتاب الله تعالى ..

وهكذا نرى أنَّ ظاهر الصياغة اللغوية للنصّ المصوِّر لشكوى الرسول ﷺ في الآخرة ، لا يتعارض مع حقيقة الأدلّة والأحكام التي يحملها .. فالنصّ (كما نرى) غير مُخصَّص ، وتخصيص كلمة ﴿ قَوْمِى ﴾ فيه هو خروجٌ على ما يحمل من معانٍ وأحكام ..

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى العبارة القرآنيّة ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ في الآية الكريمة التالية ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ

مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٤٣]

وهذا نصٌّ حرفيٌّ – فيما يخصّ تفسير العبارة **﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾** – نأخذه من تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ، للإمام محمّد الرازي فخر الدين : **[اختلف المفسّرون في اللمس المذكور هاهنا على قولين : أحدهما : أنَّ المراد به الجماع ، وهو قول ابن عبّاس والحسن ومجاهد وقتادة ، وقول أبي حنيفة رضي الله عنه ، لأنَّ اللمس باليد لا ينقض الطهارة . والثاني : أنَّ المراد باللمس هاهنا التقاء البشرتين ، سواء كان بجماع أو غيره ، وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبي والنخعي وقول الشافعي رضي الله عنه]** ..

الرأي الأوّل من هذين الرأيين ليس صحيحاً على الإطلاق ، فالقول بأنَّ اللمس في هذه العبارة **﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾** والذي هو من الجذر (ل ، م ، س) ، القول بأنّه يعني الجماع ، ينقضه القرآن الكريم ، فالجماع صُوِّر في كتاب الله تعالى بكلمات مشتقّة من الجذر (م ، س ، س) ..

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٦]

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٧]

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ ﴾ [آل عمران : ٤٧]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب : ٤٩]

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة : ٣]

بينما كلمة ﴿ لَـٰمَسۡتُمُ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ نراها من الجذر (ل ، م ، س) .. ومشتقّات الجذر (ل ، م ، س) في كتاب الله تعالى تعني التحسّس من الخارج دون الدخول في الشيء الملموس ..

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَـٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأنعام : ٧]

﴿ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَـٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴾ [الجن : ٨]

إذاً .. القول الأوّل بأنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ تعني الجماع ليس صحيحاً ولا بأيّ وجهٍ من الأوجه ..

أمّا القول الثاني بأنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو غيره ، أيّ مجرّد الالتقاء ، فهو — أيضاً — ليس صحيحاً ..

إنَّ كلمة ﴿ لَـٰمَسۡتُمُ ﴾ نراها بصيغة تفيد المفاعلة من اللمس ، وليس مجرّد اللمس ، فلو كان الأمر مجرّد اللمس لكانت (لَمَستُم) ، ولكن ما نراه أنَّ هذه الكلمة هي ﴿ لَـٰمَسۡتُمُ ﴾ .. إذاً العبارة القرآنيّة ﴿ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ تعني لمساً يحصل معه مفاعلة تتحرّك به النفس ، ولا يعني مجرّد اللمس ..

وممّا يؤكّد صحّة ما نذهب إليه أنَّ كلمة ﴿ ٱلنِّسَآءَ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ تأتي بصيغة مطلقة غير مخصَّصة ، فهي تشمل المرأة الغريبة ، وتشمل الزوجة وتشمل المحرّمات ، وبالتالي فدلالاتها مطلقة ، ولا يجوز لنا أن نخصّصها حسب أهوائنا ، وهذا لا يستقيم إلاَّ مع كون اللمس هنا هو المصافحة ..

.. فورود كلمة ﴿ لَـٰمَسْتُمُ ﴾ بصيغة المفاعلة ، تصويرٌ مطلق ينسجم مع إطلاق كلمة ﴿ ٱلنِّسَآءَ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ ، وكلّ ذلك يؤكّدُ صحّةَ ما نذهب إليه في تفسير هذه العبارة القرآنيّة ..

وفي هذا المثال نرى كيف أن صياغة النصّ القرآني هي الفيصل الأوّل والأخير في استنباط الأحكام من كتاب الله تعالى ، ونرى أنّه لا يُوجد – من البشر – من يُجْعَل قوله حجّة على كتاب الله تعالى ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

تحريف الكلم
عن مواضعه

بعد ما رأيناه من قفز فوق حقيقة دلالات كتاب الله تعالى ، عبر تخصيص ما لا يمكن تخصيصه ، وعبر إطلاق ما لا يمكن إطلاقه كونه يرد مخصَّصاً بحالة خاصّة ، وعبر الركض خلف روايات تاريخيّة ملفَّقة تمَّ فرضها على المنهج لدرجة أصبحت فيها معياراً لإدراك دلالات كتاب الله تعالى ، وعبر عدم اتّباع منهج البحث الكليّ في كتاب الله تعالى ﴿ **ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ** ﴾ ، وعبر الاتّباع الأعمى لتفسير بعض السابقين ... عبر كلِّ ذلك ، تمّ التحريف في تفسير بعض النصوص القرآنيّة لدرجةٍ حُيِّد فيها القرآن الكريم تماماً وأصبحت فيها الروايات وأقوال السابقين منهجاً بديلاً عن منهج الله تعالى ..

وهذا عين ما فعله من حرّفوا المناهج السماويّة السابقة .. ﴿ **مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ** ﴾ [النساء : ٤٦] .. ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ** ﴾ [المائدة : ١٣] .. ﴿ **سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ** ﴾ [المائدة : ٤١] ..

فالعبارتان : [﴿ **يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ** ﴾ ، ﴿ **يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ** ﴾] ، تعنيان تحريف المعنى والدلالة عن الكلمة وعن الجملة التي يتمُّ تبيانها ، ومن بعد الكلمة والجملة التي يتمّ تبيانها ، بمعنى إخراج دلالات الكلمات والجمل عن معانيها الحقيقيّة ، والإتيان بمعاني لا وجود لها في النصّ المفسَّر .. وهذا عين ما رأيناه في

زعمهم لتخصيص مطلق كتاب الله تعالى ، ولإطلاق مخصّصه ، وهذا عين ما سنراه — إن شاء الله تعالى — في الفصل القادم ، عندما نتعرّض لمسألة الناسخ والمنسوخ المزعومة ..

من المؤكَّد أنَّ قولنا هذا يستنكره كلٌّ من لم يتجرّد في إدراكه لدلالات كتاب الله تعالى ، معتقداً أنَّ السابقين أحاطوا بكتاب الله تعالى ، وأنّه ما علينا إلاّ اجترار الموروث وحفظه عن ظهر قلب دون تدبّرٍ حقيقيٍّ لآيات كتاب الله تعالى ودون تفكّر .. ولكن .. من يصغي بقلبه وروحه وعقله مدركاً حقيقة قول الله تعالى **﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾** [الجاثية : ٦] ، الذي يأمرنا الله تعالى به أن لا نؤمن **[** إيماناً موازياً لإيماننا بالنصّ القرآني **]** بأيّ نصٍّ دون كتاب الله تعالى ، بمعنى أنه علينا أن نتعامل مع ما هو دون كتاب الله تعالى بالمقاربة ، التي تتمّ فيها المعايرة على كتاب الله تعالى .. من يصغي لهذا الأمر الإلهي بقلبه وروحه وعقله سيعلم أنَّه تمَّ تحريف تفسير الكثير من آيات كتاب الله تعالى ، لتوافق أهواءً سابقة تمّ فرضها تحت مضلّة العصبيّات المختلفة التي عصفت بهذه الأمّة ..

وسنقف عند بعض الأمثلة لنرى حقيقة هذا الأمر ، وكيف أنَّ الالتزام بصياغة النصّ القرآني هو الملجأ والمرجع الأوّل والأخير للباحث عن الحقيقة ، وهذا عين ما أمر الله تعالى به نبيّه ﷺ : **﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾** [الكهف : ٢٧] ، فالعبارة القرآنيّة **﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾** واضحة وصريحة في أنَّ النبيّ ﷺ ذاته لا ملجأ ولا مرجع له إلاّ كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) ..

لننظر في الآية الكريمة التالية التي تحمل نصاً مطلقاً واضحاً جليّاً في حريّة الاعتقاد ، دون أيِّ جبرٍ أو قسر ..

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

قوله تعالى **﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾** كلام عامٌّ بيّنٌ صريحٌ ليس مخصّصاً بحالةٍ محدّدة دون غيرها ، وهذا نراه أيضاً في قوله تعالى **﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾** [الكهف : ٢٩] ، فقوله تعالى **﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾** صريحٌ وبيّنٌ في أنَّ أمر الإيمان والكفر مبنيٌّ على الاختيار الحر ، وليس مبنيّاً – أبداً – على القسر والجبر .. وهذا ما نراه – أيضاً – في قوله تعالى **﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾** [يونس : ٩٩] ، فقوله تعالى **﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾** صريحٌ وبيّنٌ في أنَّه لا يجوز الإكراه حتى على الإيمان ، وهذا عين ما نقرؤه من العبارة القرآنيّة **﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾** ..

بعد هذا البيان الجليّ ، نرى أنَّ معظمهم أعرض عن هذه الدلالات البيّنة ، متحايلاً عليها ، ناظراً إليها من منظار بعض الروايات التي تتناقض تماماً مع هذه النصوص القرآنيّة المطلقة .. فقد لُفّق على الرسول ﷺ في (صحيح البخاري حديث : ٢٧٩٤ حسب ترقيم العالميّة) بأنّه قال : **[مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ]** .. ولفّق عليه ﷺ في (صحيح مسلم حديث ٣١٧٥ حسب ترقيم العالميّة) أنّه قال : **[لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث الثيّب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة]** .. ولُفّق عليه ﷺ في (سنن النسائي حديث ٣٩٥٣ حسب ترقيم العالميّة) أنّه قال : **[لا يحلّ دم امرئ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث رجل كفر بعد**

إسلامه أو زنى بعد إحصانه أو قتل نفساً بغير نفس] .. ولُفِّق عليه ﷺ في (مسند أحمد حديث ٤٢٣ حسب ترقيم العالميّة) أنّه قال : **[لا يحلّ دم امرئ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث رجل زنى بعد إحصانه فعليه الرجم أو قتل عمداً فعليه القَود أو ارتدّ بعد إسلامه فعليه القتل]** ..

.. إنَّ العبارة القرآنيّة **﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾**، واضحة وصريحة بأنَّه لا يحقّ الجبر ولا القسر في مسألة الدين ، سواءٌ كان ذلك قبل الدخول بدينٍ مُحَدَّدٍ أم بعد الخروج منه ..

وكلمة **﴿ فِي ﴾** في هذه العبارة القرآنيّة لا تعطيهم الدليل على أنَّ عدم الإكراه في الدين ساحته قبل الدخول في الدين الإسلامي ، فتخصيص هذه العبارة القرآنيّة بناءً على ذلك ليس صحيحاً ، وهو محاولة لفرض الروايات الموضوعة والأهواء المسبقة الصنع على دلالات كتاب الله تعالى .. فكلمة **﴿ ٱلدِّينِۖ ﴾** في هذه العبارة القرآنيّة تعني جنس الدين ، وليست خاصّةً بالدين الإسلامي (الرسالة الخاتمة) دون غيره ، والصورة القرآنيّة التالية تُظهر هذه الحقيقة ..

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى : ١٣]

إنّ ما وصّى الله تعالى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام هو من الدين ، كما أنَّ ما أوحاه إلى محمّد ﷺ هو من الدين ، والعبارة القرآنيّة **﴿ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾** التي هي جوهر ما شرعه الله تعالى من الدين موجّه إلى كلّ أولئك الرسل عليهم السلام ، وهذا يؤكّد أنَّ كلمة **﴿ ٱلدِّينِۖ ﴾** ليست خاصّة بالدين الذي أنزلــه الله تعالى عبر الرسالة الخاتمة .. والصورة القرآنيّة التالية تؤكّد هذه الحقيقة ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] ..

إنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ صريحة في أنَّ ما تعنيه كلمة ﴿ ٱلدِّينِ ﴾ ليست خاصّة بالدين الذي أنزله الله تعالى عبر الرسالة الخاتمة .. ولذلك فمن أسماء يوم الآخرة هو ﴿ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ ..

﴿ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار : ١٥ – ١٩]

إذاً .. قوله تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ يعني : لا جبر ولا قسر في مسألة الدين ، سواءٌ كان ذلك دخولاً أو خروجاً من أيِّ دين ، والعبارة القرآنيّة ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف : ٢٩] ، صريحة في تبيان هذه الحقيقة .. وكذلك الآية الكريمة ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] ..

والصورة القرآنيّة ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ تبيّن لنا أنَّ الرشد يتبيّن من الغي حينما لا يكون هناك إكراهٌ في الدين ، فورود العبارة ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ خلف العبارة ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ نستشفّ منه أنَّ تبيان الرشد من الغي يكون بعدم الإكراه في الدين ، وبالتالي فإنَّ الإكراه في الدين يخلط الأمور لدرجة لا نتبيّن بها الرشد من الغي ، فنرى الرشد غيّاً والغيّ رشداً ..

وحتّى لو طلّقنا عقولنا وصدّقنا أنَّ عدمَ الإكراه ساحته قبل دخول الدين ، وليس بعد دخوله ، فإنَّ هذا التصوّر – غير السليم – تنقضه الرواية الموضوعة التالية التي يقدّسها معتنقو هذا التصوّر ..

البخاري (٣٧٩) :

حَدَّثَنَا .... قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ....

مسلم (٣١) :

حَدَّثَنَا .... عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ

هاتان الروايتان الموضوعتان تقولان : أُمر الرسول ﷺ بمقاتلة الناس (كلّ الناس) حتى يؤمنوا بالدين الإسلامي الذي أنزله الله تعالى عليه ، وحتى يصلوا صلاتنا ويستقبلوا قبلتنا ويذبحوا ذبيحتنا وإلاّ فدماؤهم مهدورة وأموالهم مستباحة .. هذا ما يقرؤه كلّ عاقل يدرك الحدّ الأدنى من قواعد اللغة العربيّة ..

.. كيف نوفّق – إذاً – بين تحريف الكلم عن مواضعه في تفسيرهم لقول الله تعالى ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ** ﴾ ، ذلك التحريف الذي بنوه على بعض الروايات التي رأيناها مثل [**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**] ، كيف نوفّق بين ذلك وبين الروايات الموضوعة التي تأمر بمقاتلة الناس لإجبارهم على دخول ديننا .. أليس كلّ ذلك تحريفاً للكلم عن مواضعه ، ومن بعد مواضعه ، في تفسير آيات كتاب الله تعالى ؟ .. نترك الإجابة لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ..

هم يتخيّلون حريّة المعتقد ليست في صالح الإسلام ، وكأنَّ المسلمين يتفلّتون من الإسلام وينتهزون الفرصة المناسبة للخروج منه ، ولذلك يحاربون حريّة المعتقد بناءً على ذلك ... إنّ تصوّرهم هذا دليلٌ على أنّهم لا يرون الإسلام إلاّ عصبيّة مبنيّة على العاطفة دون الحجّة والدليل والبرهان ، فتصوّرهم هذا هو نتيجة منهجهم التراثي الجمعي الذي يحارب العقل حتى في تعقّله لآيات كتاب الله تعالى ..

❁ ❁ ❁

ولنأخذ مسألةً أُخرى .. لننظر إلى صياغة الآية الكريمة التالية ، وكيف تمَّ في تفسيرها تحريف الكلم عن مواضعه ..

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾
[آل عمران : ١٤٤]

العبارة القرآنيّة **﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾** تعني أنَّ محمّداً الرسول ﷺ سيخلو ويمضي كما خلت ومضت من قبله الرسل السابقون ، وأنَّ تفاعل قومه مع المنهج الذي يحمله سيكون كتفاعل الأقوام السابقين مع رسلهم الذين خلو ، فمحمّد ﷺ ليس استثناءً في ذلك .. وهناك عبارة قرآنيّة أُخرى أتت بصياغة مماثلة تماماً لصياغة هذه العبارة ، ولكن بخصوص المسيح عليه السلام ..

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥]

.. فالمسيح ابن مريم عليهما السلام في طبيعته البشريّة من أكلٍ للطعام ، ليس استثناءً من الرسل الذين خلوا من قبله ، فكما أنَّ الرسل الذين خلوا من قبله كانوا يأكلون

الطعام ، كذلك هو (وأمّه) كان يأكل الطعام .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ تتعلّق بالسنّة الكونيّة من أكلٍ للطعام ، والتي يتماثل فيها عيسى عليه السـلام مع من خلو من قبله من الرسل ، ولذلك تأتي نهاية الآية الكريمة ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ..

وهذا الربط بين الذين خلوا والذين يتماثلون معهم بذات السنّة من اللاحقين ، نـراه أيضاً في الآية الكريمة ..

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧]

فالسنن التي خلت من قبلنا هي ذاتها السنن التي ستنطبق علينا .. وهذا ما نراه أيضـاً في النصّ التالي ..

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر : ١٠ – ١٣]

إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾ تصوّر لنا تماثلاً بين سنّة تفاعل الأقوام السابقين الذين خلو مع رسلهم ، وبين سنّة تفاعل قوم الرسول محمد ﷺ مع الرسالة التي أنزلت عليهم ..

وفي العبارة القرآنيّة ﴿ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾ نرى أنَّ حرف الاستفهام دخل على الشرط ﴿ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ ، وليس على جُملةِ الجزاء ﴿ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾ ، وهذا يرسم دلالةً مختلفة فيما لو تمّ دخوله على جملة الجزاء ، حيث

دخوله على الجزاء تناسبه العبارة (أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قُتِل) .. أمّا تفسير الآية على اعتبار حرف الاستفهام داخلاً على الجزاء دون الشرط ، فهذا خروجٌ على صياغة النصّ القرآني ، وبالتالي تحريفٌ للكلم عن مواضعه ..

إنَّ دخول الاستفهام على الشرط دون الجزاء هو إشارةٌ إلى أنَّ المسألةَ تحملُ — فيما تحمل — تقريراً بانقلابٍ على الأعقاب بعد خروجِ محمّد ﷺ من الدنيا ، سواءٌ كان ذلك بالموت أو كان بالقتل .. وفي هذا تماثلٌ مع تفاعل الأقوام الذين خلوا مع الرسالات التي أُنزلت عليهم ..

.. ومن جهةٍ أُخرى لماذا يقولُ الله تعالى ﴿ **أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ** ﴾ مع أنَّ الله تعالى يستثني محمداً ﷺ من القتل ؟!!! .. يقولُ تعالى : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾ [الزمر : ٣٠] .. فقولُهُ تعالى : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ** ﴾ يستثني القَتل .. إنَّ في ذلك دليلٌ على أنَّ الآية الكريمة ليست مجرّد سردٍ تاريخيٍّ لحادثةٍ تمّت في الجيل كما ذهبت تفاسيرنا الموروثة .. المسألةُ يُرادُ منها تبيانُ مبدأٍ عقائديٍّ بأنَّ المنهجَ لا يتعلّقُ بشخصِ محمّدٍ ﷺ ، وأنَّ المنهجَ مُستقلٌ حتى عن تاريخ الأحداث في الجيل الأوّل ، فخروجُ محمّدٍ ﷺ من الدنيا سواءٌ بالموت أم بالقتل لا يُغيّرُ شيئاً من المنهج المُحتوى في النصِّ القرآني المحفوظ من قِبَلِ الله تعالى ..

.. ومن جهةٍ أخرى .. اللهُ تعالى لم يقل : (انقلبوا على أعقابهم) بصيغةِ الغائب ، إنّما يقول : ﴿ **ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ** ﴾ بصيغة المُخاطَب ، والله تعالى لم يقل : (انقلبَ بعضُكم على أعقابهم) ، إنّما يقول : ﴿ **ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ** ﴾ ، بل إنَّ كلمة ﴿ **ٱنقَلَبْتُم** ﴾ تعني رجوعاً عن أمرٍ كان المُنقلبُ متمسِّكاً به قبل خروجِ محمّد ﷺ من الدنيا .. إذاً المسألةُ ليست كما يُصوِّرُها بعضُهم على أنّها تعني بعضَ المُرتدّين .. المسألةُ تعني تحذيراً لنا من الله سبحانه وتعالى ألاَّ نجعلَ الرجالَ مهما كانوا وألاَّ نجعلَ رواياتِ

التاريخ مهما كانت ، ألاَّ نجعلَ كُلَّ ذلك في درجةِ المُقدَّس التي نرى بها كتابَ الله تعالى ..

إذاً .. الآية الكريمة تحمل تقريراً مفاده أنَّ سنّةَ تفاعل الأقوام السابقين مع رسلهم عليهم السلام ، لم تتغيّر في تفاعلنا مع الرسالة التي أنزلت على الرسول محمّد ﷺ ، فتحويل الأقوام السابقين للتاريخ ورجالاته ورواياته إلى جزءٍ من المقدَّس ، بدرجةٍ موازيةٍ لنصوص الكتب التي أنزلت على رسلهم عليهم السلام ، لدرجةٍ يرى فيها أتباع تلك الرسل هذه النصوص التاريخيّة منهجاً موازياً لمنهج الله تعالى ، واعتقادهم بذلك تمام الاعتقاد ، هذا التفاعل سيتكرّر مع أتباع الرسالة الخاتمة بعد موت النبيّ محمّد ﷺ ، فستُضاف الروايات المفتراة على الرسول ﷺ لتصبح حجّةً على القرآن الكريم ، بل وسيزعم الكثيرون أنّ بعضها ناسخٌ لبعض أحكام القرآن الكريم ، وأنّها مقيّدة لمطلقه ، ومُطْلِقة لمخصّصه كما رأينا ..

ومن الطبيعي أن يُحرّفوا الكلم عن مواضعه في هذه الآية الكريمة ، فدلالاتها واضحة جليّة ، وتفسيرها حسب صياغتها اللغويّة سيقذف في مهبّ الريح بآلاف الروايات الموضوعة التي تُفرَض على الأمّة ، تحت شعاراتٍ برّاقة تخطف أبصار العوام .. وكلُّ ذلك تختزلُه الآيةُ الكريمة التالية التي يحذّرنا الله تعالى بها من أن نرفع أيَّ نصٍّ خارج دفّتي كتاب الله تعالى إلى درجة الإيمان الكامل التي نؤمن بها بكتاب الله تعالى ..

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾

[الجاثية : ٦]

❁ ❁ ❁

ولنقف عند دلالات الآية الكريمة ..

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف : ٥٧]

وفيما يلي نقلٌ حرفيٌّ من تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ، للإمام محمّد الرازي فخر الدين (٥٤٤ – ٦٠٤) هـ : **[روي أنّه لمّا نزل قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾** [الأنبياء : ٩٨] ، **قال عبد الله بن الزبعرى هذا خاصّة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال ﷺ : (بل لجميع الأمم) فقال خصمتك وربّ الكعبة ، ألست تزعم أنَّ عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيراً وعلى أمّه ، وقد علمت أنَّ النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيراً والملائكة يُعبدَون ، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، فسكت النبيّ ﷺ وفرح القوم وضحكوا وضجّوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾** [الأنبياء : ١٠١] ، **ونزلت هذه الآية أيضاً والمعنى : ولمّا ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً وجادل رسول الله بعبادة النصارى إيّاه إذا قومك قريش منه أي من هذا المثل ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وجدلاً وضحكاً بسبب ما رأوه من إسكات رسول الله فإنّه قد جرت العادة بأنَّ أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج ..]**

إذاً خُصِّصت دلالات هذه الآية الكريمة بحادثة تاريخيّة محدّدة حدثت زمن الجيل الأوّل ، وكأنَّ دلالاتها منتهية عند حدود تلك الحادثة التاريخيّة .. ولو تدبّرنا دلالات هذه الآية الكريمة لرأينا أنَّها تصورُ موقفاً مجرَّداً عن الحدث الذي يتحدّثون عنه ، وأنّها تصوّر ما سيحدث حين النزول الثاني لعيسى عليه السلام ..

.. إنّنا نرى ورودَ كلمةِ **﴿ وَمَا ﴾** في الآيةِ الكريمة : **﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾** دونَ كلمة (والذين) أو كلمة (

وَمَن) ، وهذا ينفي التفسير الموروث من أساسه ، فالعقلاء مثل عيسى عليه السلام والعُزَير تشير إليهما كلمة (والذين) وكلمة (وَمَن) ، وليس كلمة ﴿ **وَمَا** ﴾ ... فلو كان هناك احتمالٌ لدخولِ عيسى عليه السلام وغيرِه من الذين عبدتهم أقوامُهُم في ساحة دلالات هذه الآية الكريمة ، لما وردت كلمة ﴿ **وَمَا** ﴾ أصلاً .. وهذه الحقيقةُ اللغويّةُ واضحةٌ جليّةٌ لا تغيبُ عن إدراكِ النبيّ ﷺ ولا حتى عن إدراك أفرادِ الجيلِ الأوّل ..

.. ولنقف عند النقاط التالية (والتي بيّناها في كتاب المعجزة الكبرى ، وننقلها بحرفيّتها – تقريباً – من كتاب المعجزة الكبرى) ، لنرى كيف أنَّ تفسيرهم التاريخي هو تحريف للكلم عن مواضعه ..

(١) – الصدُّ في التفسيرِ التاريخيّ هو لجزءٍ من قومِ الرسول ﷺ ، بينما في الصياغةِ اللغويّةِ للنصِّ القرآنيّ ، نرى أنّ الصدَّ يشملُ كُلَّ القوم ، بدليلِ كلمةِ ﴿ **قَوْمُك** ﴾ دونَ تخصيصِ جزءٍ منهم : ﴿ **إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** ﴾ .. فعندما يقول الله تعالى ﴿ **قَوْمُك** ﴾ فهذا يعني القوم كلّ القوم ، وهذا يتعارض مع التفسير التاريخي الذي رأيناه ..

(٢) – التفسيرُ التاريخيُّ يعرضُ الصدَّ من القرآنِ الكريم ، ومسألةُ عيسى عليه السلام مُجرّدُ استثمارٍ من قِبَلِ المشركين في سبيل هذا الصدّ .. فيتمُّ الاحتجاجُ بعبادةِ قَوْمِ عيسى عليه السلام له من قِبَلِ قَومِه ، كمقدّمةٍ يُستشهَدُ بها من أجلِ إثبات بُطلانِ قولِه تعالى : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ** ﴾ ..

.. ولو نظرنا في الصياغة اللغويّة لهذه الآية الكريمة لرأينا أنّ الصدَّ هو من عيسى عليه السلام ، ومن ضربِه مثلاً ، بدليل قولِه تعالى ﴿ **مِنْهُ يَصِدُّونَ** ﴾ ، فالضميرُ كما نرى

يعود إلى ابن مريمَ عليه السلام كمثلٍ يتمُّ ضربُه .. فالله تعالى لم يقل : (إذا بعضُ قومِكَ من آياتِنا يصِدّون) ، إنّما يقولُ جلّ وعلا : ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ ..

(٣) — المثل المضروب — في الصياغةِ القرآنيّة — لا يتعدّى ابنَ مريمَ عليه السلام وذاتَه وما يأتي به .. فالقرآنُ الكريم لم يُبيّن لنا — في ظاهر صياغته اللغويّة — كيف كان المثل ، وفي أيِّ شيءٍ كان ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ .. فالذي يُضرَبُ مثلاً هو ابنُ مريمَ ذاتُه ، وضاربُ المثلِ ليسَ القرآنَ الكريم ، فصيغةُ المبني للمجهول ﴿ ضُرِب ﴾ تحملُ بياناً في ذلك .. وكلُّ ذلك ينفي التفسيرَ التاريخيَّ الذي يذهبُ إلى استعمالِ ابنِ مريمَ كحجّةٍ للجدال ، وليس كمثلٍ مضروبٍ بذاتِه ..

(٤) — قولُه تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاًۚ ﴾ ، في الآية التالية مباشرةً ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاًۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ، هذا القول ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاًۚ ﴾ يتعلّقُ — فيما يتعلّقُ به — بقولِه تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ ﴾ ، ولا يُمكنُ الجزْمُ بأنَّ العبارةَ القرآنيّةَ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاًۚ ﴾ ، لا تعودُ إلاّ إلى ما ضُرِبَ مَثَلاً ..

.. فكلمة ﴿ لَكَ ﴾ في هذه العبارةِ القرآنيّةِ تعني : أنّ قَوْلَهُم ﴿ ءَأَٰلِهَتُنَاْ خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ ﴾ ، يضعونه — من أجلِ الجَدَل — في مواجهةٍ بينَ آلهتهم من جهةٍ ، وبينَ ابنِ مريمَ من جهةٍ أُخرى ، وليس بين ابنِ مريمَ وأصنامِهم من جهةٍ ، وبين دلالاتِ الآية الكريمة ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ من جهةٍ أُخرى ..

.. فآلهتُهُم تُوضَعُ في مُقابلةٍ مع ابنِ مريمَ ونقيضٍ له .. وكلٌّ ذلك ينقضُ التفسيرَ التاريخيَّ لهذا النصّ الكريم ، حيثُ التفسيرُ التاريخيُّ يضعُ ابنَ مريمَ وأصنامَ المشركين في خندقٍ واحدٍ معادٍ لدلالاتِ كتابِ الله تعالى ، من أجلِ الجدلِ وإثباتِ بطلانِ دلالاتِ كتابِ اللهِ تعالى ..

(٥) – الصدُّ الذي تحملُه العبارةُ القرآنيّة ﴿ **مِنْهُ يَصِدُّونَ** ﴾ يعني منعَ المعرفةِ ومنعَ إيصالِ الحقيقةِ ويعني الإعراضَ وعدمَ الاتباعِ والمحاربةَ لأمرٍ مُراد يكونُ جوهرُهُ مَا يأتي به ابنُ مريمَ عليه السلام ، دون أيِّ أمرٍ آخر ..

.. فالصدُّ يكونُ مِمّا يأتي به ابنُ مريمَ ، نتيجةَ تَمسّكِهم بآلهتِهم (أصنامهم التاريخيّة) واختيارِهِم لَها كبديلٍ عمّا يدعو إليه ابنُ مريم عليه السلام .. والخصومةُ الواقعةُ : ﴿ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾ طرفُها الآخر مَا يأتي به ابنُ مريم عليه السلام .. إذاً .. المقارنةُ والخصومةُ هي بينَ آلهةٍ موروثة ، وبينَ مَا يأتي به ابنُ مريمَ عليه السلام ، وليست بين تلك الآلهةِ وبين ما جاءَ به الرسول محمّد ﷺ ، وهذا ينقضُ التفسيرَ التاريخيَّ من أساسِه ..

.. وَمِمّا يُقَوِّي صحّةَ ما نذهبُ إليه ، من أنَّ جوهرَ الصدِّ يتعلّقُ بعدم التخلّي عن الموروثاتِ التاريخيّةِ المُفتراةِ على الرسولِ محمّد ﷺ وعلى كتابِ اللهِ تعالى ، حيثُ يدعو ابنُ مريمَ عليه السلام في نزوله الثاني إلى تركِ تلك الأصنامِ الفكريّة ، وليس جوهرُ الصدِّ من عيسى عليه السلام كنبيٍّ ورسول بعيداً عن دعوتِه لتركِ تلك الأهواءِ التي حُوِّلَت إلى آلهة .. ما يُقوّي ذلك ، هو الصياغة اللغويّة ﴿ **مِنْهُ يَصِدُّونَ** ﴾ دون الصياغة اللغويّة (عَنْهُ يَصِدُّونَ) .. فالصدُّ يكونُ مِمّا يأتي به ابنُ مريمَ ويدعو إليه ، وليس عنه كرسول ، فهم يعلمون أنّه سيترل كعلامةٍ للساعة ، ولكنّ المفاجأةَ – بالنسبةِ لهم – تكون حين يدعو لتركِ الأصنامِ الفكريّةِ التي يحسبونها من جَوهرِ المنهج ..

(٦) – قولُهُ تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الزخرف : ٥٩] ، في ذاتِ السياقِ القرآنيِّ التالي ، يحملُ بياناً على أنّ المثلَ المضروب يتعلّقُ بذاتِ عيسى عليه السلام وبكينونتِه التي يتميّزُ بها ، وما يُؤكّدُ ذلك قولُه تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ [الزخرف : ٦٠] بعد هذه الآيةِ مباشرة ..

.. فاللهُ تعالى يقول : لو نشاء لجعلنا منكم ملائكةً يخلفونكم في الأرض كما يخلفُكُم أولادُكُم ، وذلكَ كما تمّت ولادةُ جسدِ عيسى عليه السلام من التراب مباشرةً دون اجتماعِ نطفةٍ مع بويضة .. فالمثلُ المضروبُ هو جسدُ عيسى عليه السلام ، كمثلٍ له خصوصيّتُه التي تميّزُه عن أجسادِ باقي البشر ، وكنموذجٍ ومعجزةٍ تُثبتُ أنّه هو عيسى عليه السلام ..

(٧) – إضافةً إلى كُلِّ ما سبق ، فإنّنا نرى في تقديم كلمتي ﴿ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ على كلمةِ ﴿ مَثَلا ﴾ في قولِه تعالى ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ ، وفي اختيار الاسم ﴿ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ في قولِه تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ دون الأسماء الأخرى .. نرى في ذلك أنَّ ابنَ مريمَ عليه السلام ، بذاتِه وبكينونتِهِ التي يتميّزُ بها ، والتي تتعلّقُ به وبمريمَ عليهما السلام ، هو النموذجُ الذي يُضْرَبُ مثلاً ، وليس هناك مثلٌ يُضرَبُ فيستخدمُ فيه عيسى عليه السلام كذريعةٍ لهدفٍ آخر ، كما يُفهَمُ من التفسيرِ الموروث ..

.. فالذي يُضْرَبُ مثلاً كنموذجٍ مُعجزٍ ، هو جسدُ ابنِ مريمَ عليه السلام ، الذي هو دونَ اجتماعِ النطفةِ مع البويضة كباقي أجسادِ البشر ، ويكون ذلك عندما تتوفّرُ السويّةُ الحضاريّةُ والعلميّةُ المناسبةُ لإدراكِ تميّزِ جسدِ عيسى عليه السلام ، كمعجزةٍ لا تكونُ إلاّ من عندِ الله تعالى ..

.. فعندَ نزولِ عيسى عليه السلام سيتمُّ اختبارُ جسدِه في المخابرِ العلميّة ، التي ستُثبت أنّه بالفعل عيسى ابنُ مريم ، من خلالِ تميّزِ ماهيّةِ جسدِه .. بينما في نزولِه الأوّل بدأَ معجزاتِه عليه السلام من خلالِ تكليمِه للناس وهو في المهد صبيّاً ، ولا مجالَ آنذاك ، لاختبارِ تميّزِ جسدِهِ عن أجسادِ غيرِهِ من البشر ، فالسويّةُ العلميّةُ والحضاريّةُ – آنذاك – لا تسمحُ بذلك ..

.. إذاً العبارةُ القرآنيّةُ : ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلاً ﴾ ، هي ضمنَ سياقٍ قُرآنيٍّ يُصوِّرُ حَدَثاً سيحدثُ – بالنسبة لنا الآن – في المستقبل ، ولكنّه من منظارِ علمِ اللهِ تعالى الكاشف ، ومن المنظارِ المُجَرَّدِ عن مادّةِ التاريخ والزمان ، هو حدثٌ واقعٌ كوقوع الأحداث التي شاهدناها – نحن البشر – بأعيننا ... وبعد نزول عيسى عليه السلام ، سيبقى هذا النصُّ بهذه الصياغةِ اللغويّة ذاتِها ، التي هي فوق التاريخ والزمان والمكان ... من هنا نُدركُ عظمةَ الصياغةِ القرآنيّةِ المتعلّقةِ بعلمِ الله تعالى المُجرّد عن الزمان والمكان ، والمتعلّقة بكون القرآن الكريم حاملاً للتاريخ وليس محمولاً به ..

.. المسألةُ تكمنُ في كَوْنِ النصِّ القرآنيِّ فوقَ النصِّ البشريِّ ، بنسبةٍ هي ذاتُها النسبةُ التي يتعالى فيها اللهُ تعالى عن البشر .. لقد رأينا كيف أنَّ الكلماتِ القرآنيّةَ فطريّةٌ وليستْ من صناعةِ البشر ، وكذلك الأمر بالنسبة لصياغةِ جُمَلِه وعباراتِه ، ورأينا كيفَ أنّ الحرفَ القرآنيَّ هو اللبنةُ الأولى للمعنى .. وفي كُلِّ ذلك إعجازٌ لا يستطيعُ البشرُ الوقوفَ على نهايةِ حقيقتِه .. وهذا مَكْمَنُ مُعجزةِ القرآنِ الكريم ..

.. ورودُ صِيَغِ الأفعال في القرآنِ الكريم بالماضي والمضارع ، يتعلَّقُ بماهيّةِ المسائلِ المحمولةِ بهذه الصِيَغ ، وبالحكمةِ الإلهيّةِ المُرادةِ من تصويرِها ، إمّا من منظارِ عالم الأمْر حيثُ الفِكْر والأحكام بشكلِها المُجَرَّد عن حيثيّات الزمان والمكان ، وبالتالي فَلِتَحَوُّلِ الصيغةِ ما بين الماضي والحاضر تَعلّقٌ مُجَرَّدٌ عن الزمان والمكان .. وإمّا من منظارِ عالِم

الخَلق حيثُ تتعلَّقُ تلك المسائلُ بحيثيّاتِ الزمانِ والمكان ، الذي له سياقُهُ الترتيبيُّ من الماضي إلى الحاضر إلى المُستقبل ..

.. وصِيَغُ الأفعالِ في القرآنِ الكريم ما بين الماضي والحاضر ، تتعلّقُ – أيضاً – بالزاويةِ التي يُلقي اللهُ تعالى من خلالِها الضُّوءَ على هذه المسائل ، وبالسياقِ القرآنيِّ المُحيط ، وبِكَوْنِ النصِّ القرآنيِّ صياغةً مُطْلَقةً صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكان ، بشكلٍ مُجرّدٍ عن زمنِ حدوثِ الأحداثِ المحمولةِ بهذا النصّ ، حيثُ يُقرَأُ النصُّ ذاتُه قبل وقوعِ الأحداثِ وبعدَها ..

.. وفي القرآنِ الكريم ، هناك نصوصٌ كثيرةٌ تمّت صِياغَتُها بالماضي ، مع أنّ أحداثَها مُستقبليّةٌ بالنسبة لنا نحن البشر .. من ذلك ، قولُه تعالى :

﴿ **قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ** ﴾ [الملك : ٢٤ – ٢٧] .. نرى أنّ العبارةَ القرآنيّةَ : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ** ﴾ ، تأتي بصيغة الماضي ، فالأفعال : ﴿ **رَأَوْه** ﴾ ، ﴿ **سِيٓـَٔت** ﴾ ، ﴿ **وَقِيل** ﴾ ، نراها بصيغة الماضي ، مع أنّ الأحداثَ المعنيّةَ بها مستقبليّةٌ بالنسبة لنا البشر ونحن في الحياةِ الدنيا ..

.. ولذلك ، فإنّ الذهابَ إلى أنّ دلالاتِ النصِّ القرآنيِّ : ﴿ **۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾ [الزخرف : ٥٧ – ٥٨] ، تنحصرُ في حَمْلِ أحداثٍ

لا تتجاوزُ أفرادَ الجيل الأوَّل ، بناءً على صِيَغ الماضي ، يحتاجُ إلى بُرهــانٍ ، لا يُمكــنُ إيجادُهُ كما سنرى حين التعرّضِ إلى تفسيرِ هذا النص ..

.. والاحتجاجُ بكافِ المُخاطبِ في كلمــتي : ﴿ قَوْمُك ﴾ ، ﴿ لَك ﴾ ، علــى أنَّ المُخاطَبَ هو شخصُ النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، بكينونتِه التاريخيّة التي لا تتجاوزُ زمــنَ الجيــلِ الأوّل .. هذا الاحتجاجُ ناتجٌ عن جهلٍ بحِكمةِ الصياغةِ القرآنيّة ، وبحكمةِ مخاطبــةِ اللهِ تعالى للرسولِ كقيمةٍ منهجيّةٍ لا تقتصرُ على الناحيةِ التاريخيّة .. فصفةُ الرسالةِ مســتمرّةٌ كَحَمْلٍ لمنهجِ الله تعالى في كُلِّ زمانٍ ومكان ، ومستمرّةٌ من خلالِ اســتنباطِ دلالاتِــه الكامنةِ في أعماقِهِ وإيصالِ ذلك إلى البشر ، ومن خلالِ تَحَمُّلِ المسؤوليّةِ في إدراكِ الحقِّ وإبلاغِه ..

.. وكُلُّ ذلك جَسَّدَه مائة بالمائة مُحَمَّدٌ ﷺ بكينونتِهِ حينما كان على قيدِ الحياةِ قَبْلَ موتِه ، ويتمثَّلُ البشرُ هذه الصفةَ – أعني صفةَ الرسالةِ – بِنِسَبٍ مُختلفــةٍ لا يُمكنُهــا الوصول إلى الدرجةِ التي جسَّدها شخصُ محمّدٍ ﷺ ، ولكنّها نسبٌ موجــودةٌ تتعلّــقُ بدرجة إدراكِ الإنسانِ للحقِّ الذي يحملُهُ منهجُ اللهِ تعالى ، وبدرجةِ إبلاغِ ذلك وإيصالِهِ إلى الناس ..

.. والقرآنُ الكريم يحملُ الكثيرَ من الآياتِ الكريمةِ التي تُصوِّرُ وجودَ صفةِ الرسالة في كُلِّ زمانٍ ومكان .. والآيةُ الكريمةُ التالية تُبيِّنُ لنا هذه الحقيقة ..

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]

.. فكافُ المُخاطَب في كلمةِ ﴿ يُحَكِّمُوك ﴾ تتعلّقُ بصفةِ الرســالةِ ، أيّ بأحكــامِ كتابِ الله تعالى المُستنبطةِ منه في كلِّ زمانٍ ومكان .. ولا يُمْكنُ سجْنُ دلالاتِ هــذه الآيةِ الكريمةِ في إطارِ الجيلِ الأوّل ، بحيث تُستثنى الأجيالُ اللاحقةُ إلى قيامِ الساعة ..

.. وفي النصِّ القرآنيّ :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣]

.. لا يُمكنُ اقتصارُ دلالات الكلمة القرآنيّة ﴿ وَأَنت ﴾ على شخصِ النبيّ ﷺ بحيث لا تتجاوزُ السنينَ التي قضاها ﷺ مع أفرادِ الجيلِ الأوّل .. فهذه الآيةُ الكريمةُ تحملُ دلالاتٍ ونواميسَ لكلِّ زمانٍ ومكان ، والمخاطَبُ هو صفةُ الرسالةِ المستمرّةِ في كلِّ زمانٍ ومكان ..

.. وما نذهبُ إليه ، نستطيعُ قراءتَه من الآيةِ الكريمة :

﴿ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

.. فالعبارةُ القرآنيّةُ ﴿ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ ﴾ ، تُخاطبُ المعنيّينَ بها في كُلِّ زمانٍ ومكان ، ومن الجحود تحجيمُ دلالاتِها بحيث لا تتجاوزُ أفرادَ الجيلِ الأوّل .. وكذلك الأمر بالنسبة لدلالاتِ العبارة القرآنيّة ﴿ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ ، فآياتُ اللهِ تعالى تُتلى في كُلِّ زمانٍ ومكان .. وكذلك الأمرُ بالنسبة لدلالات العبارة القرآنيّة : ﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ .. وكذلك الأمْرُ – أيضاً – بالنسبة لدلالاتِ العبارة : ﴿ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ ﴾ .. فصفةُ الرسالةِ المعنيّةِ موجودةٌ في كُلِّ زمانٍ ومكان ، ومن الجحود بمنهجِ اللهِ تعالى حصرُها بزمنِ الجيلِ الأوّل ..

.. وما نذهبُ إليه ، نستطيعُ قراءتَه – أيضاً – من الآيةِ الكريمة :

﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] ..

.. خطابُ الله تعالى : ﴿ **وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ** ﴾ موجّهٌ لكلِّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكان ..... وحتى لو فرضنا – جدلاً – منهجيّةَ التفاسير الموروثة ، بأنَّ هذا الخطابَ موجّهٌ فقط لشخصِ محمّدٍ ﷺ في إطار التاريخ الذي عاشه .. لو فرضنا هذه المنهجيّةَ جدلاً .. كيف بنا أنْ نفهمَ العبارةَ القرآنيّة : ﴿ **مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ** ﴾ ؟!!! .. فهل سيخرجُ الرسلُ السابقون من قبورهم ليسألهم ﷺ ؟!!! .. أليست المسألةُ مسألةَ رسالاتٍ موجودةٍ من خلالِ أحكامِها التي يستطيعُ الإنسانُ – في كلِّ زمانٍ ومكان – النظرَ إليها والتعرّفَ على حقيقتِها ؟ ..

.. أمّا القول بأنَّ هذه الآية الكريمة تتعلّقُ بحادثة الإسراء والمعراج ، وبمقابلة الرسول ﷺ للرسل السابقين .. فهذا القولُ لا يُوجَدُ عليه أيُّ دليلٍ في سياقِ هذا النصّ ، وهو محاولةٌ – غيرُ موفّقة – لسجنِ دلالاتِ هذا النصِّ في إطار التاريخ ، من أجل عدم الاعتراف بكونِ صفةِ الرسالةِ – في كتاب الله تعالى – مُطلقةً تتجاوز أحداثَ التاريخ ..

.. إذاً .. لا يُمكنُ الاحتجاجُ بصيغِ الماضي وبكافِ المخاطب ، للبرهنةِ على حصرِ دلالاتِ النصِّ القرآنيّ الذي نحنُ بصددِ تفسيرِه ، في إطارِ الماضي بحيث لا تتجاوزُ أفرادَ الجيلِ الأوّل ، كما ذَهَبَتْ تفاسيرُنا التاريخيّة ..

.. فلإثباتِ حَمْلِ دلالاتِ العباراتِ القرآنيّةِ في هذا النصِّ للتفسير التاريخيّ ، لا بُدَّ من بُرهانٍ ينطلقُ من الصياغة اللغويّةِ لهذا النصّ ، وبحيث لا يتجاوزُ الدلالاتِ الواضحةَ في السياقِ التالي له ..

وممّا يؤكّد صحّةَ ما نذهب إليه في أنَّ هذا النصّ من سورة الزخرف ، والذي يبدأ بالآية الكريمة التي نحن بصدد دراستها ..

﴿ **۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ**

أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف : ٥٧ – ٦٦]

.. ممّا يؤكّد أنّه يتعلّق بالنزول الثاني لعيسى عليه السلام ، هو النقاط التالية ..

١ – نرى أنّه لا تُذْكَرُ فيه التوراةُ ولا الإنجيل ، وأنَّ الذي يُذكَر هو البيّناتُ والحكمة ، وتبيينُ بعضِ ما يُختَلَفُ فيه .. وهذا أمرٌ طبيعيٌّ كونَ عيسى عليه السلام في نزوله الثاني سيحكمُ بالقرآنِ الكريم ، بواسطةِ الحكمةِ التي تُستَنْبَطُ من خلالِها الدلالاتُ التي يحملُها كتابُ اللهِ تعالى ، والتي تمّ تغييبُها .. وهو بذلك يُبطِلُ كُلَّ الافتراءات التي حُسبَت على كتاب الله تعالى نتيجةَ ما لُفِّق من روايات تاريخيّة ينقضها القرآنُ الكريم ..

٢ – في هذا النصّ المصوّر – كما نرى – للنزولِ الثاني لِعيسى عليه السلام .. نرى أنَّ قَوْلَ عيسى عليه السلام : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ ، يَحوي كَلِمَةَ ﴿ **هُوَ** ﴾ كتأكيدٍ لِتَنْزيهِ اللهِ تعالى وإثباتِ ألوهيّته وربوبيّتِه .. وهذا طبيعيٌّ كَوْنَ أهلِ الكتاب افتروا عليه بعدَ وفاتِه وقَبْلَ نزولِه الثاني ، وذلك فيما افتروا من جعلِه ابناً للهِ تعالى ، ومن إعطائه صفةَ الألوهيّة ..

.. وهذه العبارةُ القرآنيّةُ قالَها عليه السلام في نزولِهِ الأوّل مرّتين بصيغةٍ قريبةٍ جداً ، مرّة وهو في المهد ..

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴾ [مريم : ٣٦]

.. ومرّة وهو كبير ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٥١]

.. وفي قَوْلِه في هاتين المرّتين ، لم يضعْ عليه السلام كلمةَ (هُوَ) ، كما يَضَعُها في عبارته التي يقولُها في نزولِه الثاني ، فافتراءُ أهلِ الكتاب عليه لم يكن – آنذاك – قد وقع ، وبالتالي لا داعي لهذا التأكيد .. بينما نرى أنَّه في الترول الثاني لعيسى عليه السلام يضعُ هذا التأكيد ، لإنهاء الافتراء الذي وقَعَ عليه قَبلَ نزولِه الثاني من قِبَلِ أهل الكتاب ..

٣ – بعد الآية الكريمة ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾ وفي السياق التالي لها نرى العبارة القرآنيّة ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ ونرى أيضاً الآية الكريمة ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ .. وهذا يتعلّق بكون الأحداث المحمولة في هذا النصّ القرآني هي عِلْمٌ للساعة التي تأتي بعد هذه الأحداث ..

وقد بيّنت هذه الحقيقة بشكلٍ مفصّل في كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، وعبر معجزةٍ عدديّة لا تعرف الكذب والخداع ..

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍۚ ﴾ في قوله تعالى ..

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : ١١]

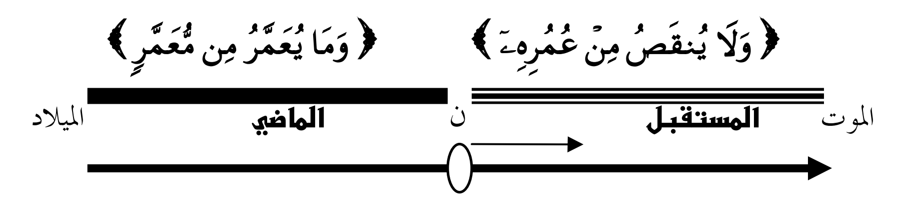
إنَّ الذهاب بدلالات هذه العبارة القرآنيّة على أنَّ العمر يزيد وينقص (أو أنَّ هذه الدلالات تتعلّق بالبركة في العمر) ليس صحيحاً ، وهو أمرٌ ناتجٌ عن عدم تدبّر دلالات هذه العبارة القرآنيّة .. فما نراه أنَّ الكلمتين [[**﴿ يُعَمَّرُ ﴾** ، **﴿ يُنقَصُ ﴾**]] تردان بصيغة المضارع ، فالدلالتان المرسومتان بهاتين الكلمتين تصوّران أمرين يحدثان بشكلٍ مستمرٍّ ، وفي الوقت ذاته ..

وما نراه – أيضاً – أنَّ الضمير المتّصل (الهاء) في كلمة **﴿ عُمُرِهِۦٓ ﴾** في العبارة القرآنيّة **﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ ﴾** يعود إلى المُعَمَّر ذاته **﴿ مُّعَمَّرٍ ﴾** ، ولا يعود إلى شخصٍ آخر غيره ... وما نراه – أيضاً – أنَّ العبارة القرآنيّة **﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾** تبدأ بكلمة **﴿ وَمَا ﴾** ، لتشملَ كلَّ مُعَمَّر ، فكلمة **﴿ وَمَا ﴾** تحمل إطلاقاً لكلِّ مُعَمَّر .. بينما العبارة القرآنيّة التالية لها مباشرة **﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾** ، نراها تبدأ بكلمة **﴿ وَلَا ﴾** ، فهذه العبارة تعود على المعمَّر ذاتِه الذي تصفه كلمة **﴿ مُّعَمَّرٍ ﴾** ، ولذلك تبدأ هذه العبارة القرآنيّة بكلمة **﴿ وَلَا ﴾** ..

فأيُّ إنسانٍ عمره محدّد ومعلوم عند الله تعالى ، ومن زاوية علم الله تعالى لا يزيد هذا العمر ولا ينقص .. وهذا العمر له بداية هي ميلاد الإنسان ، وله نهاية هي موت هذا الإنسان .. ولو نظرنا إلى هذا الإنسان في لحظة زمنيّة ما من حياته [النقطة (ن)] لرأينا مرحلتين على محور حياته :

١ – الماضي (بالنسبة لهذه اللحظة) ، وهو الزمن الفاصل بين النقطة (ن) وبين ميلاده ، وهذه المرحلة التي مضت من عمره ، تزداد في كلّ لحظة على حساب ما بقي من عمره ، حيث يتّجه الإنسان نحو نهايته (موته) .. فهذه المرحلة التي عاشها الإنسان حتى اللحظة (ن) ، وهي ماضي حياته حتى تلك اللحظة ، تصوِّرها العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ ..

٢ – المستقبل (بالنسبة لهذه اللحظة) ، وهو الزمن الفاصل بين النقطة (ن) وبين موته ، وهذه المرحلة التي بقيت من عمره ، تنقص كلّ لحظة لحساب المرحلة الأولى التي مضت من عمره ، فهذه المرحلة التي بقيت من عمر الإنسان ، والتي تنقص باستمرار ، تصوّرها العبارة القرآنيّة ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ ..



محور الزمن (لحياة الإنسان)

فالصورة القرآنيّة ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ ، لا تعني نقصان عمر الإنسان وزيادته كما ذهب بعضهم ، فما تعنيه هو أنَّ علم الله تعالى الكاشف يرى في كلِّ لحظةٍ من حياة الإنسان ما عاشه (ما عمّره) حتّى تلك اللحظة ، وهي ماضيه من ميلاده إلى تلك اللحظة ، ويرى جلّ وعلا في كلّ لحظة من حياة الإنسان ، ما بقي له من عمره ، تلك المرحلة التي تنقص من لحظة لأخرى لحساب المرحلة الأولى (ماضي الإنسان) ، وكلّ ذلك على الله يسير ، فالله تعالى فوق الزمان والمكان فهو خالق الزمان والمكان ، ويرى المستقبل والماضي كما يرى الآن ..

وسياق الآية الكريمة المحيط بالعبارة القرآنيّة التي نحن بصدد دراستها ، يؤكّد صحّة ما نذهب إليه في تفسيرنا هذا ، فالعبارة السابقة ﴿ **وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ** ﴾ نراها تتحدّث عن علم الله تعالى الذي لا يحيط به زمانٌ ولا مكان ..

إذاً .. الذهاب بدلالات هذه الآية الكريمة على أنَّ العمر يزيد وينقص ، هو تحريفٌ للكلم عن مواضعه ، ناتجٌ عن عدم التدبّر المنهجي العلمي لآيات كتاب الله تعالى ..

❁ ❁ ❁

.. ولنأخذ مسألةً أُخرى ..

في تفسيرهم للصورة القرآنيّة : ﴿ **وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾ [النساء : ١٢] ، قالوا بأنَّ الأخ والأخت المذكورين هم أخ وأخت من الأم .. وهذا نقلٌ حرفيٌّ – فيما يخصّ هذه الصورة القرآنيّة ﴿ **وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ** ﴾ – من تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ، للإمام محمّد الرازي فخر الدين :

[أجمع المفسّرون هاهنا على أنَّ المراد من الأخ والأخت : الأخ والأخت من الأم ، وكان سعد بن أبي وقاص يقرأ : وله أخ أو أخت من أم ، وإنّما حكموا بذلك لأنّه تعالى قال في آخر السورة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ ﴾ [النساء : ١٧٦] ، **فأثبت للأختين الثلثين ، وللإخوة كلّ المال ، وهاهنا أثبت للإخوة والأخوات الثلث ، فوجب أن يكون المراد من الإخوة والأخوات هاهنا غير الإخوة والأخوات في تلك الآية ، فالمراد هاهنا الإخوة والأخوات من الأم فقط]** ..

.. قبل الدخول في تفسير هذه الصورة القرآنيّة ، نرى أنَّ تلبيس العبارة القرآنيّة ﴿ **وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ** ﴾ بأنّها تعني أخاً أو أُخت من الأم ، وذلك كون الآية (١٢) من سورة النساء تحمل أحكاماً للكلالة تختلف عن الأحكام التي تحملها الآية (١٧٦) ، هذا التلبيس لا يُحْمَلُ على أيِّ برهانٍ منطقي ، وهو دليلٌ يُضاف إلى مئات الأدلّة التي تُثبت أنَّ المنهج التراثيّ الجمعي لا يمكنه أن يصل بأصحابه إلى أيِّ حقيقة يمكن استنباطها من كتاب الله تعالى ..

مسألةُ الكلالةِ كما يصوّرها كتاب الله تعالى واضحة وجليّة لمن ينطلق – بها – من مقدّمات قرآنيّة بمركب العقل والمنطق ، وتُؤخذُ دلالاتُها من كِتابِ اللهِ تعالى ، والحجّةُ فيها – وفي غيرِها – هي تقديمُ بُرهانٍ من كتابِ اللهِ تعالى ..

.. وحتى في الرواياتِ التاريخيّةِ ذاتِها ، نرى – في سنن الدارمي حديث رقم : ٢٨٤٥ حسب ترقيم العالميّة – أنَّ أبا بكرٍ حينما سُئل عن الكلالةِ قال : [[**إِنِّي سَأَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ تعالى وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ**]] ، ونرى – في صحيح البخاري حديث رقم ٥١٦٠ حسب ترقيم العالميّة – أنَّ عُمرَ بن الخطّاب يقول : [[**ثَلَاثٌ وَدِدْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تعالى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُفَارِقْنَا حَتَّى يَعْهَدَ إِلَيْنَا عَهْدًا الْجَدُّ وَالْكَلَالَةُ وَأَبْوَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا**]] ..... إذاً المسألةُ اجتهاديّة ، ولا تُؤخذ دلالاتها إلاّ من كتاب الله تعالى ..

وقد بيّنت وبالتفصيل هذه المسألة في كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، وعبر برهان رياضيٍّ رقميٍّ مبنيٍّ على المعجزة العدديّة في القرآن الكريم ، وسأتعرض هنا لهذه المسألة باختصار ..

الكلالةُ تعني عدمَ وجودِ أيٍّ منَ الأولاد والأبوين .. فَكُلُّ الحالات التي يُوجَدُ فيها أحدُ الأولاد أو أحدُ الأبوين ، لا تُسمّى بالكلالة .. فشرطا الكلالةِ هما عدمُ وجودِ أيٍّ

من الأبوين وأيٍّ من الأولاد .. ومعلومٌ أنَّ الأولاد والوالدين والزوج يقعون في مركز ساحة الميراث ، فلا يحجبهم أحد عن الميراث ..

.. والعبارةُ القرآنيّةُ : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾ [النساء : ١٢] ، نراها جزءاً من آيةٍ كريمةٍ تبدأُ بتحديدِ نصيبِ الزوجِ من زوجهِ ، إلى أنْ يصلَ السياقُ إليها ، لِتُبيِّنَ حصَّةَ الزوجِ من زوجهِ كباقي لِميراث الأخوة في حالةِ الكلالة المرافقةِ لِوجودِ الزوج .. ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ .... وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ .... ﴾ .. فالثلثان هما نصيبُ الزوجِ ، إن كان للمتوفّى أخوان أو أكثر (كون الأخوة نصيبهم الثلث) ، وخمسةُ أسداسِ الميراثِ نصيبُ الزوجِ (كون نصيب الأخ أو الأخت حُدِّد بالسدس) إن كان له أخٌ واحد ، أو أُختٌ واحدة ..

.. والعبارةُ القرآنيّةُ ﴿ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ بِهذهِ الصيغةِ اللغويّة ، دليلٌ على صحّةِ ما نذهبُ إليه في تفسيرنا للكلالةِ في الآية (١٢) من سورةِ النساء .. فالميراثُ يذهبُ جزءٌ منه – ولا يذهبُ كُلُّه – خارجَ ساحةِ الميراثِ الأساسيّة (الوالدان والأولاد والزوج) ، وهذا الجزءُ ليس مُحدَّداً بقيمةٍ واحدة ، فهو – كما تُبينُ الآيةُ الكريمةُ – إمّا الثلث وإمّا السدس ، ويبقى الباقي داخلَ ساحةِ الميراثِ الأساسيّة ، وهو حصّةُ الزوج .. فالميراثُ – هنا – يُوزَّعُ بين السّاحتين ، كونَ الحالةِ حالةَ كلالة .. أي أنَّ الزوجَ المُتَوَفَّى يُورَثُ كلالةً .. وهذا ما نقرؤهُ من العبارةِ القرآنيّة : ﴿ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ ..

.. وتحديدُ حصّةِ الإخوةِ في الآية (١٢) من سورة النساء ، بحيث لا تتجاوزُ الثلث ، يعني أنَّ الثلثين سيذهبان إلى ما هو أقربُ من الأخوةِ في مسألة الميراث .. والأقربُ من الأخوةِ – في مسألةِ الميراث – هو الوالدان والأولاد والزوج ... ولّما كانت المسألةُ مسألةَ كلالة ، ولا وجود لأيٍّ من الأبوين والأولاد ، فهذا يعني أنَّ الثلثين من نصيبِ

الزوج .. فليس من المعقولِ أن يذهبَ القسمُ الأكبرُ من الميراثِ من ساحةٍ إلى ساحةٍ أبعدَ عن المتوفَّى ..

.. وحتّى لو طلَّقنا عقولَنا وقبلنا بإضافةِ دلالةِ كلمتي (مِنْ أُمِّهِ) إلى دلالاتِ العبارةِ القرآنيّةِ ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ ﴾ ، وكان للمتوفّى إخوةٌ من أمّه فقط .. فبناءً على ذلك سيذهبُ ثلثا الميراثِ إلى ساحةٍ أبعد من ساحةِ أولئك الإخوة ، وهذا يُناقضُ العقلَ والمنطق ، فضلاً عن كونهِ مُناقضاً لدلالاتِ كتابِ اللهِ تعالى ..

إذاً .. الكلالةُ في الآية (١٢) من سورة النساء تعني عدمَ وجودِ الوالدين والأولاد ، ولكن مع وجودِ الزوج .. فالآيةُ من بدايتِها تُصوِّرُ ميراثَ الزوجِ من زوجه ، إلى أن يصلَ السياقُ فيها إلى تحديدِ حُصَّةِ الزوجِ في حالةِ الكلالةِ هذه كباقي لما يخرجُ من ساحةِ الميراثِ الأساسيّة إلى الأخوة ..

.. بينما في الآية (١٧٦) من سورة النساء ، نرى أحكاماً للكلالةِ الكاملة ، حيثُ تُصَوَّرُ بأل التعريف ﴿ ٱلۡكَلَٰلَةِۚ ﴾ .. فالكلالةُ – هنا – كاملــة ، والوالــدان والأولادُ والزوجُ كُلُّهم غيرُ موجود ، وبالتالي لا يُوجدُ أيُّ جانبٍ من الحجب ، وبالتالي يخــرجُ كُلُّ الميراثِ خارجَ ساحةِ الميراث الأساسيّة (الوالدان والأولاد والــزوج) .. ولــذلك حين وجودِ الإخوةِ رجالاً ونساءً ، يتقاسمون الإرثَ .. ﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ ﴾ ..

.. وفي الآيةِ (١٧٦) نرى أنَّ الميّتَ يُوصــفُ بــالهلاك .. ﴿ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ ﴾ .. فجميعُ الوارثين الأساسِيِّــين (الوالدين والأولاد والزوج) ، الذين لا يحجُبُهُم أحــدٌ ، ليسوا موجودين ، وبالتالي يخرجُ كلُّ الميراث خارجَ ساحةِ (الوالدين والأولاد والزوج) .. بينما في الآيةِ الأولى لمْ يُوصَفْ الميّتُ فيها بالهلاك ، إنّما يُوصفُ بأنّه يُورَثُ كلالة .. ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ ﴾ .. فالميّتُ – في الآية (١٢) – يُورَثُ

كلالةً ، أي يخرجُ جزءٌ من ميراثِه إلى الكلالة ، ولكنّها كلالةٌ جزئيّةٌ ، لأنّهُ يبقى جزءٌ من الميراث في ساحته الأصلية (ساحة الوالدين والأولاد والزوج) ، وهو حصةُ الزوج ..

.. وممّا يؤكِّدُ أنَّ الآيةَ (١٧٦) من سورة النساء تُصوِّرُ حالةَ الكلالةِ الكاملةِ التي يخرجُ فيها الميراثُ كاملاً خارجَ ساحة (الوالدين والأولاد والزوج) ، أي حالةَ عدمِ وجود الزوج ، هو العبارةُ القرآنيّةُ ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ ﴾ ، في هذه الآية الكريمة .. فالميراثُ كاملاً في هذه الحالة يذهبُ خارج ساحة (الوالدين والأولاد والزوج) ، وهذا ينفي تماماً وجودَ الزوج .. فلو وُجدَ الزوجُ لحجبَ جزءاً من هذا الميراث ، كما هو الحال في الحالةِ التي تُصوِّرُها الآيةُ (١٢) في سورة النساء ..

.. أمّا القولُ بأنَّ الآيةَ الأولى تُصوِّرُ الأخَ والأختَ من الأم .. أي أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ ﴾ في قولِه تعالى ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ ﴾ [النساء : ١٢] ، تعني أخاً وأختاً من أُمِّه ، وذلك بإضافةِ دلالةِ كلمتي (من أُمّه) إلى دلالات هذه العبارة القرآنيّة .. فهذا القولُ يعني – في النهايةِ – أنَّ عباراتِ القرآنِ الكريم ناقصةٌ ، وَنُكَمِّلُها بكلماتٍ من جيوبنا .. وهذا يتنافى تماماً مع مُطلقِ الصياغةِ القرآنيّة ، ومع كونِ كتابِ اللهِ تعالى كاملاً تامّاً نزّله اللهُ تعالى تبياناً لكلِّ شيء ، وهذا هو عين تحريف الكلم عن مواضعه ، ومن بعد مواضعه ..

.. والاحتجاجُ بالعبارةِ القرآنيّة : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ ﴾ ، التي يتساوى فيها نصيبُ الذكورِ والإناث ، على أنّ الإخوةَ المعنيين ، هُم أخوة من الأم ، بناءً على هذا التساوي .. هذا الاحتجاجُ ليس سليماً .. فتماثلُ حصّةِ

الأخوةِ ذكوراً وإناثاً ، ليس دليلاً على تغييرِ دلالاتِ كلمتي ﴿ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ ﴾ في هذه العبارة القرآنيّة ، لتصبحَ متعلّقةً بالإخوةِ من الأم ..

.. ألم تتماثل حصّتا الأبوين حين وجودِ ولدٍ للموروث : ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ ﴾ [النساء : ١١] ، في الوقت الذي لم تتماثل به حصّتاهما في حالةِ عدمِ وجودِ الولد : ﴿ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ۗ ﴾ [النساء : ١١] ..

.. فهل تغييرُ حصص ميراث الأبوين بين هاتين الحالتين ، يدفعنا إلى القول بأنَّ الأبوين يختلفان من حالةٍ إلى أُخرى ؟ !!! .. هذا غيرُ معقولٍ أبداً ..

.. ولو أرادَ اللهُ تعالى – في الآية (١٢) من سورة النساء – الأخَ والأختَ من الأم لقال : (وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمِّه) .. ففي سورة يوسف عليه السلام ، نرى أنَّ الحديثَ عن الأخِ من الأب ، يأتي بصياغةٍ قرآنيّةٍ فيها كلماتٌ مرسومةٌ تُبيّنُ أنَّ هذا الأخَ هُوَ من الأب : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡ ۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴾ [يوسف : ٥٩] ..

.. وهكذا فقولُهُ تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ ﴾ ، يعني أخاً أو أُختاً دون أيِّ تمييز ، سواءٌ كانا من الأب والأم ، أم من الأب ، أم من الأم ..

إذاً .. الآيةُ الأُولى تُصوِّرُ لنا حالةَ الكلالةِ الجزئيّةِ ، حين عدمِ وجودِ الوالدين والأولاد ، ولكن مع وجود الزوج .. والآيةُ الثانيةُ تُصوِّرُ لنا حالةَ الكلالةِ الكاملةِ حين عدمِ وجودِ أيٍّ منَ الوالدين والأولاد والزوج ..

وهكذا نرى كيف أنَّ عدم اتّباع منهج البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ، وجعل أقوال السابقين ورواياتهم معياراً لدلالات كتاب الله تعالى ، سيؤدّي إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، ومن بعد مواضعه ، في تناولنا لأحكام النصّ القرآنيّ الذي تكفّل الله تعالى بحفظه ..

❁ ❁ ❁

.. ولنأخذ مسألة أُخرى لنرى كيف أنَّ التدبّر الحق لكتاب الله تعالى لا بدَّ أن يكون منطلقاً من مبدأ ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ..... في النصين التاليين ، نرى أن المعنيين لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٤]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٧ – ٧٨]

.. وفي هذين النصّين نرى أنَّ المعنيين يصفهم الله تعالى بأنَّهم : ﴿ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ ،، وبـــــأنَّهم : ﴿ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ ،، وبـــــــأنَّهم : ﴿ يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ

ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .. وهذه الصفات تميّزهم حتى عن غيرهم من أهل النار .. فهؤلاء يتاجرون بآيات الله تعالى ويفترون الكذب على الله تعالى .. فليس كلُّ أهل النار دخلوا النار لاتّصافهم بهذه الصفات ..

.. بينما المعنيّون في النصّين التاليين هم آخرون يختلفون عن المعنيّين في النصّين السابقين ..

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٩ – ٣٠]

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأحقاف ٣٢ – ٣٤]

.. فهذان النصّان كما نرى يصوِّران نوعيّة أُخرى من أهل النار ، تختلف عن النوعيّة السابقة .. ولذلك لا يجوز الانطلاق من هذا التمايز بين هذين النوعين من أهل النار وذلك نحو تحريف الكلم عن مواضعه ، كالقول مثلاً بأنَّ الكلام هنا له معنى آخر يختلف عنه في أماكن أُخرى ، كما يريد أن يلبِّس بعضهم على كتاب الله تعالى ، انتصاراً لأقوال تاريخيّة أرادوا جعلها حجّة حتى على كتاب الله تعالى ..

.. ولنأخذ مسألة أُخرى .. يتخيّل بعضهم أنَّ النصَّ التالي مُخصَّص في حادثة تاريخيّة محدَّدة ..

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٥٨]

.. أصحاب المنهج التراثي الجمعي المبني على تغييب العقل واجترار الموروث لا يقفون عند التشديد في كلمة ﴿ يَطَّوَّفَ ﴾ ، ولا يقفون عند حقيقة هي أنَّ زيادة المبنى تقتضي زيادة المعنى ، لأنَّ منهجهم يمنعهم من ذلك .. فالذي لا جُناح عليه هو التطوّف ﴿ يَطَّوَّفَ ﴾ ، فالله تعالى يقول ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ ، ولم يقل (أن يَطُوفَ بهما) .. وهذه الكلمة بزيادة المبنى بالتشديد ﴿ يَطَّوَّفَ ﴾ شأنها شأن كلمة ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٩] ..

.. ولو عدنا إلى السياق المحيط بهاتين الكلمتين [[﴿ يَطَّوَّفَ ﴾ ،، ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ ﴾]] في كتاب الله تعالى لرأينا أنَّ المعني هو الطواف الزائد عن الفريضة تطوّعاً ..

.. ففي الآية الأولى نرى أنَّ العبارة القرآنيّة فيها ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ واضحة وجليّة ، وفيها إشارة إلى أنَّ المعني بكلمة ﴿ يَطَّوَّفَ ﴾ ، هو التطوّع الزائد على الفريضة ..

.. وفي الآية الثانية نرى أنَّ دلالات كلمة ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ ﴾ تتعلّق بالتطوّع بعد انقضاء مناسك الحج ..

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٧ – ٢٩] ..

.. إذاً .. دلالات كتاب الله تعالى تُؤخَذ من التدبّر الحق لكتاب الله تعالى وليس من روايات التاريخ وأقوال القائلين ..

❁ ❁ ❁

وخروج بعضهم على منهج البحث القرآني السليم ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ، ليس مقتصراً على التقليد الأعمى للموروثات ، فهناك خروج على هذا المنهج عبر توليف دلالات بعض الكلمات والجمل القرآنيّة وفق أهواء مسبقة الصنع ..

فعلى سبيل المثال ذهب بعضهم في تفسير العبارة القرآنيّة ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ﴾ [النور : ٣١] مذاهب تائهة .. فقالوا : إنَّ الجيوب التي تُطلَب تغطيتها هي المواضع التالية : (ما بين الثديين ، وتحت الثديين ، وتحت الإبطين ، والفرج ، والإليتين) .. وقالوا : إنَّ الزينة هي جسد المرأة كلّه ، وهذه الزينة منها ما هو ظاهر بالخلق كالرأس والبطن والظهر والرجلين واليدين ، وقسم غير ظاهر بالخلق ، وهو الجيوب التي تمّ ذكرها ..

أمّا بالنسبة للصورة القرآنيّة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، فقد قالوا : إنّها ليست تشريعيّة ، إنّما هي تعليميّة ، فالخطاب جاء في مقام النبوّة ، الذي هو – كما يقولون – ليس حراماً ولا حلالاً وإنّما تعليمات لدفع الأذى ..

.. إنّ أوّل ما نراه في هذا المنهج البحثي غير السليم أنّه تمّ إبعاد دلالات الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، وذلك بحجّة أنّها تبدأ بالخطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، دون الصياغة ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ ، معتبرين أنّ خطاب النبوّة عبارة عن تعليمات لدفع الأذى ، وأنّه لا علاقة له بالأحكام التشريعيّة ..

بيّنت في الفصل الثاني (مبحث أسماء الذات وأسماء الصفات) ، وفي كتبي الأُخرى ، أنَّ هناك فارقاً بين صفتي [﴿ ٱلرَّسُولُ ﴾ ، ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾] في شخصه ﷺ ، وبيّنت أنّ الرسول هو المشرّع ، فأمر الطاعة – في كتاب الله تعالى – يتعلّق دائماً بصيغة الرسالة ، وبيّنت أنَّ الخطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، يتعلّق بجانب النبوّة حيث هو ﷺ مُطالبٌ باتّباع الرسول ، أي باتّباع المنهج الذي نزّله الله تعالى عليه .. ولكنّ هذا لا يعني أنَّ النصوص القرآنيّة المسبوقة بالعبارة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ليست نصوصاً تشريعيّة وأنّها لا تتعلّق بالرسالة .. أبداً .. إنَّ كلّ ما بين دفّتي كتاب الله تعالى هو نصوصٌ تنتمي للرسالة مهما كانت الصيغ التي ترد فيها ، فالرسالة هي النصّ النازل من السماء ، وهذه الآيات المسبوقة بالعبارة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ هي نصوصٌ نازلةٌ من السماء ، وبالتالي هي من الرسالة ، وأحكامها تتبع الرسالة التي يُطلب منّا اتّباعها ..

ما عنيناه في التفريق بين صفتي الرسالة والنبوّة هو في شخصه ﷺ وفي صلاحيّته في التشريع ، وليس في تجزئة نصوص الرسالة كما ذهبوا .. أليست الآية التالية التي تحمل أحكاماً في مسألة الطلاق ، أليست بدايتها العبارة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ؟ ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق : ١]

ألم يقل الله تعالى ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ [الأحزاب : ٦] ؟ .. أليس خطاب النبوّة في كتاب الله تعالى هو جزءٌ من نصّ الرسالة ، يُصوِّر جانب النقاء والطهارة والخلاص الذي يُطلب منّا تمثّله قدر استطاعتنا ؟ .. فكيف إذاً تكون النصوص القرآنيّة المسبوقة بالعبارة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ليست من التشريع ، وهي جزءٌ من نصوص الرسالة التي يطلب الله تعالى منّا اتّباع جميع نصوصها دون استثناء ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣] ..

أمّا قولهم إنَّ جسد المرأة كلّه زينة ، وبالتالي فالجيوب التي تخيّلوها هي من الزينة ، هذا القول هو خيالٌ لا علاقة له إلاّ بالنتيجة الموضوعة سلفاً ..

إنَّ الزينة – كما يُصوِّرها لنا القرآن الكريم – تعني إظهار الشيء بمظهر مفتن ، وليست ماهيّةَ الشيء ذاته ..

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [النحل : ٦٣]

فالزينة بالنسبة للبشر هي امتلاكهم لأسباب الفتنة من أموال وأولاد وحلي .....

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [الكهف : ٤٦]

﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ [طه : ٨٧]

.. ولو كانت الزينة كما يعرضون ، فكيف بنا أن نفهم الصورة القرآنيّة التالية التي تفنّد قولهم واضعة النقاط على الحروف ..

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص : ٧٩]

وكيف تكون عورة المرأة زينة ، والله تعالى يصفها بأنّها سوءة ؟ ..

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾ [الأعراف : ٢٢]

.. وإن كانت الزينة كما يقولون ، فكيف إذاً بإمكاننا أن نفهم الصورة القرآنيّة :

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١]

وفي تعريفهم للجيب الوارد في الصورة القرآنيّة ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ﴾ ، تخيّلوا الجيوب عبارة عن خرق بين طبقتين ، وهي – حسب قولهم – ما بين الثديين ، وتحت الثديين ، وتحت الإبط ، والفرج ، والإليتين ..

فإن كان الأمر كما يتخيّلون ، لماذا استثنوا جيوب الرأس ، من أنف وفم وعينين وأذنيين ، بحجّة أنّها جيوبٌ ظاهرة ، في الوقت الذي نرى فيه الصورة القرآنيّة تحمل أمراً غير مُخصَّص بنوعٍ من جيوبهنّ دون النوع الآخر ؟!!! .. فمن أين أتوا بهذا الاستثناء ؟!!! ..

وإن كانت الجيوب كما تخيّلوها ، فهذا يعني أنَّ هناك خماراً لكلِّ جيب ، كون هذه الجيوب – كما تخيّلوها – مُفَرَّقة في جسد المرأة ، وبالتالي تحتاج المرأة إلى أكثر من خمار لتغطية هذه الجيوب .. ولمّا كان الخمار – كما يقولون – ليس شرطاً خمار الرأس إنّما هو للرأس ولغير الرأس ، فهذا يعني أنَّ الخمار غير مضاف (بالنسبة للجيوب التي تخيّلوها) لمسألة محدّدة ، وهذا تُناسبه صيغةٌ قرآنيّة تُخاطب المرأة ، كفرد ، بصيغة تحمل الجيوب

كجمع ، وكنكرة .. (ولتضرب بخمرٍ على جيوبها) .. بينما ورود الصيغة القرآنيّة ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، ينسف كلَّ تخيّلاتهم من أساسها .. فتعريف الخمار بإضافته ﴿ بِخُمُرِهِن ﴾ ليس عبثاً ، وهذا التعريف يعني أنَّ للمرأة خماراً معروفاً مضافاً إليها ، يُطلب منها أن تضربه على جيبها ، وبالتالي لمجموع النساء خُمرٌ معروفة محدّدة يُطلب منهنّ أن يضربنه على جيوبهنّ ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ..

ولو نظرنا إلى الآية الكريمة وتطبيقها في سياقها التاريخي ، فإنَّ الخمار [كونه مسألة معرَّفة مضافة للمرأة ﴿ بِخُمُرِهِن ﴾] كان موجوداً ومعروفاً ، وتلبسه المرأة قبل نزول الآية الكريمة ، والمطلوب في الأمر الإلهي ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ هو أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها ..

ثمَّ أليس طلب التغطية الوارد في هذه الصورة القرآنيّة ، هو طلب وضع غطاء على شيءٍ غير مُغطَّى ، وإن كانت الجيوب التي يطلب الله تعالى تغطيتها ، هي جيوب كما تخيّلوها ، فهذا يعني – بناء على تعريفهم للجيوب – أنَّ المرأة العربيّة قبل نزول الآية الكريمة كانت تسير عارية لدرجة أنّ جيوبها (كما تخيّلوها) غير مغطّاة !!! .. فهل يُوجد في التاريخ ما يُشير ولو مجرّد إشارة إلى ذلك ؟!!! .. ألا ينسف ذلك ما تخيّلوه من أساسه ؟ ..

وإن كانت الجيوب كما تخيّلوها ، فهذا يقتضي أنَّ للرجل – أيضاً – عدّة جيوب ، بحكم التشابه في الخلق مع المرأة .. وموسى عليه السلام كرجل له – بناء على تعريفهم للجيوب – عدّة جيوب .. فهل يخبرنا هؤلاء في أيِّ جيب من جيوبهم التي تخيّلوها وضع موسى عليه السلام يده ، عندما أمره الله تعالى بقوله ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ

بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ ﴾ [النمل : ١٢] ، ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ ﴾ [القصص : ٣٢] ؟!!! ..

.. أليست إضافة الجيب ﴿ جَيۡبِكَ ﴾ تعني تعريفه وتحديده بجيب محدّد واحد معروف لا ثاني له ، وأنَّ هذا الجيب المعروف المحدَّد يأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يدخل يده فيه ؟ .. ولو فرضنا جدلاً – بناء على تعريفهم للجيوب – أنّ موسى عليه السلام له عدّة جيوب ، فكيف يأمره الله تعالى بإدخال يده في جيبٍ محدَّد ؟!!! ..

وفي تفسيرهم للعبارة القرآنيّة ﴿ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ ﴾ [النور : ٣١] قالوا إنَّ هذه العبارة القرآنيّة لا تُحرِّم الحركة والسعي (كالرقص مثلاً) بشكلٍ مطلق ، وإنّما تُحرِّم إظهار الجيوب أثناء ذلك ... ولو نظروا في كلمة ﴿ لِيُعۡلَمَ ﴾ لعلموا كم هي المسافة التي ابتعد بها تفسيرهم لهذه العبارة القرآنيّة عن حقيقة دلالاتها ..

فلو كانت الزينة المخفيّة الواردة في العبارة القرآنيّة هي الجيوب التي تخيّلوها ، والمطلوب من المرأة المؤمنة عدم إظهارها أثناء حركتها أمام الناس ، لَمَا أصبح لكلمة ﴿ لِيُعۡلَمَ ﴾ أيّ معنى ، وللزم ورود كلمة (لِيُرَى) بدلاً منها ..

فالزينة المخفيّة في هذه العبارة ﴿ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ ﴾ ، وهي ما تخفيه المرأة تحت لباسها من حليٍّ وغير ذلك ، هي زينة غير معلومة ، أي غير معروفة بالنسبة للناس ، لأنّها مخفيّة عن أنظارهم ، وما يُمنع على المرأة هو الضرب بالأرجل من أجل حصول العلم (وليس الرؤية) بتلك الزينة .. فلو كانت هذه الزينة المخفيّة هي الجيوب التي تخيّلوها لكانت معروفة ، ولكان المطلوب هو عدم رؤية الناس لها وليس عدم علمهم بها ، وبالتالي لوجب أن تأتي كلمة (لِيُرَى) بدلاً من كلمة ﴿ لِيُعۡلَمَ ﴾ ..

إنّنا نرى من خلال هذا النموذج ، كيف أنَّ مبدأَ البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ، أمرٌ لا بدّ منه للوصول إلى نتائج سليمة ، ونرى أنَّ هذا الأمر يقتضي أن ننطلق بمقدّمات قرآنيّة ، للوصول إلى نتائج يحملها القرآن الكريم ، وأن يكون القرآن الكريم هو المرجع في إدراك دلالات كلماته ، وفي إدراك قواعد صياغة جمله .. حين ذلك لا نرى التيه الذي رأينا جانباً منه ..

وبالمقابل نرى تيهاً آخر في الجانب الآخر .. فقد ذهب بعضهم إلى أنَّ المرأة لا بُدَّ أن تُغطّي وجهها ، وقالوا إنَّ العبارة القرآنيّةَ : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، تعني تغطيةَ الوجه كي تُمَيَّزَ الحرائرُ عن الإماء ، فلا يُؤذين كالإماء ، حيثُ الإماء – كما يُفترى على منهجِ الله تعالى – لم يُكلِّفهنّ الشرعُ بالتستّر ، وأنّ عوراتِهنّ لا تشملُ الكثير من مفاتِنهنّ ، وبالتالي فإنّ إيذاءَهُنّ مسألةٌ ليست كبيرةً ، كونهنّ – من منظار ما يُفترى على منهجِ الله تعالى – في درجةٍ أقلّ كرامةً وحصانة ..

مذهبهم التفسيري هذا لا يُحْمَل – أبداً – في هذه الصورة القرآنيّة ، ولا في أيِّ عبارة قرآنيّة ، ولا وجودَ لأيِّ دلالة له في كتابِ اللهِ تعالى ، وتدحضُهُ صياغةُ هذا النصِّ دحضاً كاملاً ، فلا وجود لكلمتي الحرائر والإماء في هذا النصّ ، ولا تحديد – في هذا النصّ – لإطارٍ مُحدَّدٍ من الإيذاء ، بل إنّ النصّ واضحٌ في مخاطبة جميع نساء المؤمنين دون أيِّ تمييز ..

.. أصحابُ هذا التفسيرِ التاريخي انطلقوا من واقعٍ اجتماعيٍّ بأمراضه وعُقَدِهِ وعصبيّاتِه كمعيارٍ يعايرون عليه دلالاتِ كتابِ اللهِ تعالى .. لقد تصوّروا المرأةَ مُجرّدَ وعاءٍ يُفرِغُ فيه الرجلُ شهوتَه ، وأنّ دورَها في الحياةِ الدنيا لا يتجاوزُ هذه المهمّة ، ولم يتصوّروا المرأةَ لبنةً فعّالةً في بناء المُجتمع الإنسانيّ السليم المتحضّر ، حيث المرأةُ فيه

إنسانٌ أراده الله تعالى خليفةً له في الأرض .. لقد أرادوها حيواناً لا هُويّةَ له ، وبالتالي لا يعرفُها المجتمع ، ولا تعرفُهُ ، وهذا يتطلّبُ تغطيةَ وجهِها لإلغاءِ هُويّتِها الاجتماعيّة ..

.. لم يهتمّوا بها ، كيفَ ستتزوّج من إنسانٍ لم يرَ وجهها ؟ ، وكيف ستعملُ في مجالِ الحياةِ الإنسانيّةِ كإنسانٍ فعّالٍ يُنتجُ الفِكْرَ والحضارةَ ، دون أن تُعرَف هُويّتُها ، ولم يُدركُوا أنّ تغطيةَ وجه المرأة قد يتحوّلُ إلى سبيلٍ لممارسة الفاحشةِ ذاتِها ، حيثُ يتستّرُ تحت ذلك الغطاءِ بعضُ الرجالِ والنساءِ على حدٍّ سواء في ممارستهم لتلك الفاحشة ، ولدرجةٍ قد يشكُّ فيها الرجلُ بنسائه ، حينما تقع الفاحشةُ مع امرأةٍ تُغطّي وجهها في المجتمع الذي يحوي نساءَه ..

.. كُلُّ ذلك .. وغيرُهُ الكثير من الاحتمالات ، أوجهٌ من الإيذاء تنالُ المرأةَ حينما تفقدُ هُويّتَها في المجتمع ، وحينما تتحوّلُ إلى رقمٍ ليس له أيُّ صفةٍ اجتماعيّة ، أي حينما يُغطَّى وجهُها وتفقدُ هُويّتَها الإنسانيّة .. وكلُّ ذلك نراه محمولاً بالعبارة القرآنيّة ﴿ **ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ** ﴾ ..

ولو نظرنا في الاستثناء ﴿ **إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ من العبارة القرآنيّة ﴿ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ [النور : ٣١] ، لرأيناه يُصوِّرُ لنا ما يَظهَرُ من زينة المرأة كهُويّة تُميّزها عن غيرها ، أي يشمل وجهَها الذي تُعرَفُ من خلالِه .. ونتيجةُ هذه المعرفة يُدْفَعُ عنها الأذى ....

.. ولذلك نرى العبارةَ القرآنيّةَ : ﴿ **إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ استثناءً من الزينة التي يجب على المرأة ألاّ تُبديها ﴿ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ ، ونرى أنّ الله تعالى يقول : ﴿ **إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ ، بهذه الصيغة ﴿ **ظَهَرَ** ﴾ دون أيِّ صياغةٍ لُغويّةٍ أُخرى .. فهذه الزينةُ هيَ خَلْقُ اللهُ تعالى الظاهرُ بطبيعتِه دون أيِّ تكلُّف ، والذي يُعطي الإنسانَ

هُوِيّتَهُ ، وَيُمَيِّزُهُ ، ويُعرَف به عن غيره من البشَر ، وهذا ما تُصوّره العبارة القرآنيّــةُ ﴿ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ ﴾ ..

فهذه الزينة الظاهرةُ بطبيعتِها والمستثناة من الزينةِ التي يجبُ على المرأةِ أنْ تُخفيهــا ، هي الهُويّةُ التي تُعرَفُ بها المرأةُ ، وتتميّزُ بها عن غيرها من البشــر ..... إذاً .. العبــارةُ القرآنيّةُ : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا ۖ ﴾ والتي تشملُ الوجه ، ساحتُها خارج ما تُدني المرأةُ عليهــا من جلابيبها ، وذلك لِتُعرفَ المرأةُ ويُمنَعَ عنها الأذى .. فالعبارةُ القرآنيّــةُ : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا ۖ ﴾ ، تصفُ وجهَ المرأةِ غيرَ المشمول باللباس الذي أنزلَه الله تعالى ليواري الإنســانُ به سوءتَه ..

.. إنَّ آليّة معرفة البشر تكون بسيماهم : ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾ [الرحمن : ٤١] .. فتعلُّق الكلمتين [[﴿ يُعۡرَفُ ﴾ ،، ﴿ بِسِيمَٰهُمۡ ﴾]] ببعضهما في هذه الآية الكريمة يحمل إشارة إلى أنَّ معرفة البشر تكون بسيماهم ... والبشر سيماهم في وجوههم : ﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾ [الفتح : ٢٩] .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم ﴾ واضحة وجليّة ... إذاً .. الوجه هو آليّة معرفة الإنسان .. فالإنسان يُعرَف بوجهه .. وبالتالي فغطاء الوجه ينقضه قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ ﴾ ..

.. اللباس الذي أنزلَه الله تعالى ، يكون فاعلاً عندما لا تُبدي المرأةُ من خلاله زينتها ، إلاَ ما ظهر منها كهُويّة تُميّزها عن غيرها ، ومن خلال عدم تحرّكها – ماديّاً ومعنويّاً – بحركات تهدفُ إلى الإعلام بالزينة المخفيّة التي يُحرِّمُ اللّهُ تعالى إظهارَها ..

فالعبارة القرآنيّة : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ ، تُصوّرُ – كما هو واضح من صياغتِها اللغويّة – حُكماً إلهيّاً عامّاً يمنعُ المرأةَ من تحرّكها الماديِّ والمعنويِّ تحرّكاً يُؤدّي إلى عِلْمِ زينتِها المخفيّة (ماديّاً ومعنويّاً) والتي يُحرَّمُ عليها أن تُعلِمَها للناس .. ودلالاتُها ليست محصورةً بحيثيّة تاريخيّة تتقزّمُ فيها بحيثُ لا تتجاوز الخلخال كما فُسِّرَ تاريخيّاً .. وكلّ ذلك دونَ مغالاةٍ تُلغي هُويّتَها وشخصيَّتَها التي تُميّزُها عن غيرِها من النساء المحتشمات ..

واستشهاد بعضهم بقوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ على عدم خروج المرأة للعمل ، واستشهادهم بالعبارة القرآنيّ ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ، هو تحريفٌ للكلم عن مواضعه .. فهاتان العبارتان القرآنيّتان خاصّتان بنساء النبيّ ﷺ ، والله تعالى يُخاطب نساء النبيّ ﷺ بقوله : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ، والأحكام الخاصّة بنساء النبيّ ﷺ لا يحقّ لنا فرضها على باقي النساء .. فهل يحقّ لنا أن نفرض على نسائنا عدم الزواج بعد موت أزواجهنّ تمثّلاً بأزواج النبيّ ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ؟!!! ..

إنَّ اللهَ تعالى يُصوِّرُ أحكامَه في هذه المسألة – وفي غيرِها من المسائل القرآنيّة – تصويراً مُطلقاً مُجرّداً عن الحيثيّات التاريخيّة ، وعن الخصوصيّات القوميّة والإقليميّة ، بحيث يستطيعُ الإنسانُ تصوّرَ هذه الأحكام قد نزلت عليه هو ، وتخاطِبُهُ في كلِّ زمانٍ ومكان ، وتفي للإجابةِ على كُلِّ متطلباتِه الحضاريّة إلى قيام الساعة .. وإن كانت هناك خصوصيّة من الأحكام ، يُبيّنها لنا الله تعالى في كتابه الكريم بشكلٍ صريح ، يُدركه كلُّ من يتجرّد في إدراكه لدلالات آيات الله تعالى ..

.. إذاً .. اللباسُ الذي يأمرُ الله تعالى به المرأةَ المؤمنة ، لا بُدَّ أن يُحقِّقَ شرطين أساسيّين :

١ – أن يشملَ جسدَ المرأةِ ، ويغطّي رأسها ، ولكن دون أن يُلغي هُويّتَها ، وبالتالي دونَ أن يُعرِّضَها للأذى ، إذ أنّ طمسَ هُويّة المرأةِ في المجتمع (بتغطية وجهها) يُعرِّضُها للأذى ، ويجعلُ منها رقماً لا هُويّةَ له ، وكائناً غيرَ فاعلٍ في ذلك المجتمع .. وهذا الشرط نراه في الآية الكريمة التالية ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩]

٢ – أن لا يكونَ اللباسُ شفافاً بحيث لا يُؤدّي غرضَ السّترِ منه ، وخصوصاً أماكن العورة والفِتَن التي بحاجةٍ إلى تغطيتها بسماكةٍ وثباتٍ تستُرُها ، وهذا ما تُصوِّرُهُ العبارةُ القرآنيّةُ **﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ﴾** [النور : ٣١] ، حيثُ تُؤمَرُ المرأةُ – في هذه العبارةِ القرآنيّة – أنْ تسعى لِسَتْرِ مناطق الفِتَن والعورات ، وذلك بواسطةِ الأغطية المُناسبةِ غيرِ الشفافة ، وبحيث يكونُ اللباسُ المعنيُّ في المسألةِ الكاملةِ السابقةِ المُصوِّرةِ للشرط الأوّل فاعلاً مُؤدّياً لمهمته بشكلٍ سليم ..

.. وهكذا نرى أنّ النصوصَ القرآنيّةَ تحملُ من الدلالاتِ والمعاني ما هو أكبرُ بكثيرٍ مِمّا تمّ تحميلُه خلال التاريخ ، وأنّ هناك ما تمّ تحميلُهُ للقرآن الكريم والقرآنُ منه براء .. فسواءٌ الإفراط في التطرّف أم التفريط في الأحكام ، كلاهما وجهان لعملةٍ واحدة ، هي مخالفةُ أحكامِ كتابِ الله تعالى ..

وزعمهم بأنّ لباسَ الحرائرِ يكون بتغطيةِ وجوهِهنّ كتمييزٍ لهنّ عن الإماء ، في الوقت الذي زُعِمَ فيه أنّ عورةَ الإماء لا تشملُ بعضَ مفاتِنها ، وكأنّها مخلوقٌ غيرُ إنسانيّ ، وكأنّ جسدَها من مادّةٍ أخرى تختلف عن مادّةِ جَسدِ الإناث .. كُلّ ذلك ليس أكثرَ من

إسقاطاتٍ تاريخيّةٍ لأمراضٍ اجتماعيّة وأهواءٍ وعصبيّاتٍ مُسبقةِ الصنع ، تمّ فرضُها على دلالاتِ كتاب الله تعالى ، في الوقت الذي ينقُضُها كتابُ الله تعالى جملةً وتفصيلاً ..

وقد بيّنت في النظريّة الرابعة (الحكمة المطلقة) ، وفي كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، أنَّ مسائل العبيد وملك اليمين بالحيثيّة التي أُطِّرت بها فقهيّاً ، لا وجود لها – أبداً – في كتاب الله تعالى ، وأنّها من جملة ما تمّ افتراؤه على منهج الله تعالى ، وكلُّ ذلك هو في النهاية تحريفٌ للكلم عن مواضعه ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net
adnan@thekr.net

ما هو النسخ المزعوم

رأينا في الفصل الأوّل أنَّ القرآن الكريم يرتبط بصفات الله تعالى ، فهو أسمى مـــن أن يخضعَ للحدوث ، ومن أن يحيط به المكان والزمان ، فما يحمله القرآن الكريم من تشريع هو فوق الحدوث مكاناً وزماناً .. ورأينا أنَّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وقولـــه ، قاله الله تعالى بحرفيّته في عالم لا تحكمه قوانين المادّة والمكان والزمان ، وأنّ ما توهّمه مَنْ قالوا بحدوث القرآن الكريم ، وَمَنْ قالوا بقدم كلام الله تعالى وحدوث قوله ، مرجعـــه أنَّهم جعلوا من تصوّراتهم الماديّة عن النطق واللفظ قيداً على كلام الله تعـــالى وقولـــه ، وكأنَّ الله تعالى لا يستطيع القول إلاّ عبر حروف مخلوقة محكومة لقوانين المكان والزمان كقولهم الحادث .. هذا بالإضافة إلى عدم إدراكهم للفارق بين الكلام والقول إدراكـــاً سليماً كما يصوّره القرآن الكريم ..

ورأينا في الفصل الثاني أنَّ كونَ لغة القرآن الكريم فطريّة موحاة من الله تعالى ، ينـــتج عنها أنَّ جميع مشتقّات الجذر اللغوي الواحد لا تخرج عن إطار جذرها اللغوي الـــذي تفرّعت عنه ، وهي ليست وضعيّة من اصطلاح البشر كباقي لغات البشريّة .. ورأينا أنَّ تقديم كلمة قرآنيّة أو حرف قرآني ، أو تأخيرهما ، أو حذفهما ، أو زيادتهما ، إنّما هـــو لحكمة مطلقة ترتبط بصفات الله تعالى المطلقة ، ورأينا كيف أنَّ اقتران الكلمات القرآنيّة مع بعضها ، إنّما هو انعكاس مطلق لارتباط المسائل التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمات ..

ورأينا في الفصل الثالث كيف أنَّ العبارة القرآنيّة تحمل أحكاماً وبراهين ودلالات ومعاني ، منها ما هو ظاهر وواضح (محكم) ، لا يتسرّب إليه أيّ خلل ، ومنها ما هو متشابه لا سبيل لنا في إدراك نهاية معانيه ، فهناك عمقٌ في القرآن الكريم لا يعلمه إلاّ الله

تعالى ، وهو نهاية تأويل النصّ القرآني .. ورأينا أنَّ القرآن الكريم لا يمكن تجزئته ، لأنّه متعلّق بصفات الله تعالى التي لا تتجزّأ ، ولا يمكن النظر إلى أحكامه بعيداً عن منهج كليّة البحث القرآني .. ورأينا كيف أنَّه لا يجوز تخصيص ما يرد في كتاب الله تعالى بعبارات ظاهرها الإطلاق ، وأنّه لا يجوز إطلاق ما يرد في كتاب الله تعالى بعباراتٍ ظاهرها التخصيص .. ورأينا أنَّ عدم اتّباع منهج الكليّة في البحث القرآني **﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾** ، وأنَّ الركض خلف روايات التاريخ وأقوال السابقين ، دون تفعيل العقل المجرّد في إدراك دلالات العبارات القرآنيّة ، سيؤدّي إلى تحريف الكلم عن مواضعه ..

وسنتعرّض إن شاء الله تعالى في هذا الفصل لمسألة الناسخ والمنسوخ ، التي كثر فيها الهرج ، واتّسعت فيها دائرة الخلاف حتى بين الذين يدافعون عنها ، لنرى موقع هذه المسألة من حقيقة القرآن الكريم المتعلّق بصفات الله تعالى ، والذي يحمل أحكاماً ومعاني هي فوق الانصياع لقوانين المكان والزمان ..

في البداية وقبل تحرير النسخ بشكله الحالي وجعله بحثاً مستقلاً من أبحاث علوم القرآن الكريم ، كان النسخ يُطلق عليه تخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتفصيل المجمل ، وإيضاح المبهم ، حتى كان هناك من جعل الاستثناء نسخاً ..

فابتداء من عهد الشافعي الذي يُعدّ أوّل من ميّز النسخ عن غيره [**عن كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل النحاس ، تحقيق الدكتور سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم**] ، حيث أطلق عليه معاني عدّة تميّزه عن غيره ، كلفظ التبديل والإزالة والمحو وذلك في كتابه (الرسالة) .. وعلى امتداد القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع وما تبعه من قرون ، نرى في كلِّ قرن من العلماء من يعرّف الناسخ والمنسوخ تعريفاً جديداً ..

وأقدم ما وصلنا من تعاريف للناسخ والمنسوخ هو ما ذُكر في كتاب (معرفة الناسخ والمنسوخ) لأبي عبد الله محمّد بن حزم عمّن سبقه من العلماء حيث قال : [**إنّه بيان**

انتهاء مدّة العبادة ، وقيل انقضاء العبادة التي ظاهرها الدوام ، وقال بعضهم إنّه رفع الحكم بعد ثبوته] ..

وعرّفه أبو بكر الجصّاص المتوفّى سنة (٣٧٠) هجري بأنّه : **[بيان مدّة الحكم والتلاوة]** .. وعرّفه الباقلاني المتوفّى سنة (٤٠٣) هجري بأنّه : **[الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدّم ، على وجهٍ لولاه لكان ثابتاً به مع تراخيه عنه]** .. وعرّفه ابن حزم الظاهري المتوفّى سنة (٤٥٦) هجري بأنّه : **[بيان انتهاء زمان الأمر الأوّل فيما لا يتكرّر]** .. وعرّفه القاضي أبو يعلى محمّد بن الحسين الفرّاء البغدادي الحنبلي المتوفّى سنة (٤٥٨) هجري بأنّه : **[عبارة عن إخراج ما لم يرد باللفظ العام في الأزمان ، مع تراخيه عنه]** .. وعرّفه الآمدي المتوفّى سنة (٦٣١) هجري بأنّه : **[عبارة عن خطاب الشارع المانع من استمرار ما ثبت من حكم خطاب شرعي سابق]** .. وعرّفه ابن الحاجب المتوفّى سنة (٦٤٦) هجري بأنّه : **[رفع الحكم الشرعي بدليلٍ شرعي متأخّر عنه]** .. وعرّفه القاضي البيضاوي المتوفّى سنة (٦٧٥) هجري بأنّه : **[بيان انتهاء حكم شرعي ، بطريق شرعي متراخي عنه]** ..

وهذه التعاريف هي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، فكلّ من وضع تعريفاً لمسألة الناسخ والمنسوخ يظنّه كاملاً سالماً من النقص ، ينتقد فيه التعاريف التي سبقت تعريفه ، يأتي بعده من ينتقد تعريفه هذا ليضع تعريفاً يظنّه كاملاً سالماً من النقص ..

وهذا دليلٌ من مجموعة الأدلّة التي تُثبت أنَّ مسألة الناسخ والمنسوخ صناعة بشريّة محضة ، تُوضَع فيها التصوّرات المسبقة الصنع والأهواء معياراً لدلالات كتاب الله تعالى ، فهذه المسألة المزعومة – كما سنرى – ليست نتاجاً تدبّريّاً لكتاب الله تعالى ، إنّما هي نتيجة تقليدٍ أعمى يتمّ فيه التعامي عن دلالات كتاب الله تعالى ..

إذاً .. النسخ كما زعموه هو باختصارٍ شديد : إزالة حكمٍ أمر الله تعالى به في كتابه الكريم ، بحكمٍ آخر بدلاً منه ، أي هو إلغاء الحكم الأوّل (المنسوخ) بحكمٍ جديد (الناسخ) ..

وصنّفوا الناسخ والمنسوخ على ثلاثة أضرب ..

١ – ما نُسخَ خطّه وحكمه ، فقالوا – على سبيل المثال – أُنزلت سورة تعدل سورة التوبة ثمّ نُسخَت كلّها ..

٢ – ما نُسخَ خطّه وبقي حكمه ، فقالوا – على سبيل المثال – أُنزلت آية الرجم ثمَّ نُسخ خطّها وبقي حكمها ، واحتجّوا على ذلك بما ورد في موطّأ مالك أنّ عمر بن الخطّاب قال : **[والذي نفسي بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطّاب في كتاب الله تعالى لكتبتها : الشيخ والشيخة – إذا زنيا – فارجموهما البتة فإنّا قد قرأناها]** ، وبما ورد في سنن الدارمي عن زيد بن ثابت قال : **[أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة]** ، وبما ورد في سنن ابن ماجة أنّ عمر بن الخطّاب قال : **[وقد قرأتها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة ، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده]** ، وبما ورد في مسند أحمد عن زيد بن ثابت : **[سمعت رسول الله ﷺ يقول : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة]** ..

٣ – ما نُسخَ حكمه وبقي خطّه ، وهو آيات كثيرة نتلوها في كتاب الله تعالى ، أرادوا جعلَها مجرّد كلمات تُتلى ، لا علاقة لنا بالأحكام والأدلّة التي تحملها .. فوجودها في القرآن الكريم – بناء على ما يؤدّي إليه كلامهم – هو لأجر التلاوة والتبريك وتذكّر الماضي الذي كانت فيه – حسب زعمهم – صالحة الفاعليّة ..

وحتّى الذين أجمعوا على هذا الضرب من النسخ (ما نُسخ حكمه وبقي خطّه) نجدهم لا يجمعون على الآيات التي ادّعوا نسخها ، ولا يتّفقون عليها ، فالآية المنسوخة

عند أحدهم ، غير منسوخة – أو ناسخة – عند الآخر .. وسنتعرّض – إن شاء الله تعالى – في هذا الفصل لهذا الضرب من الناسخ والمنسوخ المزعوم بالتفصيل ..

الناسخ والمنسوخ بأنواعه هذه يعني أنّه باستطاعتهم أن يضيفوا إلى كتاب الله تعالى [الذي بين أيدينا] ما يشاؤون من أحكام ، فما زعموه من آياتٍ نُسخ خطُّها وبقي حكمها يعطيهم التبرير لإضافة ما يشاؤون من أحكام .. وباستطاعتهم أن يحذفوا من كتاب الله تعالى ما يشاؤون من أحكام ، فما زعموه من آياتٍ نُسخَ حكمُها وبقي خطّها يعطيهم التبرير لحذف ما يشاؤون من أحكام .. هذا بالإضافة إلى قول الكثيرين منهم بأنَّ الحديث ينسخ القرآن ، وبالإضافة إلى ما يسمّونه بتخصيص المطلق وإطلاق المخصّص وكلّ ما تمّ ويتمّ افتراؤه على كتاب الله تعالى من مفاهيم تمّ وضعها من جيوبهم ، لا تهدف إلاّ إلى الإساءة لمنهج الله تعالى ..

.. إذاً .. النسخ الذي زعموه يقتضي الأمور التالية ..

١ – الضرب الأوّل (ما نسخ خطّه وحكمه) والضرب الثاني (ما نُسخ خطّه وبقي حكمه) يقتضيان أنَّ القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى دفعةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿ **إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ** ﴾ [القدر : ١] ، والذي نُزِّل من السماء الدنيا على الرسول ﷺ على مدار (٢٣) عاماً ﴿ **إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلاً** ﴾ [الإنسان : ٢٣] ، هذا القرآن – حسب ما يقتضي إليه هذان الضربان من النسخ المزعوم – هو أكبر حجماً وأكثر آيات من القرآن الموجود بين أيدينا ..

٢ – الضرب الثالث من أضرب الناسخ والمنسوخ المزعوم (ما نُسخَ حُكمه وبقي خطّه) ، يقتضي أنَّ هناك تعارضاً بين النصوص القرآنيّة ، لدرجةٍ يستحيل فيها التوفيق بين هذه النصوص ..

٣ – الضرب الثالث يقتضي وجود آيات فاقدة للصلاحية كأحكام يطلبها الله تعالى منّا ، فهي – بناء على زعمهم – لمجرّد التلاوة والتبريك ، فحسب زعمهم تحمل

دلالات وأحكاماً تختلف عن الأحكام المُرادة التي تحملها الآيات الناسخة ، وبالتالي فالآيات المنسوخة مُفرغة من حكم استمرار الصلاحيّة ، ولفظها معزول عن مضمونها ..

٤ – الضرب الثالث يقتضي أنَّ الآيات المنسوخة خاضعة لقوانين الزمان والمكان ، أي حادثة ، وبالتالي فالقرآن الكريم – حسب زعمهم – حادث ، كون هذه الآيات لا تختلف عن الآيات الموجودة بين أيدينا .. فالآيات المنسوخة حملت – حسب زعمهم – أحكاماً وتشريعاتٍ مؤقّتة لمرحلة معيّنة من الجيل الأوّل ، ثمّ أتت بعد ذلك الآيات الناسخة ، لتبدأ مرحلة جديدة بالنسبة لهذه الأحكام والتشريعات ..

فترة صلاحيّة الحكم الناسخ

فترة صلاحيّة الحكم المنسوخ

نهاية نزول الرسالة — نزول الحكم الناسخ — نزول الحكم المنسوخ — بداية نزول الرسالة

محور الزمن

٥ – بما أنَّه لا يُوجَد نصٌّ قرآنيٌّ (ولا حتى حديث) يحدّد الآيات المنسوخة والآيات التي نسختها ، لذلك فهذه المسألة اجتهاديّة ، وبما أنَّ الاجتهاد ليس مقصوراً على جيلٍ دون غيره ، لذلك فمسألة الناسخ والمنسوخ – بناء على ما يقتضيه هذا الضرب الثالث – لا يمكن إنهاؤها ولا وضع حدٍّ لها ..

٦ – بما أنّه تُوجَدُ آياتٌ كريمة تحمل أحكاماً منسوخة ، فهذا يعني أنَّه تُوجَدُ في القرآن الكريم أحكامٌ لسنا مطالبين باتّباعها .. بل – بناء على زعمهم – نحن مطالبون باتّباع ما يخالفها ، ممّا تحمله الآيات التي زعموا أنّها ناسخة لها ..

❁ ❁ ❁

استحالة حدوث النسخ
بين آيات القرآن الكريم

إنَّ مسألة الناسخ والمنسوخ حسب الضربيّن الأول والثاني هي مسألة مستحيلة ، فالقرآن الكريم الموجود بين أيدينا هو ذاته (ودون زيادة أو نقصان) ما قال الله تعالى عنه أنّه أنزله دفعةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ** ﴾ [القدر : ١] ، وهو ذاته الذي نُزِّل من السماء الدنيا على الرسول ﷺ على مدار (٢٣) عاماً ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً** ﴾ [الإنسان : ٢٣] ، وهو ذاته الذي وصفه الله تعالى بأنّه تبيانٌ لكلِّ شيء ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ** ﴾ [النحل : ٨٩] ، وهو ذاته دون زيادة أو نقصان الذي قال الله تعالى عنه ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ [البروج : ٢١ – ٢٢] ..

كيف يكون القرآن الكريم الموجود بين أيدينا تبياناً لكلِّ شيء إنْ كانت هناك نصوصٌ منه قد رُفعت (نُسخ خطُّها) كما يزعمون ؟!!! .. فزعمهم يقتضي أحد أمرين مستحيلين ..

١ – إمّا أنَّ النصوص المرفوعة لا تحمل أحكاماً ذات قيمة تؤثّر على كون القرآن الذي بين أيدينا تبياناً لكلّ شيء ، وهذا مستحيل ، فلا يوجد نصٌّ من قول الله تعالى إلاّ ويحمل قيمةً تميّزه ، وبالتالي فتلك النصوص التي يزعمون رفع خطّها ليست من كتاب الله تعالى ، ولا وجود لها إلاّ في مخيّلاقم ..

٢ – أو أنَّ النصوص المرفوعة تحمل قيمةً تميّزها عن غيرها من النصوص ، وهذا يقتضي أنَّ القرآن الذي بين أيدينا ينقص تلك النصوص حتى يكون تبياناً لكلِّ شيء ، وهذا مستحيل .. فالله تعالى عندما يقول : **﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ ﴾** فهو جلّ وعلا يعني القرآن الذي بين أيدينا دون زيادة أو نقصان ، ويعني أنّه – بهذه الحيثيّة – تبيانٌ لكلِّ شيء ..

ومسألة وجود نصوصٍ قرآنيّة نُسخ خطُّها هي مسألة مستحيلة ، لأنّ مجموع ورود أيِّ كلمة في القرآن الكريم تصف مسألة ما – كما بيّنا في النظريّة الأولى (المعجزة) – يتعلّق بحقيقة المسألة التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمة ، ويعكس تماماً حقيقة وجود هذه المسألة في الكون .. ولو أُضيفت كلمة إلى القرآن الكريم ، أو حُذفت ، أو بدّلت بغيرها ، لاختلَّ هذا التوازن المُطلق الذي يتعلّق بمجموع ورود الكلمة في القرآن الكريم .. فكيف إذاً من الممكن أن تكون هناك كلمات نُسخ خطّها كما يزعمون ؟!!! ..

لقد رأينا في النظريّة الأولى (المعجزة) كيف أنّ كلمة [**﴿ يَوۡمِ ﴾** ، **﴿ يَوۡمًا ﴾**] بهذه الصيغة المفردة بالذات ترد (٣٦٥) مرّة ، بما يطابق عدد الدورات المتمايزة للأرض حول الشمس .. ورأينا كيف أنَّ ورود الكلمات : [**﴿ ٱلۡبَرِّ ﴾** ، **﴿ يَبَسٗا ﴾** ، **﴿ ٱلۡبَحۡرَ ﴾**] ، بهذه الحيثيّة من الصياغة ، ترد في القرآن الكريم وروداً يعكس نسبة اليابسة والماء على سطح الكرة الأرضيّة .. ورأينا كيف أنَّ كلمة **﴿ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾** ترد (٦٨) مرّة وهو ذاته عدد مرّات ورود كلمة **﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾** المناظرة لها تماماً ، ورأينا كيف أنَّ كلمة **﴿ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾** ومشتقّاتها ترد (٨٨) مرّة وهو ذاته عدد مرّات ورود كلمة **﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾** ومشتقّاتها .. ورأينا ورأينا الكثير الكثير من الأمثلة التي تُثبت

استحالة حذف كلمة من كتاب الله تعالى ، أو زيادة كلمة إلى كتاب الله تعالى ، أو تبديل كلمة بكلمة في كتاب الله تعالى ..

ورأينا – أيضاً – كيف أنَّ عدد الحروف المرسومة في سورة نوح عليه السلام هو (٩٥٠) حرفاً مرسوماً ، وهذا ما يوافق المدّة التي لبثها عليه السلام في قومه .. ورأينا في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) وفي كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، وعبر أبجديّة قرآنيّة مكتشفة لأوّل مرّة في العالم ، رأينا أنَّه يستحيل حذف حرف من كتاب الله تعالى أو زيادة حرف إلى كتاب الله تعالى ، أو تبديل حرف بحرف في كتاب الله تعالى ..

إنَّ زعمهم بوجود كلمة (أو حتى حرف) منسوخة خطّاً من القرآن الكريم ، يقتضي احتمالاً من الاحتمالات المستحيلة التالية :

١ – يقتضي نسخهم المزعوم تغيّراً في ماهيّة المسألة الموصوفة بهذه الكلمة بعد النسخ المزعوم ، فعلى سبيل المثال لو وُجدت في النصوص التي زعموا نسخها إحدى الكلمتين [**﴿ يَوۡمِ ﴾** ، **﴿ يَوۡمًا ﴾**] لاقتضى ذلك أنَّ الأرض كانت تدور حول نفسها أكثر من (٣٦٥) دورة متمايزة ، وهذا مستحيل ..

٢ – يقتضي نسخهم المزعوم أنَّ النصوص القرآنيّة التي نُسخت ليست مطلقة ، ولا علاقة لها بالنصوص القرآنيّة ، وهذا يُفنّد زعمهم من أساسه في مسألة النسخ ..

٣ – يقتضي نسخهم المزعوم أنَّ القرآن الكريم ليس كتاب الله تعالى المقروء الذي يختزل بعمقيه الظاهر والباطن نواميس كتابه المنشور (الكون) ، فخلط الأمور عبر إيهام الناس بأنَّ نصوصاً كانت من القرآن ثمّ رفعت هو زعمٌ لا يختلف عن زعم الكافرين بأنَّ القرآن الكريم ليس من عند الله تعالى ..

وأحاديث الرجم هي – في النهاية – روايات لا تكون صحيحةً إلاّ بموافقتها لكتاب الله تعالى ، ونحكم على وضعها من مخالفتها لكتاب الله تعالى ، وهي ليست حجّة على

كتاب الله تعالى ، كما يُسوِّق عابدو أصنام التاريخ .. فالنصوص التي لفَّقوها على كتاب الله تعالى وبأنّها تأمر بالرجم وزعموا أنّها رُفعت خطّاً وبقي حكمُها ، هي وجهٌ من أوجه التحريف لأحكام منهج الله تعالى ، وذلك للأسباب التالية ..

١ – عندما يقول الله تعالى : **﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾** [النور : ٢] ، فإنَّ ذلك يعني الزانية والزاني دون أيِّ تخصيصٍ لكونهما محصنين أم لا ، هكذا يُدرك من هذا النصّ القرآني كلُّ من يملك حدّاً أدنى من إدراك قواعد اللغة العربيّة .. فكيف إذاً يخصِّصون الكلمتين **﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾** بغير المحصن في الوقت الذي لا تُوجد فيه إشارة إلى كتاب الله تعالى لهذا التخصيص ؟ ..

٢ – لو فرضنا جدلاً أنَّ المحصن حكمه الرجم ، فكيف إذاً سنفهم دلالات العبارة القرآنيّة : **﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ﴾** [النساء : ٢٥] ، إن كان حكم المحصنات من العذاب هو الرجم حتى الموت ، فما هو نصف الموت ؟!!! .. أمّا محاولات الهروب من هذه الحقيقة القرآنيّة بأنَّ المعنيّ هنا هو العذاب الذي هو الجلد دون الرجم ، فهو محاولة من محاولات ذرِّ الرماد في الأعين ، ولسنا مستعدّين لأن نطلّق عقولنا لنسمع مثل هذا الكلام الذي تنقضه الكثير من الحقائق التي منها أنَّ الرجم هو بذاته عذابٌ ..

٣ – النصّ الموضوع الذي يحاولون جعلَه نصّاً قرآنيّاً [**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة**] ، هذا النصّ لا يمكن أن يكون نصّاً إلهيّاً ، لأنّه نصٌّ ركيكٌ لغويّاً يخجل من صياغته حتى من يملك الحدّ الأدنى من إدراك حقيقة اللغة العربيّة .. فكلمة [**والشيخة**] لا تُستعمل أصلاً ، فكلمة الشيخ تُستعمل للرجل والمرأة على حدٍّ سواء ،

كما هو الحال في كلمة (عجوز) ، نقول : رجل عجوز ، وامرأة عجوز .. إذاً ورود كلمة [**والشيخة**] في النصّ الملفّق يؤكّد أنّه موضوع و لم يسمع به ﷺ ..

ثمَّ إنَّ كلمة [**الشيخ**] في كتاب الله تعالى لا علاقة لها بالإحصان كما يريد زاعمو هذه الرواية الموضوعة ، فهذه الكلمة تعني مرحلةً متقدّمةً من العمر ..

﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾

[هود : ٧٢]

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ ﴾ [غافر : ٦٧]

فكيف إذاً يزعمون أنَّ القول الموضوع [**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة**] هو نصٌّ إلهيٌّ يصوِّرُ المحصن الزاني ؟!!! ..

ثمَّ كيف تكون هناك كلمتان هما [**الشيخ والشيخة**] كانتا من كتاب الله تعالى ثمّ حذفتا ، ونحن نعلم أنَّ مجموع ورود أيّ كلمة في كتاب الله تعالى هو سرٌّ عظيم يرتبط بحكمة مطلقة تقتضي عدم إضافة كلمة إلى كتاب الله تعالى ، وتقتضي عدم حذف كلمة من كتاب الله تعالى ، وتقتضي عدم تبديل كلمة بكلمة في كتاب الله تعالى ؟!!! .. إنَّ مشتقّات الجذر اللغوي (ش ، ي ، خ) [**﴿ شَيْخٌ ﴾** ، **﴿ شَيْخًا ۖ ﴾** ، **﴿ شُيُوخًا ۚ ﴾**] ترد في كتاب الله تعالى (٤) مرّات ، وهذا يقابل عدد مرّات ورود مشتقّات الجذر اللغوي (ط ، ف ، ل) [**﴿ ٱلطِّفْلِ ﴾** ، **﴿ طِفْلًا ﴾** ، **﴿ ٱلْأَطْفَـٰلُ ﴾**] في كتاب الله تعالى ، حيث ترد أيضاً (٤) مرّات ..

وممّا يؤكّد أنَّ هذا النصّ [**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة**] موضوع هو ورود كلمة [**إذا**] فيه ، فكلمة [**إذا**] تحمل معنى حتميّة الوقوع ، وهذا ينافي الواقع

، فعلى الأقل كان من المفروض أن ترد كلمة [**إن**] دون كلمة [**إذا**] ، حيث كلمة [**إن**] تحمل إمكانية حدوث الأمر وإمكانيّة عدم حدوثه في الوقت ذاته ، وهذا يُناسب الحكم الذي يريدون فرضه على منهج الله تعالى ، بينما كلمة [**إذا**] في هذا النص فلا تتناسب إطلاقاً مع ما يريده واضعو ها الحديث ..

ثمّ كيف نفهم القول الموضوع على لسان عمر بن الخطّاب : [**والذي نفسي بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطّاب في كتاب الله تعالى لكتبتها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة فإنّا قد قرأناها**] .. فهل امتنع عمر بن الخطّاب عن كتابة هذا النصّ في كتاب الله تعالى خشيةً من الناس ، وأنّه لولا هذه الخشية لأضاف هذا النصّ إلى كتاب الله تعالى ؟!!! .. هذا الكلام يُحمل على وجهين ، إمّا أنَّ النصَّ ليس من كتاب الله تعالى لا من قريب ولا من بعيد ، وعمر بن الخطاب يعلم ذلك وبالتالي امتنع عن إضافته لكتاب الله تعالى بناء على ذلك ، وإمّا أنَّ النصّ من كتاب الله تعالى ولكنّ عمر بن الخطّاب خشي الناس أكثر من خشيته لله تعالى فامتنع عن إضافته لكتاب الله تعالى .. وكلا الاحتمالين مستحيل فقوله تعالى ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] ، صريحٌ وبيّنٌ ويُسقط هذه الروايات الموضوعة من أساسها ..

وفي روايات الأحاديث ذاتها ما يؤكّد أنَّ فعل الرجم – إن صح – ليس حكماً من السماء ، إنّما هو فعل فعله ﷺ – حسب هذه الروايات – كموافقة لأهل الكتاب قبل نزول النصِّ ﴿ **ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ** ﴾ [النور : ٢] ، فالحديث التالي يحمل استفساراً يؤكّد ذلك ..

صحيح البخاري (**٦٣٣٥**) حسب ترقيم العالميّة :

حَدَّثَنَا .... سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى عَنْ الرَّجْمِ فَقَالَ رَجَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ أَقَبْلَ النُّورِ أَمْ بَعْدَهُ قَالَ لَا أَدْرِي ....

صحيح مسلم (**٣٢١٤**) حسب ترقيم العالميّة :

و حَدَّثَنَا .... **قَالَ سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى هَلْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَعَمْ قَالَ قُلْتُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةُ النُّورِ أَمْ قَبْلَهَا قَالَ لَا أَدْرِي**

وهناك بعض الروايات التي تبيّن أنّه ﷺ كان يقوم ببعض الأعمال التي لم يترل بها نصٌّ قرآني كموافقة لأهل الكتاب ، ريثما يترل النصّ القرآني المناسب لها ..

البخاري (**٥٤٦٢**) حسب ترقيم العالميّة :

حَدَّثَنَا .... **قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ** ....

مسلم (**٤٣٠٧**) حسب ترقيم العالميّة :

حَدَّثَنَا .... **وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ** ....

.. ولو فرضنا جدلاً أنَّ الرجمَ حُكْمٌ من كتاب الله تعالى كما يفترون على منهج الله تعالى ، فمن المؤكَّد – حسب هذا الزعم – أنَّ المرأة المتزوّجة التي يرميها زوجها بالزنا لا بُدَّ أن تُرجَم حتى الموت ..... بناء على ذلك ، كيف يُفَسِّرون لنا ورود كلمة ﴿ **ٱلْعَذَابَ** ﴾ بهذه الصيغة دون أيِّ صيغة أُخرى (كالموت أو الرجم أو .....) في العبارة التي تُصوِّر حكمَ هذه الزوجة في كتاب الله تعالى ..

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [النور : ٦ – ٨]

فقوله تعالى ﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ صريحٌ في أنَّ العقوبة هي العذاب الذي بيّنه الله تعالى في كتابه الكريم ..

والضرب الثالث من النسخ المزعوم (نسخ حكم بعض آيات القرآن الكريم) هو مسألة تُناقض حقيقة القرآن الكريم ، كونه يتعلّق بصفات الله تعالى .. فكون القرآن الكريم ينتمي – كما رأينا – لعالم الأمر الذي لا يحوي المتناقضات ، ولا ينتمي لعالم الخلق الذي يحوي المتناقضات ، ينفي أن تُوجَد فيه آيات تحمل أحكاماً تُخالف وتناقض أحكاماً تحملها آياتٌ أُخرى ، وينفي أن تُوجَد فيه آياتٌ تحمل أحكاماً لفترةٍ زمنيّةٍ محدَّدة .. فالأحكام والتشريعات القرآنيّة هي روحٌ من أمر الله تعالى ، لا تخضع لقوانين الزمان والمكان ، ولا تحتوي المتناقضات كما هو الحال في عالم الخلق ..

الأحكام والتشريعات القرآنيّة

بداية نزول الرسالة — نهاية نزول الرسالة

محور الزمن

وإنَّ وجود آيات قرآنيّة تحمل أحكاماً منسوخة معطَّلة- كما زعموا – لا يُطلَب تدبّرها والعمل بها ، يتعارض مع الأمر الإلهي بتدبّر آيات القرآن الكريم والعمل بها دون استثناء ..

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩]

ويتعارض – أيضاً – مع كون القرآن الكريم كتاباً لا ريب فيه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه .. فاحتواؤه على أحكام معطَّلة بل ومناقضة لأحكام أُخرى فيه ،

لدرجة لا يمكن التوفيق بينهما – كما يزعمون – هو وجهٌ من أوجه الريب وباطلٌ كائنٌ فيه ..

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢]

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصّلت : ٤١ – ٤٢]

وإنَّ وجود أحكام قرآنيّة تحملها كلمات الله تعالى لسنا مطالبين بها – كما يزعمون – يتعارض أيضاً مع الأمر الإلهي باتّباع كلِّ ما أُنزل إلينا من ربّنا دون أيِّ استثناء ..

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣]

وإنَّ وجود أحكام قرآنيّة منسوخة ، ووجود أحكام قرآنيّة ناسخة للمسألة ذاتها تختلف عن الأحكام المنسوخة ، يتعارض مع كون القرآن الكريم لا يُوجد فيه اختلاف ..

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢]

.. في هذه الآية الكريمة الله تعالى يقول ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ ولم يقل (ولو كان من عند غير الله لوجدوه مختلفاً كثيراً) ، فكلمة ﴿ فِيهِ ﴾ في العبارة ﴿ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ تنفي الاختلاف حتى بين جزئيّات الأحكام داخل النصّ القرآني ، بمعنى أنَّه لا يُوجَد اختلاف بين أيِّ حكمين من أحكام كتاب الله تعالى ، بمعنى لا يمكن لعبارة قرآنيّة أن تحمل حكماً مختلفاً مع حكمٍ آخر

محمولٍ بعبارة قرآنيّة أُخرى ، وذلك داخل دفتي كتاب الله تعالى .. وكلٌّ ذلك ينفي مسألة الناسخ والمنسوخ من أساسها ..

وإنَّ عدم وجود نصٍّ قرآني (أو حتى حديث) يُحدِّد لنا الآيات المنسوخة والآيات الناسخة لها ، وترك المسألة لاجتهادات البشر ، ليختلفوا فيها اختلافاً لا يمكن إنهاؤه ، يتعارض مع إقرار مسألة الناسخ والمنسوخ من أساسها .. فمسألة كهذه المسألة لو كانت حقيقة يحملها كتاب الله تعالى ، لحمل لها القرآن الكريم تبياناً ، ولبيّنها ﷺ ..

.. إنَّ ما دفعهم لإقرار مسألة الناسخ والمنسوخ هو توهّمهم بوجود تعارض واختلاف بين الأحكام التي تحملها بعض كلمات الله تعالى في القرآن الكريم ، وهذا ناتج عن عدم إدراك حقيقة الأحكام القرآنيّة إدراكاً سليماً كما سنرى إن شاء الله تعالى .. فعدم اتّباعهم لمنهج الكليّة في البحث القرآني ﴿ **ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ** ﴾ هو ما جعلهم يتوهّمون ويزعمون النسخ في كتاب الله تعالى ..

❁ ❁ ❁

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

ما هي حججهم لإقرار مسألة الناسخ والمنسوخ

في زعمهم لإقرار مسألة الناسخ والمنسوخ يحتجّون بالآيات التالية ..

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦]

﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩]

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ١٠١]

ولنقف عند دلالات هذه الآيات الكريمة لنرى أنّهم يذهبون بدلالاتها مذاهب تائهة ، ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ..

الآية الكريمة : ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦] ، لا تعني – أبداً – أنَّ القرآن الكريم تنسخ نصوصُه بعضَها كما يزعمون ..

لو نظرنا إلى مشتقّات الجذر (ن ، س ، خ) في القرآن الكريم لرأيناها تدور جميعها داخل إطارٍ واحدٍ من المعنى ، هو حلول الشيء مكان شيءٍ آخر .. فالشيء حين نسخه يكون قد حلَّ بمكانٍ آخر لم يكن حالاً فيه ، وبالتالي زوال طبيعة المكان الذي حلّ فيه الناسخ ، لأنّه أصبح نسخةً عن هذا الناسخ ..

فالمسألة إذا نُظر إليها من زاوية الناسخ ، هي حلول الشيء مكان شيء آخر ، أي تغيّر طبيعة هذا الآخر ، بمعنى زوال هذه الطبيعة من مكانها ، حيث تغيّرت هذه الطبيعة نتيجة حلول الناسخ فيها ..

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ ۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٤]

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٩]

فأحكام الهدى المنسوخة في الألواح ، وأعمال البشر المستنسخة في الكتاب ، هي في الحقيقة حلول الخط في الألواح ، والأعمال التي يعملها البشر في الكتاب ..

وإذا نظرنا إلى المسألة ذاتها من زاوية المنسوخ ، فهي زوال المنسوخ من مكانه ، لأنَّ أمراً آخر (الناسخ) قد حلّ مكانه ..

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحج : ٥٢]

فما يُلقيه الشيطان يزول من مكانه حيث تحلّ آيات الله تعالى .. هذه هي – بالإضافة للآية التي ندرسها – جميع الآيات الكريمة التي تحمل مشتقّات الجذر (ن ، س ، خ) ..

وهكذا .. فالنسخ – كما نرى – هو حلول الناسخ مكان المنسوخ ، وبالتالي زوال المنسوخ من مكانه ، ولا يعني أبداً وجود الاثنين معاً .. ولو فرضنا وجود الاثنين معاً لَمَا كان الناسخ ناسخاً ، ولَمَا كان المنسوخ منسوخاً ..

وفق هذا المفهوم الذي يحمله كتاب الله تعالى لمسألة النسخ نرى استحالة حصول مسألة الناسخ والمنسوخ بالشكل الذي يعرضونه ، فالآيات التي زعموا نسخها ما زالت في مكانها تُقرأ ويتعبَّد بها ، شانها بذلك شأن الآيات التي زعموا أنّها ناسخة لها ، فلو كانت منسوخةً لزالت من مكانها حيث تحلّ في هذا المكان الآيات الناسخة لها ، وهذا لم يحدث ، وبالتالي فزعمهم لنسخ هذه الآيات زعمٌ باطل حسب مفهوم النسخ في كتاب الله تعالى ..

وقولهم بأنَّ الآيات لم تُنسخ خطّاً وإنّما نُسخت حكماً ، هو قولٌ لا يُحْمَل على أيِّ قيمة من المعنى ، وهو ذرٌّ للرماد في الأعين بغية تمرير هذه المسألة التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ..

كيف يتمّ الفصل بين النصِّ القرآني وبين الدلالات التي يحملها ؟!!! .. وما هي الفائدة من نصوصٍ لا تُعتَبر دلالاتها ومعانيها ؟!!! ..... حتّى في كلامنا البشري ما الفائدة من قولٍ لا علاقة له بالمعنى (الكلام) الذي يحمله ؟!!! .. أليس زعمهم بأنَّ دلالات النصوص وأحكامها ملغيّة (بل ويأخذون بنقيضها) مع وجودها في كتاب الله تعالى ، أليس زعمهم هذا هو فصلٌ بين قولِ الله تعالى وكلامه ؟!!! .. أليس زعمهم هذا هو وضع كلام الله تعالى في خندقٍ مُناقضٍ لقولِ الله تعالى ؟!!! .. ألا يخجل من الله تعالى من يقول بهذا ؟ ... نترك الإجابة لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ..

.. ولمعرفة ما تعنيه العبارة ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ في الآية التي ندرسها ، لا بدّ من إدراك معنى كلمة ﴿ ءَايَةٍ ﴾ في هذه العبارة القرآنيّة ..

رأينا في الفصل الثالث أنَّ كلمة ﴿ ءَايَةٍ ﴾ في القرآن الكريم تعني معجزةً وبرهاناً ودليلاً وحكماً ، فلو كانت كلمة ﴿ ءَايَةٍ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ تعني مجموعة كلمات قرآنيّة بين فاصلتين ، لكانت تعني نصّاً يتعلّق بصفات

الله تعالى ، وينتمي لعالم الأمر ، وبالتالي لأتت نهاية الآية الكريمة مرتبطةً بصفة العلم أو الحكمة لله تعالى ، ولما أتت متعلّقةً بصفة القدرة التي ساحتها عالم الخلق والتشيّؤ ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ .. إنّ ورود نهاية الآية الكريمة متعلّقةً بصفةٍ ساحتها عالم الخلق والتشيّؤ ينفي نسخَ أيِّ آية كريمة من القرآن الكريم ، وينفي نسخَ أيِّ حكمٍ من الأحكام التي يحملها القرآن الكريم ..

ولإدراك جانب مهمٍّ ممّا تعنيه الآية التي نحن بصدد دراستها ، لا بدَّ من النظر إليها من منظار الصورة القرآنيّة التالية ، التي تصف لنا آيات الله تعالى (معجزاته وبراهينه) المتتابعة على قوم فرعون ..

﴿ **۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ** ﴾

﴿ **وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا** ﴾ [الزخرف : ٤٨]

فمن سنّة الله تعالى التي لا تتبدّل ولا تتحوّل ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر : ٤٣] ، أنّ آيات الله تعالى (معجزاته وبراهينه) للبشر هي بشكلٍ تصاعدي .. فكلّ آية هي أكبر من سابقتها ، وبالتالي فالآية الناسخة لا تكون أقلّ من الآية المنسوخة ، فهي إمَّا مثلها وإمّا خير منها ، والصورة القرآنيّة ﴿ **۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ** ﴾ هي تصويرٌ مطلق لهذه الحقيقة ..

ولو نظرنا إلى الآية التي ندرسها من منظار الآية الكريمة التي تسبقها لأيقنّا صحّة ما نذهب إليه ..

﴿ **مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا**

نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٥ – ١٠٦]

فالذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين أيقنوا أنَّ ما نُزِّل على الرسول ﷺ خيرٌ ممّا أُنزل من قبله ، فما نزّل على محمّد ﷺ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان ، بينما ما أُنزل قبله صالحٌ لأزمنة وأمكنة محدّدة .. فكلٌّ رسول جديد يأتي بآية (معجزة وبرهان ودليل) هي مثل أو خير من سابقتها ، والنبي ﷺ خاتم النبيّين أُنزلت عليه خير الرسالات ، وبالتالي فأحكامها إمَّا مثل أو خير ممّا أنزل على الرسل من قبله ..

هذا هو ما لم يُرده الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين ، وهذا ما عناه الله تعالى بالصورة القرآنيّة ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ في الآية السابقة مباشرة للآية التي نحن بصدد دراستها ، وهذا ما عناه الله تعالى في الصورة القرآنيّة ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ ﴾ ردّاً على حسدهم بإنزال خير الرسالات على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين من أتباع الرسالة الخاتمة ..

فالله تعالى يريد أن يقول عبر هذه الصورة القرآنيّة : ما دامت الرسالة الخاتمة آخر الرسالات ، وما دامت سنّتي هي أنَّ كلَّ رسالة هي أكبر من أختها ، فالحقّ أن تكون الرسالة الخاتمة خير الرسالات وناسخة لها ، فكلُّ حكمٍ فيها (آية) هو إمَّا خير أو مثل أحكام (آيات) الرسالات السابقة لها ..

ولو فرضنا – جدلاً – أنَّ كلمة ﴿ ءَايَة ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ تعني مجموعة كلمات قرآنيّة تحمل حكماً معيّناً ، فما الحكمة – إذاً – من نسخ هذا الحكم بحكم مثله عبر كلماتٍ أُخرى مع بقاء الكلمات الأولى في ذات النصّ القرآني ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ ﴾ ؟!!! .. وهل هناك تفضيل بين قولٍ وقولٍ لله تعالى في كتابه الكريم ؟!!! ..

إنَّ نسخ الشيء يعني إزالته – كما رأينا – وبالتالي فهذا الشيء هو فعلٌ من أفعال الله تعالى التي ساحتها ضمن إطار المكان والزمان ، وهذا ما ينطبق على معجزات (آيات) الرسل السابقين عليهم السلام ، التي هي فعلٌ من أفعال الله تعالى حصلت في أزمنة وأمكنة محدّدة ، ثمّ زالت (نُسخت ، أو أُنسيت) .. وهذا المفهوم للنسخ لا ينطبق على معجزة القرآن الكريم التي هي تتعلّق بصفات الله تعالى ، وبالتالي هي فوق الحدوث والزوال (النسخ) ..

وهكذا نرى أنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٍ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ ﴾ تصوِّرُ لنا نسخَ المعجزات والشرائع السابقة بالرسالة الخاتمة ، ولا تعني – كما زعموا – نسخ كلمات الله تعالى – في القرآن الكريم – بعضها لبعض .. فاستدلالهم بهذه الآية الكريمة على وقوع مسألة الناسخ والمنسوخ ليس صحيحاً ، ولا بأيّ وجهٍ من الأوجه ..

ولنقف عند الآية الثانية التي احتجّوا بها على وقوع مسألة الناسخ والمنسوخ ..

﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩]

إنَّ المحو والإثبات لا علاقة لهما بالقرآن الكريم ، ولا بأمّ الكتاب ، فجميع مشتقّات الجذرين (م ، ح ، و) ، (ث ، ب ، ت) في القرآن الكريم نراها لا علاقة لها بالكتاب والكتابة .. وهذه هي جميع هذه المشتقّات ما عدا الآية التي هي قيد الدراسة ..

﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا ﴾ [البقرة : ٢٥٠]

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ ﴾ [البقرة : ٢٦٥]

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا ﴾ [آل عمران : ١٤٧]

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء : ٦٦]

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال : ١١]

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ ﴾ [الأنفال: ١٢]

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ ﴾ [الأنفال : ٣٠]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ﴾ [الأنفال : ٤٥]

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ [هود : ١٢٠]

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٢٤]

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [إبراهيم : ٢٧]

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ [النحل : ٩٤]

﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢]

﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : ١٢]

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤]

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢]

﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ ﴾ [الشورى : ٢٤]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمّد : ٧]

فالمحو والإثبات – كما نرى – هما مسألة زمانيّة مكانيّة ، ساحتها عالم الخلق وليس عالم الأمر ، فثبات المؤمنين في القتال ، وتثبيت الأقدام ، وتثبيت الفؤاد ، والقول الثابت

، ومحو آية الليل ، ومحو الباطل ... كلّ ذلك ساحته عالم الخلق المحكوم للأسباب ولقوانين المكان والزمان ، وما يؤكّد ذلك هو أنّ المحو والإثبات في الآية الكريمة المدروسة يرتبطان بالمشيئة ولا يرتبطان بالإرادة : **﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ ﴾** .. فكلّ حركة من حركات هذا الكون تتنقّل بين المحو والإثبات ، لا تخرج عن إطار مشيئة الله تعالى .. فنقصان الرزق وزيادته ، والموت والحياة ، والشقاء والسعادة ، وممارسة الكفر والإيمان ، وكلّ ما يُمحى ويُثبت بين هذه المسائل المتقابلة ، لا يخرج عن إطار مشيئة الله تعالى التي تسخّر أسباب كلّ شيءٍ في هذا الكون ..

وهذه الآية الكريمة تأتي ضمن سياقٍ قرآنيّ يحمل – فيما يحمل – ردّاً على طَلَبِ مَنْ طَلَبَ معجزةً وبرهاناً حسّيّاً (آية) من النبيّ ﷺ ، والله تعالى يردّ على ذلك بأنّ النبيّ ﷺ كغيره ممّن أرسلهم الله تعالى هو بشرٌ له ذريّة وأزواج ، وإنّ المعجزة والبرهان والدليل والعذاب وكلّ ما طلبوه من شواهد حسّيّة تنتمي لعالم الخلق الذي يشاهدونه ، هو حدث له وقته المحدَّد بعلم الله تعالى ، ولا يستطيع أيُّ رسولٍ أن يأتي بآية من تلقاء نفسه ..

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٨ – ٣٩]

فالآية التي طلبوها ليست آية قرآنيّة (مجموعة كلمات بين فاصلتين) ، إنّما هي معجزة حسّيّة تنتمي لعالم الخلق ..

وممّا يؤكّد أنّ المحو والإثبات هما في ساحة المشيئة وينتميان لعالم الخلق ، وليس في ساحة القرآن الكريم كما توهّموا ، هو ورودهما بصيغة الاستمراريّة **﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ ﴾** ، فلو فرضنا جدلاً أنّ المحو والإثبات هما في القرآن الكريم لأتيا بصيغة

الماضي ، لأنّ نزول القرآن الكريم انتهى قبل موت النبيّ ﷺ .. ولكنّ المحو والإثبات يعنيان الحركة المستمرّة للأشياء بين هذين النقيضين في عالم الخلق ، لذلك نراهما بصيغة الاستمراريّة ، فالذي يموت – مثلاً – يُمحى من ساحة الأحياء ويثبت في ساحة الموتى ، والذي يؤمن يُمحى من ساحة الكفّار والأموات ويثبت في ساحة الإيمان ، والذي يكفر بعد إيمانه يُمحى من ساحة الإيمان ويثبت في ساحة الكفر والأموات .....

وأمُّ الكتاب ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ترتبط بعلم الله تعالى الكاشف المطلق لما سيكون ، علماً مسجّلاً في اللوح المحفوظ ، وبالتالي فإنّ أمَّ الكتاب (اللوح المحفوظ) عند الله تعالى هي في عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ، وبالتالي لا تناسبها صيغة المشيئة التي نراها ترتبط بالمحو والإثبات كمسألتين متقابلتين ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ ﴾ ، إنّما تناسبها صيغة الإرادة ، كما رأينا في النظريّة الثانية (القدر) ..

وممّا يؤكّد أنَّ المحو والإثبات مسألة لا علاقة لها بأمّ الكتاب هو حرف الواو الاستئنافيّة في العبارة القرآنيّة ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ .. فالمحو والإثبات مسألة ترتبط بعالم الخلق ضمن إطار مشيئة الله تعالى ، ولذلك نرى كيف أنَّ المسألتين المتناقضتين تتعلّقان بمشيئة واحدة (ورود كلمة يشاء مرّة واحدة لكلمتي يمحو ويثبت) .. ولا يمكن لمسألة المحو والإثبات أن تتعلّق بالآيات القرآنيّة التي تنتمي لعالم الأمر الذي يحوي المتناقضات ، ولا يمكنها (مسألة المحو والإثبات) أن تتعلّق بعلم الله الكاشف لما سيكون (القَدَر) ..

ولو فرضنا جدلاً أنَّ المحو والإثبات يتعلّقان بآيات القرآن الكريم [مجاراة لزعم من احتجّ بهذه الآية على وقوع مسألة الناسخ والمنسوخ] ، لكانت الآية الكريمة على الشكل (محا الله ما أراد وأثبت ما أراد في أمّ الكتاب) ، فالقرآن الكريم نزل وانتهى نزوله قبل موت النبيّ ﷺ ، وهو موجود أزلاً في اللوح المحفوظ ، وبالتالي بناء على

زعمهم تناسبه صيغة الماضي ، بدلاً من صيغة المضارع التي تصوّر استمرار المحو والإثبات ، والقرآن الكريم ينتمي لعالم الأمر ، وبالتالي تناسبه صيغة الإرادة ، وبما أنّ المحو والإثبات مسألتان متناقضتان ، فلا بدّ أن تتعلّق كلٌّ منهما بإرادة مستقلّة (كما رأينا في النظريّة الثانية : القَدَر) ولذلك لا بدّ من ورود كلمة أراد مرّتين مرّة للمحو ومرّة للإثبات ، وبما أنّ المحو والإثبات (حسب زعمهم) في القرآن الكريم أو في أمّ الكتاب ، فلا بدّ من ورود كلمة (في) بدلاً من الواو الاستئنافيّة ، وبالتالي ستكون الآية الكريمة (حسب زعمهم) على الشكل التالي (محا الله ما أراد وأثبت ما أراد في أمّ الكتاب) ..

وهكذا نرى أنَّ الآية الكريمة التي احتجّوا بها على وقوع مسألة الناسخ والمنسوخ ، لا علاقة لها بآيات القرآن الكريم ، وأنّ ما تعنيه هو أنّ كلّ ما يجري من محوٍ وإثبات في عالم الخلق ضمن مشيئة الله تعالى ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ، يُوافق موافقةً مطلقةً ما علمه الله تعالى بعلمه الكاشف ، علماً مسجّلاً عنده في أمّ الكتاب ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ..

.. ولنقف عند الآية الثالثة التي احتجّوا بها على وقوع مسألة الناسخ والمنسوخ ..

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ١٠١]

إنّ جميع مشتقّات الجذر (ب ، د ، ل) في القرآن الكريم تدور داخل إطار حلول الشيء مكان شيءٍ آخر ، فالشيء المُبْدَل حلَّ مكانه المُبْدَل به ..

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ [الأعراف : ٩٥]

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم : ٥]

فالسيئة المُبْدَلة ذهبت وحلّت مكانها الحسنة (المُبدّلة بها) ، والزوجة المُبدَلة لم تعد زوجة ، وحلّت مكانها الزوجة المُبدلة بها .. وهكذا فالمُبدَل به حلّ مكان المُبدَل ، وبالتالي زوال هذا المُبدَل من مكانه ..

وكلمة ﴿ ءَايَةً ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً ﴾ تعني حكماً قرآنيّاً مُنزلاً ، يحلّ مكان حكمٍ سابقٍ (غير قرآني) للمسألة ذاتها ﴿ مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ ..... ووجود الحكم السابق (المُبدَل) في القرآن الكريم [حيث الآيات الحاملة له والتي زعموا نسخها ، ما زالت موجودة بين دفتي كتاب الله تعالى] مع الحكم الناسخ له – حسب زعمهم – في القرآن الكريم (المُبدل به) ، يُناقض ما تحمله الآية الكريمة التي يحتجّون بها على مسألة الناسخ والمنسوخ ..

وهكذا .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ تعني إذا حلَّ حكمٌ قرآنيٌّ مكان حكمٍ سابقٍ (غير قرآني) ، أي إذا أزال الحكم القرآني حكماً غير قرآني وحلّ مكانه ..

وممّا يشير إلى أنَّ هذه الآية الكريمة تصوّرُ نسخ الحكم القرآني كحكمٍ ناسخٍ (وليس منسوخاً) لغيره من الأحكام ، سواءٌ بعض أحكام أهل الكتاب أم بعض الأعراف التي تعارف عليها الناس ، ممّا يؤكّد ذلك هو ورود كلمة ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ من الفعل (نزّل) في هذه الآية الكريمة ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ .. فقد بيّنت في النظريّة السادسة (سلّم الخلاص) أنّ التتريل (من الفعل نزّل) ومن عند الله تعالى ، لا يتعلّق في كتاب الله تعالى إلاّ بالقرآن الكريم ، دون الكتب السماويّة الأُخرى ..

إنَّ هذا التتريل الناسخ ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ لما سبق من الأحكام غير القرآنيّة هو ما جعل الجاحدين يحتجّون قائلين ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ ، ولو كان الأمر متعلّقاً

بنسخ حكمٍ قرآنيٍّ لحكم قرآنيٍّ لما احتجّوا أصلاً ، فهم لا يعنيهم أصلاً أن ينسخ حكمٌ قرآنيٌّ حكماً قرآنيّاً آخر ... إنَّ قولهم ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ** ﴾ هو قولٌ يدافعون به عن الأحكام غير القرآنيّة التي نسختها أحكامُ القرآن الكريم ..

ومن الأمثلة على نسخ أحكام القرآن الكريم للأحكام غير القرآنيّة هو نسخ الحكم القرآني للتوجّه – في الصلاة – نحو المسجد الحرام ، للحكم الذي كان قبل ذلك وهو التوجّه نحو بيت المقدس ، حيث توجّه ﷺ نحو بيت المقدس قبل نزول الحكم القرآني بالتوجّه نحو المسجد الحرام ، وذلك موافقة لأهل الكتاب ، ريثما يترل النصّ القرآني بالتوجّه نحو المسجد الحرام .. فالنبيُّ ﷺ كان يحبّ موافقة أهل الكتاب فيما لم يترل فيه نصٌّ قرآني ، ريثما يترل النصُّ القرآنيُّ المناسب ..

البخاري (٥٤٦٢) :

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْدِلُونَ أَشْعَارَهُمْ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ فَسَدَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاصِيَتَهُ ثُمَّ فَرَقَ بَعْدُ

إنّ الاتّجاه نحو بيت المقدس ليس حكماً قرآنيّاً ، فلم يُذْكَر في كتاب الله تعالى ، وهو ليس وحياً من السماء ، فلو كان وحياً من السماء لرضيه ﷺ كقبلة للمسلمين ..

﴿ **قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ** ﴾ [البقرة : ١٤٤] .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ **فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ** ﴾ صريحة في عدم رضا النبيّ ﷺ عن التوجّه نحو بيت المقدس ، ولو كان هذا التوجّه من عند الله تعالى لرضيه ﷺ ، فتوجّهه نحو بيت المقدس كان نتيجة موافقة أهل الكتاب ، انتظاراً لترول النصّ القرآني المناسب في ذلك ..

وحكمة الله تعالى بجعل القبلة الأولى للمسلمين نحو بيت المقدس فترةً قبل نزول حكم الله تعالى بتحديد القبلة ، هي لاختبارهم ، وللإشارة إلى أهمّيّة بيت المقدس في حياة المسلمين ، وبأنّه من مقدّساتهم التي يجب عليهم المحافظة عليها ، وذلك مع كون المسجد الأقصى مسرى النبيّ ﷺ ..

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيۡهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ ۚ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ١٤٢]

﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ ۚ ﴾ [البقرة : ١٤٣]

إنّنا نرى أنَّ الله تعالى يقول **﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيۡهَآ ﴾** ، وأنّه لم يقل (وما جعلنا القبلة التي أمرناك بها) ، ولم يقل (وما جعلنا لك القبلة التي كنت عليها) ، فالعبارة القرآنيّة **﴿ كُنتَ عَلَيۡهَآ ﴾** في سياقها القرآني دليلٌ على أنَّ الاتّجاه نحو بيت المقدس حكمٌ ليس قرآنيّاً ، ونسخه الله تعالى بحكمٍ قرآنيّ هو الاتّجاه نحو المسجد الحرام ..

وممّا نعتمدُ عليه في تفسيرنا هذا ، هو الصياغة اللغويّة للنصِّ القرآني **﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ ۚ ﴾** [البقرة : ١٤٣] ، فالضمير في كلمت **﴿ كُنتَ ﴾** في العبارة **﴿ ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيۡهَآ ﴾** يتعلّق بمحمّدٍ النبيّ ﷺ وليس بمحمّدٍ الرسول ، فالله تعالى لم يقل (وما جعلنا القبلة التي كان الرسول عليها) إنّما يقول **﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيۡهَآ ﴾** .. فاتّباع القبلة الأولى كان باجتهادٍ شخصيٍّ منه ﷺ كموافقة لأهل الكتاب ، ريثما يترل النصُّ القرآني (نصُّ الرسالة) المناسب لهذه المسألة ..

بينما في العبارة القرآنيّة ﴿ **لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ** ﴾ نرى ورود كلمة ﴿ **ٱلرَّسُولَ** ﴾ ، وهذا يتبع صفة الرسالة ، أي يتبع التعلّق بالنصِّ القرآني المتعلّق بهذه المسألة ، أي يتّبع الاتّجاه نحو المسجد الحرام .. فالله تعالى لم يقل (لنعلمَ من يتّبعك) قياساً على العبارة الأولى ﴿ **ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ** ﴾ ، إنّما يقول ﴿ **لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ** ﴾ تعلّقاً بصفة الرسالة .. وكلُّ ذلك يؤكّد صحّةَ ما نذهب إليه في تفسيرنا لهذه المسألة ..

.. وإن قال قائل : ما دام النبيُّ ﷺ ليس راضياً عن التوجّه نحو بيت المقدس وما يريده هو التوجّه نحو المسجد الحرام ، وما دام التوجّه نحو بيت المقدس ليس بأمرٍ من الله تعالى ، فلماذا توجّه ﷺ نحو بيت المقدس ولم يتوجّه نحو المسجد الحرام ؟!!! .. نقول : الرسول ﷺ يتعلّق بصفة الرسالة أكثر من تعلّقه بمراده كنبي وكشخص ، والتوجّه نحو بيت المقدس هو أمرٌ جعله الله تعالى للرسالة السابقة للرسالة الخاتمة ، وبالتالي فالرسول ﷺ وفق تعلّقه بمنهج الرسالة يُرجّح ما جعله الله تعالى للرسالة السابقة على مراده ، ريثما يترل النصّ القرآني المناسب ، وهذا ما تنطق به العبارة : [[**كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ**]] في الحديث الذي رأيناه .. فالتوجّه نحو بيت المقدس ليس بأمرٍ من السماء ، إنّما هو نتيجة موافقة الرسول ﷺ لأهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه ﷺ ، وذلك ريثما يترل الحكم القرآني المناسب ، ولمّا نزل قوله تعالى ﴿ **فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ** ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، اتّجه ﷺ والمؤمنون شطر المسجد الحرام ..

.. ومن الأحكام التي تعارف عليها الناس كأعراف اجتماعيّة حكمُ الزواج بامرأة الأب ، حيث نسخه القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ **وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ** ﴾ [النساء : ٢٢] ، وحكم الجمع بين الأختين حيث

نسخه قول الله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ .... وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : ٢٣] ، وحكم الزواج بأكثر من أربع نساء حيث نسخه قول الله تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء : ٣] .. كلّ هذه الأحكام ليست قرآنيّة ، إنّما هي أعراف تعارف عليها المجتمع ، وقد نسخها القرآن الكريم بأحكام جديدة كما رأينا ..

وكيف يكون التبديل في العبارة القرآنيّة ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ بين آيات الله تعالى (كلماته القرآنيّة) والله تعالى ينفي ذلك نفياً قاطعاً ؟!!! ..

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٧]

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩]

وكيف يكون المُبدَل هو كلمات الله تعالى – كما يزعمون – وهذه الكلمات فوق الحدوث والتغيير ، وهي التي تنتمي لعالم الأمر الذي لا يحوي المتناقضات ، وهي التي تتعلّق بصفات الله تعالى التي هي فوق الحدوث والتغيير ؟!!! .. فلا بدّ من انتماء المُبدَل لعالم الخلق الذي يتّصف بالحدوث والتغيير ..

إنّ معجزات الرسل السابقين عليهم السلام كمعجزات حسّيّة تنتمي لعالم الخلق ، وكفعل من أفعال الله تعالى ساحته عالم المادّة والمكان والزمان ، تقبل النسخ والتبديل ، وكذلك أحكام المناهج السابقة ، ولذلك جاء منهج الرسالة الخاتمة ومعجزتها (القرآن الكريم) ناسخاً وبديلاً لها ..

.. وممّا يؤكّد أنّ دلالات الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ١٠١] تحمل ذلك ، هو ادّعاؤهم بافتراء الرسول ﷺ نتيجة تتريل بعض أحكام القرآن الكريم ناسخةً لأحكامهم التي اعتادوا عليها ، فنسخ القرآن الكريم للأحكام السابقة لتتريله هو من وجهةٍ نظر الذين لا يعلمون ابتداعٌ جديد ، يحمل أحكاماً جديدة غير تلك التي اعتادوا عليها ، كنسخ الاتّجاه نحو بيت المقدس ، وكنسخ الزواج من امرأة الأب ، وكنسخ الجمع بين الأختين .....

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ٣٧]

.. الافتراء هو ابتداعُ شيءٍ جديدٍ غير معهود ، ولا يعني أبداً التكذيب بالشيء أو تحويله إلى شيءٍ آخر عبر تدرّج مرحلي ..

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ١٧]

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦]

.. ولذلك فالمنافقون حاولوا فتنة الرسول ﷺ لابتداع أحكامٍ جديدة من عنده ، غير تلك الموحاة إليه من الله تعالى ..

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٣]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ ﴾ تعني لتبتدع علينا أحكاماً جديدة ، غير تلك الواردة في القرآن الكريم ..

وهكذا .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢۚ ﴾ في الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ تعني إنّما أنت مبتدع لأحكامٍ جديدة لم نسمع بها ، تخالف ما اعتدنا عليه وما حملته الرسالات السابقة ، ولا تُسحب — هذه العبارة القرآنيّة — باتّجاه احتجاجهم على تبديل الأحكام القرآنيّة لبعضها بعضاً ، فلو كان ذلك لاتّهموا الرسول ﷺ بالتغيير ، ولما اتّهموه — كما نرى — بالافتراء ..

.. ولو نظرنا إلى الآيات الثلاث التي احتجّوا بها على وقوع مسألة الناسخ والمنسوخ ، ومن أيِّ زاوية نريد ، لَمَا رأينا فيها وجهاً يؤكّد احتجاجهم بها على زعمهم لهذه المسألة ..

واحتجاجهم بأنَّ مسألة الناسخ والمنسوخ هي نتيجة التدرّج والمرحليّة في تنزيل الأحكام والتشريعات ، هو احتجاجٌ باطل .. صحيحٌ أنَّ الجيل الأوّل (الذي عاصر نزول القرآن الكريم) تفاعل مع أحكام القرآن الكريم وتشريعاته على مدار (٢٣) عاماً ، وبالتالي تلقّاه على مراحل ، ولكنَّ هذا لا يعني — أبداً — أنَّ المرحليّة هي في ماهيّة القرآن الكريم وما يحمل من أحكام ، ومن يتصوَّر ذلك يكون قد افترض أنَّ القرآن الكريم ينتمي لعالم الخلق الحادث ، وأنَّه خاصٌّ بالجيل الأوّل دون الأجيال اللاحقة ، وهاتان الفرضيتان ينقضهما القرآن الكريم ..

لقد استقبل الجيل الأوّل تشريعات القرآن الكريم على مراحل حسب نزولها ، والتزم بها وفق هذه المراحل ، وهذا يعني أنَّ المرحليّة كائنة في استقبالهم لآيات كتاب الله تعالى

، وليست كائنة في ماهيّة النصّ القرآني ، وكلّ ذلك لا يتعلّق بأيّ تناقضٍ وتعارضٍ بين أحكام كتاب الله تعالى على الإطلاق ..

.. أمّا المرحليّة التي يعرضها أصحاب الناسخ والمنسوخ فهي اختلافٌ وتعارضٌ بين أحكام القرآن الكريم وتشريعاته ، لدرجة يستحيل فيها التوفيق بين هذه الأحكام المتعارضة ، وهذا يُناقض تماماً حقيقة القرآن الكريم ، الذي هو فوق الحدوث والتغيير وكلّ ما يتّصف به عالم الخلق ..



حقيقة ما زُعِم نسخه

سنقف الآن عند أهم الآيات التي زعموا نسخها ، لنرى حقيقة دلالاتها ، وكيف أنَّ الأحكام التي تحملها لا تتعارض مع الأحكام التي تحملها الآيات التي زعموا أنّها ناسخة لها ، ولنرى كيف أنَّ الآيات التي زعموا نسخها متكاملة ومتعاضدة مع الآيات التي زعموا أنّها ناسخة لها .. ولنرى – أيضاً – كيف أنّهم يفرِّقون بين قولِ الله تعالى وبين الدلالات التي يحملها ، أي يُفرّقون بين قولِ الله تعالى وبين كلامه ، وكأنَّ قول الله تعالى (العبارات والجمل في النصّ القرآني) لا علاقة له بالدلالات التي يحملها (المعاني والأحكام) ..

فحينما نقول لهم : الله تعالى يقول **﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾** [ق : ٢٩] ، وهذا ينفي النسخ من أساسه ، لأنَّ النسخ هو تبديلٌ لبعض قولِ الله تعالى ، والله تعالى ينفي أيَّ تبديلٍ في قوله ، حينما نقول لهم ذلك يقولون : نحن لا ننسخ العبارات والنصوص (القول) ، ولكنّنا ننسخ الأحكام التي تحملها الكلمات والجمل في هذه النصوص ، وكأنّه لا علاقة للقول بالمعنى الذي يحمله ..

وكلُّ ذلك ذرٌّ للرماد في الأعين ، لتبرير ما لا يُبرَّر إلاّ بإلغاء العقل من أساسه ، فكلمات الله تعالى في كتابه الكريم (معانيه وأحكامه) لا تُبدَّل ولا تُغيَّر **﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾** [الكهف : ٢٧] .. إذاً .. يقول لنا الله تعالى إنَّ كتابه الذي تلاه ﷺ ونتلوه نحن من بعد **﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ ﴾** ، لا تبديل في كلماته (معانيه وأحكامه) التي يحملها بصياغته اللغويّة **﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾** ، فكيف إذاً يُبدِّلون بعض هذه الأحكام عبر ما يزعمونه في مسألة الناسخ والمنسوخ ؟!!! ..

ثمّ كيف يفرّقون بين القول والمعاني والأحكام التي يحملها هذا القول ؟!!! .. فعلى سبيل المثال ، إن قال أبٌ لابنه : (اذهب إلى المدرسة) ، فهل نستطيع أن نفصل الدلالة التي يحملها هذت القول عن حقيقته كقول ، بمعنى هل من الممكن أن يقول الابن : أنا ملتزمٌ بقولِ أبي ، ولكنّني لن أذهب إلى المدرسة ، فما سأخالفه ليس قول أبي (اذهب إلى المدرسة) ، إنّما الأحكام التي يحملها هذا القول ، فقول أبي (اذهب إلى المدرسة) أنا ملتزمٌ به ، ولكن ما سأخالفه هو الذهاب إلى المدرسة ؟!!! ... وحين ذلك وبناءً على هذا الهراء ، ما هو الفارق بين هذا القول (اذهب إلى المدرسة) وبين أيّ قولٍ آخر مثل (اشرب الشاي) ..

أليس هذا هراءً وتلبيساً على قول الله تعالى وكلماته ؟!!! .. أليس هذا استهزاءً بكتاب الله تعالى ومنهجه ؟!!! .. أليس قولهم بأنّهم لا ينسخون عبارات القرآن الكريم ونصوصه ، إنّما ينسخون الأحكام التي تحملها ، أليس قولهم هذا يضعهم في حالٍ لا يختلف عن حال الموصوفين بقوله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [التوبة : ٦٥] .. نترك الإجابة لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ..

وبما أنَّ مقرّي مسألة الناسخ والمنسوخ مختلفون في تحديد الآيات المنسوخة ، فما هو منسوخ عند أحدهم غير ذلك عند الآخر .. لذلك سنختار أهمّ الآيات التي يحتجّون بها على مسألة النسخ وبأنَّ نسخها — كما يزعمون — واضح بيّن ..

زعموا أنّ الآية الكريمة التالية منسوخة ..

﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ١١٥]

فقالوا إنّها تحدّد القبلة أثناء الصلاة إلى أيّ جهةٍ يريدها المصلّي ، وبالتالي — حسب تصوّرهم هذا — فهي منسوخة بالآية التي تحدّد قبلة المسلمين إلى قيام الساعة ..

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ ﴾ [البقرة : ١٤٤]

وحسب تصوُّرِهم هذا ، فإنَّ الآية الكريمة التي زعموا نسخها تكون هي ذاتها ناسخةً للتوجّه إلى بيت المقدس بالتوجّه إلى أيِّ جهةٍ يريدها المصلّي ، وذلك قبل نسخها بالآية التي تحدّد قبلة المسلمين ، وكأنَّ هذه الآية تحمل حكماً انتقاليّاً بين الاتّجاه إلى بيت المقدس والاتّجاه إلى المسجد الحرام ..

إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ ﴾ تعني أنَّ الأماكن كلَّها مخلوقة لله تعالى ، فهي تنفي عن الذات الإلهيّة التجسيم والحلول في الأماكن ووجودها في مكان دون الآخر ، فهي تنزّه الذات الإلهيّة عن المكان ، وتبيّن أنَّ الله تعالى قيّوم على كلّ مكان وعلى كلّ جهة ..

وكلمة ﴿ تُوَلُّواْ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ تتعلّق بدلالاتٍ تنبع من إطار المعنى الذي يحمله الجذر (و ، ل ، ي) في القرآن الكريم ، فهذا الجذر يفيد العلاقة والحركة والاتّجاه نحو الشيء ..

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٦]

ويفيد الحركة والاتّجاه عكس الشيء ..

﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف : ١٨]

والعبارة القرآنيّة ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ تعني أينما تتجّهوا في طلب المغفرة والذكر والدعاء وكلِّ سبل الله تعالى التي يريد الإنسان الاتّجاه إليها .. وهكذا يكون معنى الآية الكريمة ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أنَّ

كلَّ الجهات مخلوقة لله تعالى ومملوكة له ، فأينما تتَّجهوا في دعائكم وسعيكم وسبل عملكم فأنتم في جهة من جهات الله تعالى ، فالله تعالى وسعت رحمته ووسع عطاؤه كلَّ جهةٍ يمكنكم أنّ تتّجهوا بها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ..

وحتّى لو حُمِلَت هذه الآية الكريمة — التي زعموا نسخها — على القبلة في اتّجاه الصلاة ، فهي لا تتعارض — أبداً — مع آية تحديد المسجد الحرام كقبلة للمسلمين كما توهّموا ، بل تؤكّد هذه القبلة وتصوّرها لنا من زاوية أُخرى ..

فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ ﴾ تؤكّد عودة كلّ الجهات لله تعالى وقيّوميّة الله تعالى عليها ، وبالتالي فالآية تقول : أينما كنتم شرقاً أو غرباً أو بأيّ مكانٍ وجهة ، وتريدون أن تولّوا وجوهكم للصلاة ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ ﴾ عليكم أن تتّجهوا باتّجاه القبلة التي حدّدها الله تعالى لكم في كتابه الكريمة ، والتي هي وجه الله تعالى الذي تريدون الاتّجاه نحوه ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ..

إذاً .. الآية الكريمة تقول : أينما كنتم وبأيّ مكان وجهة وتريدون الاتّجاه نحو القبلة التي هي وجه الله تعالى لكم في ذلك ، فثمّ وجه الله تعالى الذي يأمر باستقباله وهو المسجد الحرام ، فهو قصد الله تعالى وقبلته ﴿ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ التي رضيها لكم قبلةً تتّجهون إليها في صلاتكم ..

ولو نظرنا إلى هذه الآية الكريمة من خلال سياق الآية السابقة لها ، لرأينا فيها عمقاً آخر من المعنى ..

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى

ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة : ١١٤ – ١١٥]

فالآية الكريمة التي زعموا نسخها ، وفق هذا المنظار تقول : إنّ المشرق والمغرب كلّه لله تعالى ، فلا يكون تخريب مساجد الله تعالى ومنع المؤمنين من دخولها وذكر اسم الله تعالى فيها ، لا يكون مانعاً للمؤمنين من إقامة الصلاة والاتّجاه باتّجاه القبلة التي حدّدها الله تعالى لهم .. فتخريب مساجد الله تعالى لا يمنع المؤمنين من أن يُؤدّوا صلاتهم وعباداتهم واتّجاههم نحو قبلة الله تعالى التي حدّدها لهم ..

ووفق منظار الآية السابقة للآية التي زعموا نسخها ، نرى عمقاً آخر من الدلالات ، فالعبارة القرآنيّة ﴿ **فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ** ﴾ هي خطابٌ لأولئك الذين سعوا في خراب مساجد الله تعالى ومنعوا المؤمنين من دخولها وذكر اسم الله تعالى فيها ، وهي تعني الهروب من الله تعالى وسلطانه وقدرته وعقابه .. فهؤلاء الذين منعوا مساجد الله تعالى أن يُذكَر فيها اسمه وسعوا في خرابها يقول الله تعالى لهم – عبر الآية التي زعموا نسخها – إنّكم أينما تولّوا عنّي وعن عقابي وسلطاني وقدرتي ، فإنّ عقابي يلحقكم ويسبقكم ، فحيثما تولّوا أنا موجود ، وكلّ الجهات أُحيط بها ﴿ **وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ** ﴾ ..

وهكذا ... من أيّ زاوية ننظر من خلالها إلى الآية الكريمة التي زعموا نسخها ، لا نرى وجهاً لصحّة ما ذهبوا إليه ، فكلُّ ما تحمله هذه الآية الكريمة من دلالاتٍ ومعانٍ يمكننا إدراكها ، تُكمِّل المعاني التي تحملها الآيات الأُخرى ، فلا يُوجَد أيُّ تعارض بينها وبين أيِّ آية في كتاب الله تعالى ..

❁ ❁ ❁

.. وقالوا إنَّ الآية الكريمة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ ۚ ﴾ [البقرة : ١٧٨] نزلت في قومٍ تقاتلوا فكان بينهم قتلى ، فقالوا لا نقبل بالعبد منّا إلاّ الحر ، ولا بالأنثى منّا إلاّ الذكر ، فيقول الله تعالى – عبر هذه الصورة القرآنيّة – إنَّ الحرَّ المقتول من أيّ طرف يُقتَلُ بدلاً منه حُرٌّ من الطرف الثاني ، وكذلك العبد المقتول يُقتل بدلاً منه عبدٌ من الطرف الثاني ، وكذلك الأنثى ..

ولّما رأوا أنَّ في هذا التصوّر لمعنى الآية الكريمة ظلماً ، وذلك إذا قتل إنسانٌ إنساناً من غير نوعه من الطرف الثاني ، حيث يقتضي ذلك – حسب ما ذهبوا إليه – ترك القاتل ، وأن يُقتل بدلاً منه إنسانٌ آخر ، لّما رأوا ذلك قالوا هذه الآية نسختها الآية التالية ..

﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥]

وهذا التفسير الذي أدّى بالذين ذهبوا إليه إلى تصوّر اختلاف وحتّى تناقض بين الآية الناسخة والآية المنسوخة ، لم يذهب إليه بعض المفسّرين ، حيث قالوا : الآية محكمة جاءت لحكم النوع إذا قتل نوعه ، فبيّنت حكم الحرّ إذا قتل حرّاً ، والعبد إذا قتل عبداً ، والأنثى إذا قتلت أُنثى ، ولم تتعرّض هذه الآية الكريمة لمن يقتل إنساناً ليس من نوعه ، فالآية الكريمة محكمة وفيها إجمال تبيّنه وتفصّله لنا الآية الكريمة الثانية التي زُعم بأنّها ناسخة لها ..

فالعبارة القرآنيّة ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ۖ ﴾ جملة تامّة مستقلّة ، والعبارة القرآنيّة ﴿ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ ۚ ﴾ هي تخصيص لبعض جزئيّات

تلك الجملة ولا تفيد الحصر ، فهي شرع القصاص بين المذكورين ، من غير أن تشير إلى حالات القتل الأخرى التي يكون فيها القاتل والمقتول من نوعين مختلفين ، ودليل ذلك أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ **وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ** ﴾ هي شرعٌ لقصاص المرأة الحرّة بالرقيقة والمرأة الرقيقة بالحرّة .. فلو كانت العبارة القرآنيّة ﴿ **ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ** ﴾ تمنع هذا القصاص – وهو ما ذهب إليه مقرّو الناسخ والمنسوخ – لوقع تناقض بين العبارتين ، وهذا محال ..

وهكذا فالآيتان الناسخة والمنسوخة متكاملتان في تصوير أحكام هذه المسألة ، ولا يُوجد بينهما أيُّ تناقض أو اختلاف .. وفي هذا كفاية للقول بأنّ الآيتين لا يُوجد بينهما نسخ ..

ولنبدأ بدراسة الآية الكريمة – المزعوم نسخها – عبر منهج البحث القرآني ﴿ **ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ** ﴾ ، لنرى حقيقة الأحكام التي تحملها هذه الآية الكريمة ، من الأحكام التي تحملها الآية التي زعموا أنّها ناسخة لها ..

العبارة القرآنيّة ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ هي نداءٌ لجميع المؤمنين المطمأنّين بالله تعالى ، الملتزمين بمنهجه ، في كلّ زمانٍ وكان ، ولذلك فهذه العبارة لا تُخاطب قبيلة محدّدة ولا قوماً محدّدين ، ولا جيلاً محدَّداً دون غيره ، إنّها خطابٌ من الله تعالى لكلّ مؤمنٍ ومؤمنة في كلِّ زمانٍ ومكان ..

وهؤلاء المؤمنون الذين يختارون الانصياع لتكليف الله تعالى لهم ، والذين يخاطبهم الله تعالى بصيغة الإيمان لتنفيذ تكليفه ، حصل بينهم وبين الله تعالى عقدٌ بالنسبة لهذا التكليف .. التكليف من الله تعالى ، والتنفيذ منهم ، فهذا العقد كُتب بينهم وبين الله تعالى ، الله تعالى يكلّفهم وهم ينفِّذون .. هذا هو العمق وهذه هي الحكمة – والله تعالى أعلم – من ورود كلمة ﴿ **كُتِبَ** ﴾ في الآية الكريمة بصيغة المبني للمجهول ، ولذلك نرى

في القرآن الكريم أنَّ ما يأتي بعد هذه الكلمة ﴿ كُتِبَ ﴾ هو تكليفٌ للمؤمنين فيه مشقّة ، وبالتالي فيه أجرٌ وثوابٌ للملتزمين به ..

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة : ١٨٠]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة : ١٨٣]

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦]

والعقد الذي كُتب بين الله تعالى والمؤمنين – في هذه الآية الكريمة – هو القصاص في القتلى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ .. فما هو القصاص ؟ ..

القصاص هو تتبّع أثر الشيء ..

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ١١]

والقاصُّ هو الذي يتتبّع الآثار شيئاً فشيئاً ..

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف : ٦٤]

والقصاص من المُقتصّ منه هو السير على سبيله الذي سلكه .. وهكذا فالقصاص من الإنسان هو تتبّع أثر فعله ليتمّ الجزاء منه ..

ولمّا كان القصاص من المقتصّ منه يعني تتبّع أثره هو ذاته لأخذ الجزاء منه ، ولا يعني أبداً وقوع القصاص على غيره ، لذلك فإنَّ اقتران صيغة القصاص بكلمة معرَّفة ، يعني أنَّ القصاص يقع على المسألة التي تصفها هذه الكلمة المعرَّفة ، ولا يقع أبداً على مسألة أُخرى ، وبالتالي فإذا تكرَّرت – ضمن العبارة الواقعة تحت ساحة القصاص – هذه الكلمة ، فهذا يعني أنَّ الكلمتين المعرَّفتين المتكرِّرتين ضمن ساحة القصاص ، تصفان الشخص ذاته الذي سيُقتَصُّ منه .. فالفاعل واحد والقصاص هو من هذا الفاعل ..

أمّا إذا لم تقترن صيغة القصاص بالكلمة المعرَّفة ، والمراد هو أخذ الجزاء ، فإنّ ذلك يعني أن تُؤخذ المسألة التي تصفها هذه الكلمة ، بالمسألة ذاتها التي يملكها شخصٌ آخر ، حيث تكرّرت الكلمة المعرَّفة ذاتها لوصف هذه المسألة التي تعود لهذين الشخصين المختلفين (المأخوذ منه الجزاء والمأخوذ له الجزاء) ، كلّ كلمة من الكلمتين المتكرّرتين تعود لشخص ..

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ ﴾ [المائدة : ٤٥]

هنا – كما نرى – لم ترد صيغة القصاص (ما عدا قصاص الجروح) ، وبالتالي فإنّ كلمتي النفس المعرّفتين تعودان لشخصين مختلفين ، فالجزاء يكون بأخذ النفس الأولى (القاتلة) بدلاً من النفس الثانية (المقتولة) ، وكذلك كلمتا العين المعرّفتين تعودان لشخصين مختلفين ، ويكون الجزاء بأخذ العين الأولى (للمأخوذ منه الجزاء) بدلاً من العين الثانية (للمأخوذ له الجزاء) ، وكذلك الأمر بالنسبة لكلمتي الأنف المعرّفتين ، وكذلك كلمتي الأذن المعرّفتين ، وكلمتي السنّ المعرّفتين .. فعدم اقتران صيغة القصاص في هذه المسائل الموصوفة بكلمات معرّفة مكرَّرة مع كون المطلوب هو أخذ الجزاء ، يعني – بالنسبة لكلّ كلمة معرّفة مكرَّرة مرّتين – أنَّ كلَّ كلمة تعود لشخص يختلف عن الشخص الذي تعود إليه الكلمة المكرَّرة الأخرى ..

ولّما كانت الجروح نسبيّة ، ولا بدّ من تتبّع أثر هذه الجروح من أجل جزاء الفاعل ، ولّما كانت الجروح ليس لها وجودٌ مستقلٌّ مميّزٌ كما هو الحال في النفس والعين والأذن والأنف والسنّ ، فإنّنا نرى أنَّ مسألة الجروح لم تأت على نمط باقي المسائل (والجروح بالجروح) ، بمعنى أنّ الجروح في الشخص الأوّل تُؤخذ بدلاً من الجروح في الشخص الثاني ، كون الجروح ليس لها وجودٌ مسبق ليتمّ أخذها .. وما نراه أنَّ مسألة الجروح تأتي ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ ﴾ ، فورود صيغة القصاص يعني أنَّ كلمة الجروح مهما

تكرَّرت فإنّها تعني تتبّع أثر الجروح ذاتها في الشخص ذاته ، ليتمّ أخذ الجزاء من الفاعل .. ولذلك لم تتكرَّر هذه الكلمة كما هو الحال في مسائل النفس والعين والأذن والأنف والسن ..

وهذه الحقيقة نراها – أيضاً – واضحةً جليّةً في الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ ﴾ [البقرة : ١٩٤]

فعبارة ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ ﴾ التي تكرّرت دون أن تقترن بصيغة القصاص – شأنها بذلك شأن النفس والعين والأذن والأنف والسن في الصورة السابقة – ليس شرطاً أن تشير إلى الشهر الحرام ذاته ، فالشهر الحرام يؤخذ بالشهر الحرام .. ولو أتت هذه العبارة على الشكل (الشهر الحرام قصاص) للزم تتبّع أثر الشهر الحرام ذاته ، وحين ذلك لا يُغني عنه أيُّ شهر حرام آخر ..

بينما مسألة الحرمات التي تقترن بصيغة القصاص ﴿ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ ﴾ - شأنها بذلك شأن مسألة الجروح في الصورة السابقة – نراها لا تتكرَّر ، ولو تكرَّرت بالشكل (والحرمات بالحرمات قصاص) لوصفت الشيء ذاته ، أي أنّ الحرمات الأولى هي ذاتها الحرمات الثانية .. ولو تكرّرت دون الاقتران بصيغة القصاص (والحرمات بالحرمات) لكانت كلمة الحرمات الأولى تعود لشخصٍ غير الذي تعود إليه كلمة الحرمات الثانية ، وهذا يتعارض مع طبيعة القصاص في الحرمات .. فالحرمات والجروح مسائل تقتضي – لأخذ الجزاء – تتبّع أثر الشيء ذاته ، ولا تقتضي أخذ الشيء بالشيء كما هو الحال في مسائل النفس والعين والأذن والأنف والسن والشهر الحرام .. فليس من العدل أن يتمّ الاعتداء على عِرض المعتدي حينما يعتدي على أعراض الآخرين ..

وهكذا نرى في الصورة القرآنيّة ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ ﴾ أنّ كلمتي الحر تصفان الشخص ذاته (القاتل وهو

المقتصّ منه) ، وكذلك كلمتي العبد ، وكذلك كلمتي الأنثى .. وبذلك يكون معنى هذه الصورة القرآنيّة – التي زعموا نسخها – على الشكل : كُتب عليكم تتبّع الأثر في القتلى ، وأن يُفعل في القاتل ذاته ما فعل ، وأن يكون أخذ الجزاء منه ذاته ، فإن كان القاتل هو الحرّ فالقصاص يكون من هذا الحرّ ذاته ، وإن كان القاتل هو العبد فإنّ القصاص يكون من هذا العبد ذاته ، وإن كانت القاتلة هي الأنثى فإن القصاص يكون من هذه الأنثى ذاتها .. فمهما كان القاتل ومهما كان المقتول فالقصاص يكون من الفاعل ذاته ..

ولو كانت كلمة الحرّ الأولى تعني غير الذي تعنيه كلمة الحرّ الثانية ، وكذلك كلمتي العبد ، وكلمتي الأنثى ، لما وردت صيغة القصاص في هذه العبارة القرآنيّة [فالقصاص كما رأينا هو تتبّع أثر الشيء ذاته لأخذ الجزاء منه] ، ولكان الحرّ الأوّل يؤخذ بالحرّ الثاني ، وبالتالي لأتت الصورة القرآنيّة على الشكل (كُتب عليكم في القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) ، كما هو الحال في الصورة القرآنيّة ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ** ﴾ ..

إنّ الصورة القرآنيّة ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ** ﴾ تصوّر لنا ساحة القصاص من الذين وقع عليهم هذا القصاص ، ولا علاقة للمقتول بهذه الساحة ، فحادثة القتل تمّت وانتهت ، والمطلوب – في هذه الصورة القرآنيّة – هو القصاص ..

وممّا يؤكّد ذلك هو التناظر (بالنسبة لمجموع الحروف المرسومة) بين الصورتين القرآنيّتين التاليتين ، كما رأينا في النظريّة الأولى (المعجزة) ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ [البقرة : ١٧٨] = **٣٧** حرفاً مرسوماً ..

﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] = **٣٧** حرفاً مرسوماً ..

فالقصاص من الفاعل والذي تصوِّره الصورة القرآنيّة الأولى (المزعوم نسخها) هو حياة إيمانيّة تؤدّي إلى التقوى ، وهذا ما تصوّره الصورة القرآنيّة الثانية .. ومن جهةٍ أُخرى فإنَّ الحياة الإيمانيّة التي يبحث عنها أولو الألباب إذا وقع القتل والتي تؤدّي إلى التقوى (وهذا ما تصوّره الصورة الثانية) تكون بالقصاص العادل الذي يأمر الله تعالى به (وهذا ما تصوّره الصورة الأولى) .. هذا التناظر في المعنى ينعكس – كما نرى – تناظراً في مجموع الحروف المرسومة التي تصوّر كلّ صورة .. فكلّ صورة مكوّنة من (٣٧) حرفاً مرسوماً ..

ولو كان صحيحاً ما ذهبوا إليه بأنّ كلمة الحرّ الأولى في العبارة القرآنيّة ﴿ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ ﴾ تخصّ المقتصّ منه ، وكلمة الحرّ الثانية تخصّ المقتول ، أي يُقتلُ حرٌّ ما من طرف القاتل بدلاً من الحرّ المقتول ، أي أنّ المقتصّ منه نكرة والمقتول معرفة ، وكذلك الأمر للعبد والأنثى .. لو كان ذلك صحيحاً لكانت العبارة القرآنيّة على الشكل : (كُتب عليكم في القتلى حرٌّ بالحرّ وعبدٌ بالعبد وأنثى بالأنثى) ..

ولو كانت كلمة الحرّ الأولى تعني المقتول وكلمة الحرّ الثانية تعني المقتص منه ، أي الحرّ المقتول يُقتصّ له بحرٍّ من طرف القاتل ، وكذلك بالنسبة لمسألتي العبد والأنثى ، أي المقتول معرفة والمقتصّ منه نكرة .. لو كان ذلك صحيحاً لأتت الصور القرآنيّة على الشكل : (كُتب عليكم في القتلى الحرّ بحرٍّ والعبد بعبدٍ والأنثى بأنثى) ..

ولو كانت المسألة تعني قصاصاً بين طرفين بغض النظر عن الأشخاص ، وليست قصاصاً من الأشخاص ذاتهم ، أي مجرّد حرّ ما من الطرف الأوّل يقابله حرّ ما من

الطرف الثاني ، وكذلك العبد والأنثى ، لو كان ذلك صحيحاً لأتت الصور القرآنيّة على الشكل : (كُتب عليكم في القتلى حرّ بحرٍّ وعبد بعبدٍ وأنثى بأنثى) ..

وهكذا فإنّ هذه الآية الكريمة (التي زعموا نسخها) ، من أيِّ زاويةٍ ننظر إليها نراها تعني القصاص من القاتل ذاته ، وهذا لا يتعارض مع الآية التي زعموا أنّها ناسخة لها (ولا مع أيِّ آية في كتاب الله تعالى) ، بل تكمِّلان بعضهما وتتعاضدان في تصوير أحكام هذه المسألة .. فما دفعهم إلى زعم النسخ بين هاتين الآيتين هو توهُّمُهُم بوجود تناقض بينهما ، وهذا الوهم هو السبب الأوّل في زعم مسألة الناسخ والمنسوخ بين جميع الآيات التي زعموا نسخها ..

❁ ❁ ❁

ولنقف عند الآية الكريمة التالية التي زعموا نسخها ..

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٨٠]

قالوا هذه الآية تشمل الأمر بالوصيّة للوالدين والأقربين ، قبل نزول آيات المواريث في القرآن الكريم ، فنُسِخَت هذه الآية بآيات المواريث .. وقالوا أيضاً نُسخت هذه الآية بالحديث في سنن الترمذي (٢٠٤٦) حسب ترقيم العالميّة : **[إنَّ الله قد أعطى لكلِّ ذي حقٍّ حقّه فلا وصية لوارث]** ، فالآية الكريمة – حسب قولِهم – تقرَّر الحكم بها برهة من الدهر ونُسِخَ حكمُها سواء لمن يرث ولمن لا يرث ، فالآية – حسب زعمهم – كلُّها منسوخة وبقيت الوصيةُ ندباً ..

وقال بعضهم نُسخت الوصيّة للوالدين بالفرض في سورة النساء ، وثبتت للأقربين الذين لا يرثون ، فهي – على قولهم هذا – منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن لا يرث ..

وقال بعضهم إنَّ الآية محكمة (ليست منسوخة) ظاهرها العموم ، ومعناها الخصوص في الوالدين اللذين لا يرثان (في حالة الكفر والقتل ..) ، فالآية الكريمة — بناء على ذلك — هي تخصيص للوالدين والأقربين في حال عدم إرثهم ..

وقال بعضهم لا منافاة بين هذه الآية وآيات المواريث ، ومعناها كُتب عليكم تنفيذ ما أوصى الله تعالى به من توريث الوالدين والأقربين ، بحيث لا يُنقَص من حصصهم شيء ..

وقال بعضهم إنّ الواجب ألاّ يُقال إنّها منسوخة ، لأنّ حكمها ليس بنافٍ حكم ما فرضه الله تعالى من الفرائض ، فوجب أن يكون حكم ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ** ﴾ كحكم ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ** ﴾ ..

فالآراء التي قيلت في تفسير هذه الآية الكريمة كثيرة ، لكنّها جميعها تدور حول المعاني التي رأيناها ، وفي هذه الآراء المختلفة المستمدّة من تصوّرات قائليها دون أيِّ برهان من كتاب الله تعالى ، دليلٌ على أنَّ مسألة الناسخ والمنسوخ من أساسها صناعة بشريّة ناتجة عن فرض تصوّرات البشر على دلالات كتاب الله تعالى ..

ولنبدأ بدراسة هذه الآية الكريمة وفق منهج ﴿ **ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ** ﴾ لنرى حقيقة ما تحمل من دلالاتٍ ومعانٍ تمّ تغييبها قروناً كثيرة ، ولنرى كيف أنَّ زعمهم بنسخها هو افتراءٌ على دلالات كتاب الله تعالى ..

إنَّ ورود التكليف الإلهي بصيغة المبني للمجهول ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ** ﴾ يعني — كما رأينا — أنَّ الكتابة أمرٌ مشتركٌ بين المكلَّف والمُكلِّف ، فهذا التكليف أمرٌ مُشترك بين الله تعالى والمؤمنين ، الله تعالى يُكلّفهم وهم يُنفّذون ..

وهذه الآية هي خطابٌ من الله تعالى لجميع المؤمنين في كلّ زمانٍ ومكان ، ولا تخصّ جيلاً دون آخر ، وإنّ قولهم بأنّ حكم هذه الآية هو لبرهة من الزمن ، هو قولٌ مردود ،

فكلمات الله تعالى تتعلّق بصفاته العظيمة ، وتنتمي لعالم الأمر الذي هو فوق الزمان والمكان ، وبالتالي فالأحكام التي تحملها ليست خاضعةً لقوانين الزمان والمكان ..

ولو كانت الآية الكريمة خطاباً لمن يحضره الموت بأن يُوصي وصيّة ، لكانت واجبة .. ولكنّ ذلك يُنافي ما تحمله الآية الكريمة من عدّة وجوه ..

١ – لو كانت خاصّة بالإرث لبيّن الله تعالى المقدار الواجب في هذه الوصيّة التي زعموا نسخها ..

٢ – لو كانت هذه الوصيّة منسوخة بالنسبة لمن يرث – كما ذهبوا – لوجب استثناء من يرث من الوصيّة الواردة في باقي الآيات الكريمة ، التي تصوّر لنا الأخذ بوصيّة الميّت قبل توزيع الإرث على الورثة .. وهذا الاستثناء لا نراه في كتاب الله تعالى ..

﴿ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ [النساء : ١١]

﴿ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ ﴾ [النساء : ١٢]

﴿ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ [النساء : ١٢]

﴿ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾ [النساء : ١٢]

.. فكما نرى لا يُوجَد استثناءٌ في الوصيّة ..

٣ – لو كانت الوصيّة خاصّة بالإرث ، والخطاب مُوجّه لمن يحضره الموت حصراً ، لاقتضى ذلك عدم سقوط حقّ الوالدين والأقربين ، حتى ولو لم يُوص المُوصي بذلك ، كالدَين يأخذه صاحبه سواء أوصى الميّت بذلك أم لم يُوص .. ولكن ما نراه في هذه

الآية الكريمة أنَّ الوصيّة هي ندبٌ ، وأنَّ الله تعالى اختصَّ بها المتّقين وجعلها حقّاً عليهم ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ..

٤ – لو كان الخطاب ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ موجَّهاً لمن يحضره الموت دون غيره – كما قالوا – لاختلفت هذه الآية الكريمة مع سياق المعنى والخطاب في الآيتين التاليتين مباشرة لهذه الآية ، فهاتان الآيتان تحملان أحكاماً تُخاطب الشاهدين على قول المُوصي وولاة الأمور والقضاة ومن بيده تنفيذ قول المُوصي ..

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٨١ – ١٨٢]

٥ – لو كانت الآية الكريمة – المزعوم نسخها – تُخاطب كلَّ من يحضره الموت ، لَمَا أتت محصورةً في اللحظة التي يحضر فيها الموت ، فلماذا لا تكون الوصيّة قبل حضور هذا الموت ، حيث الإنسان في سعةٍ من الوقت .. فورود هذه الوصيّة في لحظات حضور الموت يؤكّد أنَّ الأحكام التي تحملها هذه الآية الكريمة تتعلّق بالمحيطين بمن يحضره الموت ، وليس بمن يحضره الموت ..

٦ – لو كانت الآية الكريمة – المزعوم نسخها – تُخاطب كلَّ من يحضره الموت ، لأتت على الشكل : (كُتب عليكم إذا حضركم الموت إن تركتم خيراً .....) .. ولو كانت لا تُخاطب منفّذي الوصيّة والشاهدين عليها وأولياء الأمور ، لأتت على الشكل : (كُتب على أحدكم إذا حضره الموت .....) .. ولكن ما نراه أنَّ الآية الكريمة تُخاطب المؤمنين من شهود وأولياء وحكّام مكلّفين بتنفيذ الوصيّة التي يُوصيها من يحضره الموت ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ ..

والآية الكريمة التالية تُلقي الضوء على هذه الحقيقة من جانبٍ آخر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ [المائدة : ١٠٦] ، فالشهادة – كما نرى – لا يقومُ بها من يحضره الموت ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ﴾ ، إنّما تقع على المعنيين بقوله تعالى ﴿ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ ..

إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ ، في الآية التي نحن بصدد دراستها ، ليست خطاباً مُوجّهاً لمن يحضره الموت ، إنّما هي خطابٌ تكليفيٌّ من الله تعالى للمؤمنين المُحيطين بمن يحضره الموت من شهود ، وللقضاة وولاة الأمور وحكّام بيدهم تنفيذ تلك الوصيّة .. وما كُتب عليهم (ما يُطلب منهم) هو سماع ما يُوصي به من يحضره الموت ، والشهادة به عند الحاجة ، والحكم به كما أمر الله تعالى .. أمّا الوصيّة فترتبط بمن يحضره الموت ، ولا ترتبط بالمحيطين به الذين يُخاطبهم الله تعالى بالعبارة القرآنيّة ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ..

وما يؤكّد ذلك هو تذكير الفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ ، في حين أنّ الوصية ترد في القرآن الكريم مؤنّثة : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ .. فما كُتب على المؤمنين ليس الوصيّة المؤنّثة ، إنّما سماع قول من يحضره الموت ووصيّته ، وإدلاء الشهادة بها حين الحاجة ، والحكم بمضمونها .. ولو كان نائب الفاعل للفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ هو الوصيّة – حسب ما ذهب إليه معظمهم – لأُنّث الفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ .. (كُتبت عليكم الوصيّة) ..

وحجّة من قال إنّ كلمة الوصيّة في الآية الكريمة هي نائب الفاعل للفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ أنَّ مُخالفة الفعل لنائب الفاعل (في مسألة التذكير والتأنيث) ناتجة عن الفصل بين الفعل ونائب الفاعل .. وهذه الحجّة مردودة لسببين :

١ – إنّ نائب الفاعل للفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ يرتبط – كما نرى – بالمحيطين بمن يحضره الموت ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ ، ولا ترتبط بمن يحضره الموت .. في حين أنَّ الوصيّة ترتبط بمن يحضره الموت ، ولا ترتبط بالمحيطين به ..

٢ – صحيح أنّه يجوز – بالنسبة لمسألة التذكير والتأنيث – مخالفة الفعل للفاعل ، إذا تمّ الفصل بينهما ، ولكنّ هذه الآية الكريمة – المزعوم نسخها – لا بدّ أن يكون نائب الفاعل للفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ مُذكّراً ، ودليل ذلك هو الآية الكريمة التي تليها مباشرة ..

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة : ١٨١]

فالضمير المتّصل (الهاء) في الكلمات [﴿ بَدَّلَهُۥ ﴾ ، ﴿ سَمِعَهُۥ ﴾ ، ﴿ إِثۡمُهُۥ ﴾ ، ﴿ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ ﴾] يعود إلى نائب الفاعل ﴿ كُتِبَ ﴾ في الآية المزعوم نسخها ، وهذا يدلّ على التذكير دون التأنيث ، فلا بدّ – إذاً – أن يكون نائب الفاعل للفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ في الآية الكريمة مُذكَّراً ، وبالتالي فإنّ كلمة ﴿ ٱلۡوَصِيَّةُ ﴾ هنا ليست هي نائب الفاعل ..

فنائب الفاعل للفعل ﴿ كُتِبَ ﴾ هو كلمة ﴿ عَلَيۡكُمۡ ﴾ المتعلّقة بسماع القول والحكم .. وهكذا يكون تقدير الكلام : كُتب عليكم سماع قول أحدكم إذا حضره الموت إن ترك خيراً ، وإدلاء الشهادة به حين الحاجة ، والحكم به ..

وبذلك فالوصيّة في الآية الكريمة ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ هي للوالدين والأقربين لمن يحضره الموت ، وتكون بالمعروف ، وتحقّ حقّاً على المتّقين ..

وما ذهبوا إليه من أنّ المكتوب هو الوصيّة ، وأنَّ الخطاب موجّهٌ لمن يحضره الموت ، هذا الفهم الخاطئ الذي لا تحمله صياغة الآية الكريمة كما رأينا ، أدّى إلى توهّمهم بوجود تناقض بين هذه الآية الكريمة وآيات المواريث .. فالآية المزعوم نسخها كما رأينا تُصوّر لنا مسألة الوصيّة التي يُدلي بها من يحضره الموت ، وأنّه مطلوب من المؤمنين سماعها والشهادة والحكم بها ، وأن تكون هذه الوصيّة بالمعروف فلا تحمل إثماً ، وبحيث لا تحصل مخالفة لحصص المواريث التي يحدِّدها الله تعالى في كتابه الكريم ، وهي في ذلك لا تتعارض مع أيّ آية في كتاب الله تعالى .. فلو كان هناك ذرّة اعتبارٍ لقولِ الله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، لو كان هذا الاعتبار موجوداً لما زُعمت مسألة الناسخ والمنسوخ من أساسها ..

وفوق كلّ ذلك ، كيف يتجرؤون على الله تعالى وكتابهِ الكريم ، زاعمين أنَّ حديثاً في سنن الترمذي (أو سنن النسائي ، أو سنن أبي داود ، أو سنن ابن ماجة ، أو سنن الدارمي ، أو مسند أحمد) ، جُمع بعد قرون من موت النبيّ ﷺ ، وبآليّة تاريخيّة لا تخلو من الأهواء والعصبيّات [كما بيّنت في كتاب : محطّات في سبيل الحكمة] ... كيف يتجرؤون على القول بأنَّه ينسخ قولَ الله تعالى المُطلق الذي تعهّد جلّ وعلا بحفظه ، ونزّله تبياناً لكلِّ شيء ؟!!! .. نترك الإجابة لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ..

❁ ❁ ❁

.. ولننظر إلى النصِّ القرآني التالي ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣ – ١٨٧]

قال مقرّو الناسخ والمنسوخ إنَّ الآية الأولى في هذا النصّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ ناسخة لصوم

يوم عاشوراء ، ومعناها – حسب قولهم – كُتب عليكم صيام ثلاثة أيّام من كلِّ شهر ، ثمّ نُسخَت هذه الآية بصوم رمضان ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ..

وقالوا أيضاً إنَّ الآية الأولى في هذا النصّ كتبت على الجيل الأوّل ما كُتِبَ على الأمم السابقة ، وهو إذا نام الرجل بعد المغرب لم يأكل ولم يقرب النساء ، ثمّ نُسخ ذلك بقوله ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ ، وكذلك بقوله ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ ..

وقالوا أيضاً إنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ عندما نزلت كان من شاء صام ومن شاء أن يفتدي فعل ، ثمّ نسختها الآية التي بعدها ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ..

وحاصل الأمر – حسب تصوّرهم ومن منظار الناسخ والمنسوخ المزعوم – أنَّ العبارات القرآنيّة المنسوخة في هذا النصّ الكريم ، تحمل أحكاماً مرحليّةً لفترةٍ مُحدَّدة من زمن الجيل الأوّل ..

إنّ التشبيه في العبارة القرآنيّة ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يعود إلى أصل إيجاب الصوم ، وأنّ الإسلام لم يبتدع مسألة الصوم وإن اختلفت شكليّة الصوم واختلف وقته وقدره ، فالصوم كفريضة كُتب على الأمم السابقة .. وإنّ قولهم بأنَّ الآية الأولى في هذا النصّ هي أمرٌ للمؤمنين في الجيل الأوّل بأن يصوموا ثلاثة أيام من كلّ شهر ، هو قولٌ لا برهان عليه ، والقرآن الكريم ينفي هذا التصوّر نفياً قاطعاً ، فالعبارة القرآنيّة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ هي خطابٌ لكلِّ مؤمن ملتزم بتكليف الله في كلِّ مكان وزمان ، ولا تخصّ جيلاً دون الآخر ..

ولو كان زعمهم بأنّ الآية الثالثة في النصّ الكريم ناسخة للآيتين الأولى والثانية صحيحاً ، لتعارض ذلك مع ما تحمله الآية الثالثة – الناسخة على زعمهم – من أحكامٍ ومعانٍ .. ففي الآيتين الأولى والثانية – المزعوم نسخهما – نرى أحكاماً على سبيل التخيّر ، وهذا يحمل اليسر للمؤمنين ويرفع عنهم العسر ، بينما نرى في الآية الثالثة أنّ الله تعالى يُوجب فيها الصوم ، وبالتالي يكون ذلك – مقارنة مع أحكام الصوم في الآية الثانية – على سبيل التضييق ، وبالتالي رفعاً لليسر واستبداله بالعسر .. ولكن ما نراه في الآية الثالثة هو نقيض هذا التصوّر ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ ، فلو كانت الآية الثالثة ناسخة للآيتين الأولى والثانية – كما زعموا – لكانت الحقيقة الحاصلة نقيض ما تحمله الآية الناسخة ذاتها ..

وإن كانت الصورة القرآنيّة ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لا تعني – حسب ما ذهبوا إليه – إلاّ الصيام المفروض على جميع المؤمنين ، والذي اُستبدل – كما يزعمون – بصيام رمضان ، فكيف يُؤذَن لمن يطيق الصوم بالفدية ، بدلاً من الصوم ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ ﴾ ، في حين يقول الله تعالى للمريض والمسافر في الآية ذاتها ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ ﴾ ، ويقول أيضاً في الآية ذاتها ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ ..

ولو كانت الآية الثانية التي تحمل رخصة الفداء منسوخة – كما يزعمون – فمن أين لهم أن يرخّصوا لمن لا يستطيع الصوم مدى حياته بالفدية ؟!!! .. كيف يزعمون نسخها ثمّ يستشهدون بها على رخصة الفدية ؟!!! ..

ولو تمّ سحب الضمير في قوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ على الفداء ، لكانت الفدية مقدَّمة على الصوم المفروض (الذي اُستبدل حسب قولهم بصوم رمضان) ، ولتعارض ذلك – بناءً على تصوّرهم – مع العبارة القرآنيّة في الآية ذاتها ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، ومع فريضة الصوم التي هي ركنٌ من أركان الإسلام ..

ولو نظرنا إلى الآية الثانية لرأينا – إضافة إلى التخيير بين الفدية والصوم – أنَّ هناك خيراً يمكن أن يتطوّع به المؤمن في ساحة هذا التكليف ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ ، وهذا الخير إمّا أن يكون تطوّعاً في الصيام فوق ما هو مفروض ، أو الصيام مع الإطعام ، أو إطعام أكثر من مسكين عن اليوم الواحد ، أو إطعام المسكين الواحد أكثر من يوم ..

ولو عدنا إلى كتاب الله تعالى لرأينا أنّ تكليف الصوم كحكم من الله تعالى ليس محصوراً فقط في رمضان ، فهناك حالات يقع فيها الصوم على بعض المؤمنين ، وأحياناً يكونون مخيَّرين بين الصيام والفدية ، وأحياناً تكون الفدية مقدّمة على الصيام ، وبالتالي فالصيام يقع على من لم يستطع دفع هذه الفدية ، وأحياناً يكون الصيام وفاءً لنذرٍ نذره المؤمن ، وأحياناً يكون صيام النفل قُربة من الله تعالى ..

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : ١٨٥]

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ

عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٦]

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٩٢]

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٨٩]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [المائدة : ٩٥]

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ

شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المجادلة : ٣ – ٤]

وهكذا نرى أنَّ الآيتين الأولى والثانية – المزعوم نسخهما – تصوّران لنا الصيام بإطاره العام ، الذي يشمل كلَّ ما أمر الله تعالى به بالنسبة لمسألة الصوم .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ لا نستطيع حصرها بصيام رمضان ، فإطار حكم الصيام – كما رأينا – أوسع من إطار صيام رمضان المفروض على جميع المسلمين دون استثناء ..

وممّا يؤكّد أنَّ الآية الثانية – المزعوم نسخها – تُصوِّرُ لنا إطار الصيام بشكله العام ، وأنَّ الآية الثالثة – الناسخة حسب زعمهم – تصوّر لنا صيام رمضان فقط .. ممّا يؤكّد ذلك هو النقاط التالية ، إضافة لما بيّناه من دلائل تُثبت ما نذهب إليه ..

١ – ابتداء الآية الثالثة بعبارة قرآنيّة متعلّقة بشهر رمضان ، ومن ثمّ أمر صيام هذا الشهر ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ ﴾ .. فمطلع هذه الآية الكريمة بهذه الصياغة الإخباريّة المصوِّرة لشهر رمضان وبأنّه أُنزل فيه القرآن ، يؤكّد أنَّه تمّ الانتقال إلى مسألة جديدة ، جوهرها شهر رمضان وصيامه ..

٢ – تكرار العبارة القرآنيّة التي تصوّر حكم المريض والمسافر ، ما بين الآيتين الثانية والثالثة .. ففي الآية الثانية المصوِّرة للصوم بإطاره العام نرى العبارة القرآنيّة ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ ﴾ ، وفي الآية الثالثة المصوِّرة لصيام رمضان حصراً نرى العبارة ذاتها ، ولكن مع استبدال حرف الفاء بحرف الواو ، وحذف كلمة ﴿ مِنكُم ﴾ : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ ﴾

.. فتكرار هذه الصورة القرآنيّة في الآيتين يؤكّد تمايز أحكام المسألتين المحمولتين بهاتين الآيتين ..

٣ – في العبارة القرآنيّة من الآية الثانية المُصوِّرة للصوم بإطاره العام ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ ، نرى في ابتدائها بالفاء (وليس بحرف الواو) وفي ورود كلمة ﴿ **مِنكُم** ﴾ ، نرى دلالاتٍ تحملُ أحكاماً أكثر خصوصيّة ، وأكثر تعلّقاً بالعبارات السابقة لها ، وهذا يعود إلى كون أحكام الصيام الأُخرى (غير صيام رمضان) متعلّقةً بالأعمال التي بسببها فُرضت تلك الأحكام (من كفّارات وغير ذلك) .. بينما في العبارة القرآنيّة الخاصّة بصيام شهر رمضان ﴿ **وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ ، لا نرى هذه الفاء ، ولا نرى كلمة ﴿ **مِنكُم** ﴾ ، فما نراه هو واو العطف في بدايتها ، وهذا يتعلّق بكون صيام رمضان حكماً عامّاً مفروضاً على الجميع دون أيِّ تعلّق بكفارات أو غير ذلك ..

وبالنسبة لربط بعضهم دلالات العبارة القرآنيّة ﴿ **فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ** ﴾ ، بتاريخيّة محدّدة تخيّلوها محمولة بالعبارة السابقة لهذه العبارة مباشرة ﴿ **عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ** ﴾ ، هذا الربط ناتجٌ عن عدم إدراك دلالات كلمة ﴿ **عَلِمَ** ﴾ في كتاب الله تعالى ، فقد رأينا كيف أنَّ كلمة ﴿ **عَلِمَ** ﴾ بصيغة الماضي التي ترد بها ، تتعلّق بعلم الله تعالى الكاشف أزلاً ..

فالله تعالى علم بعلمه الكاشف – أزلاً – أنَّ الإنسان بكينونته البشريّة يختان نفسه في المسألة المحمولة بهذه العبارات ، وبناءً على علم الله تعالى الكاشف شرع – أزلاً – في

كتابه الكريم حُكْمَه : ﴿ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ ﴾ ..... فهذا الحكم الذي شرعه الله تعالى بالعبارة القرآنيّة ﴿ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ ﴾ ، يتعلّقُ بعلم الله تعالى الكاشف ، ولا يتعلّق بحادثة حدثت زمن الجيل الأوّل ، كما يتخيّل من يحسبون كتاب الله تعالى مثل أشعارهم وأحاديثهم ..

وهكذا نرى أنَّ الآيات الناسخة والمنسوخة على زعمهم ، هي آيات متكاملة متعاضدة في وصف أحكام هذه المسألة ، ونرى أنّه لا تعارض بين هذه الآيات ، وأنَّ دلالاتها متعلّقة بعلم الله تعالى الأزلي ، وليست ناتجةً عن أحداثٍ تاريخيّة كما يتوهّمون ..

❁ ❁ ❁

وقالوا أيضاً عندما نزلت الآية الكريمة ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، قالوا شَربَ الخمرَ قومٌ وتركه قومٌ آخرون .. ثمّ نزلت الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] ، فكانوا يشربون الخمر بحيث لا يكونون وقت الصلاة في حالة سكارى ، وبقوا على ذلك إلى أن نزلت الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ .... فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠ – ٩١] ، عندها حُرِّم الخمر تحريماً كاملاً ، وبذلك تكون هذه الآية الكريمة – حسب تصوِّرهم – ناسخة للآيات السابقة المتعلّقة بمسألة الخمر ، والتي منها – إضافة لما رأينا – الآية ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٧] ..

.. ويطبّلون ويزمّرون بمسألة تدرّج الأحكام ، مُلبّسين على حقيقة كتاب الله تعالى وأحكامه ، مُعيدين المرحليّة وحدوث التدرّج إلى كتاب الله تعالى وإلى أحكامه ، التي هي في حقيقتها فوق الزمان والمكان والحدوث ..

إنَّ علينا أن نُميّز بين استقبال الجيل الأوّل للأحكام النازلة من السماء على مدار (٢٣) عاماً ، وبين حقيقة هذه الأحكام كونها مجرّدة عن هذه المرحليّة ، فهذه الأحكام لا تحمل مرحليّةً في ماهيّتها .. الواقع أنَّ أفراد الجيل الأوّل تفاعلوا مع أحكام المسألة الواحدة حسب أزمان نزول هذه الأحكام ، وهذا لا يعني أيَّ مرحليّة بين هذه الأحكام ، ولا يعني أيَّ تعارض بينها ، فهذه الأحكام متكاملة متعاضدة في تصوير حقيقة المسألة الواحدة ..

وبالتالي فما يدندنون به من مرحليّة يحاولون فرضها على منهج الله تعالى ، لا وجود لها في على الإطلاق في ماهيّة أحكام كتاب الله تعالى الذي ينتمي – كما رأينا – لعالم الأمر ، ذلك العالم الذي لا تجتمع فيه المتناقضات ، وهو فوق المرحليّة والحدوث .. فالمرحليّة والحدوث والخضوع لقوانين الزمان والمكان ، كلّ ذلك من صفات عالم الخلق ، الذي نعيش فيه نحن البشر ..

.. ولنقف عند الآية التالية التي زعموا نسخها ، متوهّمين أنّها تحمل حكماً بإباحة شرب الخمر ..

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٩]

هذه الآية الكريمة تبدأ بسؤال عام لا يحمل بياناً يُخصِّص موضوع السؤال **﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ ﴾** ، وبالتالي فالإجابة لا بدّ أن تكون عامّة ، تتناول

جانبي الدنيا والآخرة ، فقوله تعالى ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ يتناول جانب الحلال والحرام ، وهو جانب التعلّق بالآخرة ، وقوله تعالى ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ يتناول الجانب المادّي من تجارة بالخمر ، وما يحتويه من مواد قد يتغذّى عليها جسم الإنسان ، وهو جانبُ التعلّق بالدنيا .. والعبارة القرآنيّة ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ تُبيّن لنا الحكم الإلهيِّ وما يريده الله تعالى منّا في ترجيح جانب الآخرة على جانب الدنيا ، فالإثم الذي يترتّب على شرب الخمر ، وجزاؤه في الآخرة ، هو أكبر من المنافع الدنيويّة الزائلة ... هذه هي الأحكام المحمولة بهذه الآية الكريمة ، وهي أحكام – كما نرى – لا تُبيح – أبداً – شُرب الخمر ، فلماذا إذاً تُنسَخ ؟!!! ..

ولو نظرنا في هذه الآية الكريمة نظرة تدبّرٍ وفق منهج البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ لرأينا أنَّها تُحرِّم الخمر بشكلٍ جليٍّ لمن يريد فهم الحقيقة .. ففي هذه الصورة القرآنيّة يقول تعالى عن الخمر والميسر ﴿ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ، ويقول في صورة أُخرى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، ويقول في صورة أُخرى ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ [الأنعام : ١٢٠] .. إذاً .. الخمر والميسر فيهما إثْمٌ كبير ، والإثم حرّمه الله تعالى ، وأمرنا أن نبتعد عن ظاهره وباطنه .. إذاً الخمر مُحرّم في كتاب الله تعالى بصيغة التحريم القطعيّة ..

ولقائلٍ أن يقول : لماذا هذا السؤال والإجابة بهذه الصيغة ؟!!! .. ولماذا لم يقل الله تعالى حُرِّمَ عليكم الخمر والميسر ، مباشرة ؟!!! ..

إنَّ هذه الصورة القرآنيّة – المزعوم نسخها – إضافة إلى أنّها تحرّم الخمر والميسر – كما رأينا – تحمل حكماً شرعيّاً قياسيّاً لأيّ مادّة نريد وضعها في ميزان الحلال والحرام ، في كلِّ زمانٍ ومكان .. فقوله تعالى ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ ، مع تحريمهما

، يعني أنَّ كلَّ مادّة يغلب فيها جانب الإثم على جانب المنفعة المادّيّة ، هي محرّمة .. فلوضع أيِّ مادّة في ميزان الحلال والحرام ، ننظر إلى نسبة الخبيث والطيّب فيها ، وبناء على ذلك تُصنّف في ميزان الحرام والحلال .. فهذه الصورة القرآنيّة — المزعوم نسخها — إضافة إلى أنّها تحرّم الخمر ، فإنّها تعطينا قاعدة شرعيّة قياسيّة ، لقياس أيّ مادّة في ميزان الحلال والحرام ..

أمّا الآية الكريمة ﴿ **وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [النحل : ٦٧] .. فهي خطابٌ للناس جميعاً للتفكّر في خلق الله تعالى .. فثمرات النخيل والأعناب يستطيع الإنسان أن يتّخذ منها مادّتين مختلفتين (بل ومتناقضتين في ميزان الحلال والحرام) هما : السَّكَر ، والرزق الحسن .. فالله تعالى يقول ﴿ **تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ** ﴾ ، وفي كلِّ زمانٍ نرى أنَّ الناس ينقسمون بالنسبة لمسألة السّكر إلى قسمين ، قسم غير ملتزم بمنهج الله تعالى يتّخذ من تلك الثمرات سَكَراً ، وقسم ملتزم بمنهج الله تعالى لا يتّخذ منها إلاّ الرزق الحسن ..

والله تعالى لم يقل (اتَّخِذُوا منها سَكَراً ورزقاً حسناً) حتى يقولوا إنَّ الآية تُبيح شرب الخمر ، وبالتالي منسوخة ، بل العكس هو الصحيح ، ففي هذه الآية نرى أنَّ وصف الرزق الحسن يدلّ على أنَّ السَّكر الذي يتّخذه بعض الناس من تلك الثمرات هو خروج على الرزق الحسن ، وبالتالي هو نقيض للحسن ، وبالتالي هو سيّء وغير مباح ..

ومن أيّ زاوية ننظر من خلالها إلى هذه الآية الكريمة لا نرى فيها وجهاً يُبيح شرب الخمر ، بل نرى أنّها تشير إلى تحريمه عبر وضعه في مقابل الرزق الحسن .. وهذه الآية هي دعوة للقوم الذين يعقلون كما تدلّ نهايتها ﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾

للتفكّر في خلق الله تعالى ، شأنها شأن الآيات التي تسبقها ، والتي تدعوا جميعها للتفكّر في خلق الله تعالى ..

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٥ — ٦٧]

والصورة القرآنيّة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] ، لا علاقة لها بالخمر .. فكلمة ﴿ سُكَٰرَىٰ ﴾ في هذه الآية الكريمة هي من مشتقّات الجذر (س ، ك ، ر) ، الذي يعني سدَّ منافذ الإدراك والوعي بالنسبة للإنسان ، وليس شرطاً أن يكون السكر ناتجاً عن شرب الخمر ..

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ — ١٥]

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢]

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ٢]

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩]

.. إنَّ الآية الكريمة المزعوم نسخها تبدأ بالعبارة القرآنيّة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، وهذا خطابٌ للمؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكان ، وليس خطاباً لجيلٍ دون غيره ، وهذا

ينفي نفياً قاطعاً النسخَ للعبارات القرآنيّة التالية لها ... وكلمة ﴿ سُكَرَىٰ ﴾ في هذه الآية الكريمة ، تعني أنَّ منافذ الوعي والإدراك والعلم بالقول مسدودة ، بحيث لا يعلم الإنسان ما يقول ، وتنتهي حالة السكارى هذه عندما يعلم الإنسان ما يقول ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ ، وهذا ينفي المعنى الذي تخيّلوه وحصروا دلالات هذه الآية الكريمة به ، فمن يفصل كلمة ﴿ سُكَرَىٰ ﴾ في هذه الآية الكريمة عن جذرها اللغوي ، ويحصرها في إطار سكر الخمر ، يكون قد فصل فرعاً عن جذره اللغوي ، وابتعد عن منهج البحث السليم ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ..

.. إذاً .. السُّكْرُ الذي هو سدُّ منافذِ الإدراك ، لِدرجةٍ لا يعلمُ الإنسانُ فيها ما يقول ، يكونُ من خلالِ تفاعلِ نفس الإنسان مع كلِّ القضايا التي تُؤدِّي به إلى تلكَ الحالة ، ومن تلك القضايا الخوفُ والفزعُ ... والصورة القرآنيّة التي زعموا نسخها ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ تصوّر لنا أنَّ الإنسان بعدَ أن يذهبَ الفزعُ والخوفُ الشديدُ الذي أدّى به إلى حالةِ سكارى ، لا يعلمُ فيها ما يقول ، حيث سُدَّتْ منافِذُ إدراكِه .. بعد ذلك يكون قادراً على إقامةِ الصلاة ..

.. هذا المعنى الذي تحملُهُ العبارةُ القرآنيّةُ التي زعموا نَسْخَهَا ، نراه مصوّراً بعبارة قرآنيّة أُخرى تتكامل دلالاتها مع هذه الصورة القرآنيّة ..

﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣]

إذاً إقامة الصلاة تكون بعد ذهاب الفزع والخوف الشديد الذي أدّى بصاحبه إلى الحالة التي تُصوّرها كلمة ﴿ سُكَرَىٰ ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ

سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ ، أي بعد دخول الطمأنينة إلى نفسه ... فالصلاة متعلّقة بعلم الإنسان لما يقول ، فمن لا يعلم ما يقول هو في حالة سكارى ، وقد نهى ﷺ عن الصلاة حين لا يعلم المُصلّي ما يقرأ ، ففي البخاري حديث (٢٠٦) حسب ترقيم العالميّة ، ورد عن أنس أنَّ النبيّ ﷺ قال : **[إذا نعس أحدُكُم في الصلاة فلينم حتّى يعلم ما يقرأ]** ..

وهكذا نرى أنَّ الآية التي زعموا نسخها هي خطابٌ لكلِّ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكان ، وأمرٌ لهم بعدم الاقتراب من الصلاة حينما لا يعلمون ما يقولون ، وتنتهي حالة السكارى هذه عندما يعلمون ما يقولون ، وإنَّ تَوَهُّمَ مقرّي مسألة الناسخ والمنسوخ بأنَّ كلمة **﴿ سُكَٰرَىٰ ﴾** في الصورة القرآنيّة **﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾** ، لا تعني إلاّ شرب الخمر ، هو ما دفعهم إلى زعم نسخها ..

أمّا بالنسبة للآية الكريمة **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾** [المائدة : ٩٠] ، فدلالاتها تتعاضد مع دلالات الآيات الكريمة التي رأيناها ، وتحمل حكماً باجتناب الخمر ، وهذا الحكم لا يقلُّ عن صيغة تحريم الخمر ، فاجتناب الشيء هو تحريمه وتحريم التعامل مع كلِّ ما يتعلّق به .. فقد وردت كلمة **﴿ ٱجۡتَنِبُواْ ﴾** وإضافاتها في القرآن الكريم خمس مرّات ، أتت في جميعها نهياً عن الشيء ، وعن كلِّ ما يرتبط به ..

﴿ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠]

﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل : ٣٦]

﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾ [الحجرات : ١٢]

ولو أتى تحريم الخمر مقتصراً على صيغة التحريم ، كما هو الحال بالنسبة للدم (على سبيل المثال) لكان التحريم مقتصراً على شربه فقط ، بينما مسموح التجارة به ، كما هو الحال في الدم حيث يُحرّم شربه ويحلّل نقله وفحصه والتبرّع به .... فتحريم الخمر بصيغة الاجتناب يعني تحريم شربه وكلّ ما يتعلّق به من تجارة وغير ذلك ..

وهكذا نرى أنّ جميع الآيات الكريمة التي تُصوِّر مسألة الخمر تُحرِّمه ، وأنَّها متعاضدة متكاملة في ذلك ، وأنَّ المرحليّة التي يدندنون بها ليست في أحكام كتاب الله تعالى ، بل هي ناتجة عن تفاعل الجيل الأوّل مع نزول النصّ القرآني الذي لم يترل دفعة واحدة من السماء ، فتوهّمهم لنسخ بعض آيات هذه المسألة ناتجٌ عن عدم الوقوف على حقيقة الدلالات التي يحملها كتاب الله تعالى في تلك الآيات ..

❁ ❁ ❁

وقالوا أيضاً إنَّ الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٤٠] ، تُحدِّدُ عدّةَ المتوفّى عنها زوجها بحول كامل ، وتوجب لها النفقة والسكنى من مال الزوج حولاً كاملاً ، ثمّ نُسخت – حسب زعمهم – الوصيّة للزوجة بالنفقة والسكنى بآيات المواريث وبحديث الرسول : [**إنَّ الله قد أعطى لكلِّ ذي حقٍّ حقّه فلا وصية لوارث**] ، ونُسخَت – حسب زعمهم – العدّة في الحول بآية كريمة تسبق هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .. فالآية الناسخة تسبق الآية المنسوخة !!! ..

.. ورد في تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، للإمام محمّد الرازي فخر الدين ، وفيما يخصّ تفسير الآية (٢٤٠) من سورة البقرة ، وهي الآية التي زعموا أنّها منسوخة ، ورد النصّ التالي الذي ينقل به المفسِّر قول أبي مسلم الأصفهاني : **[....... وعلى هذا التقدير فالنسخ زائل ، واحتجّ على قوله بوجوه : أحدها : أنَّ النسخ خلاف الأصل فوجب المصير إلى عدمه بقدر الإمكان ، الثاني : أن يكون الناسخ متأخّراً عن المنسوخ في النزول ، وإذا كان متأخّراً عنه في النزول كان الأحسن أن يكون متأخّراً عنه في التلاوة أيضاً ، لأنَّ هذا الترتيب أحسن ، فأمّا تقدّم الناسخ على المنسوخ في التلاوة ، فهو وإن كان جائزاً في الجملة ، إلاّ أنّه يعدّ من سوء الترتيب ، وتنزيه كلام الله تعالى عنه واجب بقدر الإمكان ، ولمّا كانت هذه الآية** (المزعوم نسخها) **متأخّرة عن تلك** (المزعوم أنّها ناسخة لها) **في التلاوة ، كان الأولى أن لا يحكم بكونها منسوخة بتلك .]** ..

لقد أخطأوا في فهم دلالات الآية التي زعموا نسخها ، فحسبوها آية عدّة ، وهي في حقيقتها لا علاقة لها بالعدّة على الإطلاق ، إنّها آية وصيّة .. بينما الآية التي زعموا أنّها ناسخة لها هي آية العدّة ، وهي التي ترد فيها صيغة التربّص التي تشير إلى العدّة ..

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم ﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾

فكلُّ آية تُصوِّرُ موضوعاً يضيء جانباً من أحكام المرأة المتوفّى عنها زوجها ، وبالتالي لا اختلاف ولا تصادم بين حكمي هاتين الآيتين ، بل هما آيتان متكاملتان متعاضدتان في تصوير أحكام المرأة المتوفّى عنها زوجها ..

.. إنَّ المتوفّى عنها زوجها تكون بين حكمين ..

١ – حكم تحمله الآية التي زعموا أنّها ناسخة ، وهو حكم مفروض عليها ، بأن تتربّص بنفسها أربعة أشهرٍ وعشراً ، ولو نظرنا في هذه الآية لرأينا أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ تبدأ بكلمة ﴿ **فَإِذَا** ﴾ التي تفيد حتميّة الوقوع والتنفيذ .. فكلّ النساء المتوفّى عنهنّ أزواجهنّ لا بدَّ أن يتربصن بأنفسهنّ هذه الفترة الواردة في هذه الآية الكريمة .. ولو كان الأمر اختياريّاً لوردت كلمة (فإن) دون كلمة ﴿ **فَإِذَا** ﴾ ..

٢ – حكم تحمله الآية التي زعموا أنّها منسوخة ، وهو حكم اختياريٌّ لها الحق في الأخذ به ، وفي عدم الأخذ به .. ولو نظرنا في هذه الآية لرأينا أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ **فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ** ﴾ تبدأ بكلمة ﴿ **فَإِنْ** ﴾ التي لا تفيد حتميّة الوقوع والتنفيذ ، بمعنى أنَّ النساء المُتوفّى عنهنّ أزواجهنّ يُوصي الله تعالى وصيّة لهنّ في حقّ النفقة والسكنى حولاً كاملاً دون أن يتركن بيوت أزواجهن ، وهذا الحكم ليس جبريّاً عليهنّ ، فهناك قسمٌ منهنّ يأخذ به ، وقسمٌ لا يأخذ به ، ولذلك يُخاطبنا الله تعالى في القسم الذي اختار الخروج وعدم الاستفادة من هذه الوصيّة بالعبارة ﴿ **فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ** ﴾ ، والتي تبدأ بكلمة ﴿ **فَإِنْ** ﴾ .. ولو كان هذا الأمر جبريّاً (كما هو حال أمر التربّص في الآية الأُخرى) لوردت كلمة ﴿ **فَإِذَا** ﴾ ، التي تعني جميع النساء المتوفّى عنهنّ أزواجهنّ دون استثناء ..

إذاً .. الآيتان متكاملتان متعاضدتان في تصوير أحكام النساء المتوفّى عنهنّ أزواجهن ، ولا اختلاف بينهما — أبداً — ولا تعارض ، وإنّ زعمهم بنسخ إحداهما للأخرى ناتجٌ عن عدم إدراك الدلالات الحقّ المحمولة بهما ..

❁ ❁ ❁

وفي الآيتين التاليتين ..

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ۝١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٥ — ١٦]

قالوا إنَّ الآية الأولى تحمل حُكماً للمحصن وغير المحصن إذا زنيا ، وهو أن يُحبَس كلُّ واحدٍ منهما حتى الموت ، ثمّ نُسخ هذا الحكم بالآية الثانية فصار حكمهما أن يُؤذيا ، ثمَّ نُسخ ذلك ، فصار حكم البكر من الرجال والنساء إذا زنيا هو مائة جلدة ونفي عام ، وحكم المحصن من النساء والرجال إذا زنيا هو مائة جلدة والرجم حتى الموت ..

وقال آخرون إنَّ المُراد بالآية الأولى هو العلاقة الشاذّة بين المرأة والمرأة (السحاق) ، والمُراد بالآية الثانية هو العلاقة الشاذّة بين الرجل والرجل (اللواط) ، وأنّه لا علاقة لهاتين الآيتين بالزنا ، واحتجّوا على ذلك بكلمة ﴿ وَٱلَّٰتِي ﴾ - جمع التي — في الآية الأولى كونها مخصوصةً بالنساء ، وبكلمة ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ في الآية الثانية حيث قالوا إنّها مخصوصة بالذكور ، وقالوا لو كان المراد بكلمة ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ الذكر والأنثى مع تغليب الذكر ، لَمَا أُفردت الآية الأولى للنساء ، فإفرادها للنساء يدلّ — حسب قولهم — أنَّ كلمة ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ في الآية الثانية لا تعني الذكر والأنثى مع تغليب الذكر ، إنّما تعني

الذكرين (مثنى الذَّكَر) .. وحسب قولِهم هذا لا نسخ بين هاتين الآيتين ، لأنّهما تصفان مسألتين لهما إطارهما الذي يميّزهما عن مسألة الزنا ..

واحتجّوا أيضاً على رأيهم هذا بأنَّ العبارة القرآنيّة في الآية الأولى التي تخصّ النساء ﴿ **أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً** ﴾ تعني أنَّ السبيل الذي يجعله الله تعالى لهؤلاء النساء هو لهنّ وليس عليهنّ ، والدليل كلمة ﴿ **لَهُنَّ** ﴾ في هذه العبارة القرآنيّة ، وقالوا إنَّ هذا السبيل هو أن يُسهِّل الله تعالى لتلك النساء اللاتي أتين الفاحشة المذكورة قضاءَ شهوتهنّ عن طريق النكاح الشرعي ، وبأن يجعل الله تعالى لهنّ مخرجاً من الإمساك في البيوت ، وهذا المخرج هو الزواج الشرعي .. ولو كان هذا السبيل هو الرجم والجلد والتغريب وذلك إن حُملَت هذه الآية على الزنا حسب قول مقرّي الناسخ والمنسوخ ، لكان ذلك أشدَّ من الإمساك في البيوت ، وبالتالي لكان هذا السبيل عليهنّ وليس لهنّ ، وهذا ما يُناقض نصّ العبارة القرآنيّة ﴿ **أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً** ﴾ ..

.. ومع أنَّ كلمة ﴿ **ٱلْفَـٰحِشَةَ** ﴾ هنا ليست محصورةً بالزنا كما سنرى لاحقاً ، إلاّ أنّني لست مع وضع مقابلة بين الآيتين الأولى والثانية ، بحيث تُحصَر الآية الأولى بالسحاق ، والثانية باللواط ، وذلك للأسباب التالية ..

١ – في الآية الأولى نرى كلمة ﴿ **وَٱلَّـٰتِى** ﴾ مع أنَّ السحاق يكون بين امرأتين .. فلو كانت الآية الأولى مناظرة للثانية لاستُبدِلَت هذه الكلمة بكلمة (واللتان) ، أو لاستُبدلت كلمة ﴿ **وَٱلَّذَانِ** ﴾ في الآية الثانية بكلمة (والذين) ..

٢ – حدّ اللواط في الإسلام أشدّ بكثير ممّا يُزعَم أنَّ الآية الثانية تحمل حُكماً له ، وما نراه في الآية الثانية هو ﴿ **وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ ۗ** ﴾ ، وهذا فيه من الأمر ما هو أقل بكثير ممّا يحمله كتاب الله تعالى

لفاحشة اللواط ، ففي كتاب الله تعالى نرى كيف أنّ قوم لوطٍ أهلكهم الله تعالى نتيجة قيامهم بهذه الفاحشة ..

٣ – في القرآن الكريم ، الحدود التي تُطبّق على المرأة لا تختلف عن الحدود التي تُطبّق على الرجل ، ولو حملنا الآيتين على قولهما ، لرأينا أنَّ الحدود التي تُطبّق على المرأة ﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ** ﴾ أشدُّ بكثير من الحدود التي تُطبّق على الرجل ﴿ **فَآذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ** ﴾ .. وهذا مخالف لروح التشريع الذي يحمله كتاب الله تعالى ..

إنَّ لمشتقّات الجذر (ف ، ح ، ش) في كتاب الله تعالى إطاراً أوسع من إطار الزنا ، فالفاحشة هي الفعلة الشنيعة الفظيعة التي يفعلها الإنسان لتحقيق رغبة نفسه وشهوتها القبيحة ، ولذلك نرى أنَّ القرآن الكريم يُعطي للفاحشة خصوصيّة مستقلّة عن ظلم النفس والسوء والإثم ..

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٥]

﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ** ﴾ [يوسف : ٢٤]

﴿ **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ** ﴾ [الشورى : ٣٧]

ففي الآية الأولى نرى أنَّه تمَّ العطف بين الفاحشة وظلم النفس بـــ ﴿ **أَوْ** ﴾ ، وهذا يدلّ على أنّ للفاحشة خصوصيّتها التي تميّزها عن ظلم النفس ، فالإنسان يفعل الفاحشة ليُحقَّق لنفسه شهوتها الفظيعة ومتعتها القبيحة ، أي أنَّ النفس تأخذ متعتها الشنيعة في الدنيا ، ومن ثمَّ تنال جزاء ذلك في الآخرة ، فهي تُحقِّق متعة في الدنيا مع جلب الجزاء في الآخرة .. أمّا ظلم النفس فهو فعل الذنب الذي يُحقّق ظلم هذه النفس في الآخرة نتيجة الجزاء على هذا الذنب ، ولكن دون تحقيق متعة عاجلة في الدنيا ..

وهكذا .. فالفاحشة هي كلُّ عملٍ قبيحٍ فظيعٍ يفعله الإنسان نزولاً عند شهوات نفسه القبيحة الشنيعة ، وبالتالي هي كلُّ انحرافٍ للنفس عن السلوك السليم السّوي إلى السلوك الشاذ القبيح ..

فالزنا الذي يفعله العاصي نزولاً عند قبح شهوة نفسه ، هو فاحشة ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا** ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، ولكنَّ الفاحشة ليست محصورةً بالزنا ، فللنفس شهوات قبيحة شنيعة أُخرى ، ولو كانت كلمة الفاحشة لا تعني إلاّ الزنا ، لوردت كلمة الزنا – في الآيتين المزعوم نسخهما – بديلة لكلمة الفاحشة ، فكما رأينا لا يمكن لكلمة قرآنيّة أن تنوب عن كلمة أُخرى ..

وفي الآية الكريمة ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا** ﴾ نرى أنّ الضمير في كلمة ﴿ **إِنَّهُۥ** ﴾ يعود إلى الزنا ، ويعود أيضاً إلى الاقتراب من الزنا (كالقبلة وغير ذلك) ، ومن هنا فكلّ ما يسبق فعل الزنا (الذي يعني الجماع) هو فاحشة ..

وروح المعنى في الآيتين الكريمتين المزعوم نسخهما يدلّ على أنَّ الفاحشة المعنيّة بهما هي ما دون الزنا ، وهذا نستطيع إدراكه من النظر في النقاط التالية ..

١ – كلمة ﴿ **يَأْتِينَ** ﴾ في الآية الأولى ترد بصيغة المضارع ، وهذا يعني أنّ هناك فاحشةً تُؤتى بشكلٍ مستمرٍّ ، مثل قيام برنامج رقص في مكانٍ مشبوه ، ومثل نزول بعض النساء إلى الشارع بلباسٍ سافرٍ مثيرٍ للفاحشة في المجتمع ، وكلُّ ذلك وفق فعلٍ مستمرٍّ مُشاهدٍ يُشاهده الناس .. ولذلك نرى في سين الطلب الداخل على كلمة ﴿ **فَٱسْتَشْهِدُوا۟** ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ **فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟** ﴾ ، نرى أنَّ الأمر يتعلّق بما هو دون الزنا ، والذي يتمّ فعله بشكلٍ مستمرٍّ لدرجة أنّه يتمّ تشكيل لجنة من أربعة أشخاص يذهبون للشهادة على هذه الفاحشة .. فالكلمة ﴿

فَٱسۡتَشۡهِدُواْ ﴾ تحمل معنى طلب الشهادة ، وهذا يعني تشكيل لجنة من أربعة أشخاص للشهادة على هذه الفاحشة التي من المعلوم أنّها ستحدث ، كونها تحدث باستمرار كما رأينا ﴿ **فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ** ﴾ .. وبعد ذلك تذهب هذه اللجنة للتأكّد من صحّة الأمر ، فقد يكون الأمر صحيحاً ، وقد لا يكون ، ولذلك نرى العبارة المصوِّرة لذلك تأتي بالصيغة ﴿ **فَإِن شَهِدُواْ** ﴾ ، وذلك بورود كلمة ﴿ **فَإِن** ﴾ وليس كلمة (فإِذَا) .. وكلّ ذلك ينفي كون الآية الكريمة تتحدّث عن فعل الزنا ..

٢ – كلمة ﴿ **يَأۡتِيَٰنِهَا** ﴾ في الآية الثانية نراها أيضاً بصيغة المضارع ، وهذا يعني – أيضاً – فعل فاحشة مستمرّة مُشاهدة أمام الناس ، وبالتالي فالمسألة ليست مسألة زنا ، فالزنا له أحكامه الواضحة الجليّة في كتاب الله تعالى ..

٣ – نرى في الآية الأولى أنَّ اللاتي يأتين الفاحشة المعنيّات فيها هنَّ من نساء المؤمنين بكتاب الله تعالى ، المُخاطبين به ، وذلك بدليل العبارة ﴿ **مِن نِّسَآئِكُمۡ** ﴾ ، في الصورة القرآنيّة ﴿ **وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ** ﴾ .. وكذلك الأمر في الآية الثانية فاللذان يأتيان هذه الفاحشة هما أيضاً من المؤمنين بكتاب الله تعالى ، المُخاطبين به ، وذلك بدليل كلمة ﴿ **مِنكُمۡ** ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ **وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ** ﴾ ..

بينما عقوبة فعل الزنا (الجماع) نراها في كتاب الله تعالى دون أيِّ تخصيص : ﴿ **ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ** ﴾ [النور : ٢] ، فالزاني والزانية في المجتمع الإسلامي (سواء كان مسلماً أو غير مسلم) عقوبته مائة جلدة ..

ولذلك فالنساء غير المسلمات اللاتي يرتبطن مع المسلمين بعقد نكاح ، ويفعلن هذه الفاحشة (التي هي دون الزنا) ، حكمهن هو نصف حكم نساء المسلمين حين يفعلن الفاحشة ذاتها ، وهذا ما نراه في قوله تعالى ﴿ **فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ**

نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ﴾ [النساء : ٢٥] .. وكلُّ ذلك ينفي كون المسألة متعلّقة بالزنا ، فحكم فعل الزنا واضح في كتاب الله تعالى ، وهو حكمٌ واحدٌ للجميع دون استثناء سواءٌ للمسلمين أم لغيرهم .. وقد بيّنت ذلك بالتفصيل في النظريّة الرابعة (الحكمة المطلقة) ، وفي كتاب : المعجزة الكُبرى (حوار أكثر من جريء) .. فقد بيّنت أنَّ أحكام العبيد وملك اليمين كما تمّ تأطيرها فقهيّاً ينقضها كتاب الله تعالى ، وهي من جملة ما تمّ افتراؤه على منهج الله تعالى ..

٤ – إنَّ العقوبة المفتوحة في الآية الثانية ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ ﴾ ، تدلُّ على أنَّ الفاحشة المعنيّة ليست أمراً محدّداً بعينه كالزنا الذي هو الجماع ، والذي حدّه واضحٌ وبيّنٌ في كتاب الله تعالى .. فكلمة ﴿ فَـَٔاذُوهُمَاۖ ﴾ تحمل أحكاماً متحرّكة لحالات عديدة ، بحيث تكون عقوبة كلِّ حالة متناسبة مع درجة الفاحشة المرتكبة بها .. وهذا يدلّ أيضاً على أنَّ المسألة واسعة وليست محصورة بالزنا كما ذهب مقرّو مسألة الناسخ والمنسوخ ..

والآية الأولى التي تخصّ النساء [حيث تبدأ بكلمة ﴿ وَٱلَّٰتِى ﴾ التي هي جمع لكلمة (التي) الخاصّة بالإناث] ، لا تحملُ حُكماً بالحدّ .. فالحدُّ هنا (الذي هو الإيذاء) هو ذاته للرجل والمرأة اللذين يأتيان هذه الفاحشة ، وهو ما تحمله الآية الثانية .. فالآية الأولى تُبيّن وضع المرأة التي تأتي هذه الفاحشة (التي هي ما دون الزنا) في المجتمع الإسلامي ، وكيف أنَّ عزلها عن هذا المجتمع وحدَّ حركتها عن طريق إمساكها في البيت هو خيرٌ لها وللمجتمع ، حتّى لا تشيع الفاحشة ، وإنَّ السبيل لها للخروج من عزلتها هذه هو الزواج الشرعي أو أن تُصبحَ سليمة السلوك صالحة لبناء المجتمع الإسلامي السليم ..

والآية الثانية تحمل حكماً بالحدِّ لمن يأتي هذه الفاحشة (التي هي ما دون الزنا) سواء للرجل أو للمرأة ، فكلمة ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ تعني الذكر والأنثى ، وقد غلب لفظ المذكَّر .. وإنَّ إفراد الآية الأولى للنساء فقط لا يعني أنَّ الآية الثانية للرجال فقط ، فالآية الأولى لا تحمل حُكماً مُقابلاً للحكم الذي تحمله الآية الثانية ، فقد رأينا أنّها تحمل أمراً بحدِّ حركة اللاتي يأتين الفاحشة في المجتمع ، حتّى لا تشيع الفاحشة في هذا المجتمع .. بينما الآية الثانية تحمل حكم الحدّ والعقوبة بالنسبة للرجل والمرأة على حدٍّ سواء ، فالحدُّ هو الحدّ سواء للرجل أم للمرأة ، فللمرأة من الحقوق مثل ما عليها ، والدرجة التي يتميّز بها الرجل ليست في الحقوق والحدود ، وإنّما في القوّامة والمسؤوليّة والإنفاق ، وهذا ليس عطاءً للرجل ، إنّما هو تكليف ومسؤوليّة ..

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٢٨]

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ ﴾ [النساء : ٣٤]

وهكذا نرى أنَّ الآيتين الكريمتين لا تحملان أحكاماً مرحليّة لزمنٍ محدَّدٍ ثمّ نُسختا كما زعموا .. بل هما آيتان متعاضدتان متكاملتان مع باقي آيات كتاب الله تعالى ، وأحكامهما صالحة لكلّ زمانٍ ومكان ..

❁ ❁ ❁

.. وفي الآيتين التاليتين ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة : ١٢ – ١٣]

قالوا إنَّ الآية الأولى أوجبت لمن يناجي الرسول ﷺ تقديم صدقة بين يدي نجـــواه .. ولّما شُقَّ ذلك على المؤمنين أنزل الله تعالى الآية الثانية التي تعفيهم من هـــذه الصـــدقة ، فكانت – حسب زعمهم – ناسخة للآية الأولى .. ومنهم من قال إنَّ هـــذه الصـــدقة منسوخة بفريضة الزكاة ..

إنَّ الآيتين الناسخة والمنسوخة على زعمهم متّصلتان في التلاوة وفي رســـم صـــورة الأحكام المحمولة بهما ، وهما متعاضدتان في تصوير تلك الأحكام ، ولا اختلاف بينهما كما توهّموا ..

وفضلاً عن كون مسألة النسخ لا وجود لها في كتاب الله تعالى على الإطلاق .. لـــو نظرنا إلى العبارة ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ ﴾ لرأينا أنّها تنفي النسخَ في هذه الآية مـــن أساسه ، فالله تعالى لا ينسخ ما هو خير وأطهر للمؤمنين ..

ولو نظرنا في الآية الأولى لرأينا أنّها تُخاطب المؤمنين الصادقين الذين لا يُشفقون من تقديم الصدقة ، والذين يريدون التطوّع بها ، وهؤلاء على نوعين :

١ – نوعٌ يستطيع تقديمها ، وهؤلاء يقول الله تعالى لهم إنَّ هذا التطوّع هو خيرٌ لكم وأطهر ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ ﴾ ..

٢ – ونوعٌ يريد التطوّع بهذه الصدقة ولكنّه لا يجدها ، وهؤلاء يُخاطبهم الله تعـــالى بأنّهم غير مكلّفين بها ، وأنّه سيغفر لهم ويرحمهم ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ..

.. إذاً المعنيّون في هذه الآية الكريمة بنوعيهم يريدون تقديم هذه الصدقة ، ولكن منهم من يجدُ ما يُقدِّمُهُ ومنهم من لا يجدُ ، ولذلك نرى الصياغةَ القرآنيّةَ نهاية الآية الكريمة تأتي بكلمة ﴿ فَإِن ﴾ وليس كلمة (فإذا) : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، بمعنى أنَّ من لا يجدون ما يقدّمونه مع وجود إرادة التقديم عندهم (وهم جزء ممّا يريدون

تقديم هذه الصدقة) ، فإنَّ الله تعالى يغفر لهم ويرحمهم .. ولو كانوا جميعاً في صفٍّ واحد بالنسبة لفعل تقديم هذه الصدقة لوردت كلمة (فإذا) بدل كلمة ﴿ فَإِن ﴾ .. فكلمة فإن تُخاطب النوع الثاني (وهم جزء ممّن يريدون تقديم هذه الصدقة) الذين لا يجدون ما يقدّمونه في ذلك ..

والآية الثانية التي زعموا أنّها ناسخة لها تحمل حُكماً مُكمِّلاً للآية الأولى ، ولا تحمل حُكماً يُناقضه وينسخه كما زعموا .. فهذه الآية لا تقول (لا تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات) ، ولكنّها تُخاطب الذين يُشفقونَ بخلاً وخوفاً من تقديمِ هذه الصدقة ، فالعبارة ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ ﴾ لا تُشير مجرّد إشارة للنهي عن تقديم هذه الصدقة ، بل فيها إشارة إلى أنَّ هناك من يقوم بفعل هذه الصدقة ، وهم المؤمنون الذين قال لهم الله تعالى بأنَّ ذلك هو خيرٌ لهم وأطهر ..

إذاً .. الآية الثانية تُخاطبُ الجماعة الذين لا تُوجد عندهم إرادة لتقديم هذه الصدقة ، والذين لا يفعلون هذه القُربى ، وهؤلاء جميعُهم يتّصفونَ بهذه الصفة ، ولا يُوجَدُ بينهم من يفعلُ ما يفعلُهُ الذين تعنيهم الآيةُ السابقة ، بل لا تُوجَدُ عندهم إرادةٌ لتقديمِ هذه الصدقة ، فهم بالنسبة لفعل تقديم هذه الصدقة نوع واحد ، لذلك نرى أنَّ الصياغةَ القرآنيّة تأتي بكلمة ﴿ فَإِذْ ﴾ وليس بكلمة (فإنْ) .. ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .. فكلمة ﴿ فَإِذْ ﴾ هي خطابٌ للجميع وليس لجزءٍ منهم ..

.. وفي النصِّ المُصوِّر للمسألة التي بين أيدينا نرى أنَّ الأمر يتعلّق بالرسالة ، وليس بالجانب الشخصيّ للنبيّ ﷺ ، وليس بجانب النبوّة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ﴾ ، فكلمة ﴿ ٱلرَّسُولَ ﴾ واضحة جليّة في

كون المسألة تتعلّق بالرسالة كمنهج .. وهذا يُعطي هذه المسألة إطلاقاً يتجاوز الإطار التاريخي الذي حصروا دلالات هذه الآية به ، وممّا يؤكّد ذلك هو مطلع هذا النصّ ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ** ﴾ الذي هو خطابٌ للمؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكان .. وهذا – إضافة لما بيّنا في تفسير هذا النص – يؤكّد أنَّ تفسير مقرّي الناسخ والمنسوخ لهذا النصّ ليس صحيحاً ، وأنَّ عدم إدراكهم لدلالات هذا النصّ إدراكاً سليماً كان دافعاً للزعم بتوهّم النسخ الذي زعموه ..

❁ ❁ ❁

هذه هي – حسب ما أرى – أهمّ ما يحتجّون به في وقوع مسألة الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ، وكما رأينا فإنَّ أيَّ آيتين – ناسخة ومنسوخة على زعمهم – يتصوّرون أنّهما تحملان أحكاماً متصادمة في مسألة ما ، هما في الحقيقة إمّا متكاملتان متعاضدتان في تصوير أحكام هذه المسألة ، وإمّا أنَّ كلاً منهما تُصوِّر مسألة لها إطارها الذي يميّزها عن المسألة التي تُصوِّرها الآية الأُخرى ..

وهناك الكثير من الآيات الكريمة التي زعموا نسخها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، وعن **كتاب** (**الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم**) **للإمام أبي القاسم هبة الله بن سلامة** ، المتوفّى سنة (٤١٠) هجري ، ضبط موفق فوزي الجبر ، تقديم الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ، زعموا أنَّ (١٢٤) آية في كتاب الله تعالى ، نسختها الآية التالية التي سمّوها آية السيف ..

﴿ **فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٥]

ولو نظرنا إلى الآيات الكريمة التي زعموا نسخها بالآية الخامسة من سورة التوبة ، لرأيناها تُصوِّرُ مسائل وأحكاماً مستقلّةً تماماً عن هذه الآية الكريمة ، وفيما يلي بعض الصور القرآنيّة التي زعموا أنّها منسوخة بهذه الآية ..

﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة : ٨٣]

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [المائدة : ٩٩]

﴿ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [الأنعام : ١٠٤]

﴿ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ ﴾ [يونس : ١٠٩]

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الرعد : ٤٠]

﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ [الحجر : ٨٥]

﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحجر : ٨٩]

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل : ١٢٥]

﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ ﴾ [مريم : ٧٥]

﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه : ١٣٠]

﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحج : ٦٨]

﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ ﴾ [المؤمنون : ٩٦]

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠]

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٤٨]

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : ٢٥]

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يس : ٧٦]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر : ٣]

﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر : ١٢]

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [فصّلت : ٣٤]

﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ [الدخان : ٥٩]

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الدهر : ٢٤]

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ [التين : ٨]

إنَّ كلَّ إنسانٍ سليم الفطرة يملك بأعماقه ذرّة احترام لكتاب الله تعالى ، ويطّلع على هذه الآيات التي زعموا نسخها ، يعلم كم هو حجم الضلال الذي ملأ نفوس مقرّي هذه المسألة ، فكلّ عبارة قرآنيّة تحمل رحمةً وصفحاً ومحبّة للآخرين ، إمّا أنّهم نسخوها ، أو أنّهم التفوا على دلالاتها ، ليصلوا – في النهاية – إلى ما يريدون ، وكلُّ ذلك هو تحريفٌ للكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه ، في كتاب الله تعالى ..

وهكذا نرى أنَّ مسألة الناسخ والمنسوخ من أساسها وَهْم ، وتصوُّرٌ أعمى بوجود تصادم بين الأحكام التي تحملها كلمات الله تعالى .. ومردّ ذلك هو فرض تصوّرات البشر وأهوائهم على كلمات الله تعالى المتعلّقة بصفاته العظيمة ..



الخاتمة

رأينا عبر برهان هذه النظريّة كيف يلتقي المنهج العلمي السليم في البحث القرآني عبر إطار منهج الكليّة ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ، مع الوجدان الصافي والفطرة السليمة ، اللذين لا يقبلان تجزئة كتاب الله تعالى إلى قسمين مختلفين (قسم محكم وقسم متشابه) ، ولا يقبلان تصوّر وجود أحكام متصادمة بالنسبة لأيّ مسألة قرآنيّة ..

فالمقدِّمة التي يُقرُّها العقل السليم ، وهي تعلُّق القرآن الكريم بصـــفات الله تعـــالى ، تقتضي – إضافة للبرهان العقلي الذي رأيناه – عقلاً ووجداناً وفطرة ، أن يكون كلّ ما في القرآن الكريم مُنزَّه عن الحدوث وتصادم الأحكام التي يحملها ..

وابتداء من الفصل الأوّل ومن القول بأنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالى وقوله المتعلّـــق بصفاته العظيمة ، وانتهاء بالفصل الأخير الذي يحمل تبياناً لتنزيه القرآن الكريم عن أوهام الناسخ والمنسوخ المزعومة ، فإنَّ جميع عناصر هذه النظريّة يربطها روحٌ واحد لا يتجزّأ ، ينعكس انسجاماً تامّاً ما بين البرهان القرآني من جهة ، وبين العقل والمنطق والوجـــدان والفطرة النقيّة من جهةٍ أُخرى ..

إنَّ هذه النظريّة لبنةٌ في بناء الحقيقة التي يحملها القرآن الكريم ، وأنا لا أدّعـــي أنّـــني أوجدت حقيقةً لم تكن موجودة ، إنَّ ما أُريد قوله هو أنَّ هذه النظريّـــة – بفضـــل الله تعالى وهدايته – أزاحت الستار عن حقائق موجودة أصلاً في كتاب الله تعالى ، وبالتالي أسقطت نقيض هذه الحقائق ممّا لُبّس على كتاب الله تعالى ..

وأرجو الله تعالى أن تكون هذه النظريّة مع ما هداني الله تعالى إليه في كتبي الأُخرى ، داخل رضا الله تعالى وقبوله ، ومقدّمة لتفسير كامل القرآن الكريم تفسيراً منهجيّاً معتمداً على فهم النصِّ القرآنيّ فهماً عقليّاً صحيحاً ..

وأخيراً أقول لمن يُخالفني الرأي متعصّباً لرأيه .. هل تُخالفني الرأي نتيجة امتلاك البرهان على نقيض الأدلّة المُقدّمة في هذه النظريّة وغيرها من كتبي الأُخرى ، أم تخالفني الرأي لأنّ هذه الأدلة تُخالف ما قاله بعض السابقين ، الذين تمّ تحويلهم إلى أصنامٍ تحول بين الأعين الباحثة عن الحقيقة في كتاب الله تعالى وبين حقيقة الأدلّة التي يحملها كتاب الله تعالى ؟ .. بمعنى آخر .. هل تُخالفني الرأي لمجرّد أنّني أقول ما لا تقول ؟ .. فالفارق يا أخي بين البرهان من جهة وبين التقليد الأعمى من جهةٍ أُخرى هو فارقٌ كبير ، وهو ذاته الفارق بين الحقّ والباطل ..

والله تعالى وليّ التوفيق

تمّ بعونه تعالى عام ١٤١٧ هجري

الموافق ١٩٩٧ ميلادي

الفهرس

الموضوع | الصفحة

المقدمة ٧

الفصل الأوّل

الكلام والقول ١٩

الذات الإلهيّة وصفاتها ٣٣

القرآن العربي ٦٥

الأزل والأبد ٨٥

القرآن الكريم وصفات الله تعالى ٩٥

الفصل الثاني

الارتباط التام للكلمات القرآنيّة بجذورها اللغويّة ١١٧

أسماء الذات وأسماء الصفات ١٦٩

الترتيب المطلق لحروف القرآن الكريم وكلماته ١٨٩

اقتران الكلمات في الصورة القرآنيّة ٢١٩

الفصل الثالث

آيات الله تعالى ٢٥٥

منهج البحث القرآني ٢٧٧

مطلق القرآن الكريم ومخصصه ٣٣٧

تحريف الكلم عن مواضعه ٣٦١

الفصل الرابـع

ما هو النسخ المزعوم ٤٠٩

استحالة حدوث النسخ بين آيات القرآن الكريم ٤١٥

ما هي حججهم لإقرار مسألة الناسخ والمنسوخ ٤٢٥

حقيقة ما زُعم نسخه ٤٤٣

الخاتمة ٤٩١

الفهرس ٤٩٣

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net